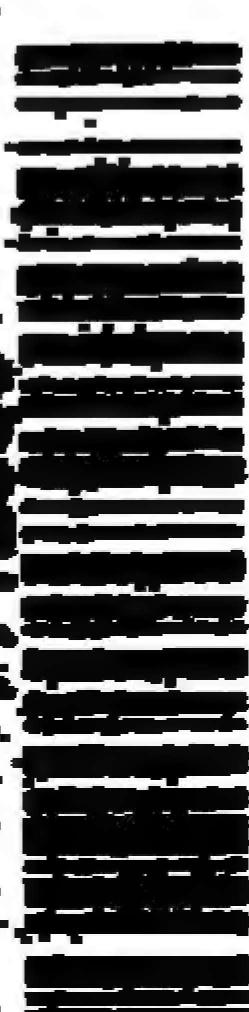



قلادة النحر

في

غرائب البر والبحر

الجزء الاول

في غرائب البرّ

لمؤلفهِ سليم كساب عُفي عنهُ

بالرخصة الرسمية من مجلس معارف ولاية بيروت الجليلة نمره ٤٧٠
٢٤ تشرين الثاني سنة ٣٠٧

طُبع في مطبعة الاميركان في بيروت سنة ١٨٩٢

مقدّمة

حمدًا لمُبدِع الاكوان الحكيم. المنوّع الحيوان والنبات والاقليم. امّا بعدُ فلمّا كانت غرائب الخلق العجيب. ممّا يصبو اليهِ كل عاقل لبيب. للوقوف على نخبة انواع النبات والحيوان. وعجائب الاقاليم والامصار والبلدان. واستطلاع نبإ العوائد الغريبة عند بعض الشعوب. والالمام بما لها من الانواع والضروب. وكانت لغتنا العربية خالية من مجموع مثل هذه الفصول . التي توسّع دائرة المعارف والعقول . خصوصًا لفتيان وفتيات المدارس والعيال . المنوط بهم ترقّي الوطن في الحال والاستقبال . رأيت ان اؤلّف كتابًا يجمع شتات هذه الفوائد. وينظمها نظم اللآلئ في القلائد. يجوب بقارئهِ غماض البسيطة وبواديها. ويطوف بهِ بين شاهق طودها وغور عقيقها وواديها . ويتزه ابصارهُ في ابدع خمائلها وجنّاتها . ويريهِ نوادر حيوانها ونباتها . ويكشف لديهِ الستر عن كل اقليمٍ وقطر. من حد القطبين الى هجير خط الاستواء . وما فيهما وبينهما من غرائب الجمادات والاحياء . ويغوص بهِ قرار البحار. فيعاين ما سبح فيها وطار. من خُيَيوِت لا تراهُ الاَّ بالمجهر. الى التنّين والحوت الاكبر . فكأنّهُ جاب العالم الوسيع . وشاهد اعجب ما تحت الرقيع . وهو متوسّد اريكة راحتهِ وسكونهِ . يقتطف ثمر الحقائق من افنانهِ وغصونهِ . ويمتّع البصائر والابصار . بما يغنيهِ عن مشقّة الاسفار . وقد جمعت اكثرهُ بعد الدرس والتنقيب والامعان . من افيد الكتب واحدثها بهذا الشأن . وراعيت بهِ الاختصار والبساطة والانسجام . كي لا يملّ من درسهِ شيخٌ ولا كهلٌ ولا غلام. وهو يصلح ان يُستعمل بعد كتب القراءة

كالدرَّة الفريدة والمدارج . يتخرَّج بهِ الاولاد ويتطرَّقون الى اقوم المناهج . وطبعتُ بعض فصولهِ بالحرف الكبير والشكل الكامل لضبط الكلام. واقتصرتُ في غيرها على الحرف البسيط كما يقتضيهِ المقام . وزيّنتهُ بصُوَر بعض النبات والحيوان . مَّا يزيد مطالعتهُ وقعاً في الاذهان . والفضل في ذلك لجناب الهمام الفاضل الدكتور هنري جسب مدير المطبعة الاميركيَّة . الذي بذل جهدهُ المستطيع في جلب هذه الرسوم البهيَّة. ولم يضنَّ بالنفقات والاتعاب. حرصاً على اكمال فائدة الكتاب . شأنهُ في كل مشروع مفيد يأتي بالفائدة والنجاح . ويعود على الوطن بالترقّي والفلاح . فحقَّ لهُ الشكر الجزيل . والثناء العاطر الجميل . وقد سمَّيتُ كتابي هذا قلادة النحر في غرائب البرّ والبحر. وجئتُ سائلاً القرَّاء الكرام العفو . عن كل زلل وقع فيهِ وسهو . فان لله وحدهُ العصمة والكمال . وعليهِ الاتكال في كل حال . وهو المسؤُول ان ينفع بهِ مطالعيهِ . وتروق لهم فصولهُ ومعانيهِ. فأحسب ذلك خير منَّةٍ تستوجب الشكر الحسن . وتشجع على خدمة العلم والوطن. في عصر سيّدنا ومولانا الخليفة الاعظم الجليل . المسبغ علينـــا مطارف نعمتهِ الوارفة الظليل . والمهّد لنا تحصيل العلوم والمعارف في أقوَم سبيل . دامت تضيء لنا بهِ دراريُّ العدل والسلام . وأيَّدهُ المولى بملائكتهِ الكرام على مرّ الأيام

آمين

الجزء الاول

غرائب البرّ

ألعالم القطبي

هلمّ بنا نغذّ[١] السير الى إقليم المنطقة المتجمّدة ونرقى على سلّم الأفكار ذروة خشام[٢] ينطح رأسهُ السحاب ونجيل الطرف في إقليم القطبة الشمالية نرَ تحت أقدامنا بحراً سائلاً عجّاجاً لا ثلج فيه ولا جمد وفرت فيه الحياة الحيوانية. وقد انبجس[٣] ينبوع هذا النهر العجيب على رأي أكثر الجغرافيين من خليج المكسيك في خط الاستواء وجرى تياراً حارًا الى ما وراء المنطقة الجمدية عن طريق سبتزبرجن وزمبلا الجديدة. وكان هذا البحر في طيّ الخفاء الى أن كشفهُ الدكتور هايز في تجريدة كين العلمية سنة ١٨٥٢. ثم شاهد ورآء هذا

أَنَّهُمْ رَأَوْا دَوَائِرَ وَاضِحَةً تَتَأَلَّفُ مِنْهَا الْمِنْطَقَةُ الشَّمَالِيَّةُ الْبَارِدَةُ وَرَاءَ حَاجِزٍ أَوْ سُورٍ جَلِيدِيٍّ. وَمَفَاوِزُ وَفَدَافِدُ جَرْدَاءُ[٤] وَغِيَاضٌ خَضْرَاءُ فَسِيحَةٌ.

وَلَا يَعْزُبُ عَنْ فِطْنَةِ مَنْ طَالَعَ تَارِيخَ الْقُطْبَيْنِ أَنَّ نِطَاقَ أَجْمَدِ الْمَنَاطِقِ الْبَحْرِ الْقُطْبِيِّ بَلِ الْقُطْبَةَ نَفْسَهَا كَانَ مَشْهَدَ كِفَاحٍ وَصِدَامٍ عَنِيفٍ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَجَبَّارِ الثُّلُوجِ الصِّنْدِيدِ[٥] السَّائِدِ سِيَادَةً مُطْلَقَةً فِي تِلْكَ الْأَقْطَارِ الْقَصِيَّةِ الْهَوَاجِلِ[١] وَكَانَ خَرْقُ هَذَا الْحَاجِزِ مَطْمَحَ أَبْصَارِ الْمُكْتَشِفِينَ الْعِظَامِ وَمَصْرَعَ أُلُوفٍ مِنَ الرِّجَالِ الْبُسَلَاءِ. وَأَنَّ أَقْصَى نُقْطَةٍ شَمَالِيَّةٍ بَلَغَهَا الْإِنْسَانُ لِلْآنَ تَبْعُدُ عَنِ الْقُطْبَةِ سِتَّ مِئَةِ مِيلٍ. وَلَمْ يَصِلِ الْمُكْتَشِفُونَ إِلَى هَذَا التُّخْمِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا فَقَطْ. لِأَنَّ عُسْرَ الْمَسَالِكِ وَوَفْرَةَ الْأَخْطَارِ وَقَرْسَ الْبَرْدِ كَانَتْ وَلَمْ تَزَلْ مَوَانِعَ كَبِيرَةً تَحُولُ دُونَ تَقَدُّمِهِمْ إِلَى مَا وَرَاءَ هَذَا الْحَدِّ. فَقَدْ يَهْبِطُ التِّرْمُومِتْرُ ضِمْنَ الْمِنْطَقَةِ الْبَارِدَةِ وَفِي دَاخِلِيَّةِ آسِيَا وَأَمِيرِكَا وَفِي مَا وَرَاءَ ذَلِكَ إِلَى ٥٠° أَوْ ٦٠° ف[٢] تَحْتَ الصِّفْرِ. وَكَثِيرًا مَا يَجْمُدُ الزِّئْبَقُ أَكْثَرَ أَيَّامِ السَّنَةِ بَلْ يَهْبِطُ تِرْمُومِتْرُ الْأَلْكُحُولِ فِي أَقْصَى تُخُومٍ وَطِئَهَا الْإِنْسَانُ ضِمْنَ

ٱلْمِنْطَقَةِ ٱلشِّمَالِيَّةِ ٱلْمُتَجَمِّدَةِ إِلَى ٩٠° أَوْ ١٠٠° ف[٢] تَحْتَ ٱلصِّفْرِ . وَكَأَنِّي بِمُعْتَرِضٍ يَقُولُ "فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ ٱلْإِنْسَانُ ٱلْحَيَاةَ فِي هٰذَا ٱلصَّرْدِ[٨] وَٱلْهَوَاءِ ٱلزَّمْهَرِيرِيِّ[٧] وَمُجَرَّدُ ذِكْرِهِ يَكَادُ يُحِيلُ ٱبْنَ ٱلْبِلَادِ ٱلْمُعْتَدِلَةِ عَلَى ٱلرَّعْشَةِ وَٱلرِّعْدَةِ" فَنُجِيبُهُ بِقَوْلِنَا إِنَّ كِسَاءَ ٱلْفَرْوِ وَٱلِٱغْتِذَاءَ بِٱلْأَدْهَانِ وَٱلزُّيُوتِ وَسَكَنَ ٱلْأَخْفَاشِ[١٠] ٱلْوَاطِئَةِ ٱلسُّقُوفِ ٱلْمُشْتَعِلَةِ فِيهَا ٱلْكَوَانِينُ أَوْ مَصَابِيحُ ٱلزَّيْتِ وَبِنْيَةَ ٱلْإِنْسَانِ ٱلْعَجِيبَةَ ٱلْمُلَائِمَةَ تَغَيُّرَاتِ سَائِرِ ٱلْأَقَالِيمِ وَحُبَّ ٱلْوَطَنِ أَوِ ٱلِٱكْتِشَافِ مِمَّا يُخَوِّلُ ٱلْبَشَرَ قُوَّةً عَلَى تَحَمُّلِ دَلْبَةِ ٱلْقَرِّ[١١]"

---

(١) نسرع (٢) الجبل العظيم (٣) يتفجر (٤) الفلاة لا عشب ولا ماء فيها (٥) السيّد الشجاع (٦) الارض الخالية (٧) فهربهت (٨) البرد (٩) الفارس (١٠) البيوت الصغيرة (١١) شدّة البرد

منطقة القطبة الجرداء

امّا المنطقة الجرداء او السياسب[١] الباردة فتمتدّ جنوبًا من السواحل الجليديّة الى الابحر القطبيّة فتتاخم اقليم الغياض المكتنف باكاليل الاخضرار الدائم. امّا تجرّد هذا الاقليم من الاشجار فلم ينشأ في الغالب من ارتفاع الاطوال

الشمالية بل من الصراصر[1] المارّة على جزائر الاوقيانوس القطبي وبرّ السواحل السيبيري هبوبًا لا يصدّهُ معقل ولا حاجز . فتحني اصلب الاشجار واضخمها تحت صدماتها الشديدة الى الارض . فلا ترى شيئًا يصميك[2] بكآبة القلب مثل حزون[3] سيبيريا وبواديها الجرداء الواسعة الاكناف . فانك تشاهد هنالك الاعشاب الطحلبية والعرفج والثمام[4] وهي النباتات الوحيدة النامية في تلك البطائح . وترى الخلى[5] الزهيد والازهار الصغيرة لاجئة الى الحال الطائلة للذود[6] عن حياتها . ولكنها لا تكاد تلطّف وحشة تلك الصفاصف[7] القمقة

فني هجر الحيوان ذلك القطر شتاء ورحل يطلب ملجأً في الكهوف والاغوار والسفوح ساد هناك الصمت الطويل . غير انه يخلل ذلك السكون نعب البوم وضباح[8] الثعالب . لكن متى برزت الارض في الربيع من تحت سجوف الثلج الذائب واخذ جَمد البطائح بالذوبان عادت اسراب الطيور والكواسر فتبدّل المشهد الكئيب بضعة شهور باجمل منهُ. فان الفطرة العجيبة تلمّ كتائب الجنّيات هذه وتقودها من الاقاليم البعيدة الى الصحاري القطبية حيث تجد في القمقات والبحيرات وعلى ضفاف الانهر والاضحال[10] والارياف الغاصّة بالاسماك زادًا وافرًا . فهنالك تبني اوكارها وتأوي اوكنها[11] وتربّي فراخها بغاية الامن والسكون. ويمكث بعضها في ضواحي الادغال ويطير غيرها شمالاً فتضع بيوضها على اديم الصحراء

وتتبع النسور والبواشق آثار الطيور السابحة والماحلية فترى اسرابًا من العقبان تحوم بين العلّيق والقتاد . ومتى بزغت الغزالة سمعت سجع الزرقانية وطائر الثلج

غير ان حرارة الصيف لا تجلب هذه الطيور الراحلة فقط الى هذه الصحاري القطبيّة بل تدخل الاسماك الانهر اطاعةً لفطرتها التي تضطرّها الى مغادرة الابحر والجري الى الانهار لوضع صعترها[12] في مياه الانهر والبحيرات العذبة . وفي هذا الزمان تترحّل الرنة عن الادغال لتنتجع كلأ المفاوز وتطلب

في السواحل ملجأ من الذباب اللذّاع الذي يطير جيوشًا لا تُحصى في تلك البطاح وهكذا تبرز هذه البوادي شهورًا بحلّةٍ حيّة جديدة . وكان للانسان من ذلك النصيب الاوفر . لان طيور السماء واسماك الماء وحيوانات الارض تؤدّي له جزية الخضوع لاشباع جوفهِ وكسوة جسدهِ ووفرة ارباحهِ

ولكن حالما ينذر صقيع ايلول بوشك قدوم الشتاء تسرع سائر الحيوانات ما عدا التتر اليسير الى هجر اقليم يسلب المكث فيهِ حياتها . فيعود الأوزّ والبطّ اسرابًا . وتنشد الطيور الساحليّة في الاقاليم الواسعة ارضًا رقاقًا حيث تمكّنها مناقدها الحادّة من ثقب الارض تفتيشًا عن طعامها . ويرحل دجاج الماء عن الخجان والبواغيز التي كادت تُسَدُّ بالجَمَد وتؤوب الرنّة الى الغابات . فلا تنقضي برهة حتى لا يبقى شيءٌ يجمل الانسان على المكث في هذه الصحراء الماحلة . ولا يمرّ زمن يُذكَر حتى ترى الثلوج الكثيفة قد غطّت الارض الصلدة[١٣] والبحيرات المتجلّدة والانهر المنطقة بالجمد فاختبيت تحت برقعها الابيض سبعة اشهر او ثمانية او تسعة الأ حيث هبّت الرياح الشمالية وجرفت بهبوبها بعض الثلوج فبدت جلاميد الصخر للابصار

فهذه الثلوج التي تدوم كاسيةً ادم الثرى الى ان تذيبها ايام الصيف تحمي نبات الاقاليم العليا من برد الشتاء الطويل القارس حماية نافعة جدًّا . فلهذا الكساء الثلجيّ ولحرارة الشمس المحيطة بالافق ربع ايام السنة او ثلثها فضلٌ عظيم على ذلك الاقليم . فانها بنيان القوة النباتية في زمان يكاد لا يُصَدّق نموًّا عجيبًا حتى تباهى ارض واشنطون وغرينل وسبتزبرجن بازهارها ورياحينها

---

(١) الارض البعيدة المستوية (٢) الريح الباردة (٣) يحلّ بك
(٤) سهول (٥) انواع من النبات (٦) الحشيش الرطب
(٧) الحماية (٨) المستوي من الارض (٩) صوت الثعلب
(١٠) المياه الرقيقة (١١) بيوتها (١٢) بيضها (١٣) اليابسة

غابات الاقاليم القطبيّة

ان مساحة هذه الغياض اعظم من السهول التي تطوّقها . فاذا تصوّرنا عرض هذه المنطقة البالغ من الف الى الف واربع مئة ميل رأينا ان غابات الامازون التي تغطي مساحة تزيد عن بريطانيا خمس عشرة مرّة مجالاً لا يُعتدُّ بهِ بالنسبة الى هذا الاتساع الجسيم. وهذه الآجام تباين[1] غياض الاقاليم الاستوائيّة. فان اشجار تلك متنوّعة الاشكال والاجناس واما هذه فمؤلّفة في الغالب من جنس واحد تحمل اثماراً مخروطيّة الشكل كالصنوبر والشربين وتغطي مساحة ارض عظيمة

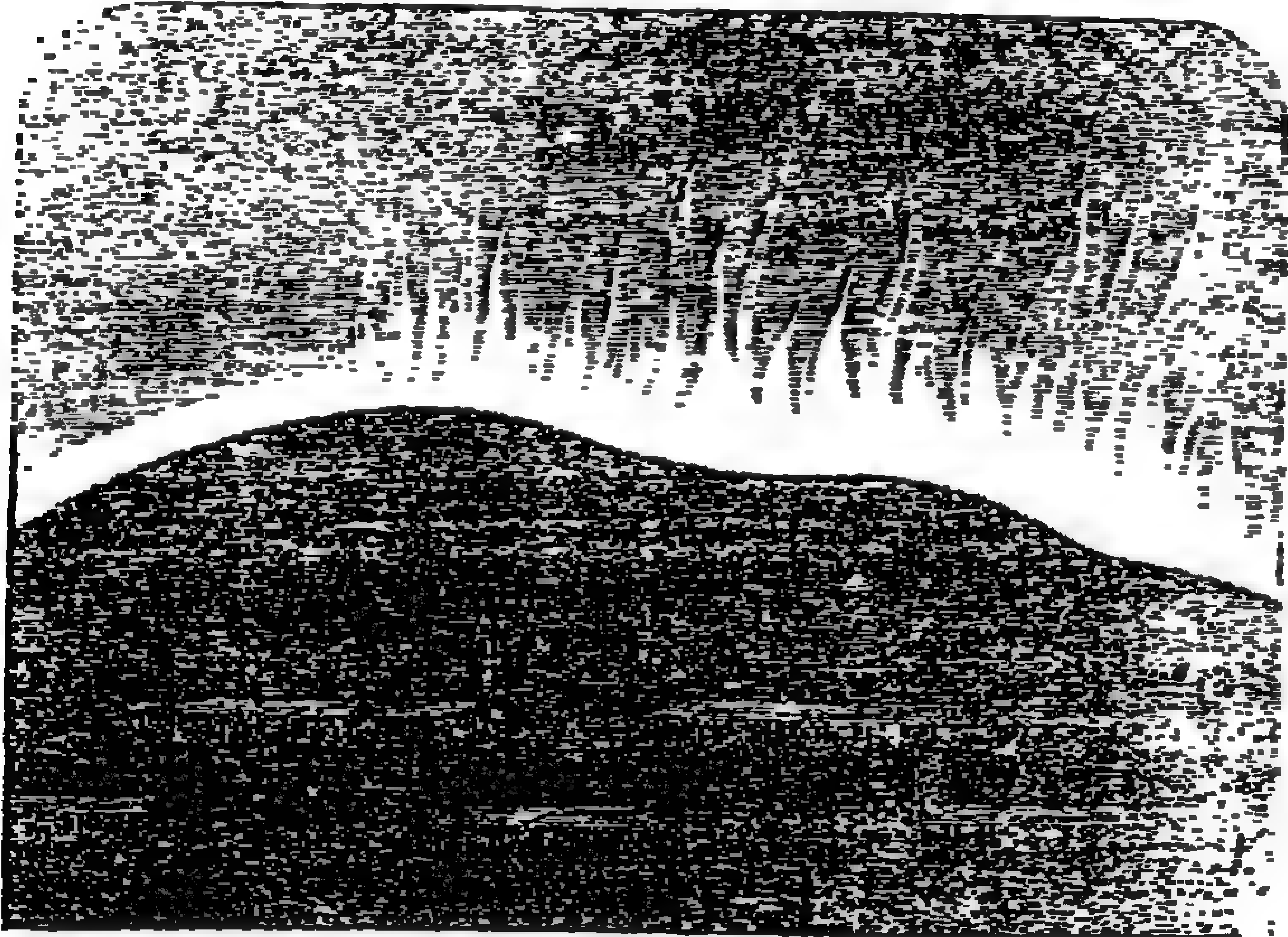
وما يميّز هذه الغياض ايضاً علامات الصبا البادية على ظواهرها والغضاضة[1] الطبيعية . امّا علّة ذلك فظاهرة وهي قصر مدّة الصيف فانها وان اطلعت فروعاً جديدة لا تعطيها الحرارة وقتاً كافياً لانماء الخشب وتضخيمه. ولذلك كان نموُّ الاشجار يبطؤ كلّما تقدّمتَ شمالاً

اما صفة الآجام القطبيّة الخاصّة فهي سلامتها من البوائق[2] والآفات . فان السائح لا يصادف هناك نباتات سامّة . ولا افاعي قتّالة تنساب بين الغيطل[4] ولا تماسيح تكمن في الغمقة ولا عقارب لدّاغة حتى ان الضواري كالدبّ والذئب هي اقل فتكاً وظمأً للدماء من وحوش المنطقة الحارّة الماثلة بل يندر وجود الشوك والعلّيق في تلك البقاع

(١) تخالف (٢) الطراءة (٣) الدواهي (٤) الشجر الكثير الملتفّ

انوار الافق الحمراء والشفق الشمالي

ان الطبيعة وإن اكتست في القطبتين بكساء الجفاء والعبوسة ترى لاوضاعها العالية جمالاً بديعاً خاصاً . فلا شيء يفوق غروب الشمس القطبية بهاء . ولا الجبال الشمّاء (١) المكسوة بالثلوج والافق الزاهي بابهج الالوان ولا ابدع من تألق (٢) الدرارى ليلاً المزدانة بالقمر المتلألئ الذي يمنطق الافق



الشفق القطبي

اياماً كاملة . ولا يغيب حتى يكمل دورانه الطويل اليبي . ومما يزيد محاسن هذا المشهد النفيس بياض تلك المهاد الناصع (٣) وشفافية الجلد الصافي . ذلك كله يقود سكّان تلك الانحاء عند ما يضربون في تلك البوادي والبطائح والانجاد ويرشدهم الى المصائد وابواب الرزق

ومن غرائب الطبيعة هنالك ركام (٤) الجَمد وجباله وذلك منظر بديع

يذهل العقول . فلا تظهر هذه الجلاميد البلّورية بابهى جمالها الاّ متى كستها شمس نصف الليل بمطارف(٥) الشفق الباهر فتراها عن بعدٍ كُتَل معادن صقيلة لامعة او مشاعل ملتهبة صلدة . ولكن متى تفرّستَ بها عن قربٍ رأيتها هضاب مرمر شفّاف مرصّع باللآلئ والجواهر الكريمة . وعاينتَ آلافاً من الخنادل(٦) البلّورية لامعة تندفق في البحر من جوانبها . وهذه المياه تنطلق شآبيب(٧) من بحيرات الثلج والجَمَد الذائب المستقرّ ساكناً في اوديتها

ولكنّك لا تشاهد بين كل تلك الصُّوَر الجميلة منظراً اجمل من الشفق الساحر الالباب. فمتى سدل الغسق ذيوله على الارض المكسوّة بالثلوج ورأيتَ النجوم تلمع لماناً قاتماً بين الغمام الذي يعتم نورها في الاطوال العالية لاح لبصرك فجاءةً قوس انوار عريضة صافية منتشرة على الافق في الجهة التي اجتازها خط نصف النهار المغنطيسيّ .فقد تمكث هذه القوس ساعات تتموّج وترقص وتهتزّ ذهاباً واياباً فترسل نحو ذروة الافق جداول انوار بارقة حمراء وصفراء وزرقاء وارجوانيّة . وقد ينبعث هذا الوميض من تلك القوس فقط . وقد تتراسل هذه الانوار وتتموّج في جهات الافق المتحاذية وتؤلّف بحراً نارياً فسيحاً لا تنفكُّ امواجهُ تغيّر اوضاعها وحركاتها. ثم تجتمع اخيراً فتنبثق منها قُبّةٌ ناريّةٌ مدهشة او اكليل غاية في البهاء . وحينئذٍ يبلغ المشهد اسمى جمالهِ فيأخذ بمجامع القلوب

ثم يزداد لمعان الانهر فتزهو اواسطها بالاحمرار وقواعدها بالاخضرار وسطوحها بالاصفرار الذهبي ثم تنشب في الجوّ كوميض البرق اما هذه الالوان فشفّافة شفوفاً يُعجَب منهُ . فترى اللون الاحمر وردياً كالدم الصافي والاخضر زمرّدياً صافياً . ثم اذا التفتَ من الفلك الملتهب الى الارض رأيتها مشاعل انوار سحريّة تسبي ابصار الناظرين.وشاهدتَ البحر المظلم اسود حالكاً كالغسق البهيم يعاكس لونهُ لون السهول الثلجيّة البيضاء وجبال الجَمَد البعيدة . فتخال هذه المشاهد كلّها احلاماً بهجة او رؤًى هبطت عليك من عالم الارواح

فكأنّ تلك الانوار وُجِدَت هنالك لتمزيق حُجُب الظلام الكثيفة المسدولة

على سكّان تلك الاقطار والتعويض لم عن احتجاب نور الغزالة اشهرًا متتابعة. فان الشمس تغيب هنالك عن الابصار اسابيع متوالية وتحتجب ليس بالغيوم الملبّدة بل تغرب غروبًا مديدًا ولا تبرز من خدرها الشتاء برمتهِ. فلا تشاهد هناك الاصباح البهيّة والامساء البهيجة ولا هواجر النهار بل ترى النجوم تتألق كل آن تألقها في النهار الدامس⁽⁸⁾ وتضيء بلمعان اوفر مما في سائر الاقاليم. وفي خلال ذلك تبرز تلك الانوار البديعة التي المعنا اليها وترقص وتموج في الافق فيسير القوم بنورها بل يشتغلون ويدأبون ويصيدون ولولا هذه الانوار لكان سكّان تلك البلاد في شرّ حال واسواءِ. ثم يغيب ذلك الاكليل تدريجًا وتحلّ قوس الانوار. فترى الانهر قصرت مجاريها وقلّ حجمها وسرعتها وخيّمت ظلمة الشتاء على تلك الصحاري الشماليّة

---

(١) العالية (٢) لمعان (٣) الشديد (٤) القِطَع الكبيرة
(٥) رداء من خزّ (٦) التُّرَع (٧) الدفعة من المطر (٨) المظلم

بعض حيوانات الاقليم القطبي

ان الانسان سيّد الارض في سائر جهات المسكونة قصير الباع ضيّق ميدان السعي في هذه الاقاليم القارسة البرد فيجول على اديها[1] صائدًا او قانصًا او راعيًا . فليس هنالك سوى معمورات صغيرة تفصلها صحاري فسيحة وهذا دليل على ضعف حركتهِ في ترسيخ اقدامهِ على تلك الاصقاع

ولندرة الزراعة والصناعة في تلك الاقطار يلجأُ الانسان الى الانتفاع بالحيوانات الدنيا سدًّا لحاجتهِ . فهي موارد رزقهِ وثروتهِ وموضوع عنايتهِ. فتعطيهِ طعامًا وكساء وموادّ للآلات وصنع ادواتهِ القليلة واسلحتهِ . فقد سمحت

الطبيعة هذه الحيوانات بسلاح تدفع بهِ عن نفسها من البرد القارس. غير ان ذلك السلاح يعرضها لهجوم الانسان عليها ويجذبهُ الى قنصها. فان فرو الدبّ الكثيف والثعلب والسنجاب والخلد وعجل البحر والحيوانات الاخرى القطبيّة من موادّ التجارة الثمينة. وهي ابواب رزق بدو سيبيريا واسكيمو اميركا الشمالية. ولا يخفى ان مصائد كرينلاند وزغب وريش طيور ايسلاند من اعظم وسائل رزق تلك الاقطار

امّا الرنّة فانفع سائر الحيوانات القطبيّة. ولاغنى عنهُ للّابلاندي والسيبيري والاسكيمي. كما ان لا غنى للبدوي عن الابل وللبيروفي عن البغل ولهندي اميركا عن الجاموس ولساكن جزائر الاوقيانوس الهنديّ عن نخيل جوز الهند. فذلك الحيوان العجيب حيًّا كان او ميتًا يزوّد اللابلاندي الجلدَ بمنافع اربعة حيوانات مفيدة وهي الفرس والبقرة والغنم والماعز المتمتّع بها سكان الاقاليم المعتدلة وهو حيوان يسهل دجنهُ[2] وتأهيلهُ بل يدرأُ[3] عن صاحبهِ نصب طلبهِ وتفتيشهِ. لان العناية خصّتهُ بسليقة غريبة لا تخطئُ وهي الحفر برجليهِ على الحطب والعشب بين الثلوج لتحصيل قوتهِ. فكما ان الجمل يُحسَب سفينة اوقيانوس الرمال يُعَدُّ الرنّة جمل بحر الثلوج

---

(١) وجهها (٢) جعلهُ اليفًا (٣) يدفع

القُطْبُ الجَنُوبِيُّ

إنّ وَحشَةَ ٱلقُطبِ ٱلجَنُوبِيِّ تَفُوقُ عَلَى ٱلشَّمَالِيِّ. فَلَا تَرَى هُنَالِكَ صَائِدًا يَدأَبُ كَالأَسكِيمِيِّ وَيُطَارِدُ ٱلدُّبَّ وَعِجلَ ٱلبَحرِ وَلَا قَانِصًا صَبُورًا كَاللَّابلَانْدِيِّ يَتأَثَّرُ ٱلرَّنَّةَ إِلَى ضِفَافِ[1]

الأوقيانوس الثلجي. ولا تشاهد إلا امناوز(١) موحشة غرب عنها الأنس وبلاقع(٢) لا ساكن فيها ولا سير إلا بعض الطيور الغريبة الأشكال. فإن ذوات الأربع لا تعيش هنالك ولا يرى شيء سوى ثلوج متلبدة إلى حافة البياد.

ولا جرم إن من أعظم مناظر الطبيعة في تلك الأقطار سلسلة جبال باري التي تبعد عن زيلاندا الجديدة ١٧٠٠ ميل. ومن أرفع قمم هذه السلسلة جبل إيريبوس وهو بركان دائم الهيجان. فقد أسعد الحظ السر جيمس روس أعظم المكتشفين في تلك الأنحاء بأن شاهده ثائرا سنة ١٨٤١ فكان عمود اللهيب والدخان مرتفعا ٢٠٠٠ قدم فوق فوهة البركان البالغ علوها ١٢٤٠٠ قدم فوق سطح البحر. وكان منظر تلك السلسلة المكسوة بالثلوج والأوقيانوس الأزرق من أبدع المناظر. وقد أجمع رأي العلماء على وجود قارة وسيعة جنوبي هذا القطب. غير أن المكتشفين لم يبلغوا تلك الأقاليم البلقعية. ولذلك كانت معرفة العالم بأرجاء القطب الجنوبي مما لا يعتد بها

---

(١) شواطئ (٢) بوادي (٣) قفار

الزقاق الشمالي الغربي والسفن المسجونة في الجمد

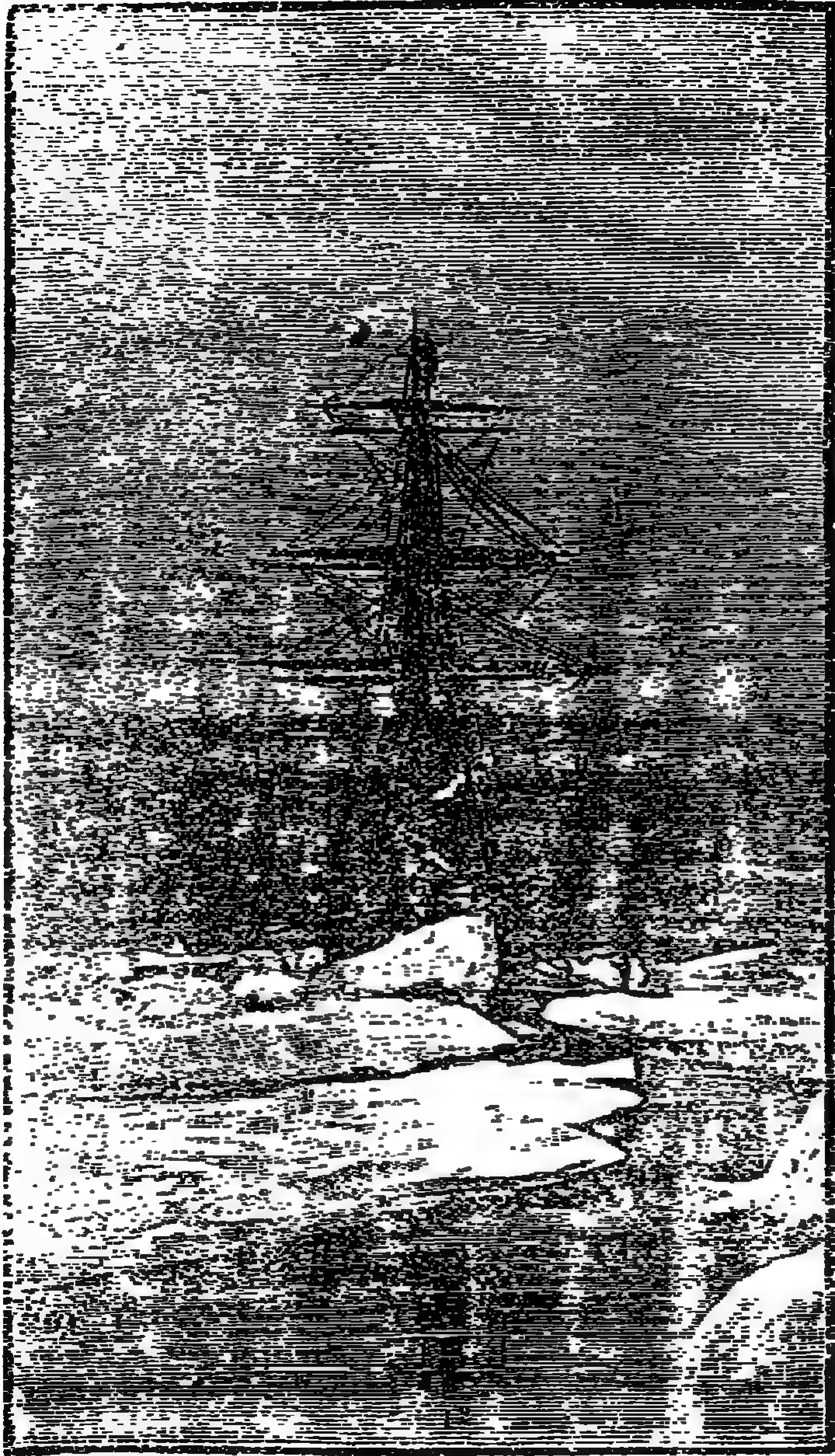
استخدم القوم البخار صانعاً وناقلاً بدلاً من الايدي والخيل. والبرق رسولاً عوض البريد. ولكنهم لم يكتفوا بذلك بل راموا الوقوف على مجاز يؤدي من الاوقيانوس الاتلانتيكي الى الباسيفيكي اقتصاداً بالوقت والنفقة. فرغبوا في العثور على زقاق شماليّ غربيّ يسهّل لهم الطريق ويقصّرها بدلاً من الطواف باميركا الجنوبية عند رأس القرن او حول افريقية عند رأس الرجاء الصالح

فذهب البعض الى امكانية السفر في اقصى شاطئ اميركا الشمالية وبلوغ الاوقيانوس الباسيفيكي وسمّوا هذه الطريق بالمجاز الشمالي الغربي. فلو تسنّى الامر لقصر الطريق اميالاً عديدة وانشأ اقتصاداً جسيماً بالوقت والنفقة

فشرع العلماء البسلاء بالجدّ والتفتيش وعثروا على عدّة خلجان واجوان تسمّت باسمائهم منها زقاق بافين وخليج هدسن وبوغاز داڤس. غير ان عدواً لدوداً ما زال يعترضهم ويصدّهم عن اتمام مشروعهم الخطير وما ذلك الاّ البرد القارس

فان البحر يتحوّل في المنطقة المتجمّدة الى جمدٍ صلب يذوب بعضهُ صيفاً وتنفصل منهُ قِطَعٌ كبيرة تعوم على سطحهِ كالاطواد[١] وتسبّب للمسافرين اخطاراً جسيمة. فاذا صدمت سفينة كسرتها قِطَعاً. وقد تتلوّن تلك القطع بالوانٍ بهيّة خضراء وزرقاء وحمراء كالبلّور الصافي تفتن الناظرين. امّا الملاّحون فيحاولون ابداً مجانبتها والحيدان عن سبيلها

واظنّك سمعتَ بذكر القبطان فرنكلين الذي كان شجاعاً مقداماً مغامراً[٢] انهُ عقد النيّة على اكتشاف الزقاق الشمالي الغربي وحاول ذلك مراراً ولكنهُ ذهب



سفينة عبثتها الارياح

فريسة هذا الاكتشاف. فان سفنهُ لصقت بالجَمد وحُجزت فيهِ امدًا طويلاً كان يتوقع في خلالهِ ذوب الثلوج واطلاق سراحهِ فلم يفُز بالمرغوب. غير انهُ اخذ يشجّع رجالهُ ويحرّضهم على الصبر والتجلّد ويسليهم بالالعاب والانشاد والتمرينات على غير طائل. فاقبل الصيف وكاد ينقضي ولم يذُب الجَمد. وفرغ الزاد واشتدّ البرد وهجرت الذئاب والثعالب ذلك القطر ورحلت عنهُ الى بلاد ادفأ وتعذّر الصيد في الثلج. فاضطرّ فرنكلين وجماعتهُ الى مغادرة السفينة وجرّ القوارب على الثلوج ونقلها الى بحر سائل لاجمَد فيهِ

فكشّر البرد القارس لهم عن ناب المنيّة بينما هم يحاولون ذلك وفتك بفرنكلين واكثر قومهِ فتكًا ذريعًا. غير ان الباقين ومن اتى بعدهم بلغوا البحر السائل وراء البحر المتجمّد بعد معاناة اشقّ الاتعاب والمخاطر وفازوا بما كانوا يغامرون لاجلهِ ذلك الزمان المديد. ولكنّهم رأَوا عقيب تلك المصاعب واكتشاف الزقاق الشمالي الغربي انهُ يتعذّر اجتياز تلك الطريق لتراكم الثلج والجَمد في سبيلها. فذهب البعض بعدئذٍ الى امكانية التعويض عن هذه الطريق بترعة تتصل بين اميركا الشمالية والجنوبية بترع البرزخ الضيّق بينهما. فاذا تمّ هذا المشروع امكن المسافر الانتقال توًّا من الاتلانتيكي الى الباسيفيكي بايسر مرام واقصر وقت

ثم زاد الدكتور كين الرحّالة [٣] الشهير على اكتشاف القبطان فرنكلين بأن بلغ فعلاً البحر السائل وراء البحر القطبي المتجمّد. وكان الموماأ اليهِ قد مكث الشتاء كلّهُ محجوزًا في الجَمد. فلما اقبل الربيع وذاب الجمد أمّ سفنهُ وسار نحو القطب. وما مخر [٤] نحو اربع مئة ميل حتى رأى قِطَع الجمد غابت عن العيان واصبح في وسط بحر سائل صافٍ يحاكي ماؤُهُ مياه البحور المعتدلة. وكان لون ذلك البحر ضاربًا الى الاخضرار وماؤُهُ يكاد يكون حارًّا. وكانت طيور الدجاج البرّي والزاغ والغوّاص تطير عليهِ بحبور وارتياح

امّا الهواء فكان عليلاً لايشوبهُ [٥] برد قارس حتى كاد الدكتور كين

لا يصدّق كونهُ ملاقياً القطب الشمالي. فابتهج ابتهاجاً لا مزيد عليهِ بالعثور على هذا البحر وبالكرامة والشهرة التي سوف يفوز بها عند ايابهِ الى الاوطان حاملاً بشائر هذا الاكتشاف. فرفع في السفينة الراية الاميركيّة اشارةً الى النصرة والسرور. ولمّا كانت قد خارت قوى البحّارة من الاتعاب والمشقّات ابوا التقدم الى الامام. فاجتزأوا برفع اعلامهم فوق تلك البحار والتمتع بمنظر ذلك البحر القطبي الذي غامر العدد العديد من العلماء الاعلام تفتيشاً عنهُ وذهب اكثرهم فريسة البرد القارس والحيتان الكبيرة. ثم عاد المكتشف بجماعتهِ الى الوطن

غير ان قوماً آخرين اقتفوا خطواتهم وما زالت المغامرة الى تلك الانحاء تزداد بزيادة الاكتشاف والوقوف على حقائق جديدة. ويظن ان نهراً من زقاق الخليج الحارّ يجري الى القطب الشمالي وان هذا هو علّة وجود هذا البحر السائل

(١) الجبال (٢) مخاطراً (٣) الكثير الاسفار (٤) سافر بحراً (٥) بصية

كلاب المركبات والدب الابيض

الاسكيمو قومٌ قصار القامة يقطنون المنطقة المتجمدة حيث يشتدُّ البرد فيتدثرون[1] بالفرو والجلود

اما الفرو فمن الدبّ الابيض الموجود في ذلك الاقليم. والجلود من عجل البحر الضخم الجثة المستدير الرأس القاطن تلك البحار فيصنعون منها لباسهم

اما الكلاب فاعظم الحيوانات نفعاً للاسكيمو لانها تقوم عندهم مقام الخيل العديمة الوجود في تلك الاقطار لتُذلّل رحلتها وطريق تسير عليها

فاذا شاء الاسكيمي اضطرَّ الى الركوب في مركبة تجرّها الكلاب. وهي مركبة لا دولاب لها يصنعها بنفسه من عظام البال (٢) ويغطّيها بجلد عجل البحر. ثم يشدّها الى الكلاب بسيور قدّها من الجلد المذكور. ويسوقها بالسوط (٣) فتسير بهِ المسافات الشاسعة

ولمّا كان الدبّ الابيض عدوًّا لدودًا (٤) لهذه الكلاب كانت مُغرَمة بطاردتهِ والفتك بهِ ونجدة اسيادها على صيدهِ للفوز بقوتٍ وكساء من لحمهِ وجلدهِ. فاذا رام صاحبها حثّها على العدو نادى باسمهِ (نانوك) فتهيج (٥) بهِ طمعًا بصيدهِ

ويتقدّم هذه الكلاب كلبٌ فَطِن كبير الجثة خبير بمجاهل تلك الارض ومعالمها قلّما يخطئُ الطريق فيضع خطمهُ (٦) على الارض ويشدّ وراءها

وكثيرًا ما يقسو السائق على هذه الكلاب ولا يشبع اجوافها خاصّةً في الشتاء. وذلك لقلّة الزاد في هذا الفصل اذ يعسر عليهِ اشباعها. غير ان زوجتهُ ارقّ منهُ قلبًا واوفر عناية بها. فتضع لها كل ما تستطيع وتسمح لها بالاضطجاع في حضنها (٧) وتعتني بتمريضها حين الحاجة. ولذلك كانت تحبّ ربّة المنزل محبة شديدة وتتبعها اينما سارت ومتى نادتها بادرت اليها وسمحت لها ان تتوطها بالمركبة

واذا رأت هذه الكلاب ما يؤكل عدَتْ اليهِ فتعذّر على السائق صدّها ولو نزل عليها بالسياط بل لا تُزاح من مكانها حتى تلتهمهُ (٨) عن آخرهِ

اما الدبّ الابيض فيسكن البرّ والبحر معًا واسمهُ دُبّ الجَلَد لانهُ يعيش على الثلوج. وفروهُ ابيض اللون ليّن الملمس واصابعهُ متّصلة ببعضها كالبطّ والاوزّ ويستطيع السباحة كالسمك. ومتى صعد الى البرّ سبق الانسان عدوًا وطرادًا فاستحال عليهِ قنصهُ الاّ بالحيلة والدهاء والكمون

وطعام الدبّ الابيض الاسماك والطيور والثعالب والرنّة متى ظفر بها. وهو شديد الضرى (٩) ولاسيّما حين السغب (١٠). والدب يصيد عجل البحر حين

يكون نائمًا على الثلج . فينسلّ اليه تسلُّلاً لا تسمع به وقع اقدامه. فلا يشعر الجمل الاّ وقد امسى غنيمة الدبّ فيفترسه ولا يغادر لاعضائهِ اثرًا

---

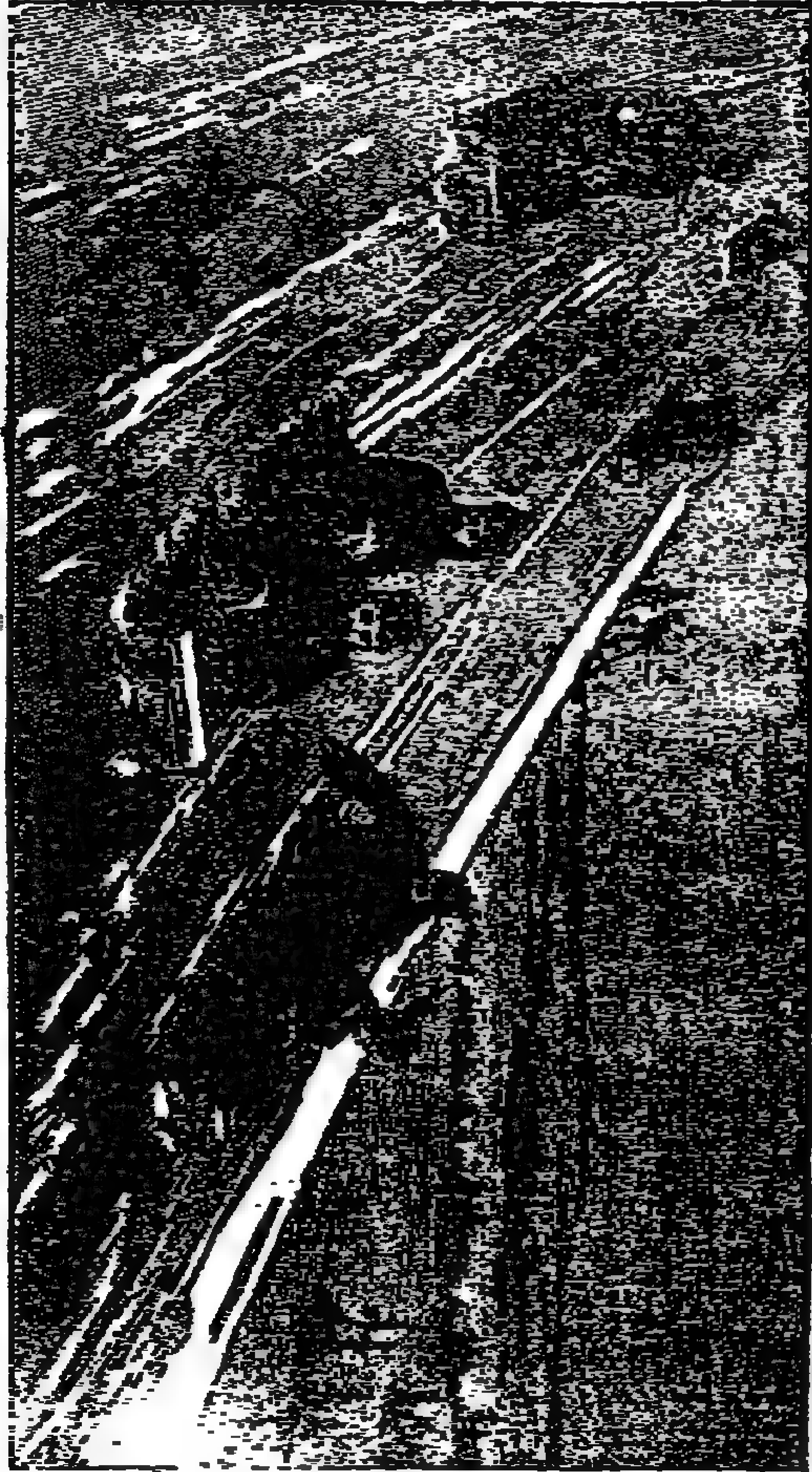
(١) يلبسون (٢) الحوت (٣) كرباج (٤) شديدًا
(٥) شدّة العدو (٦) فئة (٧) البيت الصغير (٨) تبتلعهُ
(٩) الفتك (١٠) الجوع

بيوت الثلج

ان المنطقة المتجمدة خالية من البيوت الحجرية والخشبية لخلوها من مواد البناء وجهل الاسكمي واللابلندي صناعة العمار . فلا مدن هنالك ولا امصار ولا صروح ولا قصور بل بيوت ثلجية يسكنونها شتاء ويهجرونها صيفًا. والجمد عندهم بمثابة الحجر الصقيل الناصع (١) يبنون منهُ مساكن بأرونها من صبارة (٢) البرد . فمتى كان البيت جديدًا رأيتهُ نظيفًا ابيض . ولكنهُ لايلبث حتى يتسخ ويكدرّ لونهُ . ومتى اقبل الصيف يذوب

ويضيئون في تلك المنازل الثلجية سُرجًا وقودها شحم الحوت وعجل البحر ودهن الاسماك . يضعونهُ في صحاف ضمنها قناديل عديدة. ويستعملونها كمجامر للدفء والطبخ والانارة . وذلك بان يعلّقوا الطاجن (٣) فوق الصحفة المشتعلة فيطهون (٤) عليها اسماكهم التي كثيرًا ما ياكلونها نيئة ولما لم يكن لهذهِ البيوت مداخن يتصاعد الدخان ويملأ الغرفة ظلامًا وكتمًا وقتارًا (٥) ورائحة كريهة. وكوى البيوت مصنوعة من جَمد ايضًا . لا ترى فيها كراسي ولا موائد ولا خزائن. لان القوم هنالك يجهلون صنع هذه الادوات والامتعة وتعوزهم موادها. فيشيدون حول الحجرة دككًا (٦) ثلجية او مقاعد يغطونها بجلود الجلوس والاضجاع

والثلج يتحوَّل في هذه الاقطار الى جمد صلب يكاد يحاكي الحجار ويدوم الشتاء كلهُ . ومتى حمي البيت بالاضواء وانفاس البشر اخذ يذوب . فيمسك الاسكيمي قطعة ثلج جديدة ويدلك بها محل القطر فيصلح الخلل في الحال



التزحلق على الثلج

ومتى جاء الصيف يُسرّ الاسكيمي بالخروج من بيتهِ الثلجي لانهُ بينما يكون مضطجعاً في فراشهِ ياخذ الثلج يقطر عليهِ . فيورثهُ الزكام او النزلة الصدرية

فيغادرهُ الصيف بأسرهِ ويسكن في مضرب يضربهُ لنفسهِ في انجماد ذلك القطر وصعيدهِ

وقد يعثر الاسكيمي على اخشاب تأتيهِ عفواً من بلاد غريبة محمولة على مجاري المياه ومجروفة على السواحل . فيأخذها ويبني بها مسكناً . واذا تعذَّر وجودها بنى مأواهُ من الجَمَد كما تقدَّم القول

ولما كانت هذه الاصقاع قارسة البرد وافرة الجَمَد طويلة الشتاء استحال نموُّ الاشجار والنباتات في تربتها . ولذلك خلت من الغلال والبقول والاثمار . وكان قوت سكانها الغالب الاسماك وعجول البحر والادهان اللائقة ببرد ذلك الاقليم

فاذا قابلت ايها القارئ نفسك بهولاء القوم وتأملت بحرمانهم من اكثر وسائل الراحة والرفاه والنعيم وبما انت متمتع بهِ من نضارة العيش ورخائهِ ألا يمتلئ قلبك سروراً فتشكر الخالق الجوَّاد الذي ميَّزك بهذه النِعَم الثمينة والمواهب النفيسة

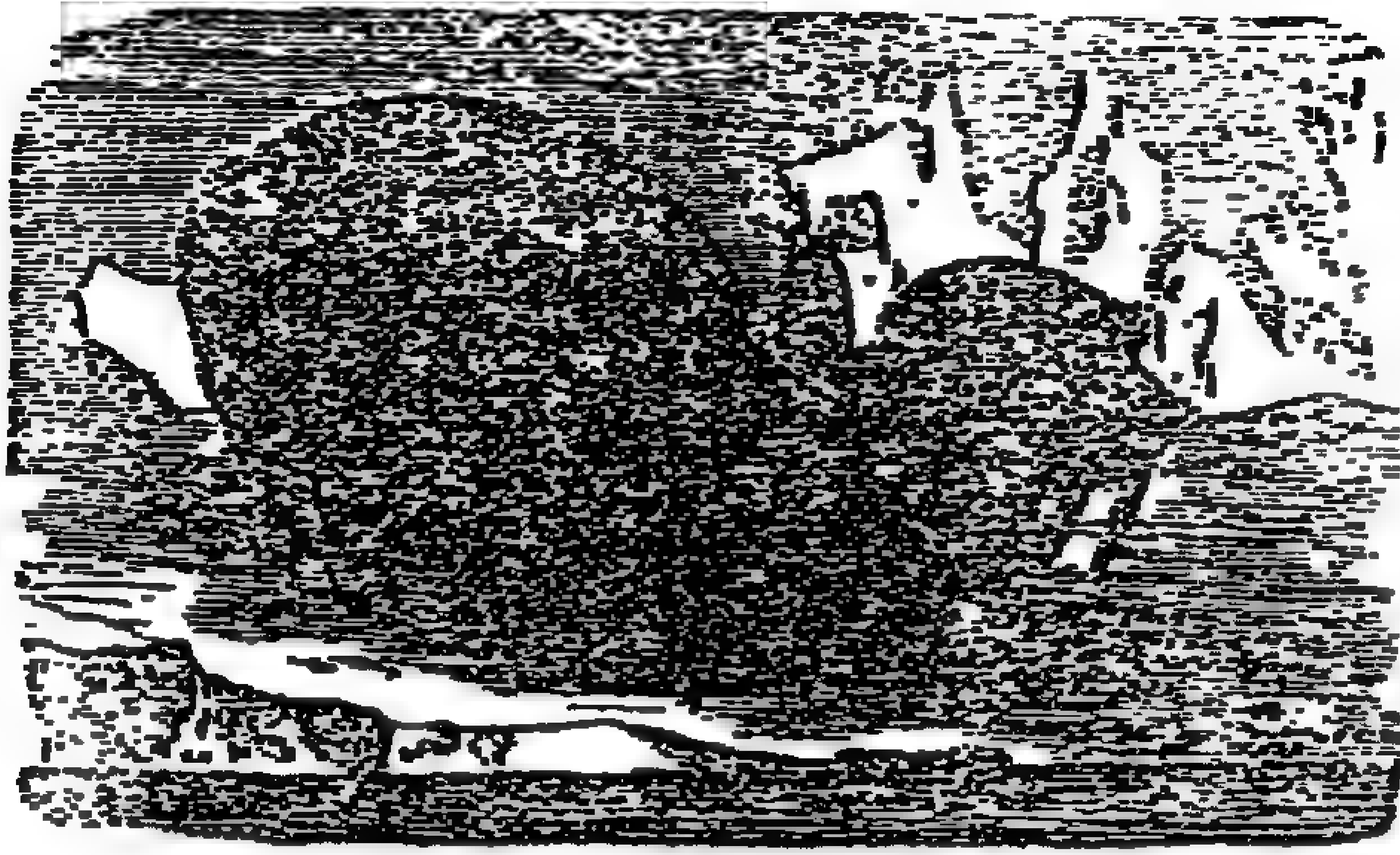
---

(١) الشديد البياض (٢) شدة (٣) نوع من القدر (٤) يطبخون (٥) دخان الفحم . (٦) مصاطب

الكرينلندي والحوت

ان الكرينلنديين يجرون يوم صيفاً لصيد الحوت او البال المسمَّى وَلرس . ولهذا الحوت في شفتهِ العليا عضو مستطيل يشاكل الحربة . فيركبون القوارب المصنوعة من عظام الحوت والمغطاة بجلود عجل البحر ليدرأوا[١] عنهم البلل

ثم يأخذون بمطاردة هاته الحيتان التي تعيش في البرّ والبحر على السواء . فتتساقط الى الماء بعضها فوق بعض وتعدو فرارًا من حربة الصيّاد . غير ان القاتفين يجذّفون وراءها القوارب فيأخذ منها الغيظ كل مأخذ وتبدي شجاعة



ولرس

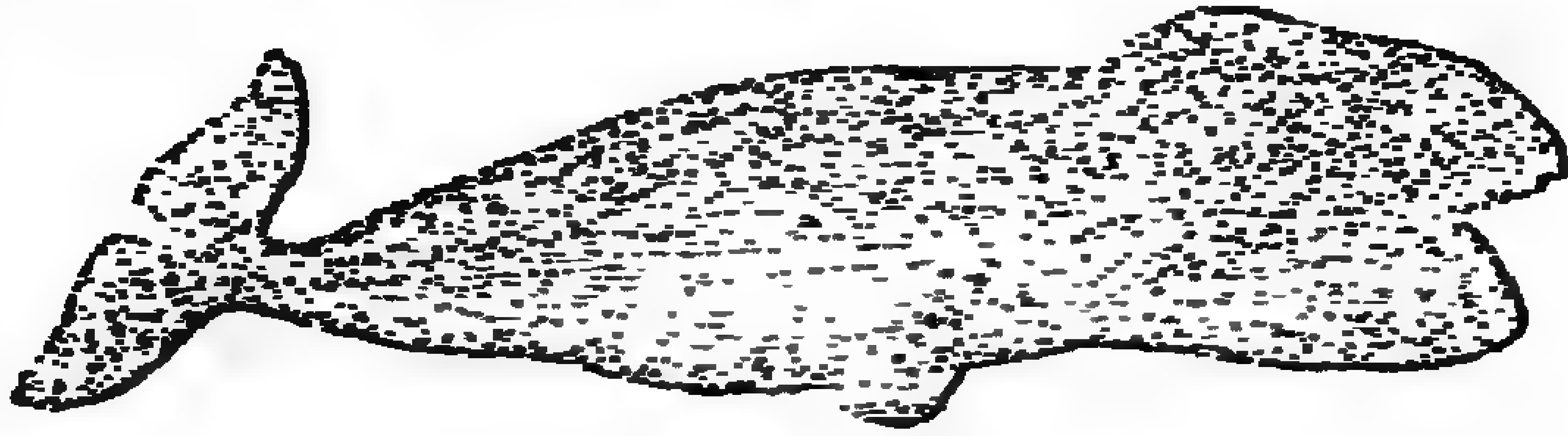
وتحمسًا لا مزيد عليها . فتحيط بالزورق (٢) وتحاول قلبهُ بمن فيهِ . فيجاهد الصيّادون معها جهاد الابطال ويرشقونها بالحراب والنبال ويطعنونهـــا طعنات كثيرة الى ان تخضب المياه بدمائها وتسقط مائتة .

والكريلندي مُغرَم بصيد هذه الحيتان لانها نافعة لهُ كل النفع ولا سيما اسنانها البيضاء اللامعة . فانها عاج نفيس يتاجر بهِ ويقتات بلحمها ويستضيء بشحمها ويكتسي بجلدها

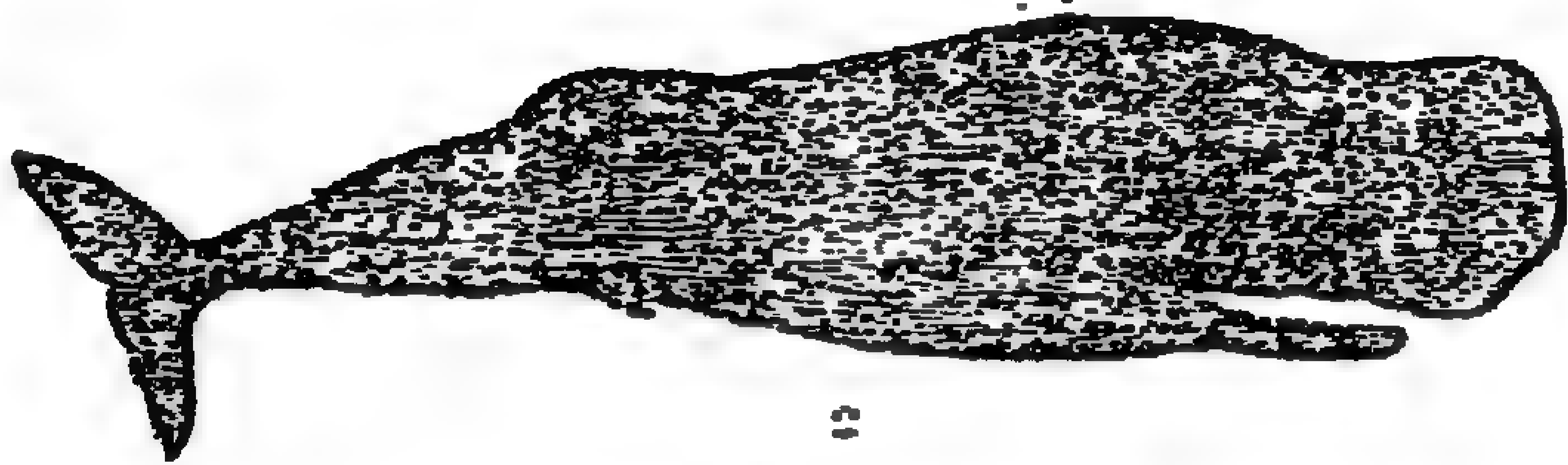
ولهذه الاسنان فائدة كبيرة للحوت فانهُ ينشبها في الجَمَد ويجرّ نفسهُ بواسطتها . ومع ان هذا البال ضخم الجثة واسنانهُ هائلة المنظر فلا يضرّ بالصيادين ضررًا فادحًا (٢) . اذ ليس لهُ في مقدَّم فمهِ اسنان ويتعذَّر عليهِ اكل اللحوم فيأكل اعشاب البحر والحيوانات الصدفية . وانما هاجمة الدب الابيض دافع عن نفسهِ باسنانهِ التي هي سلاحهُ الوحيد

اما بيوت الكريلنديين فمبنية من حجار ضخمة ومسقوفة باخشاب تسوقها

مجاري المياه. ولما كان برد تلك البلاد قارسًا خلت من الاشجار والحبوب واصبح الكرينلندي ضنينًا(٤) جدًّا باخشابهِ فلا يستعملها وقودًا بل يدفّئ بيتهُ بالمصباح



ة



ث

البال

الكثير القنائل كالاسكيمي ويقطن المنزل الواحد عندهم عيال كثيرة تفصل كلًّا منها حواجز خشبية . ولهذه البيوت طاقات وكُوًى ضيقة جدًّا لا يدخلها الاَّ النزر(٥) القليل من الهواء . ومتى دخلها احد يجب ان يزحف على بطنهِ في دهليز مظلم

والكرينلندي مولع كالاسكيمي بصيد عجل البحر طمعًا بلحمهِ . ولا يفتأُ معلقًا وعاء الطبخ على المصباح النهار كلهُ . واذا زارهُ زائر قدَّم لهُ قليلاً من اللحم على سبيل الضيافة . ويستعيض الكرينلندي بهذه اللحوم وبما يصيدهُ من الرنَّة عن الحبوب والبقول اذ لا وجود لها في تلك الربوع

(١) ليجتنبوا (٢) سفينة صغيرة (٣) شديدًا (٤) بخيلاً
(٥) ما لا يُعتَدُّ بهِ

لابلندا واللابلنديون

لابلندا واقعة في اقصى شمالي اوربا عند المنطقة المتجمدة. واهلها قصار القامة يسكنون المضارب. فتراهم تارة يتسنّمون[1] الجبال وتارة يتبطّنون الوهاد[2]. حرصاً على حيوان تتوقف عليهِ معيشتهم وهو الرنّة. فمتى اقبل الصيف يظهر بعوض لدّاع يلذع الحيوان المذكور فيولّه فيفرّ الى الجبال فيتبعهُ اللابلندي حيث يضرب خيمتهُ. ومتى جاء الشتاء يغيب البعوض فيسوق اللابلندي رنّتهُ الى السهول

اما خيمة اللابلندي فصغيرة ضيقة الباب حتى لا يكاد الانسان يدخل فيهِ. وليس لتلك الخيمة مدخنة فيخرج الدخان من منفذ صغير في اعلاها ومتى خرج سوّد وجوه سكانها فامسوا كالزنوج. ولا يضيئون في تلك الخيام مصابيح او شموعاً بل يقتصرون على ضوء النار. ويجلسون ويضطجعون على جلود منشورة على الارض. ولا اثاث عندهم ولا رياش[3] الاّ ما ليس جديراً بالذكر. ولا ساعات عندهم لمعرفة الوقت بل يستدلّون عليهِ بالنظر الى الشمس

والغني عندهم مَن وفر عدد ما يملكهُ من حيوان الرنّة. لان اللابلندي قلّما ياكل سوى لحمها ولبنها ومتى قدم الشتاء وطار الدجاج البرّي الى اقطار اخرى وجمد ماء البحر حتى تعذّر صيد الاسماك يذهب الى قطيع الرنّة ويذبح منهُ حيواناً فيقوم عندهُ مقام الغنم والبقر

ويحلب اللابلندي اناث الرنّة مساء ويستخرج منها لبناً خاثراً حلواً تفوق لذتهُ لبن البقر وتصنع منهُ زوجتهُ جبناً. غير انهُ لا يصنع السمن ولا يستعملهُ في طعامهِ

وفضلاً عن نفع الرنّة للحوم والالبان يجرّ المركبات على الثلوج بدلاً من الخيل اذ لا وجود لها عندهم. فينوط اللابلندي قرونها بسير جلدي عوضاً

عن اللجام ويسافر اياماً عديدة بدون مانع . ويصنعون هنالك من جلد الرنّة كساء وبساطاً ودثاراً وكل ما يفتقرون اليهِ من الرياش. وعليهِ اصبحت حياتهم مرتبطة كل الارتباط بهذا الحيوان لانهُ يكسوهم ويقوتهم وينقلهم من مكان الى آخر فلا بدع اذا احبوهُ وقدّروا بهِ غنائم

اما قوت هذا الحيوان فالاشنة النابتة تحت الثلوج . ومتى اقبل الشتاء وكثر الجمد يجول يفتش عن الطحالب. فينبش بخطيهِ الثلج ويبلغ منبت الاشنة ويأخذ يتبلّغ بها قانعاً. وليس لهذا الحيوان مأوًى او زريبة فيجول في الفلوات فوق الثلوج تحت البرد القارس ولا يلمّ بهِ ضرر. ولو عاشت الخيل والابقار هنالك على هذا المنوال لنفيت عن آخرها . امّا الرنّة فقد خصّ بها الخالق الحكيم تلك الاقطار لقيام حياة اللابلنديين وعزائهم

---

(١) يرقون (٢) يسيرون وسط الوديان (٣) اللباس الفاخر (٤) نوع من النبات

ايسلاندا والغياسر وجبل هيكلا

إِنَّ أَيْسلَانْدَا وَاقِعَةٌ قُرْبَ ٱلْمِنْطَقَةِ ٱلْمُتَجَمِّدَةِ. فَوْقَ هِضَابٍ وَآكَامٍ وَصُخُورٍ تَكْثُرُ فِيهَا ٱلْحِجَارُ ٱلسَّوْدَاءُ وَٱلْمَوَادُّ ٱلْمُحْتَرِقَةُ ٱلْبُرْكَانِيَّةُ . وَفِيهَا جَبَلُ هِيكْلَا ٱلْأَبْيَضُ ٱلرَّأْسِ ٱلْمُشْتَعِلُ ٱلْجَوْفِ

وَتَمْتَدُّ ٱلنِّيرَانُ فِي جَوْفِ هٰذَا ٱلطَّوْدِ[١] ٱلْبَاذِخِ[٢] إِلَى أَمَدٍ

بَعِيدٍ. فَتَلْتَقِي فِي سَبِيلِهَا بِمِيَاهٍ غَزِيرَةٍ فَلَا تَنِمُّ(٢) هٰذِهِ ٱلْمِيَاهُ حَتَّى تَغْلِيَ وَتَجِيشَ(٤) مِنْ فِعْلِ ٱلنَّارِ. وَإِذَا وَضَعْتَ أُذُنَكَ قُرْبَ ٱلْأَرْضِ سَمِعْتَ أَزِيزَ ٱلْبُخَارِ وَزَمْزَمَةً تُحَاكِي هَزِيمَ ٱلرَّعْدِ. وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْمَاءَ وَٱلنَّارَ أَخَذَا يَلْتَقِيَانِ بِبَعْضِهِمَا. وَمَتَى وَجَدَ ٱلْمَاءُ مَنْفَذًا خَرَجَ شُؤْبُوبًا(١) كَمَا مِنْ يَنْبُوعٍ وَتَسَاقَطَ حَارًّا جَائِشًا فَتَسْتَطِيعُ سَلْقَ بَيْضَةٍ فِيهِ. وَيَظَلُّ نَاشِبًا وَمُرْتَفِعًا إِلَى أَنْ يُكَوِّنَ بِرْكَةً صَافِيَةً حَوْلَهَا ٱلْحِجَارُ ٱلْمُتَرَامِيَةُ مَعَ ٱلْمِيَاهِ. ثُمَّ يَكُفُّ بُرْهَةً وَيَعُودُ إِلَى عَمَلِهِ بِقُوَّةٍ. وَهٰكَذَا عَلَى ٱلتَّوَالِي وَٱلتَّعَاقُبِ.

وَيَقْصِدُ ٱلسُّيَّاحُ هٰذِهِ ٱلْيَنَابِيعَ لِلْفُرْجَةِ عَلَيْهَا. فَيَرَوْنَ عِدَّةَ شَآبِيبَ وَمَيَازِيبَ تَطْرَحُ أَمْوَاهَهَا إِلَى عُلُوٍّ شَاهِقٍ. وَيُعَايِنُونَ تِلْكَ ٱلْبِرَكَ ٱلْحَارَّةَ تَحْتَهَا تَئِزُّ(٢) وَتَجِيشُ. وَٱلْأَرْضُ تَدْمَدِمُ كَٱلرَّعْدِ وَٱلدُّخَانُ يَتَصَاعَدُ مِنْ ذُرْوَةِ ٱلْجَبَلِ ٱلْمَكْسُوِّ بِٱلثُّلُوجِ. فَيُؤَلِّفُ مَجْمُوعُ ذٰلِكَ مَشْهَدًا يَأْخُذُ بِمَجَامِعِ ٱلْقُلُوبِ.

وَقَدِ ٱشْتَعَلَ جَبَلُ هِيكْلَا مُذْ عِشْرِينَ سَنَةً ٱشْتِعَالًا هَائِلًا حَتَّى بَلَغَ رَمَادُهُ جَزَائِرَ أُورْكِنِي بِقُرْبِ سَاحِلِ إِيقُوسِيَا فَزُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَسُمِعَتْ أَصْوَاتٌ رَائِعَةٌ تَفُوقُ هَزِيمَ ٱلرَّعْدِ قُوَّةً. وَإِذَا بِٱلْجَبَلِ ٱنْشَقَّ وَتَفَجَّرَ وَأَخَذَ بِإِلْقَاءِ ٱلنِّيرَانِ وَٱلدُّخَانِ وَتَسَاقَطَتِ

ٱلْمَصْهُورَاتُ[7] وَٱلْحُمَمُ[8] تَجْرِي عَلَى جَوَانِبِهِ وَحَرَقَتْ كُلَّمَا صَادَفَتْهُ فِي سَبِيلِهَا. وَكَانَ مَنْظَرُ ذٰلِكَ ٱلْجَبَلِ مِمَّا يَهْلَعُ ٱلْفُؤَادَ مُلْتَحِفًا بِضَبَابٍ وَبُخَارٍ وَرَمَادٍ. وَكَانَ هُنَالِكَ نَهْرٌ بَارِدٌ جَارٍ قُرْبَهُ فَسَخُنَ مَاؤُهُ وَمَاتَتْ أَسْمَاكُهُ فِي ٱلْحَالِ

وَلَمْ يَنْقَضِ أُسْبُوعَانِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْحِينِ حَتَّى ٱسْتَأْنَفَ ٱلْجَبَلُ عَمَلَهُ ٱلْهَائِلَ. فَٱرْتَعَدَتْ قُلُوبُ أَهْلِ ٱلْجَزِيرَةِ فَرَقًا[9] وَجَرَتِ ٱلْمَصْهُورَاتُ مَسَافَةً تَزِيدُ عَنِ ٱلْعِشْرِينَ مِيلًا. وَحَاكَتْ نَهْرًا نَارِيًّا عَرِيضًا يَزِيدُ عَنِ ٱلْمِيلِ. ثُمَّ ذَابَ ٱلْجَمَدُ وَٱلثَّلْجُ ٱلَّذِي عَلَى ٱلْقِمَّةِ. وَأَجْرَى سَيْلًا عَرَمْرَمًا طَغَى عَلَى تِلْكَ ٱلْبِلَادِ فَتَلِفَتِ ٱلْغِلَالُ وَٱلْمَحْصُولَاتُ وَمَاتَتِ ٱلْمَاشِيَةُ. وَأَلَمَّ بِٱلسُّكَّانِ أَرْزَاءٌ فَادِحَةٌ[10]

وَبَيْنَمَا كَانَ ٱلْجَبَلُ يَلْفِي تِلْكَ ٱلْمَصْهُورَاتِ كَانَ ٱلرَّعْدُ يُدَمْدِمُ وَٱلْبَرْقُ يُومِضُ وَٱلْأَنْوَارُ ٱلْحَمْرَاءُ تَتَصَاعَدُ إِلَى عَنَانِ ٱلْجَوِّ. وَكَانَتْ بَعْضُ ٱلْحِجَارِ ٱلْمُتَرَامِيَةِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْأَتُونِ[11] ضَخْمَةً جِدًّا تَحْمِلُهَا قُوَّةُ ٱلنَّارِ إِلَى مَسَافَةِ خَمْسَةِ أَمْيَالٍ أَوْ يَزِيدُ

وَلَا يُوجَدُ فِي أَيْسْلَانْدَا سِوَى مَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ بِقُرْبِ شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ أَشْبَهَ بِقَرْيَةٍ كَبِيرَةٍ. وَلَا يَقْطُنُ ٱلْقَوْمُ هُنَاكَ إِلَّا عَلَى

السواحل البحرية لصيد الأسماك

أما بيوتهم فصغيرة ومبنية من الخشب ينقشون أبوابها ويلونونها للزينة. ولما لم تكن فنادق للمسافرين في هذه البلاد استعملوا الكنائس لهذه الغاية. والعجب أنك ترى في هذه المعابد صناديق جمة يضعون ضمنها الثياب. وليست لهذه الكنائس أقفال ولا مفاتيح فيدخلها من شاء بلا معارض ويضع في صندوقه ويأخذ منه ما يريد. ويودع الفلاح عياله وجواليقه في الكنيسة. ويأكل المسافرون فيها ويبيتون

وللايسلانديين جياد صغيرة سريعة الجري تخب وتهمج[4] في عقاب ذلك الصعيد وعراقيبه ويندر أن تعثر. وهم يصيدون الأسماك صيفًا ويملحونها ويقددونها للشتاء ويأكلونها بالسمن. ويكاد يكون ذلك طعام الفقراء الوحيد. أما الأغنياء فيأكلون لحوم البقر والضأن وخبز الذرة. لأن الحنطة لا تنمو في ذلك القطر

---

(١) جبل (٢) عالٍ (٣) تبطئ (٤) تهمج
(٥) دفعة من المطر (٦) يشتد غليانها (٧) المواد الذائبة
(٨) كلما احترق من النار (٩) فزعًا (١٠) ثقيلة
(١١) الجبل العظيم (١٢) تجدّ في السير

هنود اميركا او سُكانها الاصليُّون

ولباسهم ومعبوداتهم وطبهم

هنود اميركا طوال القامة حسان المنظر لولا وشم[١] اجسامهم وتلوينها. وهم يحتذون بسيور يلفّونها حول اقدامهم. ويلبسون جوارب من أدم[٢] او نسيج يحيطونها حول ارجلهم ولا ينزعونها قط. ويرتدون بقميص قصير يلفّون فوقهُ منطقة من جلد. ويزينون رؤُوسهم بريش الطيور الملوَّنة. ويتقشون اجسامهم بالالوان والصوَر الغريبة

ولهم كساءٌ للزينة يلبسونهُ في اعياد واحتفالات معينة فقط. وهو مصنوع من جلد الجاموس او الأيّل ولهُ على اطرافهِ حواشٍ من شعور البشر الذين قتلوهم في الحروب

ويعبد هولاءِ الهنود الهًا يسمُّونهُ الروح العظيم ويدعونهُ ابًا. ويذهبون الى وجود روحٍ شرّير يستطيع الغلبة على الروح الصالح فيرهبونهُ ويتّقون بأسهُ خشية اصابتهم بالاضرار والاسواء. ومتى مرض الهندي وشعر بدنوّ اجلهِ بعث فدعا برجل العلاج او الطبيب فيصف لهُ هذا الدجّال او المشعوذ علاجات صنعها من اعشاب الغابات. اما هذا العلاج فاما ان ينفع العليل او يضرّهُ لكنهُ مضطرٌّ الى أخذهِ في كل حال لان لا طبيب غيرهُ (من نوعهِ) هناك. ويدّعي هذا الرجل بالسلطة على الروح الشرّير ولذلك يدعوهُ الهندي ساعة احتضارهِ[٣] فيأتي لابسًا جلد وحش كاسرٍ حتى تخالهُ[٤] الوحش نفسهُ داخلًا. ويأخذ يصوّت اصواتًا قبيحة هائلة ويهزّ رمحهُ ويرقص وينفض[٥] العظام ويهزّ

ونيج . فلو نظرتهُ على تلك الحالة لهالك منظرهُ وطردتهُ على الفور . غير ان الهنود ينظرونهُ صامتين صمت الرهبة والمهابة لاعتقادهم ان لتلك الهيئة والاصوات خاصة طرد الروح الشرير

فاذا قضى(٦) العليل وسط ذلك الضجيج والجلبة(٧) قال هذه في مشيئة الروح العظيم ورزم ادواتهِ وانطلق يمارس اعالة الفبيحة عند فراش عليل آخر

(١) غرز الابرة في البدن لتلويثهِ (٢) جلد مدبوغ
(٣) قرب الموت (٤) نظنهُ (٥) القعقعة صوت كسر العظام
(٦) مات (٧) اختلاط الاصوات

هنود اميركا

اطفالهم وفتيانهم وشيوخهم ومسكنهم

وتحمل النساء اطفالهنَّ على ظهورهنَّ في شبه اسرَّة خشبية مستطيلة مكشوفة لها إطارات(١) خشب ضيقة لضبط الطفل منتصباً لا يستطيع الحراك . فتربط المرأَة الإطار الاعلى بسير وتعلّقهُ برأسها وتذهب بهِ اينما شاءت . وتحب المرأَة الهندية طفلها محبة شديدة واذا مات ابدت من الاشجان والاحزان والعويل ما يقصر عن وصفهِ اليراع وملأَت سريرهُ الفارغ بالريش وحملتهُ على ظهرها شهوراً . ومتى جلست وضعتهُ بقربها مُسنَداً الى جدار خيمتها . وندبت صاحبهُ المتوفى ونعتهُ ورثتهُ رثاءً شجياً

ومتى كبر الطفل اخرجتهُ والدتهُ من السرير وسمحت لهُ بالزحف على

الاعشاب وعمل ما يريد . ثم متى شبَّ واستطاع المشي يطلق ابواهُ له العنان فيذهب للسباحة في النهر والطراد مع ابيهِ في البوادي لقنص الوحوش وسماع قصص الشيوخ المتجثة عن المعارك التي خاضوا غمارها[٢] وعدد القتلى الذين اقتحموا بهم الاعداء

غير ان الغلام لا يكون قد بلغ حينئذٍ السن الذي يؤهّلهُ للانتظام في سلك رجال البأس والحرب . فيتحتم عليهِ التربص والانتظار ريثما يبلغ السادسة عشرة. فيغادر[٣] اوانئذٍ اللعب مع الاولاد ويحاول الانخراط مع رجال الحرب . فينكرون عليهِ ذلك ولا يسمحون له بما يروم حتى يأتي بجراب العلاج اما كيفية حصولهِ عليهِ فمن غرائب الامور

وذلك بان يذهب الفتى الى غار بعيد عن عشيرتهِ ويجلس على الارض صائماً اربعة ايام متوالية. فتشرق عليهِ الشمس وتغيب بدون ان يذوق طعاماً او يشرب ماء لانهُ عزم على الصيام الى ختام هذه الايام ولو ادّى ذلك الى حتفهِ. فتأخذ قوتهُ بالانحطاط وهمّتهُ بالفتور ويضطجع على الثرى مغمضاً عينيهِ . فيتصوّر في نهاية الزمن المعيّن ان الروح العظيم انبأهُ عن سرّ صنع جراب العلاج

وتكون حالتهُ وحينئذٍ حال سبات تتخللهُ احلام عن امور عاينها في اليقظة كصيد الجاموس ونحوهِ . ومتى استيقظ تخيّل ان الروح العظيم انبأهُ عن صنع الجراب من جلد الجاموس غير ان ذلك لم يكن سوى اضغاث احلام. لانهُ اذا رأى في نومهِ كلباً او فرساً او جرذاً يخطر له ان قد أُوحي اليهِ بصنع الجراب من جلدهِ

وعلى هذا يصنع الهنود جُرُبهم من جميع المواد الموجودة تحت الشمس . فينهض ذلك الفتى المسكين خائر العزم مصاباً بالدوار ويخرج من الغار مترنحاً[٤] مرتجفاً كالنشوان[٥] . ومتى بلغ المضرب[٦] طلب طعاماً فتأتي له به أمّهُ في الحال. فيلتهم منهُ قدراً كبيراً ثم يتأهب لصيد الجاموس . فيمتطي جوادهُ ويطلق له العنان الى البادية

ثم متى وقع بصرهُ على جاموس لا يهولهُ منظرهُ الرائع ولا شعرهُ الكث[٧] الملبد ولا قرناهُ الهائلان وعيناهُ البراقتان بل يحث نحوهُ فرسهُ السريع ويسبقهُ ذهابًا[٨] وإيابًا[٨] ثم يصوب اليهِ السهم القتال ويرميهِ باسرع من لمح البصر. ثم يطلق عليهِ سهمًا آخر ثم آخر الى ان يقع مجندلًا[٩] على الثرى

ولا تعوز الغلام مواد لصنع ذلك الجراب فيبادر لعملهِ. وحينئذٍ يحق لهُ الانتظام في سلك رجال قومهِ وشجعانهم. ويذهب الهندي الى ان هذا الجراب يقيهِ من اضرار الروح الشرير ولا يحب ابدالهُ بمال العالم ولا تستطيع شراءهُ منهُ بالدراهم ولو أديت لهُ ملئهُ ذهبًا. الَّا اذا صادف احد دعاة الانجيل واهتدى الى الدين المسيحي وعرف عن الاله القدير ووقايتهِ لهُ نهارًا وليلًا فيغادر ذلك الجراب ويطرحهُ الى الرياح

ومتى طعن الهندي في السن وهرم وتعذر عليهِ الصيد والسفر والقتال والرقص اصبح كلًّا[١٠] على اولادهِ وعشيرتهِ فيتخلصون منهُ بالطريق الآتية. وذلك بان يأخذوهُ الى البادية حيث ينصبون لهُ مظلة ويزودونهُ بقليل من الطعام والشراب ثم يودعونهُ وينطلقون. فيظل وحدهُ في تلك الصحراء لا سمير لهُ ولا جليس محاطًا بجلبة النمور وخوار الجواميس وهو غير مبالٍ بذلك بل يرضخ[١١] للقدر المحتوم صابرًا. لانهُ حين كان شابًا غادر اباهُ على هذا المنوال نفسهِ. فيقول لاولادهِ ان يذهبوا ويتركوهُ لانهُ امسى ثقلًا عليهم وتجدر بهِ المواراة عن ابصارهم. فيموت ذلك المنكود الحظ جوعًا او فريسة الضواري. وكثيرًا ما يمرّ السياح في تلك الطريق فيشاهدون خيمة جلد صغيرة فيدخلونها واذا برمة عظام منتشرة على ترابها. وهي قد باتت جدثًا لذلك الشيخ الذي دُفن فيها حيًّا

والهنود يقطنون خصاصًا خشبية او خيامًا مصنوعة من جلد الجاموس. يرفعونها على اعمدة طويلة ويدبغونها دبغًا حسنًا حتى تصبح لينة الملمس جميلة المنظر لا تؤثر بها الامطار بل تسيل عليها فتجف في الحال وتزداد لينًا.

فيخيطون هذه الجلود بعضها مع بعض ويصنعون منها مضربًا فسيحًا ينقشونهُ بصور اشخاص وحيوانات وطيور مختلفة

(١) خشب النخل وكل ما احاط بشيء (٢) الماء الكثير (٣) يترك (٤) مقابلاً من سكر وغيره (٥) سكران (٦) الخيمة الكبيرة (٧) كثيف (٨) اسراعًا (٩) صريعًا الى الارض (١٠) تذللاً (١١) يخضع

هنود اميركا

أَعْيَادُهُمْ

لِهُنُودِ أَمِيرِكَا عِيدٌ يُسَمُّونَهُ عِيدَ ٱلذُّرَةِ ٱلْخَضْرَاءِ. يَتَأَهَّبُونَ لَهُ بِٱلِٱنْقِطَاعِ عَنِ ٱلْأَعْمَالِ وَٱلْقِتَالِ حَتَّى عَنْ مُنَاوَلَةِ ٱلطَّعَامِ فَيَتَضَوَّرُونَ⁽¹⁾ جُوعًا إِضْرَامًا لِشَهْوَتِهِمْ. ثُمَّ مَتَى آنَ ٱلْأَوَانُ وَجُسَّ ٱلنِّسَاءُ ٱلْحُبُوبَ فَرَأَيْنَهَا صَالِحَةً لِلْأَكْلِ يَحْتَشِدُ أَهْلُ ٱلْقَرْيَةِ مَعًا إِلَى ٱلسَّاحَةِ ٱلْفَسِيحَةِ وَيُضْرِمُونَ نَارًا يَضَعُونَ عَلَيْهَا مِرْجَلًا كَبِيرًا يَمْلَأُونَهُ بِٱلذُّرَةِ. ثُمَّ يَأْخُذُونَ بِٱلرَّقْصِ وَٱلْغِنَاءِ حَوْلَهُ حِينَ سَلْقِ ٱلذُّرَةِ مُحِيطِينَ بِهِ إِحَاطَةَ ٱلسِّوَارِ بِٱلْمِعْصَمِ. فَيَرْقُصُ ضِمْنَ هٰذِهِ ٱلْحَلْقَةِ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ مِنْ أَطِبَّائِهِمْ أَوْ

مشعوذيهم(١) حاملين بأيديهم سنابل الذرة(٢) وأجراساً يجلجلون(٣) بها. ويطوق هذه الحلقة زعماء القوم ورجال الحرب حاملين سنابل الذرة أيضاً راقصين ومنشدين نشائد الشكر للروح العظيم ويقدمون له مرجل الذرة الأول.

ثم يضرمون ناراً غيرها يضعون عليها المراجل. ومتى نجز الطبخ شرع الزعماء باللقم أولاً من جفان(٥) يضعونها على الأرض وبيد كل منهم ملعقة مصنوعة من قرن الجاموس. ومتى فرغ هؤلاء من الطعام أحاط سائر رجال العشيرة وأولادها بتلك الجفان في نوبتهم والتهموا قدر ما استطاعوا بينما رفاقهم يرقصون ويغنون ويفرحون. ويدوم هذا العيد إلى فراغ الذرة الخضراء. أما الفضلة الباقية فيتركونها في الحقول إلى أن تنضج للحصاد.

وللهنود عيد آخر يسمونه عيد الشراب يدوم يومين أو ثلاثة ينقطعون في خلالها عن مناولة الطعام والعمل ولا يشتغلون بشيء سوى نهل الشراب. وهو مسكر قوي تصنعه النساء من أصول نبات اسمه مانيوق. وذلك بأن يقطعن هذه الجذور قطعاً ويغلينها على النار حتى تلين. ومتى بردت يمضغنها

بِأَفْوَاهِهِنَّ. ثُمَّ يَضَعْنَهَا بَعْدَ ٱلْمَضْغِ فِي وِعَاءِ مَاءٍ وَيَغْلِينَهَا ثَانِيَةً عَلَى ٱلنَّارِ وَهُنَّ يُحَرِّكْنَهَا. ثُمَّ يَصُبِبْنَهَا فِي جِرَارٍ وَيَدْفِنَّهَا تَحْتَ أَرْضِ ٱلْبَيْتِ بَعْدَ سَدِّهَا سَدًّا مُحْكَمًا. وَبَعْدَ بِضْعَةِ أَيَّامٍ يَأْخُذُ ٱلشَّرَابُ بِٱلِٱخْتِمَارِ وَحِينَئِذٍ يَبْدَأُ ٱلْعِيدُ

فَتُضْرِمُ ٱلنِّسَاءُ ٱلنَّارَ حَوْلَ تِلْكَ ٱلْجِرَارِ لِتُسَخِّنَهَا. ثُمَّ يُهَرْوِلُ(١) رِجَالُ ٱلْقَرْيَةِ إِلَى ٱلْبَيْتِ بِٱلرَّقْصِ وَٱلْغِنَاءِ. فَتَدُورُ ٱلنِّسَاءُ عَلَيْهِمْ بِطَاسَاتِ ٱلشَّرَابِ ٱلْمَصْنُوعَةِ مِنَ ٱلْيَقْطِينِ. فَيَظَلُّونَ يَنْهَلُونَ وَيَرْقُصُونَ وَيَعْرْبِدُونَ(٢) حَتَّى يَأْتُوا عَلَى آخِرِ قَطْرَةٍ مِنْ ذٰلِكَ ٱلشَّرَابِ. وَمَتَى فَرَغَتْ جِرَارُ ٱلْبَيْتِ ٱلْوَاحِدِ ٱنْطَلَقُوا إِلَى غَيْرِهِ وَٱسْتَأْنَفُوا ٱلْعَمَلَ إِلَى أَنْ يَنْفَدَ(٥) ٱلرَّاحُ مِنْ جَمِيعِ ٱلْبُيُوتِ

---

(١) تلوّى من ألم الجوع (٢) مَن يري الشيء بغير ما هو عليه لخيّة في اليد (٣) (شماميط) (٤) يصوّتون شديدًا (٥) قصاع كبيرة (٦) يسرع في المشي (٧) تسوء اخلاقهم من السكر (٨) يفرغ

هنود اميركا

جاموسهم وصيده

قد خصّ الخالق القدير كل امّة برزق يلائم قطرها وهواء بلادها . واعطى اللابلندي الرنّة والاسكيمي عجل البحر والحوت والبدوي الجمل والتمر وابن المنطقة الحارّة جوز الهند والاثمار الرطيبة والهندي الاميركي الجاموس



وهو حيوان وافر العدد في تلك الاقطار يتألّب[1] قطعانًا تُعدّ بعشرات الالوف تسرح وتمرح في تلك الواحات والمفاوز[2] الفسيحة الارجاء وتمدّ عشائر الهنود بطعام دائم تتعذّر عليهم الحياة بدونهِ . فيولمون الولائم صيفًا ويقدّدون لحمهُ شتاء ويصنعون من جلدهِ لباسًا حسنًا ومضربًا فسيحًا وفراشًا ودثارًا[3] واحذية وسروجًا ولجمًا واسواطًا . ومن عظامهِ قنبًا[4] ومقامع حرب وآلات موسيقية وملاعق ومغارف ودبابيس وحرابًا . ومن عروقهِ اوتار اقواس وخيوطًا لخياطة الثياب والخيم . ومن حوافرهِ الغراء النفيس . ومن مُلّبهِ[5] الحبال

والقناود والبرشّات . والخلاصة انك ترى معيشة هنود اميركا جميعًا تتعلق على الجاموس

وللهنود براعة فائقة بدبغ الجلود ومعالجتها حتى يكاد ينحصر بها رزقهم واثاثهم وادوات مسكنهم . وهم يصيدون الجاموس على خيل سريعة الجري يقتصونها في البوادي . وذلك بان يمتطوا صهوات الجياد المطبّعة ويطاردون الخيول البريّة ويرمونها باحبولة⁽٦⁾ تحاكي الشبكة لها انشوطة⁽٧⁾ يشدّونها حول اعناقها شدًّا وثيقًا ويجرّونها الى خيامهم حيث يدأبون بتطبيعها فتصبح اليفة سهلة القياد . وعلى هذا كانت البادية تمدّ الهندي بالخيل والجاموس معًا

ومتى ذهب الهندي الى صيد الجاموس اطلق العنان لفرسهِ حاملًا على ظهرهِ جعبة الملأى بالسهام فينطلق بهِ الجواد يخبّ على ذلك الصعيد . حتى اذا لحق بقطيع الجاموس سدّد نحوهُ النبال ولايكاد يخطئ المرمى . ويظلّ ينشب السهام كوميض البرق الى ان يصيب مقاتلها ويظفر منها بالرزق الواسع

وللهنود ايام صيد مذكورة يحتشد فيها رجال القرية ممتطين جيادهم ينهبون الطريق حتى يبلغوا الواحة حيث قطيع الجاموس يرعى الاعشاب . فيحيطون بهِ احاطة الهالة بالقمر ثم يزأرون كالاسود ويهجمون عليهِ مصوّبين نحوهُ السهام ويرشقونهُ بها من كل صوب . فتسمع حينئذٍ ضجيجًا وضوضاء وجلبة تكاد ترميك بالصمم . ويرتفع العثير⁽٨⁾ الى عنان الجوّ . وتختلط الخيل والجواميس والرجال معًا اختلاطًا هائلًا . وتشاهد عراكًا وملحمة دمويّة تنجلي غالبًا عن نصرة الصيادين . لان للهنود خفّة غريبة ورشاقة ومهارة برمي السهام وركوب الخيل . واذا سقط احدهم عن جوادهِ عاد فعلاهُ متنهُ باسرع من لمح البصر وبلغ مكان الأمن

ويدوم القنص الى ان تفرغ الجعب ويصرع القطيع عن آخرهِ الى الثرى مضرّجًا بدمائهِ . ومتى نجز الصيد يذهب الصيادون تاركين الجاموس ركامًا متلبدة في ذلك الميدان . ثم تأتي النساء في اليوم التابع لاكمال العمل . لان الرجال

يظنون انهم اكلوا ما فُرض عليهم فيجلسون في المضارب يدخنون. وتأخذ النساء بسلخ الجواميس وتقطيع لحوحها . وهذا عمل شاقّ يشغل زمانًا مديدًا ثم يرجعنَ الى الخيام حاملات احمالاً ثقيلة يوشكنَ السقوط تحتها

فتعلو اصوات الفرح في العشيرة لوفرة الطعام . ويحمل الرجال رؤوس الجواميس الكبيرة وقرونها على اكتافهم ويرقصون رقصًا جنونيًّا . ومتى اعيا احدهم من شدَّة الحركة وعزم على الانحناء او التوكّؤ يرميهِ احد الحضور بسهم مكسور الطرف فيتهاوت ساقطًا الى الارض فتحمل النساء مُداهنّ لذبحهِ كأنَّهُ جاموس ويجررنَهُ الى الخارج. ويدوم الرقص الى ان تُجَرَّ تلك الجواميس البشرية الواحد بعد الآخر وتغيب عن العيان . ثم يأمر المشعوذ باستئناف الرقص فيدخل الرجال ويرقصون اياماً متوالية الى ان تأتيهم انباء تبشّرهم بحضور قطيع آخر من الجاموس . ويعتقدون ان الرقص على هذا المنوال كان ناجحًا على جذبهِ . فمتى وردت اليهم البشائر ينتهي الرقص ويقبض الرجال اعنَّة الصافنات(٩) وينطلقون ركضًا الى الصيد. وحينئذٍ يهتف الطبيب الدجَّال هتاف الشكر والاستحسان . ويجري الصيادون في صيدهم على المنهاج الآنف الذكر

---

(١) يتجمَّع (٢) الفلوات لاماء فيها (٣) ما يتغطى بهِ النائم (٤) برذعة الحمار (٥) الشعر الغليظ (٦) مصيدة من حبل طويل (٧) عقدة يسهل انحلالها (شوطة) (٨) التراب والغبار (٩) من الخيل القائم على ثلاث قوائم

الارياف المشتعلة في اميركا

ان غرائب الطبيعة في هذه القارة العجيبة وافرة جدًّا . ففيها الانهر الكبيرة والغياض الفسيحة والطيور البديعة الالوان والاشكال والوحوش والجوارح النادرة المثال . والواحات او السهول الواسعة الممتدة اميالاً لا يدرك البصر نهايتها . فهذه السهول تكثر فيها الاعشاب والنباتات التي تجف صيفًا وتحترق بجمرة تسقط من اثافي(١) الهنود او شرر يتناثر من غلايينهم او من احتكاكها بعضها ببعض فتشتعل اشتعالاً هائلاً

واذا لم يتدارك الهنود النار بتجريد الارض حولها من الاعشاب منعًا لانتشار اللهيب اندلع لسان النار الى سائر الجهات وانتشر انتشارًا يروع الابصار ويهلع(٢) القلوب . فتدرك وحوش تلك السهول بالسليقة شبوب النيران فتعدو عدوًا شديدًا الى كل الجهات فرارًا من لهيبها . فتعاين الخيل البرّية تجري كهبوب الرياح واعرافها طائرة في الهواء والجواميس تركض باشدّ قوّتها . والنمور تحت الخطى قطعانًا في عواء وهرير . والنسور تحوم في الهواء . وسائر الحيوانات في سباق وطراد وصياح وزعيق وتعب وارتباك والنار تزداد شبوبًا واضطرامًا وزمزمةً(٣) وامتدادًا . فتحالها امواج بحرٍ حمراء او سيولاً قرمزية متدفقة يتعذّر(٤) حصرها او اطفاؤها . واذا القت المقادير السيّاح وابناء السبيل في تلك السهول المشتعلة باتوا فريسة حرّها ان لم يتداركوا الخطب(٥) بالفرار السريع او بتجريد الارض حولهم من الاعشاب قبل وصول النار اليهم

(١) حجار توضع عليها القدر للطبخ (٢) يقلق جدًّا (٣) صوت بعيد له دويّ (٤) يتعسّر (٥) امر مكروه

آجام اميركا والحدأة

أجمة الارز في اميركا دغل[١] مظلم ملآن باشجار الارز الباذخة[٢]. وهذه الاشجار اثيثة[٣] متلاصقة بعضها ببعض حتى يتعسر المرور بينها. وهي ذات جذوع مجرَّدة الأ عند رؤوسها حيث ترى اغصانًا مشتبكة اشتباكًا يحجب النور عن الابصار. ومتى هبَّ الهواء تهتز تلك الجذوع وتحف بعضها ببعض وتصوّت اصواتًا رائعة[٤]

فهذه الآجام يصعب على الانسان اختراقها. اما ارضها فنمقة[٥] موحلة اذا حاول الرجل المشي عليها غاص في الوحل الى ركبتيهِ. وهنالك قِطَع حطب كبيرة تسدّ الطريق وقتاد[٦] وسياج وغار وعُلّيق كثيف مالئ السبيل يتخلل تلك الأجمة كلها. وفيها ايضًا بُرَك وبُحيرات كبيرة تسبح فيها التماسيح والكركدن وتكمن في الوحول لانها تحب ظلام تلك الغابات

وهنالك ايضًا مالك الحزين والحدأة او الرخم المولعة كالتمساح بأجمة الارز. وهي طائر ليليّ كالبوم يطير في دجى الليل البهيم. وترد منهُ اسراب في فصل الربيع الى هذه الأجمة وتستقرّ على اطراف الاشجار. اما الفراخ التي لا اعشاش لها فتشرع في العمل وتبني اوكارها في رؤوس الاشجار العالية

اما انثى الحدأة فتضع اربع بيوض اكبر قليلاً من بيض الدجاج. ومتى نقفت[٧] البيوض عن الفراخ وتقتّى عليها بضعة اسابيع تأخذ بالتسلق[٨] على الاغصان. فلا يخيّم الظلام حتى تخرج الحدآت من اوكارها في طلب الطعام فتعوم على الماء وتنتصب على قدميها مترقبة الاسماك والضفادع. حتى متى لمحت سمكة تدانيها تثب عليها وتخطفها بمنقادها الطويل وتفترسها. ولا يعوز هذه الطيور زادًا لوفرة الاسماك والحشرات في تلك البحيرات. غير ان الضفادع اشدّ يقظةً وحذرًا من الاسماك فانها متى رأت الحدأة تغوص في الوحل وتحتجب

زماناً راجيةً ان يطول على الحدأة امد الانتظار فتنصرف . غير ان الحدأة شديدة المكر والدهاء جزيلة الصبر . فتلبث هناك في ارتقاب وسهر الى ان



يخطر للضفدعة انصراف الحدأة عن وكرها فتمدّ رأسها الصغير من الشقّ فتنشب به الحدأة على الفور منقادها الطويل وتجرّها من الوكر وتفترسها

والحدأة قَرِمٌ (١) شديد للطعام فتصيد اسماكاً وضفادع وافرة العدد . ثم تذهب الى الآجمة حيث تقف على رجل واحدة حتى تهضم الطعام . ثم تستأنف الصيد . والهنود يستحلون ريش الحدأة ويضعونهُ على رؤوسهم للزينة

ترى بالحدأةِ الصبرَ الجميلا فترقبُ صيدَها وقتاً طويلا
وتنتظرُ الفرائسَ في تأنٍ تعلّمنا بهِ الصبرَ الجليلا
فكم خسِرَ العجولُ بطيشِ طبعٍ ومَنْ يأنِ جنى خيراً جزيلاً

ومَنْ رقبَ الزمانَ بفرطِ صبرٍ رأى لنجاحِ مقصدهِ سبيلاً
ففي الفُرَصِ الثمينةِ كلُّ ربحٍ نرى طُولَ الأَناةِ لها دليلاً

(١) شجر كثيف ملتفّ (٢) عالية (٣) كثيرة ملتفة
(٤) منزعة (٥) ذات ندى (٦) شجرة لها شوك (٧) تثبت
(٨) تسوّر (٩) شهوة شديدة الى اللحم

حمام اميركا والكستور وشجرة الماهوكاني

اما غابات اميركا وادغالها فيأوي اليها اسراب حمام تُعَدُّ بالملايين حتى يبلغ طول السرب منها حين طيرانه مئتين واربعين ميلاً وعرضهُ ميلاً واحداً فيحجب نور الشمس . ويدوم اجتيازهُ من مكان الى آخر ثلاثة ايام متوالية . فتراهُ يتلألأُ في نور الشمس بالوانٍ حمراء وخضراء وزرقاء ولهُ حفيفٌ[1] وهزيم يحاكي الرعد . فتذعَر الخيل وتجفل وتركض امواجاً . ومتى بلغ السرب الغابة المقصودة يستقرُّ على الاغصان ويأخذ بالتهام الفواكه والحبوب حتى لا يبقي لها اثراً . ويتلف من الاثمار والفروع ما يزيد عمّا قد تناولهُ . وهذه الطيور تحلّق في الجوّ كثيراً حتى لا يستطيع الصيّادون اصابتها ورميها بالنار والسهام . ولكن متى استقرّت على الارض تلتقط الجوز والبلّوط يسدّدون نحوها المرامي فيصيبون منها عدداً وافراً يزيد عن حاجتهم

وهناك ايضاً الكستور البنّاء والمهندس . فهذا الحيوان يبني بيتهُ في مجرى المياه من الرداغ[2] والصلصال[3] واغصان الشجر . فتجتمع هذه الحيوانات

قطعاناً وتأخذ في بناء مساكنها معاً. وتشيد لها غُرفاً وحُجراً ونوافذ ومداخل مُتقَنة تكاد تضارع بيوت البشر. ولمّا كانت تخشى طغيان الماء على بيوتها وهدمها بسيول الامطار شتاء تبني لها حواجز متينة من قضبان واوتاد تغرزها في ارض النهر وتسدها بالطين

وتقوم اسنانها الحادة مقام المنشار. ولا يقرّ لها قرار حتى تكمل بناء هذه السدود. ومتى كملت تشرع ببناء البيوت العجيبة المنظر. وذلك بأن تنضد[٤] الاغصان بعضها فوق بعض وتلصق اعلاها بما تحته الصاقاً محكماً لا ينقصهُ شيءٌ مما يحتاج اليهِ من هندسة البناء. فيحكم الناظر اليهِ ان جُهّال الاهلين دونها فطنةً ويظن ان حمل تلك الاغصان لا يتأتى لمثلها من الحيوان الحقير لغلظها وضخامتها. وفي هذا المأوى تلد وتتألف. ويقع بينها من التوادّ والتآنس ما يميل بهِ كلٌّ الى صاحبهِ

وهذه الحيوانات تاكل اعشاب المياه وقشور الاشجار والحبوب والخلَى[٥] وما تستطيع العثور عليهِ . وفي الصيف تقطع اغصاناً وعساليج[٦] وانجماً وتضعها قبالة بيوتها لتقتات بها شتاء . ويُصنَع من جلودها كمات[٧] وقبعات للرجال والنساء والهنود يستطيبون لحومها فيقتنصونها لهذه الغاية . اما الاميركيون البيض فللانتفاع بجلودها التي تؤلف صنفاً مهماً في التجارة . ولهذا الحيوان عند عانتهِ كيسٌ يُستخرَج منهُ علاجٌ ثمين يُدعَى جندبادستر نافعٌ لاسترخاء الاعصاب وخاصةً للغثيان الذي يعرض للنساء وغير ذلك من امراضهنّ

وهناك ايضاً شجر الماهوكاني المتين النفيس . اما منابتهُ فبقرب خليج هندوراس. وهذه الاشجار ذات جذوع ضخمة واغصان كالاذرع منتشرة انتشاراً افقياً اوراقها خضراء لامعة وازهارها بيضاء صغيرة . تُصنَع من اخشابها موائد وكراسي وخزائن وادوات فاخرة يتنافس باحرازها الكُبَراء والسراة[٨] والامراء لصقالة لونها ولين ملمسها ومتانة مادتها وارتفاع اثمانها . وتُعدّ اخشابها صنفاً ثميناً في التجارة . قيل ان شجرة ماهوكاني واحدة بيعت بنحو الفي ليرة

ويكثر في تلك القارة ايضاً قصب السكر والقطن والحبوب والاثمار على تمدد اصنافها . فيرسلون منها ومن مصنوعاتها الى الخارج اقداراً جسيمة للتجارة والربح فضلاً عن المناجم الغنية والمعادن الثمينة التي تُستخرج منها

---

(١) صوت الرياح والاجمة (٢) طين او وحل شديد (٣) الطين المخلوط بالرمل (٤) تجمل (٥) الرطب من النبات (٦) اول ما ينبت من الاغصان (٧) قلنسوات مدوَّرة (٨) الاسياد الشرفاء الاسخياء

غَيطَلُ البرازيلِ وهنودها

غَيْطَلُ[١] ٱلْبَرَازِيلِ تُعَدُّ مِنْ عَجَائِبِ ٱللهِ فِي خَلْقِهِ. فَفِي هٰذِهِ ٱلْأَدْغَالِ أَدْوَاحٌ بَاذِخَةٌ أَثِيلَةٌ[٢] تَفُوقُ مَنَابِرَ ٱلْكَنَائِسِ ٱرْتِفَاعًا. وَهِيَ أَثِيثَةُ ٱلْمَنَابِتِ غَيْنَاءُ[٣] مُشْتَبِكَةٌ تَتَخَلَّلُهَا أَنْجُمٌ وَشُجَيْرَاتٌ وَأَعْشَابٌ مُتَلَبِّدَةٌ يَتَعَذَّرُ ٱخْتِرَاقُهَا وَٱلْمُرُورُ بَيْنَهَا إِلَّا عَلَى ٱلْهِنْدِيِّ ٱلْمُتَمَرِّنِ مُنْذُ ٱلْحَدَاثَةِ عَلَى ٱجْتِيَازِهَا

وَيَعْرِشُ عَلَى أَغْصَانِ تِلْكَ ٱلْأَشْجَارِ ٱلْيَافُ وَلِحَاءٌ مِنْهَا مَا يُحَاكِي ٱلْحِبَالَ وَمِنْهَا مَا يُضَارِعُ ٱلْأَلْوِيَةَ تَتَّصِلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ مِنْ فَرْعٍ إِلَى آخَرَ وَتُدْعَى أَمْسَادًا[٤] نَبَاتِيَّةً. وَتَلْتَفُّ عَلَى سُوقِ ٱلْأَشْجَارِ وَأَغْصَانِهَا إِلَى مَسَافَةِ أَمْيَالٍ عَدِيدَةٍ تَمْشِي عَلَيْهَا ٱلْقُرُودُ

وتتعلق بها أو تطفر وتتواثب وتتلاعب بحركات مجونية تضحك الثكلى

وتكثر في هذه الغابات الحيوانات النادرة المثال والطيور البديعة الألوان كالنمنمة والبراق والقلقي والكركي والببغاء والطوير الدنان. وهو أصغر الطيور حجماً وأجملها لوناً. ومتى



أشرقت الشمس رأيت ريش هذه الطيور يتألق في نورها تألقاً بهياً يبهر الأبصار وسمعت لها تغريداً شجياً مطرباً يبهج

ٱلْأَفْئِدَةَ. وَهِيَ تَطِيرُ مِنْ شَجَرَةٍ إِلَى أُخْرَى بِهَزِيدِ ٱلْحُبُورِ وَٱلْجَذَلِ. وَهُنَاكَ أَيْضًا ٱلْوُحُوشُ ٱلْكَاسِرَةُ كَٱلنِّمِرِ وَٱلْفَهْدِ وَٱلضَّبُعِ وَٱلذِّئْبِ وَمَا أَشْبَهَ

وَهُنَالِكَ يَتَلَظَّى ٱلْهَجِيرُ وَتَشْتَدُّ ٱلْحَرَارَةُ لِٱنْحِبَاسِ ٱلْهَوَاءِ بِسَبَبِ ٱشْتِبَاكِ ٱلْأَغْصَانِ. فَتَرَى بَعْدَ وَكْفِ عَوَارِضِ ٱلْمُزْنِ ٱلْهَتَّانَةِ[1] ٱلضَّبَابَ مُعَلَّقًا عَلَى قِمَمِ ٱلْأَشْجَارِ يُكَلِّلُهَا بِأَكَالِيلَ بَيْضَاءَ وَسَوْدَاءَ

وَيَسُودُ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْأَيْكِ[2] فِي هَوَاجِرِ ٱلنَّهَارِ ٱلسُّكُونُ وَٱلصَّمْتُ ٱلْكَامِلُ. فَإِنَّ ٱلضَّوَارِيَ وَٱلْكَوَاسِرَ وَٱلْجَوَارِحَ تَأْوِي أَوْجِرَتَهَا وَأَوْكَارَهَا. غَيْرَ أَنَّهُ يَتَخَلَّلُ ذٰلِكَ ٱلسُّكُونَ آوِنَةً صَوْتُ ٱنْقِصَافِ شَجَرَةٍ أَوْ زَعِيقُ حَيَوَانٍ وَثَبَ عَلَيْهِ وَحْشٌ وَٱفْتَرَسَهُ. ثُمَّ يَعُودُ ٱلصَّمْتُ ٱلتَّامُّ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ

فَلَا يَدْنُو ٱلْغُرُوبُ حَتَّى تَهُبَّ ٱلْبَهَائِمُ وَٱلْوُحُوشُ وَٱلطُّيُورُ مِنْ رُقَادِهَا. وَتَأْخُذُ ٱلْحَيَوَانَاتُ بِٱلْجَوَلَانِ وَذَوَاتُ ٱلْأَجْنِحَةِ بِٱلطَّيَرَانِ. فَتَسْمَعُ زَمْجَرَةً وَنَعِيبًا وَعُوَاءً وَفَحِيحًا وَزَئِيرًا وَمُوَاءً وَهَرْجًا وَمَرْجًا يَكَادُ يَرْمِيكَ بِٱلصَّمَمِ. وَيَغُصُّ ٱلدَّوْحُ بِسُكَّانِهِ فَتَطْفِرُ وَتَتَوَاثَبُ وَتَزْحَفُ وَتَكْمُنُ وَتَتَصَارَعُ وَتَعْدُو لِٱفْتِرَاسِ بَعْضِهَا بَعْضًا

أَمَّا أَرْضُ تِلْكَ ٱلْغِيَاضِ فَعَلَى غَايَةِ ٱلْخِصْبِ وَٱلْجُودَةِ. فَتَعَايَنُ فِيهَا طَبَقَاتٍ كَثِيفَةً مِنَ ٱلسِّمَادِ ٱلنَّبَاتِيِّ بِسَبَبِ ٱرْتِكَامِ ٱلْأَشْجَارِ ٱلْقَدِيمَةِ ٱلْمُتَكَسِّرَةِ وَٱلنَّبَاتَاتِ ٱلْمُنْحَلَّةِ ٱلْمُتَعَفِّنَةِ. تَقَضَّتْ عَلَيْهَا قُرُونٌ مُتَوَالِيَةٌ إِلَى أَنْ بَلَغَتِ ٱلِٱنْحِلَالَ ٱلتَّامَّ. ثُمَّ أَخَذَتْ بِٱلِٱنْحِطَاطِ وَٱلْفَنَاءِ وَٱلتَّعَفُّنِ بَعْدَ أَنْ مَرَّ عَلَى بَعْضِهَا أَلْفَا عَامٍ أَوْ يَزِيدُ. فَلَوْ بَسَطَ خَمْسَةَ عَشَرَ رَجُلًا هِنْدِيًّا أَيْدِيَهُمْ حَوْلَ إِحْدَى هٰذِهِ ٱلْأَدْوَاحِ لَمَا ٱسْتَطَاعُوا أَنْ يُطَوِّقُوهَا. فَلَا عَجَبَ إِذَا ضَلَّ طَارِقٌ هٰذِهِ ٱلْغَابَاتِ وَتَاهَ بَيْنَ أَشْجَارِهَا. فَإِنَّهُ وَلَوْ صَاحَ بِمِلْءِ صَوْتِهِ مُسْتَجِيرًا وَمُسْتَنْجِدًا بِرِفَاقِهِ لَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ. فَيَقْضِي عَلَيْهِ ٱلْقَدَرُ ٱلْمَشْؤُومُ بِٱلتِّيهِ وَٱلْجَوَلَانِ إِلَى أَنْ يَمُوتَ هُنَالِكَ كَمَدًا أَوْ يُمْسِي فَرِيسَةَ ٱلضَّوَارِي

وَتَجْرِي بَيْنَ تِلْكَ ٱلْأَشْجَارِ أَنْهُرٌ كَبِيرَةٌ وَجَدَاوِلُ. وَتَتَخَلَّلُهَا أَيْضًا بِرَكٌ وَبُحَيْرَاتٌ وَآجَامٌ كَثِيرَةٌ وَفِرَتْ فِيهَا ٱلْأَسْمَاكُ وَٱلتَّمَاسِيحُ يَسْبَحُ فِيهَا ٱلْهُنُودُ بُغْيَةَ ٱلصَّيْدِ وَٱلْقَنَصِ. لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ قَطْعَ تِلْكَ ٱلطُّرُقِ فِي ٱلْمِيَاهِ أَيْسَرَ مِمَّا عَلَى ٱلْيَابِسَةِ ٱلْغَاصَّةِ بِٱلْأَنْجُمِ وَٱلْأَعْشَابِ

أَمَّا هٰؤُلَاءِ ٱلْهُنُودُ فَيَخْتَلِفُونَ عَنْ هُنُودِ أَمِيرِكَا ٱلشَّمَالِيَّةِ

بِأَنَّهُمْ مُنْتَشِرُونَ زَرَافَاتٍ (١) فِي قُرًى أَوْ أَكْنَانٍ مُتَفَرِّقَةٍ أَوْ فِي هٰذِهِ ٱلْأَدْغَالِ نَفْسِهَا

وَلَمَّا كَانَ هَوَاءُ هٰذِهِ ٱلْبِلَادِ حَارًّا وَفَرَتْ فِي غَابَاتِهَا ٱلْأَثْمَارُ فَكَانَتْ قُوتًا لَهُمْ يُغْنِيهِمْ فِي ٱلْغَالِبِ عَنْ تَجَشُّمِ (٢) مَشَاقِّ ٱلصَّيْدِ . فَيَغْتَذُونَ بِٱلْمَوْزِ وَجُذُورِ نَبَاتِ ٱلْمَانْيُوقِ وَسَيَأْتِي ٱلْكَلَامُ عَلَيْهِ



حُنُوُّ ٱلطَّيْرِ بِالأَفرَاخِ ظَاهِرْ بَدِيعٌ مِثَالُهُ يَسبِي البَصَائِرْ
وَقَد أَمسَى الأَوَزُّ لَنَا مِثَالاً بِفَرطِ حُنُوِّهِ نَحوَ الأَصَاغِرْ
فَيَحمِلُهَا عَلَى الأَكتَافِ رِفقًا وَيَحمِيهَا بِمَاضِي العَزمِ بَاتِرْ

اذا هجمَ العدوُّ فدى نفوس ال — صغار بنفسهِ كالسبع كاسِرْ
يحقُّ لنا التمثُّل في اوزْيٍ — يحبُّ خالصٍ سامٍ وباهِرْ
نطوّق عنقَنـا بصفاتِ رفقٍ — ولطفٍ ساحرٍ طوقَ الجواهِرْ
تدافعُ عن ضعيفٍ من ظلومٍ — وننقذهُ ببأسٍ العزمِ ظافِرْ
ونصنعُ في الحياةِ فعالَ خيرٍ — تجلُّ وذكرُها كالطيبِ عاطِرْ
اذا شالت نعامتُنـــا تركْنا — لمن يأتي الفضائلَ والمآثِرْ

(١) الشجر الكثير الملتفّ (٢) الاشجار العظيمة (٣) متأصلة (٤) ملتفّة (٥) قشر الشجر (٦) حبال من ليف (٧) منصبّة كثيرًا (٨) الشجر الكثير الملتفّ (٩) جماعات من الناس (١٠) تكلُّف على مشقّة

نبات الدقيق البرازيلي وحيوان التابر

يُسمّى هذا النبات في لغتهم مانيوق اما استخراجهُ واعدادهُ للطعام فتقوم بهِ نساؤهم على الاسلوب الآتي

وذلك بأن تُقلَع اولاً الجذور من ارض تلك الغابات. ثم تُغسَل وتُسحق بمدقّة خشبية الى ان تحول الى لبٍّ مهروس. ثم يُوضَع ذلك اللبّ في كيسٍ مصنوع من ورقة خضراء كبيرة وتُعلّق بعود فوق النار. فيسيل العصير ويجري الى بقطينة مجوّفة معدّة لقبولهِ. وهو عصير سامّ تغمس النساء فيهِ سهام رجالهنّ. ثم يصفو العصير بعد هنيهةٍ ويجفّ ويتحوّل الى فتاتٍ بيضاء تشبه النشا بغسلتها

بالماء لتزع العصير السامَّ عنها . ثم يصنعنَ منها كعكًا للطعام . والبرازيليُّون البيض يستعملون هذا الطحين ايضًا بمثابة[1] الدقيق ويطحنونه في مطاحن ويصنعون منه خبزًا . ولا تكاد تخلو صحفة طعام منه

وتُعدُّ نبال هؤلاء الهنود قتَّالة لانها مغموسة بعصير هذا النبات البالغ ارتفاعهُ قامة الانسان. وهو مثنول الجذوع مبرومها مُغطًّى بعُقَدٍ . ويضع الرجال اشقَّ الاعمال على عاتق النساء . فهنَّ اللواتي يجمعنَ هذا النبات ويعددنهُ ويمارسنَ اكثر الخِدَم . اما الرجال فيضطجعون خلال ذلك على مهد الراحة يدخّنون . ولمَّا كانت هذه البلاد شديدة الحرارة اكتفى اهلوها باقلّ لباس وارقهِ . ولكن لا بدَّ من تزيين رؤُوسهم بريش الطيور وحمل المدى[2] والخناجر في مناطقهم

ومما يقنصهُ الهنود في تلك الغابات وحشٌ يُسمَّى تابر يفوق النمر شراسةً ورشاقةً حديد السمع والشمّ . فيضطرُّ الصيَّاد الهنديّ الى الكمون له والتربُّص زمانًا بصبرٍ وجلادة لا مزيد عليها . فيقف على دكَّة من خشب ينصبها بين الاشجار وبيدهِ البندقيَّة والقوس والسهام حيث ينتظر قدومهُ ساعات متوالية بدون ادنى حركة ولا يعروهُ الملل . ومتى سمع حفيفًا بين الاشجار حثَّ خطاهُ متواريًا[3] الى ان يقع بصرهُ على الفريسة فيرميها بالنبال المحمومة او البندقية وقلَّما يخطئُ الغرض . واذا اخطأهُ هجم عليهِ الوحش فيتعاركان عراكًا هائلًا الى ان يستظهر[4] الهنديّ على خصمهِ في الغالب فيطعنهُ بالمدية طعنةً قتَّالة ويجرُّهُ الى خُصّهِ للانتفاع بلحمهِ وجلدهِ . ويستطيب البرازيليُّون لحم هذا الحيوان ويحسبونهُ طعامًا انيقًا

---

(١) مكان (٢) شفرات (٣) مختفيًا (٤) يغلب

البرازيل وسكانها وصيد هنودها

بلاد البرازيل وافرة الانهر الكبيرة والجبال الشاهقة ومناجم الذهب والفضة وتكاثر فيها وابل الامطار وعوارض المزن[١] فتنمو فيها الاعشاب والبقول نموًّا غريبًا حتى لا تكاد تجد قفارًا ولا صحاري في ذلك الاقليم البديع الجمال . ولا تلمّ[٢] به الزلازل الهادمة المنازل والامصار . ولا تتناوبهُ[٣] الرياح القارسة ولا الزعازع الشديدة . فهو اقليم خصّهُ الخالق بالخصب وغزارة المياه والنضارة

اما سكانهُ فمن القوم البيض والسود والهنود المختلفي الالوان . اما البيض فمن نسل الاسبانيين والبرتوغال . والسود من نسل الزنوج الارقّاء . والهنود سكّان البلاد الاصليّون . يقطن بعضهم الآن البيوت الحجرية ويعاشرون البيض ويعاملونهم وتلوح عليهم سمات التمدُّن . غير ان فطرتهم الاصلية لا تختلف عن اخوتهم في شمالي اميركا اختلافًا يُذكَر . لان الفريق الاكبر يفضّل الانسلال عن البيض والسكنى في الغابات ولا يودّ ان يزعج نفسهُ بالتعلم والاقتداء بغيره

وقد انحطّ بعض كبراء الاسبانيين الى الفقر المدقع[٤] فتوطّنوا الغابات والادغال كالهنود وهجروا منازل البشر واتخذوا لهم اكنانًا[٥] في اشجار الغاب . يحترفون الصيد نهارًا ويتوسَّدون الاشجار ليلاً فرارًا من الوحوش . ويكتفون بأخشّ الدثار واللباس والاثاث مترفّعين عن الشغل ومزاولة الاعمال

وقد برع هولاء الهنود في صيد الطيور بالسهام القتّالة . فيضطجع المتدي على الثرى ويحني القوس برجليهِ وجعبتهُ ملأى بالنبال على جانبهِ . فلا يعاين الطائر يرفّ في كبد الفضاء حتى ينزع[٦] بالقوس ويرميهُ باسرع من لمح البصر وقلّما يخطئ المرمى حتى انهُ يصيب السلحفاة في سباحتها لانها تسبح وتغطس تحت سطح الماء ثم ترفع خياشيمها بغية التنفُّس فيتجمَّد الماء تجمُّدًا قلّما يلاحظهُ

الناظر . غير ان بصر الهندي سريع التمييز فيرمي سهمهُ في الهواء . فاذا زاغ السهم وانحرف سقط على ذَيل(٧) السلحفاة ولم يضرّها . ولكن اذا حلّق(٨) السهم في الجوّ منتصباً انقلب في نزولهِ واصاب ظهرها فيثبتهُ فتغوص في الماء . غير ان للسهم خيطًا طويلاً ملتفًا عليهِ حتى الرأس . فيأخذ بالانحلال عن السهم ويعوم ريش النبلة على الماء . فيثب الهندي الى قاربهِ في الحال ويجذب الخيط ويجرّ السلحفاة اليهِ . ثم ينطلق بغنيمتهِ فائزًا

وللهنود هناك عدا القوس والسهام سلاح آخر غريب وهو قصبة النفخ . وهي انبوبة طويلة مصنوعة من قطعتي خشب النخل مجوّفتين ملتحمتين ببعضهما كل الالتحام . والقصبة كلها مطليّة بالشمع وهي ثقيلة جدًّا ولا يطيق حملها الاّ الرجل القويّ . اما غلمان الهنود فيتمرّنون بقصبات صغيرة

وليست هذه السهام كبيرة بل حادّة الاطراف ومغموسة بالسمّ . فيطلقها الهندي من تلك القصبة بالنفخ فتسمع لها دويًّا وصليلاً(٩) ويسدّدها على الطريدة بإحكام فيصيب مقاتلها . وتفوق هذه القصبة البندقيّة من بعض الوجوه . منها انها لا تصوّت مثلها صوتًا قويًّا يفزع الطرائد

فاذا صوّب الهندي هذه القصبة على سرب قرود او ببغاء ورماها اخذت تتساقط قتلى او جرحى فلا يتمّ(١٠) حتى يركم من صيدهِ ركامًا . اما الرجل الابيض فلا يحسن استعمالها كالهندي . لانهُ لا يستطيع ضبطها وتسديدها نظيرهُ . ويتعذّر عليهِ تجويفها بسنّ حيوان كما فعل ذاك

---

(١) السحاب (٢) تنزل (٣) تأتي مرّة بعد اخرى
(٤) مُذِلّ (٥) يموت (٦) يرمي (٧) صدفة السلحفاة
(٨) ارتفع (٩) صوت وقع الحديد (١٠) يكفّ او يطلق

وصف الصيد

من قصيدةٍ لأبي الطيّب المتنبي

. . . . . .   سار لصيد الوحش في الجبالِ
وفي رقاقِ الارض والرمالِ   على دماء الانس والاوصالِ
منفرد المهر عن الرعالِ (١)   من عِظَمِ الهمّةِ لا الملالِ
وشدّة الضنّ لا الاستبدالِ   ما يتحرّكنَ سوى انسلالِ
فهنّ يُضربنَ على التصهالِ   كلُّ عليلٍ فوقها مختالِ
يمسكُ فاهُ خشيةَ السعالِ   من مطلع الشمس الى الزوالِ
فلم يئلْ (٢) ما طار غير آلِ   وما عدا فانغلّ في الادغالِ
وما احتمى بالماء والدحالِ   من الحرام اللحمِ والحلالِ
انّ النفوسَ عدد الآجالِ   سقياً لدشتِ الارزَن (٣) الطوالِ
بين المروج الفيح والأغيالِ (٤)   مجاورِ الخنزير للرئبالِ
داني الخنانيصِ (٥) من الاشبالِ   مشترف الدبّ على الغزالِ
مجتمعِ الاضداد والاشكالِ   كأنّ فناخسرَ ذا الافضالِ
خاف عليها عوزَ الكمالِ   فجاءها بالفيل والفيّالِ
فقيدتِ الأيّلُ في الحبالِ   طوعَ وهوقِ الخيل والرجالِ
تسيرُ سيرَ النعم الأرسالِ   معتمّةً بيبس الاجذالِ (٦)
وُلدنَ تحت اثقل الاحمالِ   قد منعتهنّ من التفالي
لا تشركُ الاجسامَ في الهزالِ   اذا تلفتنَ الى الأظلالِ
أرينهنّ أشنعَ الأمثالِ   كأنما خُلقنَ للإذلالِ
زيادةً في سُبّةِ الجهّالِ   والعضوُ ليس نافعاً في حالِ

لسائر الجسم من الخبال ... وأوفت النُّذُرُ(٧) من الأرعال
مرتديات بقصيّ الفال ... نواخس الاطفال للأكفال
يكرن يتقذرن من الآطال(٨) ... لما لحى سودٌ بلا سبال
يصلحن للاضحاك لا الاجلال ... كلُّ اثيث نبتهـــا متفال
لم تغذ بالمسك ولا الغوالي ... ترضى من الادهان بالابوال
ومن ذكي الطيب بالدمال ... لو سرحت في عارضي محتال
لعدها من شبكات المال ... بين قضاة السوء والأطفال
شبيهة الإدبار بالاقبال ... لا تؤثر الوجه على القذال
فاختلفت في وابلي نبال ... من اسفل الطود ومن معال
قد اودعتها عتل(٩) الرجال ... في كل كبد كبدي نعال
فهن يهوين من القلال(١٠) ... مقلوبة الاظلاف والارقال(١١)
يرقلن في الجو على المحال ... في طرق سريعة الايصال
ينمن فيهـــا نيمة المكسال ... على القفي(١٢) اعجل العجال
لا يتشكين من الكلال ... ولا يحاذرن من الضلال
فكان عنها سبب الترحال ... تشويق إكثار الى اقلال
فوحش نجد منه في بلبال ... يخفن في سلمى وفي قيال(١٣)
نوافر الضباب والاورال ... والخاضبات الربد(١٤) والرئال
والظبي والخنساء والذيال ... يسمعن من اخباره الازوال

(١) قطعان من الخيل (٢) يغج (٣) اسم مكان (٤) الآجام
(٥) اولاد الخنازير (٦) اصول الشجر (٧) اشرفت المسنة (٨) الخواصر
(٩) القسي الفارسية (١٠) اعلى الجبل (١١) ضرب من المشي
(١٢) جمع قفا (١٣) جبال في البادية (١٤) في لونها غبرة

جسر القرود

للقرود في ادغال البرازيل حركات غريبة منها التسلّق على غصون الاشجار والوثوب من شجرة الى اخرى . ولما كانت الاشجار هنالك مشتبكة امكنها السير عليها اميالاً بدون ان تمسّ اقدامها الارض . ولا يوقفها عن السير سوى اعتراض الانهر فانها لا تحسن السباحة . واذ ذاك تؤلّف من افرادها جسرًا الحيًّا تقطع عليهِ من جهة الى أُخرى

فمتى بلغت النهر تحت قيادة الزعيم السائر في الساقة[١] تربَّصت[٢] للتشاور والائتمار[٣] واخذت تصوِّت اصواتًا غريبة كأنها تبحث في الامر ثم تصمّ النيَّة على العبور بأن تركّب من اجسامها جسرًا تجتاز عليهِ الماء بالوسيلة الآتية . وهي ان يتشبَّث القرد الاول باعلى شجرة ضابطًا احد اغصانها بيديهِ ورجليهِ وذنبهِ ثم يمسك بهِ رفيقهُ على هذا المنوال نفسهِ ثم يتشبَّث الثالث بالثاني كذلك وهلمَّ جرًّا . ويصبح الجميع كحبلٍ طويل يهتزُّ ويخطر عدة خطراتٍ تقوى بالتتابع الى ان يُحذَف الى الجانب الآخر فيتمسَّك الاخير باغصان الشجرة الواقعة على الضفة المقابلة فيكمل بناء الجسر ثم تأخذ سائر القرود الواقفة لمعاينة العمل بالعبور . واذا انقطعت احدى حلقات هذا الجسر يهبط القرود في الماء ويغرق بعضهم . واذا اسعفهم الحظ بعدم انفصام[٤] عُرَى هذا القطار[٥] تمرّ عليهِ تلك القردة سالمة . ثم يفكّ الاول نفسهُ من الغصن المسك بهِ وتهتزُّ تلك الارجوحة خطراتًا متتابعًا الى ان يصل الجميع بسلام الى الشجرة على الضفة[٦] الاخرى

---

(١) مؤخَّر الجيش (٢) انتظرت (٣) المشاورة (٤) انقطاع (٥) قطعة من الإبل على نسقٍ واحد (٦) جانب النهر

زنابق الماء الكبيرة

تنمو هذه الزنابق العجيبة في البحيرات والبُرَك المتجمّعة من نهر الامازون . ومحيط اوراق هذه الازهار ثماني عشرة قدماً . اما الزنابق الكبيرة البيضاء فتنتصب فوق الماء . والاوراق متينة جدًّا حتى يستطيع الولد ان يقف عليها بدون ان يغرق وتمشي عليها الطيور الكبيرة

واسم هذه الازهار بلغة تلك البلاد جاكانا وموطنها في الغابات والآجام الواقعة قرب النهر. فمتى خيَّم الغسق[١] اخذت اكامها[٢] بالتفتح . فتراها اولاً بيضاء ناصعة[٣] ثم تتلوَّن باللون الوردي ثم القرمزي القاتم وتعطّر الهواء بأَرَج[٤] ذكيّ الرائحة. ومتى بلغت ثلاثة ايام من عمرها ذبلت وهبطت تحت الماء لانضاج بزور جديدة. فيأخذ الهنود هذه البزور ويقلونها ويستعملونها طعاماً. وقد وضع احد السيّاح بعض هذه البتيلات[٥] في قارب فلم يسع اكثر من اثنتين منها

---

(١) شدة ظلام الليل (٢) جمع كِمٍّ وهو الغلاف الذي ينشقّ عن الثمر ويحيط بهِ (٣) شديدة البياض (٤) الريح الطيّب (٥) فسيلات منقطعة عن امّها

حمام الأطفال النخلي وشمع النخل

لِشَجَرِ ٱلنَّخْلِ فِي ٱلْبَرَازِيلِ غِيَادٌ كَبِيرَةٌ قَرْنِيَّةٌ تَغْلِفُ كِمَامَ ٱلزَّهْرِ قَبْلَ تَفَتُّحِهَا . فَمَتَى نَضِجَتِ ٱلْأَزْهَارُ شَقَّتِ ٱلْغِلَافَ

وتفتحت أكمامها . فتنتصب تلك الأغماد [1] آونة وتتدلى أخرى وتتلألأ في نور الشمس ثم تسقط من نفسها . فتلتقطها المرأة الهندية وتستعملها حمامًا تغسل فيه صغارها . وتتخذها لغايات منزلية أخرى عديدة تقوم عندها مقام القصاع الكبيرة والطسوت . ولا تضطر لشرائها بل تغنمها من الغابات

ويستعمل البرازيليون والهنود أشجار النخل لمنافع في أمور شتى كالطعام والخمر والثياب والأثاث وبناء البيوت وهلم جرا

وقد وفرت على ضفاف أنهر البرازيل أشجار تدعى النخل الشمعي يستخرج الهنود من أوراقها الغضة شمعًا بأن يقطعوا تلك الأوراق ويجففوها في الشمس . فيسقط من سطحها بعد الجفاف حراشف يذيبونها على النار فتصبح شمعًا أبيض حسنًا ثم متى برد جمد وصلب وعمل منه شموع للإضاءة

ويستخرج الأهلون من النخل الشمعي أيضًا طعامًا . لأنه يحمل ثمرًا أسود لامعًا بقدر حجم البيضة . فيغلونه على النار وقتًا طويلًا ثم يأكلونه مع اللبن . أما جذوع هذا النخل

فَمَلأَى مِنْ لُبٍّ لَيِّنٍ أَبْيَضَ لَذِيذِ الطَّعْمِ. فَمَتَى جَاعَ الْهِنْدِيُّ وَطَلَبَ الطَّعَامَ عَمَدَ إِلَى أَحَدِهَا وَقَطَعَ جِذْعَهَا وَاسْتَخْرَجَ اللُّبَّ وَاقْتَاتَ بِهِ.

(١) غلاف الزهر

سهول اللانوس في اميركا الجنوبيّة

ان هذه القارّة تدهش العقول بغزارة انهرها واتساع غاباتها وعلوّ جبالها وامتداد سهولها ووفرة نباتها. فان فروعاً كثيرة من نهر الامازون تفوق الدانوب حجماً. وغياض كيانا وحدها تسع عدة ممالك كبريطانيا. وارتفاع جبال الالب يعدّ جزئيّاً بالنسبة لجبال الاندس. وسهول المانيا الشمالية وهولندا تُحسَب كلا شيء بالمقابلة مع سهول اللانوس في فينيترولا وغرناطة الجديدة البالغة مساحتها ٢٥٠٠٠٠ ميل مربَّع

فترى هذه السهول بحراً لاحدّ له تارةً مغطّاة بالاعشاب والبقول وطوراً جرداء بلقعاً محترقة من القيظ لا جدول يجري فيها لتبريد ظمإ المسافر ولا بئر فيها ولا ينبوع ولا ظلّ سوى بعض شُجيرات نخل لا تكاد تظلّل السائح المحرور

وهذه السهول تمتدّ من سفح الجبال الى شاطئ البحر والى مصبّ نهر اورينوكو العظيم. وهي واقعة بالقرب من خط الاستواء. ولكنها تختلف عن صحاري خطّ الاستواء الافريقيّة بكثرة امطارها شتاء واكتسائها بالاعشاب الخضراء شتاء وربيعاً

ولكن متى أتى الصيف لفح القيظ الاعشاب وجفّف الينابيع والبُرك وثارت الاعاصير(١) الرمليّة . فتهتزّ الارض قبل قدومها وترتجف كمن زلزال عنيف . ثم يكفهرّ(٢) الجوّ من غيوم الرمال المرتفعة في الهواء . وتهبّ الرياح من كل الجهات دفعةً واحدة فتتلاطم مجاريها بعضها ببعض تلاطم امواج البحار . ويرتفع الرمل ارتفاعًا عموديًا الى عنان(٣) الافق كالاعاصير المائيّة . ويأخذ هذا العمود بالالتفاف والتقدم الى الامام مسافة شاسعة . ويلوح كأنّه على شفاء(٤) الانهيار(٥) ومغطّيًا ما يصادفهُ في سيلهِ . فتذعَرَ(٦) الكواسر والبهائم والطيور وتلتجئ الى مكان تستتر فيهِ . ثم تسكن الزعازع بعد حين فتنقشع الغيوم وتبعث الغزالة(٧) بشعاعها فتلظّي الرمضاء(٨) كما كان قُبيل تلك الصرصر(٩)

ومتى انقضى فصل الصيف تكهدّ زرقة الجوّ وتنتشر الغيوم وتلتحف الفلك بالضباب وتدمدم الرعود ويبعّ وسمي(١٠) الغيث ووابلهُ(١١) فتحيا الطبيعة وتنهض من سباتها بسرعة غريبة وتكتسي تلك السهول كأنّه بقوّة سحريّة ببساط الاخضرار الزبرجدي وتنبت ازهارًا تبهر الابصار وتعطّر الهواء وتبتهج الاطيار ويرد الحيوان الماء ينهل ما يروي أُوارهُ(١٢) بعد ان يهبّ من رقادهِ . فترى الخيل البرّيّة والثيران في المرعى والنمر يكمن للوثوب عليها . والتماسيح الكبيرة والافاعي المائيّة المدفونة في الوحول تنشط من وسنها(١٣) وتعدو الى الانهر . وتعاين البُرك والبحيرات الجديدة غاصّة بالحياة الحيوانيّة تسبح فيها اسراب لا تُحصى من طيور الماء . وتبرز خلائق جديدة من الهوامّ والحشرات من كل الانواع والاشكال وترحف الى خصاص(١٤) المنود . ثم يتحوّل ذلك السهل الفسيح بالتدريج الى بحيرة يعود الطرف عنها كليلاً

فقد يضطجع الهندي حينئذٍ او المسافر في احد الخصاص على تلك الضفاف فيرى الارض تحتهُ تتحرّك فيعروهُ العجب والذهول . فيلتفت للوقوف على حقيقة الامر واذا بتمساح كبير بارز من الطين يتطاول بعنقهِ للخروج من ذلك الجدث(١٥) ولتنشّق الهواء . فيحملق بعينيهِ كأنّهُ دُهش مما يراهُ امامهُ . فيفرّ سكّان

الخُصَّ مذعورين ويفسحون له مجالاً للافلات . فلا يتم حتى يتملَّص من قبره



الصلصالي ويزحف زحفاً بطيئاً ثم يغوص في البحيرة ويتوارى عن العيان

(١) الريح تهبّ من الارض كالعمود الى السماء (٢) الليل تراكم واشتدّ ظلامه (٣) ما علا وارتفع (٤) حرف المكان وحدّهُ (٥) سقوط (٦) تخاف (٧) الشمس (٨) الارض الحامية الحارّة (٩) ريحٌ شديدة الهبوب (١٠) مطر الربيع الاول (١١) المطر الشديد الضخم القطر (١٢) عطشة (١٣) نوعها (١٤) يموت من القصب (١٥) قبر

حيوانات سهول لانوس وبطيخ الكاكتس وحرق الاعشاب

اما البهائم والكواسر في تلك السهول فوافرة جدًّا . منها المواشي البرّيَّة والخيل والبغال والوحوش الضواري كالنمر الاميركي والاسد المسمَّى پوما والتمساح . فمتى حمي الهجير(١) صيفًا تجفُّ الينابيع وتنشف البرك ويشتدُّ القيظ. فيظمأُ الانسان والحيوان ويدفن التمساح نفسهُ في الوحل عند ضفاف الانهر وتهيم الخيل تسابق الرياح ممدودة الاعناق وتجول البغال تفتش عن نبات غزير العصارة باردها كبير الزهر واخم لذيذ الطعم شائك اسمهُ بطيخ الكاكتس ينمو هنالك حتى على الرمضاء .

فتنثر البغال الصادتة(٢) بفطرتها الطبيعيَّة الشوك عن هذا الثمر بحوافرها القوية وتمتص عصيرهُ فتبرّد غليلها . وقد تدخل الاشواك الكبيرة في حوافرها فتجرحها وتجعلها تخمع(٣) . ومتى خيَّم الغسق تتناقص حرارة الهواء وتفوز الاجياد ببعض الراحة . غير ان البهائم قلَّما تتمتع بالهجوع(٤) . فان خفافيش كبيرة تحوم حولها فاذا استقرَّت على فرس او بقرة عضَّتها عضًّا لا تكاد تشعر بالمهِ فتأْخذ تمصّ دمها الى ان تأْتي على آخرهِ . فيقع الحيوان المنكود الحظ مائتًا . وقد تمصّ هذه الخفافيش دماء البشر وهم رقود في الفلاة ومستغرقون في النوم فتفتك بهم فتكها بالحيوان

ويستغرق الكركدن والتمساح في سبات النوم صيفًا استغراق دبّ الشمال شتاء . وتهجر سائر الحيوانات تلك الحزون(٥) الى الغابات والانهر . وهكذا يفعل الهنود سكان ذلك الاقليم . وقد تحترق تلك الاعشاب الجافَّة احتراقًا هائلاً

الى مساحة مئات من الاميال . فتشاهد النار واللهب يرتفعان الى عنان الجوّ ويسيران كوميض[6] البرق . وينتشر الدخان كسحاب كثيف متلبد فيظلم الفضاء وتسمع لحفيف[7] الاعشاب اصواتًا رائعة . فاذا لم تتدارك الامر بالصعود على رابية او بحزّ النبات حولك على الفور تدركك النار وتلتهمك في الحال

(١) شدة الحرّ (٢) عطشانة (٣) تمرج (٤) النوم (٥) السهول (٦) لمع خفيف (٧) صوت الرياح والاجنحة

الانوار في الاشجار

من سهول لانوس ما هو آهل معمور بالقرى ومنها ما هو مقفر خالٍ من السكان مملوءٌ بالحيوانات البرّيّة

ومن غرائب النبات ألنامي فيها نخلٌ ناضر عند مصبّ نهر اورينوكو يُدعى نخل المروحة لامتداد فروعهِ كالمراوح وهو مصدر ارزاق الهنود فيصنعون من لبّهِ خبزًا مغذّيًا ومن عصيره خمرًا ولا يخشون معهُ جوعًا

وعند ما تغمر السيول تلك السهول شتاء . ماذا يصيب الهنود وكيف يعيشون. انهم يعلّقون اخصاصهم[1] بالاشجار وفي خِصاص ارضها حصرٌ منسوجة من الياف النخل. فيبوطونها[2] بالاغصان ويصنعون لها جدرانًا من طفال[3] . فيدخرون فيها المؤونة ويرتقبون اثنائها الزهيد ويضرمون فيها النيران للاستدفاء والطبخ . ولما كانت ارضها رطبة امسوا لا يخشون احتراقها. فاذا مخرت القوارب والسفن في النهر رأى ركابها ليلاً الانوار تشتعل في الاشجار فيعلمون ان الهنود ساكنيها يطهون[4] طعامهم ويستدفئون

(١) بيوت صغيرة (٢) يربطون (٣) طين يابس (٤) يطبخون

ارض الجبابرة

فِي أَقْصَى قَارَةِ أَمِيرِكَا الْجَنُوبِيَّةِ بِلَادٌ وَاسِعَةٌ اسْمُهَا بَاتَا كُونِيَا وَهِيَ بِلَادٌ مُتَبَدِّيَةٌ قَارِسَةُ الْبَرْدِ. لَيْسَ فِيهَا سِوَى حُزُونٍ يَرْتَفِعُ بَعْضُهَا عَنِ الْآخَرِ ارْتِفَاعَ صَعِيدٍ مُنَضَّدٍ. تَنْبُتُ فِيهَا الْأَعْشَابُ الْخَشِنَةُ الْمُتَلَبِّدَةُ وَتَتَخَلَّلُ سُهُولَهَا أَوْدِيَةٌ تَنْبُتُ فِيهَا الْبُقُولُ أَيْضًا

وَتَهُبُّ فِي هٰذِهِ الْبِلَادِ شِتَاءً رِيَاحٌ صَرْصَرٌ وَصَيْفُهَا قَصِيرٌ حَارٌّ يَلْفَحُ بِقَيْظِهِ الْأَعْشَابَ وَالْبُقُولَ. وَهِيَ قَلِيلَةُ الْأَمْطَارِ وَالْأَنْهُرِ وَالْجَدَاوِلِ إِلَّا فِي الْأَوْدِيَةِ حَيْثُ تُوجَدُ يَنَابِيعُ وَبِرَكٌ يَعَافُ[1] طَعْمَهَا الذَّوْقُ إِنَّمَا يَضْطَرُّ سُكَّانُ الْبِلَادِ إِلَى الْاسْتِقَاءِ مِنْهَا

وَتَقْطُنُ فِي ذٰلِكَ الْقُطْرِ أُمَّةٌ هِنْدِيَّةٌ هَمَجِيَّةٌ طَوِيلَةُ الْقَامَةِ جِدًّا حَتَّى تَخَالَهَا مِنْ نَسْلِ بَنِي عَنَاقٍ الْجَبَابِرَةِ الْأَقْدَمِينَ. لِبَاسُهُمْ بَرَانِسُ جِلْدٍ مِنْ حَيَوَانٍ يُحَاكِي اللَّامَا يَعِيشُ فِي بَاتَا كُونِيَا وَهُوَ سَرِيعُ الْجَرْيِ يَسْرَحُ قُطْعَانًا وَاسْمُهُ غُوَانَاكُو. يَكْسُو الْأَهْلِينَ بِجِلْدِهِ وَيَقُوتُهُمْ بِلَحْمِهِ

وَيَشْهَدُ هٰذِهِ الْبِلَادِ قِبَاحُ الصُّورَةِ وَمَنْظَرُهُمْ رَائِعٌ وَشُعُورُهُمْ

طَوِيلَةً خَشِنَةً كَثَّةً مدلاةً إِلَى أَكْتَافِهِمْ. وَرُؤُوسهُمْ كَبِيرَةٌ وَعِظَامُ خُدُودِهِمْ مُرْتَفِعَةٌ بَارِزَةٌ. وَيَنْقُشُونَ أَجْسَامَهُمْ مِنْ قِمَّةِ ٱلرَّأْسِ إِلَى أَسْفَلِ ٱلْقَدَمِ بِٱلْأَلْوَانِ وَٱلصُّوَرِ ٱلْغَرِيبَةِ. وَيُطَوِّقُونَ أَعْيُنَهُمْ بِدَوَائِرَ بَيْضَاءَ. وَيَسْكُنُونَ فِي خِصَاصٍ أَوْ مَضَارِبَ مَصْنُوعَةٍ مِنْ جِلْدِ ٱلْحَيَوَانِ ٱلْآنِفِ ٱلذِّكْرِ لَهَا مَدْخَلٌ مِنْ جَانِبٍ وَاحِدٍ. فَإِذَا زُرْتَ تِلْكَ ٱلْخِيَامَ رَأَيْتَ فِيهَا بِضْعَةَ جُلُودٍ يَتَّخِذُونَهَا فِرَاشًا وَدِثَارًا وَأَسْلِحَةً قَلِيلَةً لِلصَّيْدِ وَٱلْقِتَالِ. أَمَّا هٰذِهِ ٱلْأَسْلِحَةُ فَمُدْيَةٌ مُحَدَّدَةُ ٱلطَّرَفِ تُضَارِعُ ٱلْخَنْجَرَ وَمِقْلَاعٌ هُوَ سَيْرٌ مِنْ جِلْدٍ طُولُهُ عَشْرُ أَقْدَامٍ أَوِ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ يَنْتَهِي بِنِصْفِ غِلَافٍ جِلْدِيٍّ. فَمَتَى رَامَ ٱلْهِنْدِيُّ ٱلْقَنْصَ عَلَا مَتْنَ(٣) جَوَادِهِ ٱلسَّرِيعِ وَأَخَذَ حَجَرَيْنِ كَبِيرَيْنِ أَوْ كُرَتَيْنِ فَوَضَعَ أَحَدَهُمَا فِي ٱلْمِقْلَاعِ وَفَتَلَهُ حَوْلَ رَأْسِهِ وَشَرَعَ يُحْضِرُ(٤) عَلَى فَرَسِهِ. ثُمَّ يَقْذِفُ ٱلْمِقْلَاعَ وَٱلْحَجَرَ مَعًا عَلَى ٱلطَّرِيدَةِ. فَيَطِيرَانِ فِي ٱلْهَوَاءِ وَلَهُمَا دَوِيٌّ وَحَفِيفٌ فَيُصِيبُ ٱلْحَجَرُ ٱلطَّرِيدَةَ وَيَقْتُلُهَا عَلَى ٱلْفَوْرِ غَالِبًا. وَإِذَا أَخْطَأَ ٱلْحَجَرُ ٱلْمَرْمَى ٱلْتَفَّ ٱلسَّيْرُ حَوْلَهَا وَأَوْقَفَهَا عَنِ ٱلْفِرَارِ. فَيَتَرَجَّلُ ٱلْهِنْدِيُّ وَيَنْزِلُ عَلَيْهَا بِٱلْمُدْيَةِ فَيُجَرِّعُهَا غُصَصَ(٥) ٱلْمَنِيَّةِ(٦)

وكثيرا ما ينطلق الهنود إلى الصيد جيوشا مكتبة[٦] ممتطين[٧] صهوات[٨] جيادهم ويهاجمون قطيع الغوانا كومعا.



فتسمع دوي الهقاليع في الهواء وترى الخيول تسابق الرياح والطرائد تسقط فرادى ومثنى وثلاث ورباع إلى أن يعود الصيادون بالغنائم الوافرة.

ويصيد الهنود أيضا طائرا طويل الرجلين كبير الجثة يشاكل النعام إلا أنه أصغر منها قليلا. وهو سريع الجري

لَا تَكَادُ تُدْرِكُهُ ٱلْخَيْلُ طَرِيء ٱللَّحْمِ لَذِيذُ ٱلطَّعْمِ يَعْتَبِرُهُ ٱلْهُنُودُ كُلَّ ٱلِٱعْتِبَارِ

وَكُلَّمَا بَرَعَ ٱلْهِنْدِيُّ فِي ٱلصَّيْدِ زَادَتْ كَرَامَتُهُ عِنْدَ عَشِيرَتِهِ وَٱرْتَفَعَ شَأْنُهُ. وَٱلْخَيْلُ هُنَالِكَ وَافِرَةُ ٱلْعَدَدِ فَيَمْتَطِيهَا ٱلْهُنُودُ وَيَجُولُونَ عَلَيْهَا مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ. وَقَدْ يَسْلُبُونَهَا مِنَ ٱلْبِلَادِ ٱلْمُجَاوِرَةِ. فَإِنَّ سَرِقَةَ ٱلْخَيْلِ شَائِعَةٌ عِنْدَ هٰذِهِ ٱلْقَبَائِلِ ٱلْهَمَجِيَّةِ حَتَّى أَصْبَحَتْ حِرْفَةً تَأْتِي مُحْتَرِفَهَا بِٱلرِّزْقِ وَٱلِٱعْتِبَارِ

(١) يكره (٢) سكين (٣) ظهر (٤) يركض

(٥) ما غصّ بهِ الانسان (٦) موت (٧) مجمعة (٨) راكبين

(٩) مقاعد الفرس

سهول الباماس وسكانها وجبالها

اذا سرَّحت الطرف في خريطة اميركا الجنوبية رأيت في جنوبيها ولاية كبيرة تُدعى بونس ايرس . وفي الناحية السفلى منها سهل فسيح جدًّا يُدعى باماس قسمهُ الاوَّل مغطًّى بالعوسج والعلّيق الطويل الكثيف الشائك الذي يتعذَّر خرقهُ حتى على الحيوان . لكن متى انقضى زمان تذبل الازهار والسوق ويحتكُّ بعضها ببعض فتتساقط . ثم تتناثر في الهواء . ويسحّ الغيث مدرارًا[1] وتعصف الرياح فلا يبقى لذلك النبات اثر . وينبت مكانهُ البرسيم[2] الغضّ الاخضر الجميل

اما القسم الثاني فمكسوٌّ بالاعشاب . ومتى اجتزتَ العلّيق والبرسيم اتيتَ بحرًا من الاعشاب المتموّجة الى أمد امبال اسمها باماباس. وعاينتَ وراءها غياضًا كبيرة متفرّقة الاشجار . ولذلك كان هذا السهل المكسوّ بالعوسج والنفَل[٣] والبرسيم والاشجار غايةً في الغرابة

اما عشب الباماباس فجميل جدًّا تحاكي اوراقهُ الريش وهي فضيّة اللون ومتى هبَّ الهواء ترى الازهار تلمع وتتموّج كزبد البحر الابيض المتألّق في شعاع الشمس. وتشاهد الخيول البرّيّة تعدو خببًا وامواجًا في سائر سهول هذه القارّة

ويقطن هذا الاقليم جيل[٤] مُغرَم بقنص الخيل البرّيّة . فلا تكاد صغارهم تدبّ على الارض حتى يُركبوهم متون الجياد ويمرّنوهم على الطراد والصيد. ومتى شبّوا ركضوا وراء الخيول وقنصوها بالوهق[٥] . ويقضي هؤلاء القوم زمانهم على ظهور الخيل. اما اصلهم فمن بقايا الاسبانيين ولا يعيشون معيشة المتود فلا يحولون ويرحلون نظيرهم. لان معيشتهم تتعلق على الابقار البرّيّة المتيسّرة في تلك السهول. فمتى فرغ زاد احدهم يعلو جوادهُ ويأخذ بيدهِ الوهق وينطلق الى البادية ويرمي الوهق حول قرني الطريدة فيصرعها الى الارض . ثم يخرج مديته الطويلة ويذبحها فينتفع بلحمها وجلدها

ولا يهتمّ هذه العشيرة بزرع القطاني والبقول وغرس الحدائق وبناء البيوت بل تعمر اخصاصًا من تراب مجبول بتبن الاعشاب اليابسة. ومن الغريب انهم يصنعون مقاعدهم من رؤوس الخيل . ويضعون اطفالهم في اسرّة من جلد الجاموس يعلّقونها في السقف ويلبسون رداء قصيرًا من جلد وتلوح عليهم ملامح الهمجيّة . واذا اطلقوا لخيلهم الاعنّة[٦] سارت بهم كالبرق الخاطف ورأيت شعورهم السوداء تطير مع الرياح

ويأوي تلك السهول ايضًا هنود اشدّ توحّشًا من اولئك متمرّنون نظيرهم على ركوب الصافنات[٧] بل اقدر منهم على مطاردتها واسرع عدوًا فيهجمون على خصاص البيض احيانًا ويحرقونها ويفتكون بهم فتكًا ذريعًا

وفي جنوبي اميركا ايضاً جبال الاندس العظيمة المغطاة بالثلوج الدائمة التي تطاول شعوفها[٨] السحاب وتمتدّ الى الساحل الغربي . ومتى اجتاز السيّاح تلك الجبال الشاهقة يضطرون الى المسير في طريق وعرة المسلك ضيقتها لا تكاد قدما المسافر تجدان فيها مكاناً تطآنه وهي تشرف على وهاد[٩] وحاوٍ[١٠] عميقة ترمي ناظرها بالدوار[١١] . واذا زلّت بسالكها القدم هوى الى اسفل تلك الهوّة فتمزّق قطعاً

ولما كانت البغال هناك متمرّنة على سلوكها ومطبوعة على شدّة الحذر والتحفّظ آثر المسافرون ركوبها على السير مشاةً . ولكن لا بدّ من ان يصحبوا معهم دليلاً هندياً يهديهم الى آمن المسالك . فيطلقون لبغالهم العنان ويتركونها تذهب كيف شاءت واثقين بفطنتها وحذرها . فقد تبلغ صخوراً ملساء مرتفعة كجدار البيت فلا تحاول المشي عليها . بل تطبق قوائمها الاربع معاً وتتزلّج[١٢] من قمّة الجلمود[١٣] الى حضيضه فتصل سالمة

واكثر قمم جبال الاندس بركانية يحسب احدها اعلى بركان في العالم واسمه كوتوباكسي . وهذه القمّة الباذخة تمسّ الغيوم وهي مخروطيّة ملساء . فمتى هاج هذا البركان رأيتَ مشهداً يروعك هوله وجماله . فيظلم هذا الجبل وتكفهرّ سائر الجبال حوله ويدلهمّ[١٤] الافق بالدخان . ثم يسكب سيولاً من المصهورات[١٥] البركانيّة . وتذوب الثلوج وتسيل كطوفان يطغي على تلك البطاح ويجتمع منه بُرك وجداول . ومتى سكن الجبل تأخذ الانهر المخبوءة بالتجمّع والجري ويتألف منها غدران وجداول . ثم تبدأ هذه الجداول بالاتساع وتنحدر عليها السيول والجنادل[١٦] فتطغي طغياناً عظيماً وتسبح فيها الاسماك التي تفضّل السكنى في هذه الحال لتستتر عن اعين الاعداء

وبعد انقضاء بضع سنين تتسع هذه البُرك وتزداد الاسماك فيها . ثم متى هاج البركان يتزلزل الجبل ويرجف . لان الزلزال يتقدم انفجار البركان وكلّما اهتزّ ذلك الطود تشقق وانفتحت الاخاديد[١٧] والتلاع[١٨] على جوانبه ثم يسكب

سيولاً من الوحل والماء ويطر على تلك الاصقاع اسماكاً لا عدد لها

فقد امطرت مرةً من تلك البراكين اسماكاً وافرة وانتشرت في تلك البلاد على مساحة ميلين او يزيد حتى كان الناظر لا يرى على مدى بصره سوى الاسماك الكاسية هذه البقاع . فكان ذلك حاملاً على تلف غلال الحقول ومحصولاتها وباعثاً على الحميات الناشئة من فساد الهواء برائحة الاسماك المتعفنة

---

(١) سيلاً غزيراً (٢) حبُّ القُرْط (٣) نبت طيّب الرائحة (٤) طائفة من الناس (٥) الحبل في طرفيهِ انشوطة لصيد الحيوان (٦) جمع عنان وهو سير اللجام (٧) الخيل (٨) جمع شُعفة وهي رأس الجبل (٩) جمع وهدة وهي الهوّة في الارض (١٠) ما انخفض من الارض في سهولهِ (١١) دوَران في الرأس (١٢) تتزلّق (١٣) صخر (١٤) يكثف ظلامهُ (١٥) مواد ذائبة (١٦) تُزعَج (١٧) جمع اخدود وهو الحفرة المستطيلة في الارض (١٨) مسايل الماء

شجرة اللبن وحيوان اللاما

تنمو عند سفح جبال الاندس اشجار تنبت على الصخور وهي عالية جداً ولا تمتد اصولها في الصخر بل تتشبّث بهِ بعض التشبُّث واوراقها متينة كالجلد. ولا نبات اخضر سواها. وينتفع منها اهل تلك البلاد كثيراً بأن يستخرجوا منها لبناً يضارع لبن الحيوان

فمتى نشرت الغزالة مروطها[1] الذهبية على تلك البطائح[2] رأيت جمهوراً من الزنوج والهنود منطلقين حاملين قصاع يقطين ليستدرُّوا من تلك الاشجار لبناً لطعامهم . فيبضعون بثقوبهم القشر فيسيل عصيرٌ ابيض يشاكل الحليب لوناً

وطعماً فيلأون منه قصاعهم ويرجعون . وقد يجلس بعضهم وينهل اللبن في الحال . غير ان اكثرهم يأخذونه لاولادهم في المنزل . وهو احلى من اللبن الحيواني وادسم

وفي يرو حيوان نافع يحاكي الجمل بعض المحاكاة لكنه اصغر منه حجماً اسمه اللاما . ولا يوجد في غير اميركا ومواطنه خصوصاً مملكة يرو وله طباع الابل من وجه الصبر على العطش وقلة الاكل . ويستخدمه الهنود لحمل الاحمال والركوب بدلاً من الخيل والجمال

ولهذا البهيم مزية السلوك في الاماكن الوعرة الصخرية فلا يعثر ولا تزل قوائمه . ولما كانت تلك الجبال غنية بمناجم الفضة يستخدمه القوم لنقل ركازها[٣] ويتنافس اربابه بتزيين رأسه بالجركشات وعنقه بالاجراس ويسوقونه قطارات على تلك الاطواد[٤] الباذخة[٥]

واذا بهظ[٦] رب هذه الراحلة متنها بوقر[٧] ثقيل تسقط على الارض فلا تنهض ولو نزل عليها بالسياط الى ان يخفف عنها الحمل

ومن هذا الحيوان ما هو وحشي يمرح قطعاناً على الجبال ويصعد الى قممها . وهو اشد نشاطاً وعدواً ومرحاً من الاليفة . فيثب ويقفز بين الصخور كالإيّل والوعل والماعز . واذا رأى انساناً ركض مرتقياً الصخور الملساء حتى يبلغ شعفة الجبل

وعلى ظهر هذه المطية كساء صوفي لين يجزه الهنود ويغزلونه ويحوكون منه نسيجاً حسناً . وتصدر منه الى بريطانيا وغيرها مقادير وافرة حيث تغزله الآلات البخارية وتنسجه وتصنع منه النساء اردية جميلة وبروداً

---

(١) ستائرها (٢) الاماكن المستوية (٣) معدنها الخلقي
(٤) الجبال (٥) العالية (٦) حمّل الراحلة فاتعبها (٧) بحمل ثقيل (٨) اثواباً مخطّطة

النمل الابيض موطنهُ وتركيبهُ واقسامهُ وطباعهُ

موطن هذا النمل في الاندلس الغربية والشرقية وافريقية واميركا الجنوبية وسينغال وهو من طائفة النوروبترا

ولكل نملة اربعة اجنحة ورأس مثلث الزوايا وفك قويّ وشفة صغيرة وصدر منطبق وطرف بيضيّ مركّب من عُقَد مرتبطة بمفاصل . ولها حُمات[1] لدّاغة خُصّت بها الانثى والخنثى فقط . وبجوفها كيس صغير تخرج منهُ مادّة حامضة تقتل رائحتها الحشرات المؤذية . ولهُ قوة عضليّة عظيمة فيحمل ما يزيد على ثقل جسمهِ باثنتي عشرة مرّة . ويعيش طوائف وفرقاً ويحضن صغارهُ . وهو مؤلّف من ذكر وانثى وخنثى وفعلة . فالاول والثاني للتوليد والثالث للحراسة والجندية والرابع للبناء والترميم والتموين وهو الاوفر عدداً

اما الانثى فأصغر حجماً من سواها وهي مستديرة الرأس قصيرة الفكّين بالنسبة لسائر انواعها كبيرة العينين بارزتها واسعة الاجنحة وعملها اعالة الصغار وتربيتها . واما الخنثى فاقل عدداً واكبر حجماً طويلة الرأس والفكّين ويُحسب معدّلها واحدًا بالمئة . وهي حارسة زمن السلم وجندية آن الحرب

ويخرج هذا النمل بعد كمال نموّهِ في الخريف ربوات وملايين زاحفاً في طلب الرزق . ثم يأخذ في الطيران فيملأ الفضاء ويدخل البيوت ويطفئ المصابيح . وقد يلج[2] السفن ويغطي وجه الارض والماء . ثم لا يلبث ويخلع الاجنحة فيصبح فريسة اعدائهِ الكثيرين . فتطلبهُ الطيور والحشرات والحيوانات حتى

البشر طعاماً . قيل انهُ لذيذ الطعم كتجاج محلًّى بسكَّر او قشدة محلاَّة او رقاق بلوز . ولا يكاد يفلت من تلك الكتائب المحصاة بالملايين زوج واحد لتوليد طائفة جديدة . فان اسعد الحظ انثى وفازت بالسلامة عثرت عليها عاملات طائفة اخرى فانتخبتها ملكة او اماً لمستعمرة جديدة وأدَّت لها الخضوع والولاء[٢] وشرعت بحمايتها من الاعداء فتحفظها ضمن حجرة من طفال على قدر حجمها لا يسع مدخلها سواها وخنثى فلا تستطيع الخروج منهُ لانهُ يضيق بعد جفافهِ . فتأخذ باعداد المأذن[٤] . ثم تنقلها الفعلة الى حجرة خاصَّة وتقدّم لها الطعام ومتى كبرت صغارها وسَّعت العاملات النفق[٥] الملكيّ

وتضع الانثى ٦٠ ذرّاً[٦] في الدقيقة او ٨٠٠٠٠ في ٢٤ ساعة وطول حياتها سنتان . اما بيت الملكة فلا يخلو من الحرَّاس والجنود ولها ايضاً غُرَف خاصَّة وشغلها الخفارة والدفاع . والفعلة تملأ بيوت الملكة للاعتناء ببيوضها . وتخدم الصغار خدمة عجيبة فتحملها في افواهها وتضعها في اماكن امينة . فتكون اولاً بزوراً بيضاء ثم تبلّها باللعاب وتكوّمها كوماً في الارض ثم تحضنها لتدفئتها وتنقلها من حجرة الى اخرى والى الخارج لتستدفئ نحو ربع ساعة . وتمضغ الطعام وترقّمها اياهُ بصبرٍ جزيل . فتمصّ الصغار بلسانها . فاذا دخلتَ قرية هذا النمل رأيت بعضهُ يزقّ وغيرهُ يحرس ويدافع . وسواهُ يرمّ البناء المتهدم وبعضهُ يعلّم وغيرهُ ينقل او يستريح الخ

---

(١) ابرة الزنبور وغيره يلدغ بها (٢) يدخل (٣) المحبة والنصرة والقرب (٤) بيض النمل (٥) سَرَب في الارض لهُ مخرج الى مكان . (٦) صغار النمل

النمل الابيض . قراهُ العجيبة

ان قرى هذا النمل عجيبة تلوح لناظرها كقرى البشر وهي مخروطيَّة الشكل تعلو عن الارض خمس اقدام او ست سطحها الخارجي مجرَّد من كل نبات. غير ان قمَّتها مكسوَّة بالاعشاب . وهي مغطَّاة بقبَّة خارجيَّة او صقالة متينة تظلّل داخلها من حرّ الهواء وبردهِ

واقسام البناء منفصلة بعضها عن بعض بنظامٍ غريب وغرف شتَّى تذهل الالباب. منها مخادع للملكات وتربية صغارها وكلها مذخَّرة بمؤونة وافرة. وهذه البيوت ترتفع اولاً كابراج مخروطيَّة(١) تضارع قالب السكَّر. والنملة تشيد البيت الواحد الى علوّ قدم او قدمين ثم تشتغل ببناء غيرهِ. وتُوسّع قواعدهُ تدريجًا وتكبّرهُ من الوسط وتملأ الفسحات بينهُ ثم تغطّي الكل بقبَّة كبيرة. ومتى نُجزت من وصلها نزعت الابراج الوسطى المستخدمة كصقالة او كقالب واستعملت موادها لبناء الحِجَر الداخلية

ومتى بلغ البناء الى نصفهِ وقف الحرّاس للحراسة واشتغل البقية في العمار. ثم متى تمَّ البناء اصبحت تلك الابراج صالحة للمكاشفة والمراقبة . قيل ان خمسة رجال وقفوا آونةً(٢) على احداها واكتشفوا سفينةً تمخر في عباب(٣) البحر. اما القبَّة الخارجيَّة فتصلح لتظليل البناء الداخلي وايصال الحرارة اللازمة لتفقيس البيوض

اما حجرة الملكة فتفوق غيرها جمالاً واتساعًا . وهي واقعة في مركز البناء افقيَّة الشكل تحاذي علوّ الارض وتحاكي نصف قشرة بيضة . وقدرها الاوَّلي عقدة اصبع ثم تزاد الى خمس عُقَد او ستّ حسب كبر الملكة ونموّها. وسمكها عقدة واحدة او يزيد واكثرها من طفال متين مغطَّاة بسقف ولها ابواب ومداخل لا تدخلها الاَّ العساكر والفعلة ولا تستطيع الملكة ولا الملك الخروج

منها . وحول تفق الملكة غُرَف كثيرة ذات اقدار واشكال متنوّعة وكلها اقواس وقناطر. وهي تنفتح الى بعضها بمداخل ودهاليز تحيط بها مخادع ومخازن لتربية الذرّ ضمنها مؤونة وافرة. وبعض هذه القرى خشبيّة ملتحمة بعضها بالصمغ وكلها محيطة بحجرة الملكة

قلنا ان غرفة الملكة توسّع تدريجيًا وكذلك غُرَف الذرّ. فان العاملات يهدم تلك المخادع ثم توسّعها حسب حجم الملكة فتراها اولاً بقدر البندقة ثم تكبُر الى ان تبلغ قدر رأس الولد . وبعد توسيع غرفة الملكة تُحاط بمخادع الفعلة والجنود لحراسة الرئيسة والرئيس المنوط بهما سعادتها ووجودها . اما موقع قصر الملكة ففي دهليز او الخوص(٤) متعرّج ملتفّ محيطة قدمٌ او اكثر. وحوله اروقة وممّاش ورواشن . والمخادع منفصلة عن بعضها بغُرَف فارغة ترتفع الى علوّ ثلاثة ارباع البرج . وفي وسطها تحت القبّة ردهة(٥) تحاكي ساحة الكنيسة مطوّقة باقواس غوثية الشكل كاجنحة البناء وحولها حُجَر وغُرَف عديدة. وهذه الاقواس تسند بعضها بعضًا والبناء الخارجي يسندها جميعًا . وللمخادع سطوح منطحة بعضها كبير بقدر فم المدفع . وكلها مبطّنة بسياع(٦) متين وتصل بعضها بدهاليز واروقة عجيبة . ويصعد ويترل اليها بسلالم. وقد تبلغ طبقات القرية الواحدة عشرين طبقة. ومتى اشتدّ الحرّ في الطبقة العليا تأخذ صغارها الى الدنيا. امّا سكناها شتاء ففي الطبقة العليا.ومتى أوت للرقاد توصد الابواب ويقف بعضها خارجًا للحراسة

---

(١) مجسّم يبتدئ من سطح ويرتفع مستدقًا حتى ينتهي الى سطح اصغر من قاعدته (٢) حينًا (٣) معظم السيل وارتفاعهُ (٤) مجثم القطاة (٥) حظيرة او بيت كبير (٦) طين بتبن

النمل الابيض بناؤهُ القرى وحروبهُ

تقدَّم الكلام ان سرب النمل الطائر يصبح فريسة الطير والحيوان. والذي يسلم ينطلق ليبني قريةً اخرى . فيحفر الارض ويهيئ التبن والطين والرمل المبلول وفتات الخشب . ويقسم القرية كما ذكرنا آنفاً الى حُجَر ومماشٍ واهراء ودهاليز واقبية ورواقات وجدران وسقوف واعمدة وطبقات. ويصنع ذلك كلهُ بهندسةٍ غريبة . ومتى حيَ الجبير ينقل النملة الذرَّ الى الطبقة السفلى . وتحمل العاملات موادَّ البناء باسنانها وتجمعهـا وترمم البناء في عقولها بالسليقة (١) . ثم تشيد (٢) الجدران وتضع السقف وتقسم الغُرَف والمداخل وترفع الاعمدة . فاذا زرت هذه القرى رأيتَ فيها النملة والجنود تشتغل بنظام وترتيب . وشاهدتَ بعضها يحمل الطين وغيرها الخشب او الماء او الجصّ (٣) . وسواها يجلب الطعام او يحرس وهلمَّ جرًّا . وتعاين لتلك المخادع جسوراً تصلها ببعضها على شكلٍ اهليلجيٍ (٤) ومدعومة باقواس متينة

واذا اصاب تلك البيوت عارض فهدمها اشتغلت بهمَّة لا تعرف الكلال لاعادتها وترميمها فتبني في ليلةٍ واحدة بيتاً طولهُ اربع او خمس اذرع . واذا تُخزِّ الوف من هذه الغرف اوصدتها (٥) بالطفال الصباح التابع . واذا تهدَّم الكل على شرط بقاء الملك والملكة في قيد الحياة غطَّت سائر الاماكن التي تدخلها المياه وسيول الامطار. فقد يبلغ طولُ القرية خمس أعشرة قدماً او عشرين ومحيطها من ثلاثين الى اربعين قدماً

وتفتقر تلك المساكن الى تغيُّرات شتَّى دائمة عدا البناء والترميم . وتضطرُّ يوميًّا الى زيادة محيطها الخارجي وحفر سراديب ودهاليز جديدة مغطَّاة تؤدي الى مخازن واهراء اخرى حيث فراغ الاولى . ولها عمل آخر خطير وهو جمع الطعام وادخارهُ

وتبدو حكمة النمل وفطنته وتدبيره بتقسيم الشغل. فان لكل فئة عملاً خاصاً لا يتداخل في غيرها. فمتى هاجم عدوٌّ قرية نمل ودنا من الاسوار توارت(٦)



النملة غير القادرة على القتال وانسحبت الى الداخل وخرجت العساكر المفروض عليها اصلاء نار الحرب. فاذا كان الخطر قليلاً يخرج جنديٌّ واحد للمكاشفة ثم يدخل ويعلم قومه. فتبرز بعدئذٍ اثنان او ثلاثة زاحفة تحت الخطى. ثم يتبعها

الجيش المحارب ويأخذ عددهُ يتزايد تدريجيًا . واذ ذاك تبدو على تلك الكراديس(٧) الجرَّارة ملامح الغيظ وتلدغ كل من صادفتهُ في سبيلها . واذا دام الهجوم على القرية ازداد المرج(٨) والمرج(٩) والهياج . واذا لقطت النملة يدًا او رجلاً لسعتها شديدًا حتى يلتقي فكَّاها ببعضها فيسيل الدم ولا تُفلِت مسكها ولو مُزِّقت قِطعًا. ولكن ان لم يتجدد الهجوم الاول يعتزل الجنود وتزحف الفعلة من سائر الجهات نحو الثغرة حاملة بافواهها جصًّا بقدر جسمها فترمم المتهدم وتمسي مادة البناء مرصوصة كالحجر . ومتى بلغت الثغرة رمت كل نملة حملها بسهولة وانتظام واشتغل الجميع بلا ارتباك ولا تشويش وبدون ان تعرقل الواحدة الاخرى وان بلغ عددهنَّ الملايين. واذ ذاك تغيب العساكر الاَّ بضعة انفار تجول بين الفعلة للحراسة لا للاعانة في العمل

وترى النملة الجنديَّة تستند على الحائط وتلتفت الى كل الجهات كأنها تناظر على الشغل. وآونةً ترفع رأسها وتضرب بجمجمتها حائط النفق فتسمع لذلك فحيحًا(١٠) فيجيبها رفاقها بطنين كأنَّ ذلك علامة التعجيل. لانهُ كلَّما حدث ذلك ضاعفت خطواتها واشتغلت باوفر اجتهاد . وكلَّما تجدد الهجوم تجدَّد العمل فتدخل الفعلة الى داخل ويزحف الجيش الى خارج . ومتى خمدت نار الحرب تبرز الفعلة وتستأنف الشغل وتعتزل العساكر. فلا يحارب الفاعل ولو تفاقم(١١) الخطب ولا يشتغل العسكري ولو عظمت الحاجة

قال احد السيَّاح "بينا كنت جائلاً للصيد واذا بحجم كحجم الافعى فاستغربتُ الامر ولم ارَ ثقبًا . ولكني ما عتمت(١٢) حتى شاهدت جيشًا من النمل خارجًا من نفق لا يزيد عرضهُ على خمس عُقَد او ست وكان عددهُ وافرًا جدًّا . ثم انقسم سطران ومشى بترتيب يُعجَب منهُ. ثم تشعَّب فرقًا كلٌّ منها خمس ثلاث او ست وزحف باستقامة بلا انحراف يمنةً او يسرةً . وكان هذا الجيش من نوع الفعلة ومع كل فرقة جندي واحد كبير الحجم . ثم نظرت سطورًا من الجنود زاحفة يمينًا وشمالاً للحراسة والمراقبة . واذا بها علت اوراق النبات المكاشفة . وكانت هذه

الجنود تنخّ بصوت شديد فيجيبها النعلة بمثل ذلك فتسرع خُطاها دلالةً على انها فهمت المعنى واطاعت الامر. وكان اولئك الخفراء ساكتين لا يأتون حركة بينما كان النعلة يشتغلون بهمّة لا مزيد عليها. ثم التقى جناحا الجيش ببعضها على مسافة خمس عشرة خطوة من نقطة الانفصال وظلّت تسير ساعة او اكثر وانا اراقبها وهي لا تزيد ولا تنقص ولا تنحرف عن سيرها الاّ الجنود فانها كانت تزداد عددًا وتقف احيانًا على الحالّ المرتفعة لحفظ المراقبة والنظام"

قوّة الاتحاد

حبلُ السفينِ من الألياف قد صُنِعا فهي الضعيفةُ لكن عزمها اجتمعا
من كلّ خيطٍ دقيقٍ بالهواء هوى لو مسّهُ ولدٌ بالإصبعِ انقطعا
لكن اذا اتحدت تقوى على لججٍ لو مسّتِ الصخرَ في صدماتها انصدعا
هذا مثالٌ لشدّ الإزر معتبرٌ بالآلِ والصحبِ ان أصغوا له نفعا
فالضعفُ بالحبِّ يمسي قوّةً عظمت والبأسُ بالبغضِ من اربابهِ انتزعا

القناعة

انّ القناعةَ كنزٌ فائق الثمنِ فهي الغنى وهناء العقلِ والبدَنِ
والمرتضي بقضاء الله مغتبطٌ يُسرًا وعُسرًا وفي الخيرات والمِحَنِ
يرضى ويشكرُ مولاهُ القديرَ لما أولاهُ من نِعَمٍ في السرِّ والعلَنِ
أُنظر ترى الطيرَ في اقفاصها ابتهجت اذ تُطربُ السمعَ في تغريدها الحسنِ
مَن كان من نعمة الرحمن مكتفيًا فهو الغنيُّ بما قد نال من مِنَنِ

(١) طبيعة (٢) ترفع (٣) الجبهين او ما يعمَل من مطبوخه حجارة (٤) ذي دائرة الى الطول على شكل الاهليلج (٥) اطبقت واغلقت (٦) اختفت (٧) جمع كردوسة وهي القطعة العظيمة من الخيل (٨) فتنة واختلاط (٩) اختلاط واضطراب (١٠) صوت الافعى من فيها (١١) عظم واشتدّ (١٢) لبثت او ابطأت

النَّمْلُ الأَبيضُ . أَضْرارُهُ

اَلنَّمْلُ ٱلْأَبيَضُ مِنَ ٱلْحَشَرَاتِ ٱلْجَزِيلَةِ ٱلضَّرَرِ فِي ٱلْإِنْدِسِ ٱلْغَرْبِيَّةِ وَٱلشَّرْقِيَّةِ. فَيَنْزِلُ تَحْتَ أُسُسِ ٱلْبُيُوتِ وَٱلْمَخَازِنِ إِلَى عُمْقِ أَقْدَامٍ كَثِيرَةٍ وَيَثْقُبُ مَا يُصَادِفُهُ فِي سَبِيلِهِ. أَوْ يَدْخُلُ مِنْ أَسَافِلِ ٱلْأَعْمِدَةِ ٱلْوَاقِعَةِ عَلَى جَوَانِبِ ٱلْبِنَاءِ وَيَثْقُبُ مُتَتَبِّعًا آثَارَ ٱلْأَلْيَافِ إِلَى ٱلْأَعْلَى. أَوْ يَصْنَعُ ثُقُوبًا مُسْتَطِيلَةً وَتَجَاوِيفَ وَيَبْرُزُ مِنَ ٱلْجَانِبِ ٱلْآخَرِ. وَمِنْهُ مَا يَثْقُبُ ٱلْخَشَبَ فِي ٱلْأَعْمِدَةِ وَيَصْعَدُ غَيْرُهُ إِلَيْهِ. وَهُوَ يَسْتَطِيبُ ٱلتِّبْنَ وَنُشَارَةَ ٱلْخَشَبِ وَيَأْتِي بِرِدَاغٍ (١) وَيَصْنَعُ أَنَابِيبَ فِي أَمَاكِنَ وَافِرَةٍ وَيَقْرِضُ ٱلْأَخْشَابَ وَٱلْجُسُورَ وَتُسَاعِدُهُ ٱلْجُرْذَانُ عَلَى ذٰلِكَ. فَلَا يَعْتَمُّ حَتَّى تَخْرَبَ ٱلْبُيُوتُ بِنَخْرِ ٱلْأَعْمِدَةِ وَتَوْهِينِهَا كَنَخْرِ ٱلدُّودِ ٱلشَّجَرَ. وَإِذَا رَأَى أَنَّ ٱلْعُودَ أَوِ ٱلْجِسْرَ أَوْشَكَ ٱلْهُبُوطَ لِنَخْرِهِ أَتَى بِٱلْجِصِّ وَسَدَّ ٱلثُّقُوبَ بِحَذَاقَةٍ تَعْجِزُ عَنْهَا ٱلْقَرَائِحُ ٱلْبَشَرِيَّةُ

وَقَدْ يَرَى أَرْبَابُ ٱلْمَنَازِلِ عِنْدَ هَدْمِهَا أَنَّ ٱلْأَعْمِدَةَ وَٱلدَّعَائِمَ تَحَوَّلَتْ إِلَى مَا يُشْبِهُ ٱلصَّدَفَ وَأَصْبَحَتْ صِلْصَالًا (٢) مَتِينًا كَٱلْقَرْمِيدِ. فَقَدْ وَضَعَ أَحَدُ ٱلْعُلَمَاءِ فِي مَكَانٍ مُجْهِرًا وَغَابَ

بِضعة أشهرٍ فوجد عند أيابه (٢) أنَّ النمل الأبيض توطّن فيه ونخره حتى لم يبقَ إلاَّ المعدن والزجاج . وأتى بعضهُ مرّة براميل خمرٍ فثقبها وسال منها الشراب وعلى هذا النمط ينخر الرفوف والخزائن وغيرها. فتراه يشتغل أبداً بالثقب والنقب وينتقل من دعامة إلى أخرى حتى يأتي على آخرها

وهو مولعٌ بشجر الأرز والسرو فيقطعهُ وينقلهُ بسرعة غريبة ويجوّف العمود بدهاء جزيلٍ حتى لا يبدو على ظاهره شيء من آثار التلف. ولكنك إذا وضعت عليه متاعاً هبط إلى الأرض . ومكرهُ عجيب حتى يحجز البشر عن كشفه. فإذا دخل صندوقاً أو خزانة ليلاً التهم محتوياتها وقرضها قبل الصباح . روى عالمٌ مقيمٌ في اليابان أنَّ النمل الأبيض نخر مائدته وفتح فيها أنابيب كثيرة وصلت إلى الأرض في ليلة واحدة

وزد على ذلك أنهُ يفترس كلّ ما يصادفهُ في طريقه من أحذية ونعالٍ وقماشٍ وكتبٍ حتى أنك قلّما تجد في أميركا الاستوائية أوراقاً عمرها أكثر من نصف قرنٍ . ويكثر النمل في البلاد الحارة حتى يتعذّر على المسافرين سلوكها.

فَإِنَّ ٱلنَّمْلَ يَزْحَفُ مِنْ قُرَاهُ أَسْرَابًا وَجُيُوشًا عَرَمْرَمِيَّةً ويلسعهم وَيَطْعَنُهُمْ طَعْنَ ٱلْحِرَابِ ٱلْحَادَّةِ

وَمَتَى هَاجَمَ ٱلنَّمْلُ ٱلْأَبْيَضُ ٱلْأَشْجَارَ فِي ٱلْغِيَاضِ وَٱلْحُقُولِ سَارَ حَسَبَ مَجْرَى ٱلْأَحْوَالِ. فَإِذَا صَادَفَ عِيدَانًا فِي سِيَاجٍ لَمْ تَتَأَصَّلْ أَخَذَ بِإِتْلَافِهَا. وَلٰكِنْ إِذَا رَأَى قِشْرَهَا مَتِينًا دَخَلَهَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِ وَنَخَرَهَا فَتَبْدُو عَلَيْهَا صُورَةُ عُودٍ أَخْضَرَ تَتَظَلَّلُ تَحْتَهُ طَائِفَةُ نَمْلٍ تَائِهَةٌ أَوْ هَوَامُّ أُخْرَى إِلَى أَنْ تَنْثُرَهُ ٱلرِّيَاحُ. وَإِذَا لَمْ يَسْتَطِعِ ٱلتَّمْوِيهَ بِإِبْقَاءِ ٱلْقِشْرِ غَطَّى ٱلْعُودَ كُلَّهُ بِجِصٍّ فَيَلُوحُ كَأَنَّهُ مَغْمُوسٌ بِصِلْصَالٍ جَافٍّ. ثُمَّ يَشْتَغِلُ تَحْتَ هٰذَا ٱلْغِطَاءِ بِٱلْقَضْمِ وَلَا يُغَادِرُ شَيْئًا مِنَ ٱلْعُودِ وَٱلْقِشْرِ إِلَّا مَا كَانَ كَافِيًا لِحَمْلِهِ. وَطَوْرًا لَا يَتْرُكُ مِنْهُ ذَرَّةً حَتَّى إِذَا مَسَسْتَهُ بِعَصَاكَ يَتَنَاثَرُ تَحْتَ أَقْدَامِكَ وَيَحْتَجِبُ ٱحْتِجَابَ ٱلْخَيَالِ. وَهُوَ يَدْخُلُ فِي ٱلْغَالِبِ سَاقَ ٱلشَّجَرَةِ. قَالَ أَحَدُ ٱلسُّيَّاحِ "كُنْتُ أَمُرُّ بِأَشْجَارٍ قَدِيمَةٍ فَأَرَاهَا مَطْرُوحَةً وَأَظُنُّهَا سَالِمَةً فَأَدُوسُ عَلَيْهَا كَأَنِّي دُسْتُ خَيَالًا. لِأَنَّهَا تَتَنَاثَرُ هَبَاءً تَحْتَ أَقْدَامِي فَأَسْقُطُ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَتَتَهَشَّمُ أَعْضَائِي"

قَالَ بَعْضُ ٱلْبَاحِثِينَ فِي عِلْمِ ٱلطَّبِيعَةِ. إِنَّ ٱلنَّمْلَ

ٱلأَبْيَضَ فَلَمَّا يَعْرِضُ ٱلأَشْجَارَ ٱلْحَيَّةَ ٱلْغَضَّةَ ٱلْحَدِيثَةَ بَلْ يَنْخَرُ بِٱلأَكْثَرِ ٱلأَشْجَارَ ٱلْيَابِسَةَ ٱلْمُلْقَاةَ عَلَى ٱلأَرْضِ أَوِ ٱلَّتِي بَلَغَتْ سِنَّ ٱلشَّيْخُوخَةِ فَيُتْلِفُهَا حَالاً. وَهٰكَذَا يُنَظِّفُ ٱلأَرْضَ مِنَ ٱلْخَشَاشِ(٥) وَٱلنَّبَاتَاتِ ٱلَّتِي دَبَّ فِيهَا ٱلْفَسَادُ فَيُقَصِّرُ زَمَانَ تَعْطِيلِهَا ٱلأَرْضَ وَلاَ يَفْلِتُ مِنْ فَمِهِ شَيْءٌ مَهْمَا كَانَ وَأَيْنَمَا وُضِعَتْ. وَعَلَى ذٰلِكَ يَنْتِجُ بِأَقْرَبِ أَنَّ كُلَّ ٱلْعِيدَانِ وَٱلْجُذُوعِ ٱلْيَابِسَةِ وَٱلأَشْجَارَ ٱلسَّقِيمَةَ مِنَ ٱلْغَابَاتِ بَلْ يَأْكُلُ مَوَادَّ ٱلْمُدُنِ ٱلْخَرِبَةِ حَتَّى لاَ تَكَادُ تَنْقَضِي سَنَتَانِ أَوْ ثَلاَثٌ حَتَّى يَنْبُتَ مَكَانَهَا غَيْضَةٌ نَاضِرَةٌ وَلاَ يَبْقَى لِلْمَدِينَةِ أَثَرٌ

(١) بماء وطين او الرقيق منه والوحل (٢) طينًا خُلِط بالرمل
(٣) نسبة الى عرمرم وهو الجيش الكثير (٤) كسر باطراف الاسنان
(٥) حشرات الارض

النمل الابيض الصغير

يوجد نوع آخر من النمل الابيض اصغر من النمل المارّ ذكرهُ يبني بيوتًا عمودية الشكل من تراب اسود علوّها ثلاث اقدام ذات سقف اهليلجيّ تحاكي طاحون الهواء. ولا يكبّرها بل يشيد غيرها بصورة متينة يتعذّر هدمها وان دُكّ

الاساس . واذا هُدِم احد البيوت اخذ الاساس الاول وجملة دعامة البيت الثاني ورسّخه رسوخاً امتن من السابق وبنى عليه غُرَفاً وحُجَراً غير منتظمة

ومنه نوع آخر يعمّر قراهُ في الاشجار فيثقبها ولا يترك منها الاَّ القشر ليتظلل تحته . ويحفر فيها بيوتاً قد يبلغ حجمها برميل سكّر. فيأخذ نشارة الخشب ويعجنها بنوع من الصمغ كجصّ متين ويبني بها قرًى قويةً يتعذَّر قلعها الاَّ بتكسير العيدان . ومتى كبر بيضهُ قليلاً يغطّيه بما يحاكي فيلجة[1] حريرية فتعلم النملة بالسليقة الزمان اللازم لنقفهِ. وتأتي ثلاث او اربع نملات وتثقب الفيلجة من اعلاها وتحلّ عنها الخيوط برقّة فتخرج من الغلاف ثم تأخذ تطعم الصغار وتملّها مداخل البيت ومخارجهُ وتعاريجهُ بهمّة لا تدري الكلال . وللنمل قوّة ايصال الافكار لبعضهِ بواسطة قرونهِ فتمسّ بها الواحدة الاخرى وتخبرها بالخطر وزمان الرحيل وطريق السفر وشروق الشمس وغروبها ومكان القوت الخ. وهو قوي اللاكرة فاذا التقت نملتان بعد ايام عرفت الواحدة الاخرى وحيّتا بعضهما . وحاسّة الشمّ في النمل قوية جدًّا وكذلك قوّة البصر

---

(١) في الدارج شرنقة حرير

النمل الاحمر المحارب والنمل الاسود

من اوصاف هذا النمل انه يزحف جيوشاً وكراديس وكتائب[1] بنظام عسكري يُعجَب منهُ . ويوم[2] اكّة يفطنها عدوّهُ الاسود . فلا يراهُ الخصم زاحفاً حتى يفطن بالخطر ويبادر للدخول في قريتهِ ويحاول طردهُ وردّهُ على الاعقاب. غير ان الاحمر يستظهر[3] على الاسود ويدخل قريتهُ اللاَّى بالغرف والمداخل . فيلج الغُرَف حيث صغار النمل الاسود ومأذنهُ والطعام المذخور لما

فيسلب بعض النمل الغازي هذا الطعام ويخرج به غانمًا ظافرًا . ويحمل غيره البيوض والصغار وينطلق بها يعدو الى نقبَهِ بدون ان يمسّها بضرر . ويغادر قرية خصمهِ قاعًا(٤) صفصفًا(٥) لا عيال فيها ولا مؤونة

ومتى بلغ نقبهُ لاقاهُ جندٌ آخر من الخدم والاعوان من التي كانت قد غُنِمت في الطفولة واستُعبِدت كما استُعبِد هولاء . فيحمل هذه الصغار الى الداخل ويطعمها ويدفّيها ويدلّلها كما لو كانت من اولادهِ الى ان تبلغ نموّها الكامل وتمسي قادرة على العمل . واذ ذاك تصير رقيقة سيّداتها المحاربات الغانمات . فتفعل كل ما تامرها به وتحملها من مكان الى آخر . وهذا النمل يعيش في اماكن شتّى ويُدعى النمل الامازوني لانهُ مُغرَم بالحروب

(١) جمع كتيبة وهي الجيش (٢) يقصد (٣) يغلب
(٤) ارضًا سهلة (٥) ارضًا مستوية

بعض صفات النمل العامّة وانواعهُ

ان محبة النمل لصغارهِ عجيبة جدًّا . ثم الطاعة للملكة الدالّة على الولاء والخلوص . ثم اجتهادهُ في الشغل الدائم . ثم العناية والاهتمام بمصلحتهِ ومراعاتهِ الخير العامّ . ثم اتحادهُ وحكمتهُ وفطنتهُ ببناء البيوت والقرى وادّخار الطعام . ثم امتياز الملكة والملك ومجدها الفائق وصفاتها السامية . ثم نظامهُ الترتيب وتقسيمهُ الشغل وعدم مزاحمة بعضهِ بعضًا . ثم تغيّراتهُ العجيبة ونفعهُ في نظام الطبيعة . فسبحان المبدع الحكيم

اما انواعهُ فعديدة منهــا نمل الخشب . والنمل الطيّار . والنمل الغازي الذي يعيش بالصيد والقنص . والنمل الراحل الذي يعيش بتربية الحشرات

كالبشر بتربية المواشي. وهو يتألب طوائف وكتائب ويحارب. والنمل الحضري المعروف عندنا . والنمل الابيض المارّ ذكرهُ . والنمل الشجري . والنمل الاحمر الذي يستعبد الاسود وقد سبق ذكرهما الى غير ذلك

اوراق الشجر الماشية والنمل

في البرازيل نملٌ كبيرٌ يتسلّق اشجار البنّ وغيرها ويقطع الاوراق قطعاً مستديراً كلاً منها بقدر الربع المجيدي ثم يجرّها الى قاعدة الشجرة فتتركم هناك ثم يزحف صاعداً ليأتي بغيرها فيتقدم جيش آخر من رفاقهِ وينقلها الى القرية . اما فائدة هذه الاوراق فللدمام[1] لانهُ يجبلها مع التراب والجص ويدمّ[2] بها اروقة مداخل نفقو المتعرّجة لئلاّ تدخلهُ الامطار وتحلف صغارهُ

ولما كانت تلك الاوراق المحمولة تظلّل النمل حتى لا يكاد يظهر رأيتها حين زيارتك تلك الغابات ماشية تغطي الارض كأنّ لها ارجلاً تسير عليها. فقد عجب احد السيّاح يوماً اذ رأى اوراقاً كثيرة ماشية تعدو[3] فخالها[4] دويبّات[5] سائرة بانتظام فانحنى ليعاينها ويتحرّى[6] الامر واذا بالنمل تحتها يحثّ الخُطى نحو قريتهِ

ولا يكتفي هذا النمل باوراق اشجار الادغال بل يأتي الحدائق والرياض ويتسلّق اشجار البنّ والفاكهة فيقطع اوراقها بفكوكهِ الكبيرة الماضية مضاء الحسام ويجرّدها كل التجريد الى ان تصبح اعواداً جافة . ولا يقتصر على ذلك بل يزحف الى البيوت ليلاً ويسلب كل ما يصادفهُ في سبيلهِ

ومتى سار هذا النمل في غاب ذهاباً وإياباً رصّ الارض تحتهُ فصلبت حتى تخالها قد رُصّت بوطء الاقدام البشرية او بحاول[7] المركبات . والبرازيليون يقلعون جذور نبات المانيوق كما اسلفنا الكلام ويصنعون منها طعاماً . ويضعون

تلك الجذور في سلال يعلّقونها باوتاد . فاذا اهتدى النمل اليها يحملها قطعة قطعةً حتى لا يغادر منها الى الصباح اثرًا

قصَّ بعض البرازيليين على احد السيّاح نبأ هذا النمل واضرارهُ فلم يصدّق الى ان شاهد ذلك بعينيهِ . فان خادمة ايقظته في احدى الليالي قائلاً الفأر دخل سلال الطعام واخذ يقرضها . فنهض يتفتّش في السلال واذا بجيش نمل جرّار زاحف بين الباب والمائدة حيث كانت السلال موضوعة . وكان بعضهُ داخلاً وبعضهُ خارجًا . ورأى بافواه الجيش الخارج قطع طعام يعدو بها الى الباب. وكانت السلال مبطّنة باوراق خضراء فكان النمل يقضم تلك الاوراق وينقلها ايضاً فعلم ان علة الخشخشة التي سمعها الخادم من النمل لا الفأر

ولا غروَ ان الهنود والبيض يدأبون باهلاك النمل الضارّ. ولكن متى دخل النمل بيتاً لا يسهل طردهُ واهلاكهُ . فاذا أبدتَ جيشاً تعقَّبهُ آخر ثم آخر الى ان يعروك الكلال والعناء . فلا وسيلة انجع من وضع بارود في سبيلهِ وحرقهِ . وهذا النمل الكبير لا يعيش الاَّ في اقاليم اميركا الحارَّة

---

(١) كل ما طُلي بهِ (٢) يطلي او يجصّص (٣) تركض (٤) فطنتها (٥) تصغير دابَّات (٦) يتوخَّى ويقصد (٧) دواليب

آكِل النمل

هذا الحيوان يقطن في برازيل وغينيا . اما طولهُ فيزيد على سبع اقدام وارتفاعهُ نحو قدمين . وطول لسانهِ ثلاثون عقدةً وخطمهُ[١] طويل دقيق . وعيناهُ صغيرتان سوداويّتان . ولهُ في كلٍّ من يديهِ اربع اصابع وفي كلٍّ من رجليهِ خمس والاصبعان المتوسطتان شديدتان منعقفتان كثيرًا . وهلبهُ[٢] على سنام ظهرهِ اسود تخالطهُ شهبة. ومن قفاهُ يمتدُّ خط اسود الى كتفيهِ طرفهُ ابيض.

وشعر ذنبهِ طويل اسود خشن وهو عديم الاسنان . ولا تلد انثاهُ في المرَّة غير واحد

ومن طبعهِ انهُ حريص على اكل النمل واهلاكهِ . وليس للنمل عدوٌّ اشد فتكاً منهُ ولا اكثر اساءَةً وغدرًا . ولسانهُ في الغالب متشعب وهو آلتهُ الوحيدة للاسترزاق . ولمَّا كان عاجزًا عن حماية نفسهِ بما لهُ من القوَّة والحيلة حين يدهمهُ ما هو اشدُّ بأسًا منهُ عمد الى السكنى في الغياض المدلهمَّة او في الجبال الخالية . وقد يختفي احيانًا تحت الورق اليابس ولا يخرج من مأواهُ تجنبًا للخطر الَّا اذا دعاهُ داعي السَّغَب(٣) . واذا خرج ساعة واحدة كفته المؤونة اياماً لكبر حجم النمل في تلك البلاد ووفرة عدده

ومتى شعر بمحلّ فيهِ نمل تسلَّل اليهِ رويدًا ساكتاً . حتى اذا استقرَّ في موضع ملائم مدَّ لسانهُ الدبق وتلقَّف(٤) بهِ ما شاء . وكلَّما تناول بهِ قدرًا بلعهُ وكرَّر العمل حتى يتخم فيرجع الى وجارهِ . ولهذا الحيوان مخالب حادَّة يبحث بها قرى النمل ثم يمدُّ لسانهُ الطويل اللزج فيخاف النمل ويخرج بغية النجاة . لكنَّهُ يمشي على لسان عدوّهِ فيلتصق بهِ فيجذبهُ الى فيهِ ويلتهمهُ

ولآكل النمل فضلٌ عظيم على هنود اميركا لانهُ يقيهم اضرارهُ . لكنهم كثيرًا ما يصيدونهُ لانهم يستحبون لحمهُ . فاذا امطرت السماء وقف جامدًا ورفع ذنبهُ الكثَّ(٥) فوق رأسهِ كمظلة . ولما كان الهنود ارباب دهاء في الصيد ينقرون الارض باصابعهم فتصوّت صوتاً يحاكي وقع المطر . فيقف آكل النمل مبهوتاً ظانًا ان الغيث يهمي فيبادر الصيَّاد نحوهُ ويقتنصهُ

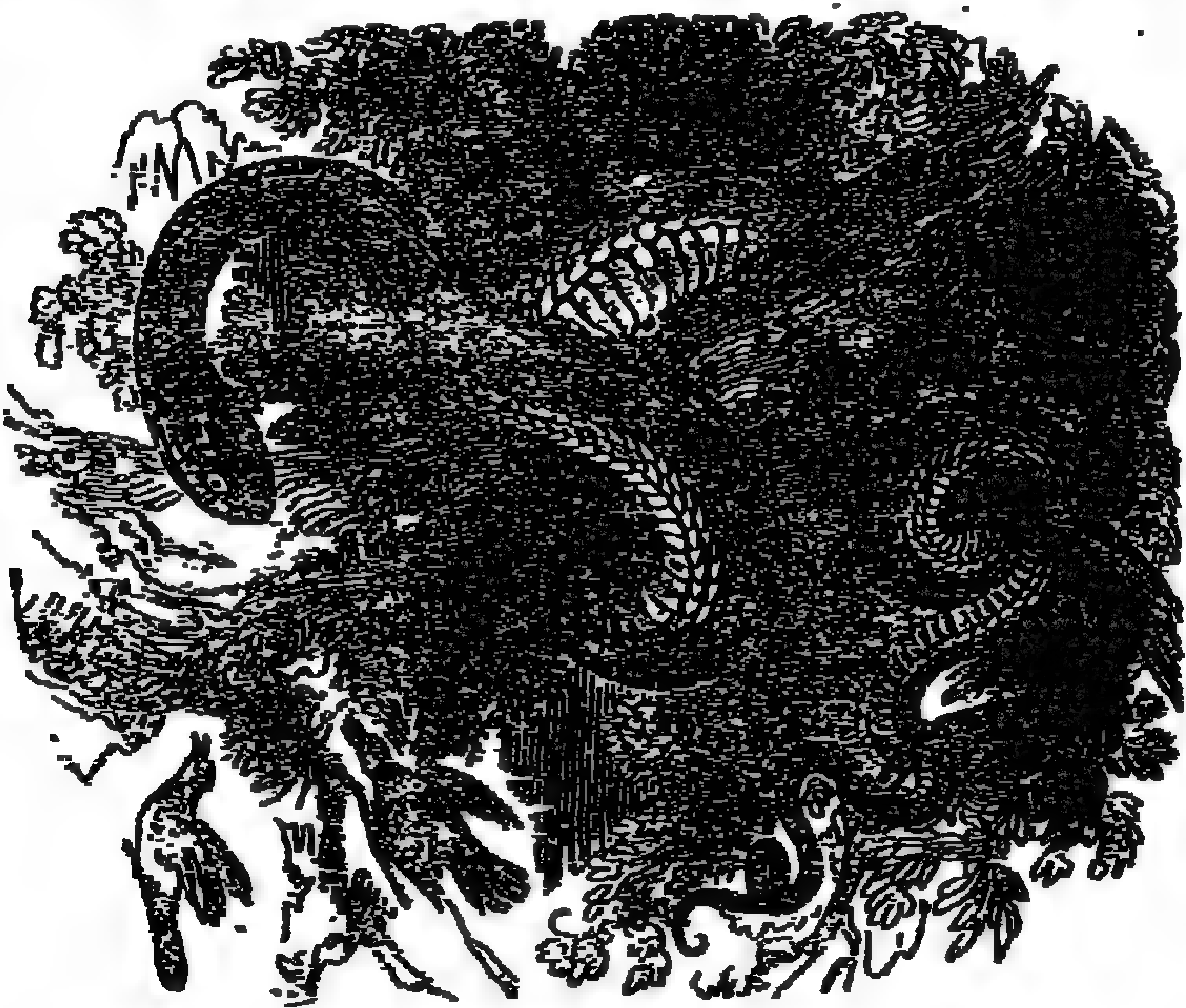
ومع انهُ يحاذر اعداءهُ بحزمٍ واهتمام ويتقي بأسهم اذا اقتحم دافع عن نفسهِ بمخاليهِ وبطش بخصمهِ . فيغلب الكلب بل النمر الاميركي ويفتك بها

---

(١) مقدَّم انفهِ وفيهِ (٢) شعرهُ (٣) الجوع (٤) تناول بسرعة (٥) الكثيف

الاعشاش المدلاّة

للطيور الساكنة في احراش البرازيل اعداء فتّاكة . منها القرود التي تتلصّص في الاعشاش حتى اذا رأت ما يؤكل سلبتهُ في الحال . فانها مُولَعة بالبيوض ولوع الانسان بها ومنها الافاعي التي تنساب متسلّلة وتتسلّق الاشجار فاذا ابصر بها الطائر عراهُ الهلع(١) وطار حول رأسها يصيح ويزعق كأنهُ يرجو



طردها عن عشّهِ. غير ان الافعى لا تكترث بصياحهِ بل تحملق بهِ عينيها البرّاقتين واذا تجرّأ ودنا منها فتحت فاها وتلقّفتهُ في الحال

فما الوسيلة لنجاة تلك الطيور من هذه الاعداء الالدّاء . الجواب قد علّمتها الطبيعة ماذا تفعل . فانها تبني عشّها في آمن مكان تدلّها عليهِ السليقة(٢) وتعلّقهُ في مركز لا تبلغهُ الافاعي ولا القرود

اما شكل ذلك العُشّ فيحاكي الردن(٣) المصرور مدلّى من شجرة فوق نهر او جدول له في اسفلهِ فوهة لدخول الطائر. ودهليز ضيّق يتّصل بآخرهِ بيت فسيح حيث يضع الطائر بيوضهُ ولا يخشى عدوًّا. لان لا احد يتجرّأ على الدنوّ من ذلك العُشّ الاّ ذوات الاجنحة

ويبني الطائر هذا الوكر من اعشاب منسوجة فيصبح متينًا جدًّا حتى اذا رمت تقطيعهُ واتلافهُ يعسر عليك الامر جدًّا . ولمَّا كان هذا العش مظلمًا ينيرهُ الطائر بوسيلةٍ غريبة اذ يلتقط عددًا من الحباحب(٤) ويلصقها بجدرانهِ بواسطة قِطَعٍ من رداغ(٥) مبتلّ فتضيء كسرجٍ صغيرة

وتكثر هذه الطيور في اميركا الجنوبية حيث يشاهد السيّاح مئاتٍ من الاعشاش المدلاَّة في الغابات وعلى ضفاف الانهر. ومن الطائر الصائد الحباحب ما يعيش في افريقية ايضًا

---

(١) الخوف (٢) الطبيعة (٣) الجيب (٤) سراج الليل (٥) طين

شجرة الصمغ الهنديّ او المغَّاط

تنبت شجرة هذا الصمغ في اميركا الجنوبية عند نهر الامازون وهو كما لا يخفى اكبر نهر في المسكونة طولهُ نحو الفي ميل. ومن الانهر الصابَّة فيهِ نهر فيهِ جزائر واطئة غمقة يغمرها الماء شتاء . ولكن متى جاء الصيف تجفّ وتصبح صالحة لوطء الاقدام . فعلى هذه الجزائر تنمو شجرة الصمغ الهندي

ويأتي القوم سنويًّا لاستدرار عصيرها بأن يدوروا مساء حول تلك الاشجار

ويضعون قشورها فيسيل منها عصيرٌ لبنيٌّ يجمعونهُ في اوعية خزفية او اصداف



كبيرة يضعونها تحتها لهذه الغاية ثم ينطلق الرجال تاركين العصير يقطر. ثم يأتون صباحًا ويرون الآنية ملأى فيغمسون فيها القوالب. ومتى جفَّت كرَّروا غمسها الى ان يحيط بها عصيرٌ صمغيٌّ. ثم يضرمون نارًا وقودها جوز النخل. فيرتفع دخان كثيف يرفعون فوقهُ تلك القوالب حتى يجفَّ العصير كل الجفاف ويسودَّ لونهُ فيصبح شمعًا هنديًّا معدًّا للبيع

اما الادوات النافعة المصنوعة من هذا الصمغ فلا تُحصَى. منها الاكياس والقبعات واغطية الاحذية والاردية والبرانس والعباءات والخيام والقوارب والجسور ايضًا واطواق دواليب المركبات والانابيب. فان هذا الصمغ مادة لا يخرقها الماء ولو اشتدَّت العوارض والسيول وعلى ذلك كان هذا الصنف نافعًا جدًّا للانسان

حيّات الماء الرعّادة

سلّحت الطبيعة كلّ حيّ بسلاحٍ خاص للدفاع عن نفسهِ فخصّت بعضها بمخالب[١] وغيرها بيرائن[٢] وسواها بانياب وبعضها بقوّة عضليّة او باصداف ولمّ جرّا. ولبعض الحيّات المائيّة سلاحٌ غريبٌ وهو الكهربائيّة فترعد بها على خصمها وتهزّهُ هزّ دولاب البرق. ومتى غضبت دفعت هذه القوّة على الانسان فرجف وعراهُ الدوار وسقط الى الارض

وهذه الحيّات تعيش في انهر اميركا الجنوبية الكبيرة كالامازون والاورينوكو. فاذا ذهب المنديّ يستحمّ صادفها احيانًا فتنازلهُ ببرقها ورعدها الطبيعيّين ولا يتمكّن من صيدها في الانهر العظيمة الاّ بنبات يلقيهِ في الماء فيعروها الدوار كالشارب الثمل[٣]. فيستطيع المنديّ حينئذٍ صيدها وقتلها

واذا عثر عليها في البِرَك والجداول اهلكها بسهولة. فقد تكثر تلك الحيّات في بحيرات لانوس وتقتل الاسماك بالارعاد عليها وتفترسها

ومتى عزم الهنود على صيدها اتوا بالخيل والبغال ودفعوها الى البحيرة لتفرغ الحيّات عليها جُعَب كهربائيتها فتنفد قوّتها. غير ان الخيل تأبى النزول الى الماء فرارًا من ضربات الحيّات البرقيّة. غير ان الهنود يرغمونها على خوضها فتسبح الحيّات تحتها وتصعقها فيلمّ بها الالم والدوار فتخبط وترفس كأنها أُصيبت بالجنون. وتنتفش اعرافها وتنتصب وتقدح اعينها شررًا وتصهل وتحمحم وتأتي بحركات تروع ناظرها. وزد على ذلك صياح الهنود وزعيقهم وتلاطم المياه. فيدوم هذا المشهد الى ان تنفق الاحناش قوّتها الكهربائيّة وحينئذٍ تبغي الراحة والطعام لتجديد زخرها. فيأتي الهنود حينئذٍ ويطعنونها بالحراب عند ضفاف البحيرة.

فاذا اتفق ان هنديًّا طعن حيّةً قبل نفاد كهربائيتها تصعقهُ حالاً فيسقط على الثرى او في الماء مغشيًّا عليهِ

---

(١) ظفر كل سبع (٢) كف الاسد ونحوهِ (٣) السكران

ماس البرازيل

يوجد في انهر هذا الاقليم حجر الماس الكريم الذي يدأب الزنوج باستخراجهِ وقد اكتشف هذا الحجر زنجيٌّ كان يفتش عن الذهب واذا بهِ رأى بين الحصى والرمل حجارًا لامعة تتألّق(١) فالقاها الى الارض ولم يكترث بها. غير ان رجلاً ابيض ممن يعرفون قيمة الماس عاين تلك الحجار واخذها ثم فتّش عن غيرها وانبأ رفاقهُ . فاقبلوا الى تلك المناجم(٢) المائيَّة ينقلون ركازها واقتدى بهم آخرون وما زال العمل جاريًا هناك تحت مناظرة البيض . وذلك بأن يخوض الهنود النهر ويضعون فيهِ قصاعًا كبيرة يجري اليها الماء من الطرف الواحد ويخرج من الآخر. فيملأ وحل النهر ورملهُ القصعة . اما الماء الداخل فينزع الوحل عن الماس ويغسلهُ. ولا يفتأ الزنوج يهزّون القصعة راجين وجود الماس فلا يخيب رجاؤهم في الغالب

فاذا ألقتك الاقدار عند احد هذه الانهار وشاهدتَ الاعمال الجارية هنالك رأيتَ الزنوج منصبّين على العمل بجدٍّ لا مزيد عليهِ. والناظر جالسًا على كرسي يراقب شغلهم حذرًا من ان يختلسوا شيئًا من المال لانفسهم . واذا وجد الزنجي ماسةً صفّق بيديهِ فرحًا فيمسكها بين السبابة والابهام ويدفعها للناظر. فيضعها المذكور في وعاء ماء ولا ينقضي النهار حتى تُرى ماسات وافرة في ذلك

الوعاء . واذا اسعد الحظ زنجيًّا رفيقًا بأن وجد ماسة كبيرة سُرَّ كل السرور لعلمهِ ان سيدهُ يعتقهُ من رقّهِ بسبب تلك الماسة

(١) تلمع (٢) ارض المعادن

شجرة الشينكونا

ان منابت الشينكونا التي تُستخرَج منها الكينا هي في مملكة بيرو . ولما كان الهنود القاطنون ذلك الاقليم معرضين للبرداء انحنى في احد الايام رجل ليشرب من بركةٍ في الغابة فرأى طعم الماء مرًّا ولما كان جسمهُ ملتهبًا بالحمّى نهل كميَّةً وافرة من هذا الماء . فشعر بعد ئذٍ ان صحتهُ اخذت تتحسَّن ثم تعافى تمامًا . اما علّة مرارة ذلك الماء فمن قشر شجرة الشينكونا . فانبأ الهنود رفاقهُ عن واسطة شفائهِ فذاعت منافع هذه الشجرة واستعمل قشرها القوم علاجًا

وقد سُمّيت شينكونا على اسم امرأة كانت مُصابة بالبرداء فشُفيت منها بتجرُّع هذا الماء . وقد يُسمَّى هذا العلاج الدواء البيروفي

اما كيفية الحصول على هذا القشر فهي ان يذهب الرجال الى الغاب للتفتيش عن شجرة الشينكونا يتولى قيادتهم رئيسٌ وبيد كلٍّ منهم فأسٌ ليقطعوا بها الاجم والليف والحلفاء[1] والاشواك التي تعترض طريقهم . ويصحبون ايضًا معهم خيمة يزرعون حولها حنطة لانهم لا يدرون متى يعودون

ثم يتشعَّبون فِرَقًا يفتشون عن الشجرة المذكورة . فاذا الحوا في سبيلهم اوراقًا جافَّة علوا على الفور اذا كانت قد تناثرت من الشجرة المقصودة . ثم يميّزون جهة مهبّ الريح وينطلقون الى تلك الناحية . وقد يسيرون ايامًا ولا يهتدون الى الشجرة . وكثيرًا ما يضيعون الطريق ويتيهون بين الجذوع الكبيرة والعلّيق

فيهلكون وتنقطع اخبارهم . وعلى ذلك كان دون الحصول على قشور الشينكونا خرط القتاد(٢)

ومتى عثر الهنود على الشجرة اخذوا يقطعونها بفؤوسهم ولكنها تظلُّ واقفةً منتصبة لان الليف والنحاء الملتفّ عليها يضبطها كل الضبط فلا تسقط الى الارض فيضطرّون الى تقطيعهِ وحلّ الشجرة من شبكتهِ . ثم ينزعون القشر عن الساق ويبيعونهُ للتجار والصيادلة فيصنعون منهُ الكينا

(١) قشر الشجر (٢) شجر شائك (دليل الصعوبة)

الطواف حول الارض

١

يُمكِنُ ٱلطَّوَافُ حَوْلَ ٱلدُّنيَا فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ. فَإِذَا جَعَلْنَا مَدِينَةَ لِيفَرْبُولَ مَثَلًا نُقْطَةَ ٱلسَّفَرِ تَتَرَبَّصُ بُرْهَةً رَيْثَمَا نَرَى هٰذِهِ ٱلْبَلْدَةَ ٱلْعَظِيمَةَ ٱلْمَتْجَرِيَّةَ ٱلَّتِي يُعَدُّ تَقَدُّمُهَا ٱلسَّرِيعُ مِنْ مُعْجِزَاتِ هٰذَا ٱلْقَرْنِ. فَقَدْ كَانَتْ سَنَةَ ١٧٠٠ فُرْضَةً صَغِيرَةً لَا يُعتَدُّ بِهَا وَلَا يَزِيدُ سُكَّانُهَا عَنْ ٨٠٠٠ فَبَلَغُوا سَنَةَ ١٨٠٠ نَحْوَ ٧٧٠٠٠ ثُمَّ أَصْبَحُوا ٱلْآنَ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ مِلْيُونٍ وَهِيَ تُحْسَبُ ٱلْمَدِينَةَ ٱلثَّانِيَةَ فِي بِرِيطَانِيَا وَلَيْسَ لِمَرَافِئِهَا

مَثِيلٌ فِي ٱلْعَالَمِ بِأَسْرِهِ. فَإِنَّ مَسَاحَةَ أَرْضِهَا ٧٠٠ فَدَّانٍ إِنْكِلِيزِيٍّ. وَيَبْلُغُ طُولُ هٰذِهِ ٱلْمَرَاقِي ١٧ مِيلًا أَيْ نَحْوَ سِتِّ سَاعَاتٍ

ثُمَّ إِذَا أَبْحَرْنَا مِنْ لِيفَرْبُولَ إِلَى نِيُويُورْكَ فِي أَسْرَعِ ٱلْبَوَاخِرِ بَلَغْنَاهَا فِي خَمْسَةِ أَيَّامٍ وَنِصْفٍ. وَهِيَ مَدِينَةٌ مَبْنِيَّةٌ عَلَى جَزِيرَةٍ مَسَاحَتُهَا ٱثْنَانِ وَعِشْرُونَ مِيلًا مُرَبَّعًا. وَهِيَ وَاقِعَةٌ عِنْدَ مَصَبِّ نَهْرِ هُدْسُنَ وَتَحْتَوِي عَلَى أَحْيَاءٍ وَشَوَارِعَ مُنْتَظِمَةٍ يَبْلُغُ طُولُ بَعْضِهَا أَرْبَعَةَ أَمْيَالٍ. وَلَا يَخْفَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةَ مَبْنِيَّةٌ عِنْدَ طَرَفِ سِكَّةِ ٱلْأَتْلَانْتِيكِ وَٱلْبَاسِيفِيكِ ٱلْحَدِيدِيَّةِ ٱلشَّرْقِيِّ. وَسَانْ فَرَنْسِيسْكُو وَاقِعَةٌ فِي طَرَفِهَا ٱلْآخَرِ ٱلْغَرْبِيِّ. وَٱلْمَسَافَةُ بَيْنَهُمَا ٣٣١٥ مِيلًا فَيُمْكِنُ قَطْعُهَا فِي ١٥٤ سَاعَةً أَوْ سِتَّةِ أَيَّامٍ وَنِصْفٍ. فَهٰذِهِ ٱلسِّكَّةُ ٱلْعَظِيمَةُ تَنْقُلُ ٱلْمُسَافِرَ بَيْنَ مَنَاظِرَ وَمَشَاهِدَ يَكِلُّ ٱللِّسَانُ عَنْ وَصْفِهَا. وَبَيْنَ نَبَاتَاتٍ وَحُقُولٍ لَا نِهَايَةَ لِإِحْصَائِهَا وَفِي كُلِّ دَرَجَاتِ ٱلْمَدَنِيَّةِ وَٱلْهَمَجِيَّةِ [1]. وَتَنْقُلُهُ فِي أَقَالِيمَ مُخْصِبَةٍ نَاضِرَةٍ جَيِّدَةِ ٱلتُّرْبَةِ كَثِيرَةِ ٱلزَّرْعِ. وَبَيْنَ غَابَاتٍ مُشْتَبِكَةِ ٱلْأَشْجَارِ وَصَحَارِي وَغِيَاضٍ وَوَاحَاتٍ [2] وَجَلَامِدَ وَأَوْدِيَةٍ تَزْهُو بِٱلْكَلَإِ وَٱلْخَمَائِلِ وَٱلْكُرُومِ وَٱلْجَنَّاتِ

وَٱلْحَدَائِقِ . فَقَدْ يَرَى ٱلْمُسَافِرُ حِينَ بُلُوغِ ٱلْقِطَارِ قِمَّةَ رَابِيَةٍ أَوْ أُخْدُودًا طَائِفَةً مِنَ ٱلْهُنُودِ ٱلْحُمْرِ ٱلْأَلْوَانِ مُتَرَدِّينَ بِٱلْجُلُودِ وَعَلَى رُؤُوسِهِمْ أَعْرَافُ ٱلرِّيشِ يُرَاقِبُونَ بِمَزِيدِ ٱلدَّهْشَةِ مُرُورَ ٱلْجَوَادِ ٱلنَّارِيِّ . وَيَجْتَازُ هٰذَا ٱلْخَطُّ جِبَالاً صَخْرِيَّةً لَا يَنْقُصُ عُلُوُّهَا عَنْ ٨٢٤٢ قَدَمًا عَنْ سَطْحِ ٱلْبَحْرِ . وَذٰلِكَ أَعْظَمُ عُلُوٍّ بَلَغَتْهُ ٱلسِّكَّةُ ٱلْحَدِيدِيَّةُ إِلَى ٱلْآنِ . وَٱلْخَطُّ عِنْدَ هٰذَا ٱلِٱرْتِفَاعِ مَسْقُوفٌ بِنَ ٱلثُّلُوجِ بِأَخْشَابٍ مَتِينَةٍ جِدًّا . وَلَا جَرَمَ أَنَّ هٰذَا ٱلسَّقْفَ ٱلطَّوِيلَ وَٱلْقَنَاةَ ٱلْمَنْقُورَةَ فِي ٱلصُّخُورِ مَسَافَةَ أَمْيَالٍ عَدِيدَةٍ مِمَّا يَجْعَلُ هٰذَا ٱلسَّرَبَ مِنْ عَجَائِبِ هٰذَا ٱلزَّمَانِ

وَٱلْخَطُّ كُلُّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ . ٱلْأَوَّلُ مِنْ نِيُويُورْكَ إِلَى شِيكَاغُو . وَٱلثَّانِي مِنْ شِيكَاغُو إِلَى أُوْمَاهَا . وَٱلثَّالِثُ مِنْ أُوْمَاهَا إِلَى أُوغِدْنَ . وَٱلرَّابِعُ مِنْ أُوغِدْنَ إِلَى سَانْ فِرَنْسِيسْكُو

اما شيكاغو فواقعة على بحيرة مشيغان وهي مركز الولايات الشمالية التجاري ويمكن الوصول اليها من نيويورك في ثلاثين ساعة . وهي مثال يُعجب منهُ في النموّ والفلاح . فقد كانت سنة ١٨٣١ محلاًّ صغيرًا للتجارة مع الهنود ولم يكن اهلها سنة ١٨٤٠ يزيدون عن خمسة آلاف نسمة وقد بلغ سكانها الآن نحو مليون وربع . ويُحسب سوقها من اعظم اسواق الدنيا في الاخشاب والحبوب . وقد التهمت النار سنة ١٨٧١ نحو ثلث هذه المدينة فكان حريقها اشبه بحريق

موسكو الشهير في التاريخ ولكنها لم تعتمّ حتى تجدّد بناؤها على منوال ابهى رونقاً وجمالاً . وقد اتاح لها الحظ ان تكون محلّ المشهد الكولمبي العام لتذكار ٤٠٠ سنة من اكتشاف اميركا

اما المسافة من شيكاغو الى اوماها فتبلغ خمس مئة ميل وهي واقعة بين امصار زاهية وقرى ناضرة وفي وسط مناجم فحم وحقول حنطة تمتدّ الى سهول مكسوّة بالاعشاب والارياف(٥) . واشهر مدينة في هذه الطريق دارلنكتون الواقعة على نهر ميسيسبي المسمّى هذا الاقليم باسمه

واما المدينة اوماها فعلى ضفة هذا النهر الغربية . ومركزها في طرف القسم الاخير . وتُعدّ مثالاً آخر عجيباً في نجاح المدائن الاميركية . فان بدء تأسيسها كان عام ١٨٥٤ فبلغ عدد سكانها الآن نحو ٢٠٠٠٠٠ وهي نقطة تقاطع سكك الحديد الشماليّة والجنوبيّة والشرقيّة والغربيّة ولا ينقضي زمان يُذكَر حتى تصبح حاضرة الولايات الغربيّة كلها

ثم ترى في غربي اوماها وادي نهر بلات واقليم سهول الاعشاب الكبير . وهي مروج تتماوج وتزهو بالبقول النضرة مساحتها الوف من الاميال يعود البصر عنها كليلاً . تتخللها سلاسل صخور واودية تراها الاعين بحراً لا حدّ له وهي مغطّاة بالكلإ والبقول والازهار التي تبهج اخضرارها الافئدة ويؤرج(٦) عبيرها الهواء . وتجري عليها الجداول والغدران والسواقي وتسوم(٧) فيها قطعان الجواميس والايائل واليحامير . وتشاهد في اقاصيها الذئاب كامنة تراقب فرائسها والطيور ترفّ في الهواء فتحجب نور الشمس وتدعو المسافر الى الصيد والقنص والتزوّد قدر ما يشاء . وترى في هاتيك الحزين(٨) آكاماً زرقاء يتوسط بينها جلامد وعراقيب(٩) . ثم تتخطّى احياناً صحاري جرداء تأوي اليها كلاب السهول . غير ان تلك المناظر سواء كانت سهولاً نضرة او مفاوز مقفرة او هضاباً قصيّة ممّا تدهش الابصار باتساعها وامتدادها ورحبة اديمها يعلوها جلَد لامع وجوّ صافٍ تهبّ عليها نسمات رخيّة تلطّف حرارة هوائها

ويقطن هذه السهول ملايين من البشر . ومع ذلك تراها صالحة لسكنى ملايين غيرهم . فقد تدفّق اليها سيول عرمرمية من الخلق قادمين من آسيا واوربا الغاصّة بسكانها . وما فتئت محالها الفسيحة الخالية تدعو غيرهم الى الحلول في ارجائها فان مساحتها لا تنقص عن ضعف مساحة الهند برمتها وتفوقها اعتدالاً وخصباً . والطبيعة تبسم عن ثغر الجمال والنضارة ولا يفتقر قاطنوها الى ابواب ومعاقل تقيهم وتصدّ القادمين عنهم بل هي مفتوحة الارتاج[10] لمن شاء فيأتيها على الرحب والسعة . ويجد حقولاً خضراء لم تمسّها الابدي فتترحّب بكل ذراع نشيطة تشتغل في تربتها وبكل محراث يجذب وراءهُ العمران والمدنية

(١) توحش (٢) بقعة معشبة في الصحراء (٣) الحفرة المستطيلة (٤) الحفير تحت الارض والقناة (٥) السهول ذات اعشاب (٦) يعطر (٧) ترعى (٨) سهول (٩) صخور ووعور (١٠) الابواب

الطواف حول الارض

٣

ومتى غادر القطار هذه السهول وراءهُ اخذ بالصعود على قمم جبال باذخة واجتاز الاطواد[1] الصخرية . اما اعلى موقف في هذا الخط فواقع كما قلنا بين اوماها واوغدن واسمهُ شرمان على اسم الجنرال الاميركي الشهير . ويدوم الخط في الخمس مئة ميل التابعة على ارتفاع ٦٥٠٠ قدم عن سطح البحر .

ثم يدخل القطار قبل اوغدن باربعين ميلاً خور[2] الصدى وهو من اغرب مناظر الطريق باسرها . فتتابع هناك عقيقاً[3] عميقاً صخرياً طولهُ سبعة اميال وعرضهُ في اوله بين النصف ميل والثلاثة ارباع الميل . وعن اليمين جلامد شاهقة معنّنة ارتفاعها من ٣٠٠ الى ٨٠٠ قدم جرداء قد

خدّدتها السيول الجارفة . والجانب الايسر مظلّل من العواصف والامطار ومركّب من هضاب مرتفعة ارتفاعاً تدريجيّاً من صخور مترلّجة (٤) مكسوّة بالاعشاب يجري بينها في الوسط نهر شفّاف حفر في مجراهُ الدائم قناة عمقها عشرون قدماً تقللها حروف صخور وركام جلاميد تتلاطم عليها المياه وتجرف ما تصادفهُ في سبيلها فتندفق وتنشب بقوة وسرعة عظيمتين . ثم يضيق ذلك الاخدود في وسطهِ فيشتدّ جريان النهر ويزداد توعُّر ضفافهِ ونضارة الاعشاب والبقول على حافتيهِ وتتشكل الصخور الى يمينهِ باشكال غريبة . فمنها ما هو بصورة هرم او اجنحة او حراب او قُبب او حصون او متاريس او كنائس متهدمة فيحاكي هذا المشهد بلاد الجان الحجريّة ويزوّد مخيلة الشاعر والمصوّر بمواد لا نفاد لرسومها وصُورها

وهذا الخط الواقع بين اوغدن وسان فرنسيسكو يُسمّى بسكة الحديد الباسيفيكية المركزية . وهو يحيط ببحيرة الملح الكبيرة شمالاً ويخترق صحراء اميركا العظيمة ويدنو من جبال الالب الباسيفيكية . ومتى قطع الخط هذه الجبال بلغ علوّاً آخر عظيماً يرتفع عن سطح البحر ٧٠٤٨ قدماً . ثم يهبط في احدور (٥) طولهُ نحو مئة ميل

ثم يأتي بنا هذا التحدُّر الى مدينة ساكرامنتو وهي حاضرة الولاية الذهبية اي كلفورنيا وهي نقطة ملتقى خطوط تجارية كثيرة . ولنا هنا دليل غريب على ان الغرب الاقصى هو بدء الشرق . لان اكثر الطبقات الدنيا من سكان هذه البلدة صينيّون كما في سان فرنسيسكو

ولا يخفى ان سان فرنسيسكو ليست بواقعة على طرف هذا الخطّ بل اوكلاند وهي مشيدة على ساحل خليج سان فرنسيسكو الشرقي . وترى بين هذين المكانين باخرة كبيرة جدّاً تنقل القطار كلهُ بركابهِ وامتعتهِ على الخليج في عشرين دقيقة . اما سان فرنسيسكو فمبنية على شاطئ خليجها الغربي عند طرف شبه جزيرة تمتدّ شمالاً بين هذا الجون والباسيفيك . واذا شاهدت هذه المدينة من

الارض المرتفعة فوق اوكلاند تلقاء الخليج رأيت لها منظرًا بديعًا . وعاينت قسمها الشمالي متفرقًا فوق سلاسل هضاب رملية تكاد تكون مجرَّدة من الاشجار . اما قسمها الجنوبي وهو مركز الاشغال فاوفر نظامًا وجمالاً . ويحتوي على شوارع واحياء قويمة طويلة تنتهي بارصفة[١] ومراقٍ حسنة . وترى على شبه الجزيرة هذه البالغ عرض طرفها الشمالي سبعة او ثمانية اميال خطًا طويلاً من الباسيفيك لا يدركهُ البصر . والى اليمين الباب الذهبي الذي يصل الاوقيانوس بالخليج . ويعلو هذا الجون عند طرفهِ الاضيق البالغ عرضهُ ميلاً واحدًا معقل[٢] ومنارة بحرية يبعدان عن سان فرنسيسكو خمسة اميال الى الجهة الشمالية الغربية

واكثر بيوت هذه البلد مبنية من الخشب . غير ان المنازل الحجرية اخذت الآن تقوم مقامها . اذ تسنَّى لهم جلب موادها بسهولة من جزيرة في الخليج شادوا بها الجانب الاوفر من البنايات العامَّة . وهي ذات تركيب هندسي نفيس . وعلى ذلك ترى المساكن والقصور الخاصَّة الجميلة اخذت تزداد على قدم السرعة وهي تتقدم مع تقدم البلد

فاصبحت هذه المدينة السادسة في الاهمية بين مدن الولايات المتحدة التجارية وبلغ عدد سكانها نحو ٣٠٠٠٠٠ وهي الآن الفرضة الاولى على ساحل الباسيفيك . ويتوقَّع القوم ان تمسي باتصالها مع سكة الباسيفيك الحديدية مخزن الغلال الاول في اميركا الغربية

اما هواء هذه البلاد فمعتدل كل الاعتدال بدليل وفرة الازهار الدائمة البديعة التي لا تكاد تعرفها الولايات الشرقية . وهذه الازهار مختلفة الاشكال والانواع ولا تجود في الولايات الاخرى وان جادت كانت نضارتها صناعيَّة وفي فصول معيَّنة . اما هنا فتراها في زهو دائم . وتشاهد بين تلك الهضاب الرملية جنَّات وحدائق وخمائل تبهر الالباب وتأْخذ بمجامع القلوب

ثم يجتاز المسافر من سان فرنسيسكو الباسيفيك الى هونغ كونغ اما عن طريق يوكوهاما في اليابان او عن طريق هونولولو في جزائر صندويج . ثم

يستأنف من هذه النقطة سفرتهُ البرية ويقطع اسيا الوسطى . ولكنهُ يصادف هنالك مصاعب جمَّة في الحصول على وسائط النقل ويكابد موانع شتَّى تعيق سفرهُ . ولذلك الاولى بهِ ان يسير من هونغ كونغ في الطريق المقرَّرة الى بوان دوغال في سيلان ومن ثمَّ الى عدن فالسويس فالاسكندرية عن طريق الهند العادية

اما اقصر طريق من الاسكندرية الى لوندرا وليفربول فعن طريق برندزي وتورين . وهذه السفرة يمكن الآن اتمامها في سبعة ايام لا يُصرف منها في البحر اكثر من ثلاثة . اما برندزي فكانت في الزمن القديم موقف الامبراطورية الرومانية البحري . وهي واقعة على ساحل الادرياتيك عند طرف ايطاليا الجنوبي الشرقي . وهي متصلة بالخط الحديدي مع فلورنسا وتورين . والسكة الحديدية تمرّ بين تورين وكامبري الافرنسية في وسط جبال الالب على سرب(٨) مون سينيس الشهير . ويُحسب هذا السرداب اقطع دليل على نصرة فن الهندسة العملية الحديث . فقد ابتدأ ولا بنقر هذه القناة سنة ١٨٥٧ على جانبي الجبل المتقابلين والتقى العملة بعضهم ببعض في وسط الجبل يوم عيد الميلاد سنة ١٨٧٠ . وسار القطار الحديدي الاول في هذا السرب البالغ طولهُ ثمانية اميال والذي كلَّف ثلاثة ملايين ليرة انكليزية في ايلول سنة ١٨٧١

ثم بعد سفر بضع ساعات يبلغ المسافر باريس ويرى نفسهُ بعد ساعات أُخرى قليلة في لوندرا فليفربول واذ ذاك يكون قد اكمل الطواف حول الكرة الارضية . قيل ان هذه السفرة العظيمة لا تشغل اكثر من ٦٠ يوماً . اما مسافتها فلا تقلّ عن ٢٣٧٠٠ ميل

---

(١) الجبال العظيمة (٢) المنخفض من الارض . (٣) وادياً (٤) متزحلقة (٥) ارض منحدرة (٦) جمع رصيف (٧) حصن (٨) قناة تحت الارض

غرائب الصين

الزعازع المسماة تيفون

تعصف احياناً في هذه المملكة الواسعة الاكناف رياح زعزع هائلة تجم عنها اضرار باهظة . فقد يخرج الصيادون في احد الاصباح الصافية لصيد السمك واذا بالهواء تغيّر فجاءةً واخذ يعصف عصفاً شديداً والجو يعجّ ويزبد فيعلم الصيادون ما هو آتٍ وإن العاصفة[1] اوشكت القدوم ثم ترتفع الامواج كالجبال وتنخفض انخفاض الاودية فتُجرف السفن وترتعش ارتعاش الريشة في مهب الريح

وهذه الزعازع[2] تهبّ في فصول معيّنة من السنة تُسمّى عندهم تيفون . فمتى شعر الصيّاد بهبوبها طوى شبكته باسرع من لمح البصر وجذّف يعدو الى المرفإ وكثيراً ما تدركهُ العاصفة وتنسف قاربهُ نسف المياه فينقلب بمن فيهِ

اما القوم في الامصار والقرى فمتى رأوا الهواء تغيّر واخذ يعصف اركنوا الى الفرار يعدون في الشوارع هاتفين " العاصفة . العاصفة " فتسرع الايدي على الفور تتحرّك وتشتغل فينزلون الحصر والانسجة المبسوطة فوق البيوت لتظليلها . ويدعمون البيوت العتيقة المتداعية للسقوط بالدعائم . ويسرع الفلاحون الى الحقول ويجمعون ما يُستطاع جمعهُ من الغلال وينقلونها الى المساكن . ويقطفون الفواكه عن الاشجار . ويدخلون الآنية والامتعة البيوت . ويفعلون ذلك كلهُ بسرعة تكاد تحاكي وميض البرق . لانهم اذا ابطأُوا اتلفت الزعازع المحصولات والاثمار وذرتها ونسفتها الى النهر

ثم متى اكملوا هذه الاحتياطات عجلوا فدخلوا البيوت . فلا تلبث العاصفة ان تعصف وتدوم تجرف وتنسف كل ما تصادفهُ امامها . وقد تقلع الاشجار الكبيرة من الاصول وتهدم المنازل . وكل عصفة تفوق سالفتها شدةً وهولاً .

وتسمع طقطقة الحصى والحجار والتراب وهي تتساقط من السقوف والجدران فتتغطى بها الكراسي والموائد والرفوف

ولا تستطيع حينئذٍ الوقوف خارج الابواب وانا فعلت ذلك قلبتك الريح على الارض بل حملتك ورفعتك في الهواء . ثم يرتفع النهر ويطغو(٣) فوق ضفافهِ(٤) فتصبح البلاد باسرها بحيرة واسعة . وكثيراً ما تكسر الزعازع مراسي السفن في المرافئ وتقذفها وهي تستغيث برحمة الامواج وهذا المشهد الهائل يدوم نهاراً وليلة ثم يسكن الهياج ويتجرأ القوم على الخروج من منازلهم

ومتى خرجوا رأوا منظراً مخيفاً وعاينوا الاسواق والشوارع ملآنة بالاوساخ والقرميد متكسراً والبيوت متهدمة والحدائق والبساتين معرَّاة من اوراقها واثمارها والغلال الباقية في الحقول لعبت بها ايدي سبا فنثرتها الى كل الجهات واشجاراً كبيرة مقتلعة من الاصول

---

(١) الريح الشديدة (٢) العواصف (٣) يفيض (٤) شطوطهِ

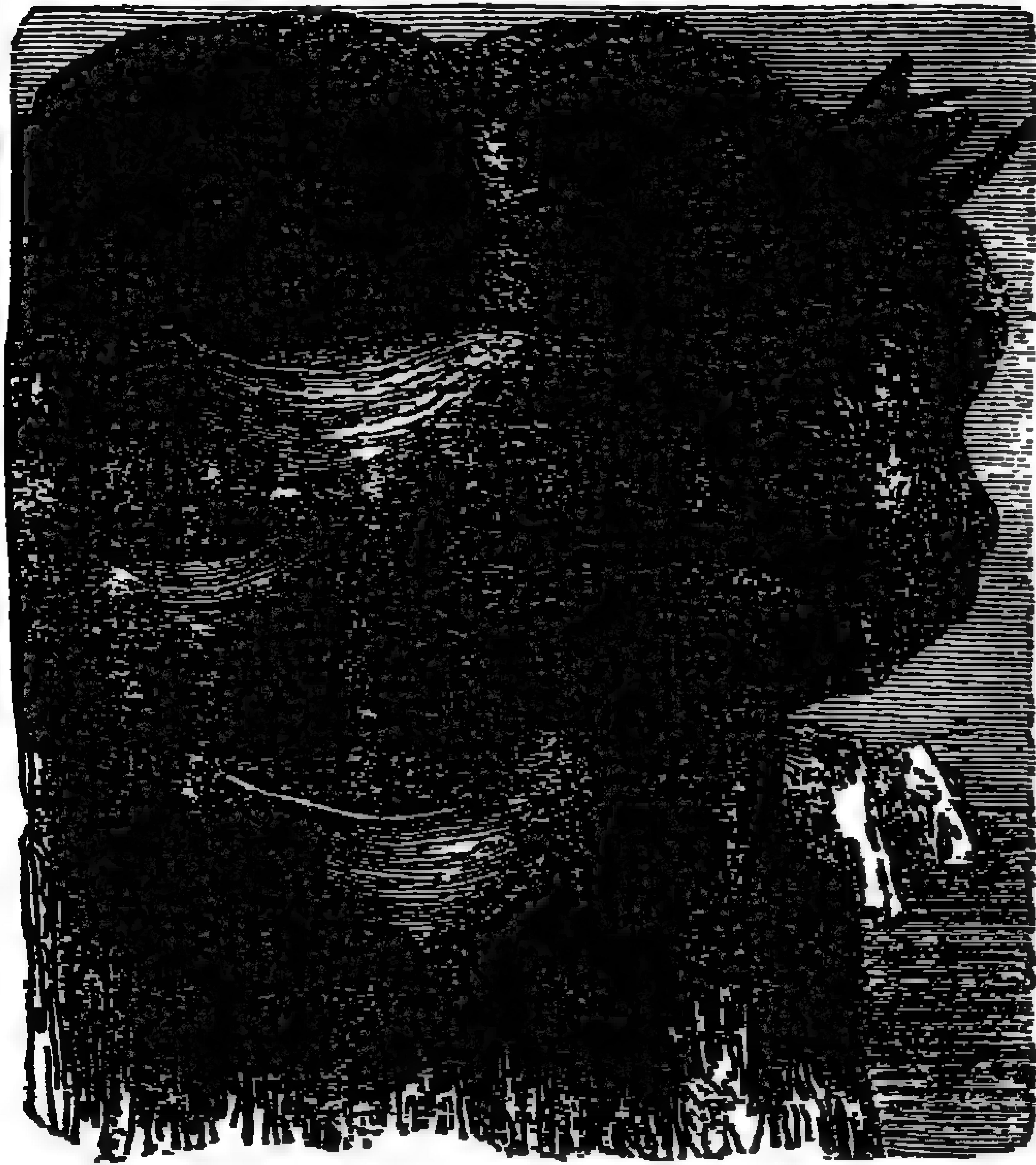
اكل اعشاش الطيور

في الارض كنوز وافرة يغامر الانسان بحياتهِ لاجلها . فمنها دُرَر في اعماق البحر وذهب في المناجم وفحم حجري في حُفَر عميقة ان اطللت لرؤياها أُصبت بالدوار . وعلى ذلك ترى المرء يخاطر بنفسهِ طمعاً ببلوغ ذخائر الطبيعة المحجوبة عن ابصارهِ في اماكن لا تكاد تصلها الايدي

ولكن مَن يا تُرى يغامر بحياتهِ للحصول على صحفة طعام طُبِخ من اعشاش الطيور . ذلك الطعام الانيق على موائد سراة(١) الصين . فلا يبالي الصيني بعسر منال تلك الاعشاش ولا بما يعترضهُ في سبيلهِ من الاتعاب والاخطار

ووفرة النفقات للنوز بهذا الصنف الغريب. فاذا مررتَ باسواق الصين رأيت الاعشاش تُباع في الحوانيت والمخازن بيع سائر السِّلَع

اما مكان صدورها فمن جزيرة جاڤا حيث تكثر على الشواطئ الصخور الشمّاء[٢] والجلاميد[٣] والكهوف الشاهقة . وحيث تتلاطم الامواج وتأوي الطيور الى تلك الملاجئ الصخرية حتى لا تكاد تراها لتكاثف الزبد والعجيج



امّا ربُّ ذلك العش فمن طائفة السنونو ويبني عشّهُ ويقوت فراخهُ في تلك الكهوف حيث يعسر وجود مكان يصلح لبناء الاوكار غير ان الطائر يعثر على محلٍّ ملائم فيربط وكنهُ[٤] في سقف الغار او جوانبهِ. هذه في الاعشاش التي ياكلها الصينيون . انما الكهف شاهق في ذروة الصخر يتلاطم البحر عند حضيضهِ بالامواج الزاخرة. فكيف يطولهُ الصيّاد ? الجواب يدلّيهِ رفاقهُ من قنّة[٥] الصخر

يسلَّم من حبال حتى يبلغ الغار . فاذا انقطع الحبل او اصاب الرجل الدوار هوى الى الاعماق فتمزق قطعًا . ومتى بلغ الكهف رأى ارضهُ مغطاة بماء البحر فينشبث باحجار الصلدة البارزة من جدران الغار ويمكن عليها قدميهِ. ومتى وصل الى السقف ربط حول احجار حبلاً من جانب الى آخر فيصنع ما يحاكي الجسر ويقف عليهِ يقتلع الاوكار ويضعها في سلّ . ويعاني في خلال ذلك اخطارًا هائلة لا يتجرأ على اقتحامها بدون ان يقدم اولاً لالههِ صلاة يستمد منهُ الوقاية ويضع قربانًا على ضريح مكتشف هذه الكهوف

ويستطيب الصينيون هذه الاعشاش المصنوعة من عشب بحري يبني بهِ الطائر وكرهُ طبقاتٍ منضدة بعضها فوق بعض . وهذا العشب لين الملمس يحاكي اللبّ المهروس

اما شكلهُ فكهلام لا طعم لهُ . غير ان الصيني يمزج معهُ في طبخهِ(٧) بهارات وتوابل كثيرة فيمسي سائغًا لذيذًا

ولما كان اليابانيون اوفر دهاء من الصينيين علموا ان اعشاش هذه الطيور مصنوعة من عشب البحر . فيأخذون العشب نفسهُ ويدقونهُ حتى يلين ثم يغلونهُ فيصبح هلامًا ويعملون منهُ اعشاشًا صناعية كاذبة يأتون بها اسواق الصين ويبيعونها كالاعشاش الحقيقية

(١) اكابر (٢) العالية (٣) الصخور الكبيرة (٤) عشهُ (٥) قمة (٦) فيتمسك (٧) طبخهِ

موائد الصينيين

يستعمل الصينيون على موائدهم شوكات غريبة الشكل . وهي قطعتا عاج دقيقتا الطرف موصولتان بعضها من الوسط بخيط فيعسر على الاجنبي الاكل

بها . اما الصينيّون فيستعملونها برشاقة وخفّة يُعجَب منها. فاذا وُضع لديك على المائدة صحفة مرق ضمنها قِطَع لحم وكنت جائعاً اضطررتَ ان تغمس هذه الشوكة وتعالج وتكدّ زماناً الى ان تلتقط قطعة اللحم . ولكن لا تكاد ترفعها الى فيك حتى تُزاح قطعتا العاج عن بعضها فتسقط في الصحفة او على حضنك . فتلتزم ان تستأنف العمل وربما كرّرتهُ ثلاث او اربع مرّات على غير طائل فتيأس من مناولة ما يشبع الجوف

اما مضيفك الصيني فيضبط نفسهُ عن الضحك تأدباً ويرثي لحالك فيبادر لاسعافك بأن يأخذ شوكتهُ التي كانت قد دخلت فاهُ مراراً ويلتقط القِطَع لاجلك . ثم يرفع الشوكة الى فيك فتلتقمها من يدهِ . ويظلّ يأكل ويطعمك الى ان تشبع حقيقةً او تدّعي الشبع تخجلاً من تعبهِ

ولما كان الصينيون لا يودُّون الاجانب قلبياً يهزأُون بهم في غيابهم لجهلهم استعمال الشوكة وإن ضبطوا انفسهم في حضرتهم احتشاماً . فيقولون أرأيتم هذا الاجنبيّ البليد فانهُ يجهل وضع الطعام في فيهِ

والصينيّون يتأنقون بالطعام على موائدهم ويكثرون الوانهُ ولا سيما سراتهم واغنياؤُهم في الولائم والمآدب . فيدوم الجلوس حول الخوان(١) ساعات متوالية وهم يتناولون الشاي قبل الغداء او العشاء لا معهُ ولا بعدهُ ولا ينقعونهُ في ابريق الماء الغالي بل يضعون بضع اوراق منهُ في فنجان ويسكبون عليها الماء الحارّ. ولما كان الصينيون من ابرع البشر بعمل الشاي نحسب هذه الطريقة الفضلى لاستعمالهِ

ويزيّن الصينيّ مائدتهُ بسلال الفاكهة وباقات الازهار تتخلّلها صحاف من مربّى البزور والحلويّات على انواعها . ويقطّع اللحوم قِطَعاً صغيرة للتمكن من ضبطها بالشوكة المارّ ذكرها . اما اصناف الطعام فمن الاسماك والدجاج والطيور والضأن والخنزير والهرر والفأر مطهية(٢) الواناً يطول شرحها

قال احد السراة(٣) الاجانب وقد دُعي الى مأدبة صينيّة "عددتُ الوان

الطعام بالمئات وجلسنا حول المائدة ست ساعات كاملة" فهذه المدَّة لا تكاد تُصدَّق لو لم تُروَ عمَّن يوثَق بصحّة قوله

اما الفقراء فياكلون كل ما تطوله ايديهم حتى الكلاب والقطط والجرذان والفأر. فاذا مررتَ بالاسواق رأيت الكلاب والهررة في اقفاص تُعرَض للبيع. وسمعتَ السنانير تموء والكلاب تنبح كأنها عالمة بوشك مصرعها (٤). وتعاين ايضاً الجرذان والفأر مسلوخةً ومنوطة بخيوط ومهيأة للطبخ. بعضها في حوانيت الباعة وبعضها محمولة على الايدي تُعرَض على الشارين

على ان الاغنياء ايضاً قد يطهون القطط والكلاب تنويعاً لصنوف الطعام لكنّهم لا يحبّون مزاحمة الفقراء على طعامهم. ولا يرغبون في الجرذان والفأر المقلوّة. فقد صحَّ المثل القائل "لا جدال في الذوق" فان افقر الفقراء عندنا ربما فضّل الموت جوعاً على ان يأكل كلباً او جرذاً

(١) يتفننون (٢) المائدة . (٣) مطبوخة (٤) موتها

صيدُ السَّمَكِ بالطّيور

لِلصِّينِيِّينَ وَلَعٌ عَظِيمٌ بِأَكْلِ ٱلْأَسْمَاكِ وَلِذٰلِكَ تَعَدَّدَتْ طُرُقُ ٱلصَّيْدِ عِنْدَهُمْ وَبَرَعُوا بِٱسْتِعْمَالِهَا وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْأَسَالِيبِ مَا يَأْتِي

يَغُوصُ ٱلصَّيَّادُ فِي ٱلْبُحَيْرَةِ أَوِ ٱلنَّهْرِ حَامِلًا بِيَدِهِ سَلَّةً. ثُمَّ يَرْفَعُ يَدَيْهِ فَوْقَ رَأْسِهِ وَهُوَ يَخُوضُ ٱلْمَاءَ وَيُنْزِلُهَا بِخَبْطَةٍ قَوِيَّةٍ.

بينما تكون قدماه غائصتين في الوحل أسفل البركة. فتذعر الأسماك من هذه الخبطة وتغوص في الطين للاختباء فيشعر بها الصياد بين رجليه فينغمس في الماء بضع ثوان ثم ينهض والسمكة في يده فيطرحها في السل ويستأنف العمل ولا يخرج من الماء حتى يملأ سله

ومن وسائل الصيد عندهم أن يركب الصياد القارب آخذاً معه طيوراً اسمها "كورموران". فتستقر على جوانب



الفلك. وقد يبلغ عدد هذه الطيور اثني عشر. ومتى وصل إلى المصاد خاطب الطيور طالباً منها الشروع بالعمل

فتفهم كلامه وتطيعه وتسقط في الماء تفتش عن السمك. ولما كان من طبعها النهم[١] الشديد يربط صاحبها حول حلقومها خيطاً ليمنعها من بلع السمكة عند صيدها. فمتى لمح الطائر سمكة انقض عليها كوميض البرق وخطفها بمنقاده ورفعها الى سطح الماء. فيناديه معلمه ويدعوه للمجيء فيأتي حاملاً السمكة ويضعها في القارب ثم ينطلق ليصيد غيرها

وعلى هذا المنوال يستطيع الصياد صيد اسماك وافرة في اليوم. فإذا كانت طيوره حسنة التدرب امكنه الفوز برزق جزيل. وإذا تكاسل الطائر وجنح للعب واللهو ضرب الصياد الماء القريب منه بعصاه الطويلة ضربة قوية فيعرو الطائر الفرق[٢] ويشتغل بالصيد جاداً جد النحلة

(١) كثرة الاكل (٢) الخوف

خيار البحر

خيار البحر حيوان حي بشكل الخيار يعوم على الماء. اما جسده فهلامي لين بدون عظام وله خاصة التقلص والتمدد كيف يشاء

ومن هذا الخيار صنف يؤكل اسمه تريبنغ يحسب عند الصينيين نافعاً

للصحة ويُجلَب من هولندا الجديدة . ومكان وجوده فيها على ساحل يقطنهُ قومٌ برابرة اشرس من الضواري . غير ان ذلك لا يصدُّ قوارب الصيادين عن طروق هذا الاقليم

وهذه القوارب تأتي من ملقّا وارباها بارعون بصيد هذا الصنف الذي يبيعونهُ للصينيين . ويصحبون معهم اباريق معدنية لغلي الماء ومتى بنوا خصاً لتظليلهم من الحرّ يبدأُون بالصيد فاذا حيّ الهجير[1] غاصوا في الماء وعاينوا خيار البحر زاحفًا في قاع اليمّ[2] وشكلهُ يضارع لون الارض الزاحف عليها. غير ان بصر الصيّاد الجادّ يقع حالاً عليه. ولو لم تكن الشمس على سمت الرأْس لما استطاع ان يميّز هذا الحيوان تمييزًا واضحًا

ولا يستطيع الغوّاصون البقاء تحت الماء اكثر من بضع ثوانٍ . غير انهم لا يفتأُون يهبطون ويصعدون الى ان يملأُوا قاربهم. ثم يجلسون يهيّئون الصيد للاسواق . وذلك بان يُترِعوا[3] اباريق الحديد بالماء ويضعوها على النار الى ان تغلي . ثم يطرحوا الخيار في الماء الغالية وينظّفوهُ ويدخّنوهُ على النار ويجفّفوهُ في الشمس فيصير صالحًا للبيع والاستعمال واذا امطرت السماء جفّفوهُ في مكانٍ مظلَّلٍ

(١) الحرّ (٢) البحر (٣) يملأُوا

تصغير الاقدام

يحسب الصينيون صغر اقدام النساء حسنًا فائقًا . فتشدّ الوالدة قدمَي ابنتها الصغيرة شدًّا وثيقًا لايقاف نموها . فتنمو سائر اعضاء الجسم وللقاقف الرجلين باقية . فمتى كبرت الفتاة كان جسمها جسم صبيّةٍ وقدماها قدمي طفلة.

يعسر عليها حمل جسمها الثقيل لاختلال النسبة بينها . ويمسي مشيها تجملاً وخمعاً وذلك ما يمجّه الذوق السليم وترقّ له القلوب

فاذا شاهدتَ مخدّرات[1] الصين رأيت اقدامهنّ لا تزيد عن اقدام الاطفال يخمعنَ[2] يمناً وشمالاً ويصعدنَ الزفرات[3] تعباً والماً . وقد حُرمن من قوة المشي السليم ولذّة اللعب والمرح والعدو . واذا عاين الصينيون مخدّرة تمشي بقدمين طبيعيتين عابوها وانتقدوها بقولهم انظروا هذه المرأة كيف تمشي مشياً صحيحاً بقدمين كبيرتين

ويستملح الصينيون المرأة السمينة . فكلما تضخم جسمها راقت في اعينهم . ولما كان لا يُطلب من السيدات هنالك المشي الاّ حين الضرورة القصوى وكنَّ جالسات على مهد الراحة والبطالة كان اكثرهنّ سمينات . فتجلس المرأة عندهم في حديقة بيتها تخدمها الخادمات ويأْتينها بالطعام والشاي والحلوى وكل ما تريد . ومتى خرجت من البيت حملها رجلان على كرسي تحاكي المحفّة[4] (اسمها عندهم سيدان) ومن عوائد النساء هنالك التحجّب والتبرُّج[5] وملازمة المنزل حيث يلهونَ بشغل التطريز والتصوير والموسيقى ونظم الاشعار

امَّا الفقيرات فلا يهمهنّ تصغير اقدام بناتهنّ . لانهنّ مضطراتٌ الى مزاولة الاعمال والاسترزاق فلا يمشينَ السير خمعاً ويمشينَ منتصبات مشي الرجال . وعلى ذلك كان صغر الاقدام ممَّا تمتاز به مخدّرات السراة فقط . شاهد احد السيَّاح يوماً مخدّرة صينية في حنق وصخب[6] شديدين تشتم وتعنّف وتنتف شعرها كأَنها مختلّة الشعور . ثم القت بنفسها الى الارض ورفست بقدميها الصغيرتين ورفعتها في الهواء . فلم يتمالك السائح نفسه من الضحك

---

(١) النساء الملازمات الخدر (٢) يعرجنَ (٣) استيعاب النَفَس من شدّة الغمّ (٤) مركب للنساء كالهودج (٥) اظهار الزينة (٦) رفع الصوت

اعراس الصين

متى بلغت الفتاة عند الصينيين السنّ الملائم اختار والداها لها بعلاً ولا يُسمَح لها برؤيتهِ ومعاشرتهِ بل ينوب والدها عنها بمعاطاة مصلحة الزيجة وعقد الخطبة وكذلك لا يؤذن للخطيب بمشاهدة خطيبتهِ قبل الزفاف

ثم متى حان يوم العرس البسوا العروس اردية نفيسة ونحروها [١] بوشاح [٢] بهي ووضعوها في محفّة وانطلقوا بها لتشاهد عريسها المرّة الاولى. ويرافق العروس جمهور المدعوين حاملين المشاعل امامها ولو كان الزفاف نهارًا . ويسير امام المحفّة جوق موسيقي يوقع [٣] على الزمور والطبول وآلات الطرب . . اما المحفّة فيوصدونها ويقفلونها بقفل يحمل مفتاحهُ اقدم الخدم واكبرهم سنًّا

ولا يفتح تلك المحفّة الّا العريس . ومتى بلغ الموكب البيت وضعوا المحفّة عند الباب فيخرج العريس وقلبهُ يخفق شوقًا لرؤية حليلة [٤] لم يقع طرفهُ عليها بصرهُ بعدُ. فيفتح البـــاب بالمفتاح ويتطلّع بالعروس فيرى النقاب [٥] مسدولاً على وجهها فيرفعهُ . فاذا راقت في عينيهِ واستطاب طلعتها دعاها للدخول الى منزلهِ على الرحب والسعة . فتبسط الموائد وتدور كاسات الشراب وتبدأ الانشاد والاغاني الموسيقية والرقص ويتمّ زفاف الفتاة . وان لم ترُق في عينيهِ واستقبح منظرها اغلق باب المحفّة سريعًا وامر حامليها بالنكص [٦] على الاعقاب فيعود القوم بعروسهم صامتين يتعثرون باذيال العار والخجل

---

(١) البسوا الوشاح (٢) قلادة جوهر (٣) يبني الحان الغناء على موقعها (٤) زوجة (٥) قناع تستر بهِ المرأة وجهها (٦) الرجوع الى الوراء

الأَرُزُّ والشاي

لِلصِّينِيِّينَ عِنَايَةٌ كُبْرَى بِٱلزِّرَاعَةِ وَٱهْتِمَامٌ وَافِرٌ بِدَرْسِهَا وَإِتْقَانِهَا . وَمِنْ أَدِلَّةِ ذٰلِكَ خُرُوجُ ٱلْإِمْبَرَاطُورِ بِنَفْسِهِ مَرَّةً فِي ٱلْعَامِ بِوُزَرَائِهِ وَرِجَالِ مَجْلِسِهِ فَيَضْبُطُ ٱلسِّكَّةَ بِيَدِهِ وَيَحْرُثُ بِضْعَةَ أَثْلَامٍ ثُمَّ يَقْتَدِي بِهِ ٱلْوُزَرَاءُ وَأَعْيَانُ ٱلدَّوْلَةِ وَكُبَرَاؤُهَا . وَكَذٰلِكَ ٱلْوُلَاةُ وَٱلْحُكَّامُ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ ٱلْمَمْلَكَةِ

وَمِنْ أَهَمِّ مَحْصُولَاتِ ٱلصِّينِ ٱلْأَرُزُّ وَٱلشَّايُ . أَمَّا ٱلْأَوَّلُ فَلَا يَعِيشُ إِلَّا مَغْمُورًا بِٱلْمَاءِ فَيَرْفَعُ ٱلْفَلَّاحُ هُنَالِكَ ٱلْأَرْضَ طَبَقَاتٍ فَوْقَ بَعْضِهَا لِٱسْتِنْبَاتِ ٱلْأَرُزِّ . فَتَرَى سَنَابِلَهُ تَمُوجُ وَتَزْهُو بِٱخْضِرَارِهَا ٱلزَّبَرْجَدِيِّ مَغْمُوسَةً بِٱلْمَاءِ

وَهُوَ يَجْرِي إِلَيْهَا مِنْ نَهْرٍ قَرِيبٍ بِآلَةٍ تُدْعَى دُولَابَ ٱلْمَاءِ تَدْفَعُ ٱلْمِيَاهَ إِلَى ٱلطَّبَقَةِ ٱلْعُلْيَا فَتَسِيلُ مُنْحَدِرَةً وَتَسْقِي سَائِرَ ٱلطَّبَقَاتِ ٱلْمُنَضَّدَةِ[1] . وَتَرَى ٱلْقَرَوِيَّ مُنْصَبًّا عَلَى ٱلشُّغْلِ فِي فَصْلِ ٱلرَّبِيعِ لِتَهْيِئَةِ سَنَابِلِ ٱلْأَرُزِّ وَتَرْتِيبِهَا

هٰذَا عَمَلٌ شَاقٌّ يَفْتَقِرُ إِلَى كَدٍّ وَجِدٍّ لَا مَزِيدَ عَلَيْهِمَا . لِأَنَّ ٱلْحُقُولَ حِينَئِذٍ تَكُونُ مَغْمُورَةً بِٱلْمِيَاهِ لٰكِنَّ ٱلصِّينِيَّ لَا يُبَالِي

بذلك بل يغوص في الوحل جذلاً (٢) نشيطاً وتغوص معه الجواميس المستخدمة في الفلاحة. فيفرق تلك السنابل عن بعضها قليلاً. ومتى فرغ من عمله أبقاها مغمورة في الماء إلى أن تصفرّ وتأخذ بالنضج. فيحسر (٣) الماء عنها ويحوّلها إلى مجارٍ أخرى

ويتصرّف الصيني بالانهر والجداول كما يشاء. فيرفعها إلى الجبال ويحدرها إلى الأودية ويجعلها تتعرّج وتلتف وتخضع لإرادته كل الخضوع

أما الشاي فأنجم يستنبتونها في الغياض والحدائق. وهي ذات أزهار بيضاء جميلة. ولكل قروي في الصين حديقة شاي يبيع منها ما يزيد عن حاجته ويبتاع بقيمته طعاماً ولباساً لعائلته. ومتى كان لانسان قطعة أرض وزرعها بأنجم هذا النبات سمي فلاح الشاي

فحين تنضج الأوراق ويأزف (٤) جمعها ينصب الفلاح وعائلته على الشغل بجدٍّ لا مزيد عليه. فيقطفون تلك الأوراق ويضعونها في سلال. ثم يحملونها إلى البيت حيث يجففونها على النار في طواجن حديد. ويشتغل الرجال والنساء بتقليبها

وَتحْرِيكِهَا. ثُمَّ يرْفعونها حالما تبدأ تفرقع وينشرونها على مائدةٍ وَيلفون تلك الأوراق بأيديهم ضاغطين عليها لإخراج العصيرِ. ثمَّ يضعونها في الهواء لتجفَّ ويعيدونها إلى الطاجن فوق النارِ إذ تأخذ بالتجعدِ والتقلصِ وتبدو عليها صورة الشاي المستعمل عندنا

ثمَّ يضع الفلاح أوراق الشاي بعد جفافها في سلٍّ خاصٍّ بها ويحملهُ على كتفهِ بقضيبٍ من خيزرانٍ وينطلق إلى المدينة حيث يرى تاجر الشاي بانتظارهِ. فإذا أعجبهُ النوع شرى مطلوبهُ وأدى القيمة نقودًا نحاسية أو فضية فيسقطها الفلاح في سلكٍ ويعود آئبًا إلى منزلهِ

ولا يخفى أنَّ استعمال الشاي حديث العهد. فقد أُهدي أحد سراة الإنكليز يومًا قدرًا من الشاي فأتشمر مع زوجتهِ على كيفية طبخهِ فقرَّ رأيهما على سلقهِ وأكلهِ مع لحم الخنزير المقددِ. فوضعوا الأوراق فوق قطعة اللحم وأكلوهما معًا. أمَّا العصير فكبوهُ على الأرضِ. وكانت أثمان الشاي حينئذٍ باهظة جدًّا. وكان يناولهُ ربّ البيت لضيوفهِ في فناجين صغيرةٍ كما تقدم القهوة. أمَّا الآن فأصبح استعمالهُ

شائعًا في سائرِ العالمِ المتمدِّنِ حتَّى حسبهُ البعضُ مِنَ الحاجيَّاتِ⁽⁷⁾ الَّتي لا غنَى عنها في المعيشةِ. ومِن خواصهِ الإنعاشُ والتنبيهُ إنَّما الإكثارُ منهُ لا يخلو مِنَ الضررِ

ولا يمزجُ الصينيُّونَ الشايَ بالسكرِ بل يتناولونهُ ويقدِّمونهُ لضيوفهم صرفًا بدونِ تحليةٍ .

(١) موضوع بعضها فوق بعض (٢) فرِحًا (٣) يكشف (٤) يقترب (٥) يعلق (٦) راجعًا (٧) الامور الضرورية

شجرة الشحم

في الصين شجرة تُدعَى شجرة الشحم وهي ذات اوراق حمراء وكنفجة⁽¹⁾ ضمنهـا بزور وافرة . ومتى نضجت هذه الكنافج تشقَّقت وانفتحت فظهرت بزورها الملآى بمادَّة زيتية يعصرونها ويستخرجون منها دهنًا يصنعون منهُ الشموع

اما اوان جمعها ففي فصل الشتاء بعد سقوط الاوراق . فيحمون تلك البزور اولاً على النار ثم يدقونها بدقات في هاون كبير وينقلونها الى مصافٍ يضغطون عليها تلك المادَّة المهروسة ويستخرجون عصيرها الشحمي المشاكل⁽²⁾ الزيت . فترى ذلك العصير اولاً كثيفًا خاثرًا وسخًا . ثم يضعونهُ في آلة تنزع عنهُ الاوساخ فيرسب الدردي⁽³⁾ في قرار الوعاء ويخرج الزيت ابيض ناصعًا صافي اللون صالحًا لعمل الشمع

غير انهُ يبقى سائلاً سريع الذوبان بالاشتعال . فيغطّي الصانع الشمع بقشرة من الشحم او الشهد ليزيدهُ صلابة وقوّة ويلوّنهُ بالوان حمراء وخضراء وصفراء. ومن هذه الشموع ما هو كبير جدًّا يضيئونهُ في هياكل الاصنام ويرسمون عليهِ احرفًا ذهبية

اما فتائل هذه الشموع فمن عيدان اخشاب جافة مغموسة بعصير الحلفاء تشتعل اشتعال الفتائل القطنية . ولما كان الصينيون على جانب عظيم من الاقتصاد ولا يتركون مادّة تذهب سدًى يستعملون تلك البزور بعد عصرها وقودًا لكوانينهم او سمادًا لحقولهم

قال القاضي ناصح الدين الارجاني في وصف شمعة وهي من بدائع المنظومات

نمّت باسرار ليلٍ كان يُخفيها	وأظهرت قلبها للناس من فيها
قلبٌ لها لم يَرُعنا وهو مكتمنٌ	الاَّ ترقيهِ نارًا من تراقيها
سفيهةٌ لم يَزَل طول اللسانِ لها	في الحيّ يجني عليهِ ضربُ هاديها
غريقةٌ في دموعٍ وهي تحرقها	انفاسُها بدوامٍ من تلظّيها
تنفّست نفس المهجورِ اذ ذكرت	عهدَ الخليط (٥) فبات الوجدُ يبكيها
يخشى عليها الردى مهما الّم بها	نسيمُ ريحٍ اذا وافى يحيّيها
بدت كنجمِ هوى في اثر عفريةٍ (٦)	في الارض فاشتعلت منهُ نواصيها
نجمٌ رأى الارض اولى ان يبوّرها	من السماء فأمسى طوعَ اهليها
كأنّها غرّةٌ قد سال شادخُها (٧)	في وجهِ دهماء (٨) يزهيها تجلّيها
اوضرّةٌ خُلقت للشمسِ حاسدةٌ	فكلّما احتجبت قامت تحاكيها
وحيدةٌ بسنانِ الرمحِ هازمةٌ	عساكرَ الليلِ اذ حلّت بواديها
ما طنّبت قطُّ في ارضٍ مخيّمةٍ	الاَّ واقمرَ للابصارِ داجيها

لها غرائبُ تبدو من محاسنها ... اذا تفكّرت يوماً في معانيها
فالوجهُ الوردُ الاّ في تناولها ... والقامةُ الغصنُ الاّ في تثنّيها
قد اثمرت وردةً حمراء طالعةً ... تجنى على الكفِّ إنْ اهويتَ تجنيها
وردٌ تُشاكُ به الايدي اذا قُطِفَت ... وما على غصنها شوكٌ يوقّيها
صفرٌ غلائلها حُمرٌ عمائمها ... سودٌ ذوائبها(٩) بيضٌ لياليها
كصعدةٍ(١٠) في حشا الظلماء طاعنةٍ ... تسقي اسافلها غيثاً اعاليها
ككوّةِ الليل منها اقبلت ظُلَمٌ ... امست لها لحظةٌ للصبح تُذكيها(١١)
وصيفةٌ(١٢) لست منها قاضياً وطراً ... ان انت لم تكسُها تاجاً يحلّيها
صفراء هندية في اللون ان نُعتت ... والقدُّ واللين ان اتممتَ تشبيها
فالهندُ تقتلُ بالنيران انفسها ... وعندها انّ ذاك القتل يحييها
ما أن تزالَ ببيت الله لاهيةً ... وما بها علّةٌ في الصدر تلهيها
تُحيي الليالي نوراً وهي تَقتلها ... بئسَ الجزاء لعمرُ الله تجزيها
قُدَّت على قدرِ ثوبٍ قد تبطّنها ... ولم يُقَدّ عليه الثوبُ كاسيها
غرّاء فرعاء(١٣) ما تنفكّ قاليةً(١٤) ... تقصّ لمّتها(١٥) طوراً وتفليها
شيباء شمطاء(١٦) لا تُكسى غدائرها(١٧) ... ليلَ الشبيبةِ الاّ حين تبليها
قناةُ ظلماء ما تنفكّ يأكلها ... سنانُها طولَ طعنٍ اذ يشظّيها(١٨)
مفتوحةُ العينِ تفني ليلها سهراً ... نعم وافناؤها اياهُ يُفنيها
وربّما نالَ من اطرافها مرضٌ ... لم يُشفَ منه بغيرِ القطعِ شافيها
اهلاً بها في سواد الليل مسعدةً ... اذ الهمومُ دعت قلبي دواعيها
لولا اختلافٌ بدا طبعاً بواحدةٍ ... وللطباع اختلافٌ في مبانيها
بأنها في سواد الليل مظهرةٌ ... تلك التي في سوادِ القلبِ أُخفيها
وبيننا عبراتٌ ان هُمُ نظروا ... مغاضيها(١٩) خوفَ واشٍ وهي تُجريها
ما عاندتها الليالي في مطالبها ... ولا عدتها العوادي(٢٠) في مباغيها
ولا رمتها ببعدٍ من احبّتها ... كما رمتني بقربٍ من اعاديها

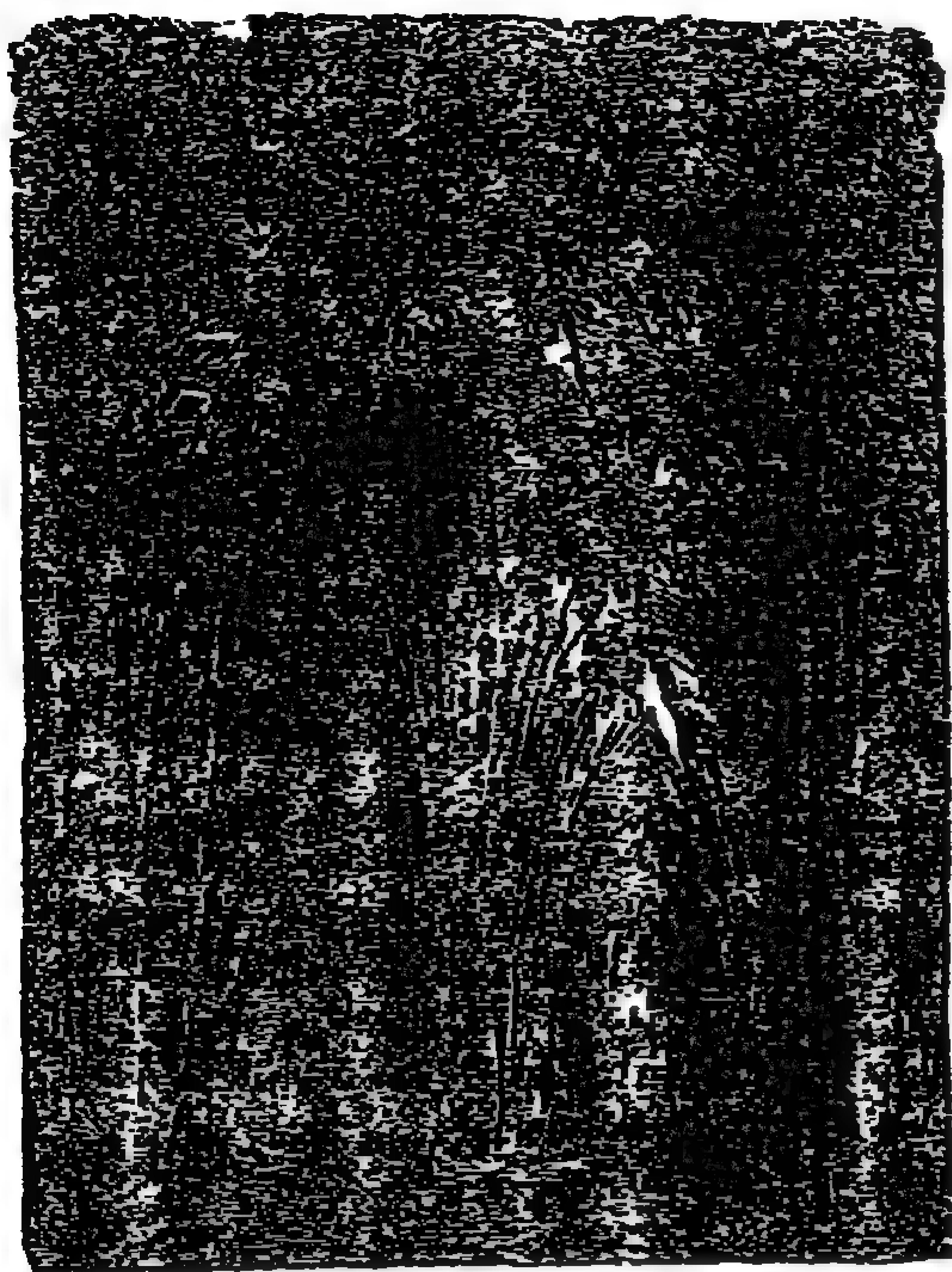
ولا تُكابدُ حُسّاداً اكابِدُها ولا تداجي[٢١] بني دهرٍ اداجيها
أبدَتْ اليَّ ابتساماً في خلالِ بكىً وغرّني أنَّ محضَ الحزنِ يحويها
فقلتُ في جنحِ ليلي وهيَ واقفةٌ ونحنُ في حضرةٍ جلّتْ اياديهـا
لو أنها علمتْ في قربِ من نُصبتْ من الورَى لَثَنَتْ اعطافها تيها
ترَى المصابيحَ زُهْراً من جوانبها وقد جلا صفحةَ الشبراء[٢٢] ذاكيها
كأنّهنَّ نجومُ الأُفقِ نازلةً جاءت تُقبِّلُ ارضاً انتَ واطيها

(١) سنبلة ممتلئة مكتنزة (٢) موافق او مماثل (٣) الراسب من الكدر (٥) الشريك المشارك في حقوق المُلك (٦) الشديد الدهماء او شعر ناصية الدابّة (٧) الغرّة التي فشت في الوجه من الناصية الى الانف (٨) خالصة الحمرة او ليلة تسع وعشرين من الشهر (٩) نواصي او منبتها من الرأس (١٠) قناة مستوية (١١) توقدها (١٢) جارية دون المراهقة (١٣) كثيرة الشعر (١٤) ضاربة رأسها او هاجرة (١٥) الشعر المجاوز شحمة الاذن (١٦) مغبرّة الرأس متلبّدة الشعر ومنشرته (١٧) نواصي او ضفائر شعر (١٨) يفرّقها (١٩) قلّة او نقص (٢٠) اعداء (٢١) تساتر بالعداوة (٢٢) الارض او ارض كثيرة الشجر

القنا وورق الكتابة

ان غابات الصين ملآنة بشجر القنا البرّي النافع كل النفع للصينيين. ولذلك يستنبتونهُ في منابت خاصةٍ ويبذلون قصارى الجهد في ترقيتهِ وتحسينهِ وقد عُدَّ هذا النبات من فصيلة الاعشاب لكنهُ قد يبلغ في المنطقة الحارّة

حجماً عظيماً حتى يحاكي جذعهُ جذوع الاشجار الكبيرة . وترى عليهِ عُقَدًا تضارع عُقَد سوق الحنطة . ولهُ في رؤوس جذوعهِ أوراق تشبه الريش خضراء كالزمرد وعلى ذلك كان شجر القنا نافعاً وجميلاً



فلا تكاد ترى بناء او متاعاً في الصين ان برّاً او بحرًا الاّ وقد صُنع من خشبهِ . ومن ذلك ورق الكتابة . وكيفية عملهِ ان يغمس الرجل العامل[٢] بالماء ثم يخرجها ويقطعها قطعاً ويجففها في الشمس ثم يغليها ويسحقها فتصبح كَلُبّ الثمر المهروس . ثم يمزجها بنوع من الصموغ يستخرجهُ من نبات برّي . ويدق الجميع معاً حتى تمسي سائلاً يُصب في وعاء

ثم يغمس القالب المصنوع من خشب القنا في هذا السائل فيلتصق بهِ لامتزاج هذه المادّة مع الصمغ . ثم متى جفّ أضحى متيناً وملساً فينزعهُ

عن القالب وينشرهُ في الشمس الى ان يجف جيدًا ويصير طرسًا[٣] صالحًا للكتابة

قلنا ان للصينيين مزية الاقتصاد ولا يتركون مقدار ذرَّة تذهب سدًى ولذلك تراهم بعد استعمال تلك الاوراق بالكتابة عليها يلتقطها الشيوخ والعجائز فينزعون الحبر عنها ثم يدقونها ويغلونها ويصنعون منها طروسًا جديدة ويتخذون هذا العمل حرفة للاسترزاق

واذا زرتَ بيوت الصين رأيت اكثرها مبنيًا من قنا وطين مجبول بتبنٍ بل ترى القسم الاوفر من الامتعة والاواني والاثاث مصنوعة منهُ ايضًا

---

(١) الجهد والغاية (٢) قضبان شجر لينة مخضرَّة (٣) صحيفة

المدينة العائمة على المياه ومجامر التدفئة

يجري في مدينة كنتون نهرٌ كبيرٌ عريض يكاد يكون بحرًا يقطن على سطحهِ خلقٌ كثير ولا يخرج بعضهم الى البرّ الّا نادرًا. فترى في ذلك النهر بيوتًا خشبيَّة قائمة على اعمدة مغروزة في النهر تبدو لناظرها كمعارض فرجة تشاهد بينها الاسواق والحوانيت والمخازن تخللها المياه ينتقل القوم اليها على القوارب

وليس لبعضهم بيوت قط بل يصرفون حياتهم كلّها في الزوارق . وهي تغطي سطح النهر فتراهُ كمدينة كبيرة على المياه وقد تعدَّدت اشكال هذه القوارب وتنوَّعت هيئاتها . اما زوارق الفقراء فبخيتة التركيب مركَّبة من بضعة الواح ملتحمة مع بعضها بالمسامير يسوقها الملَّاح بمجذاف طويل فيخرج ويدخل بين سائر القوارب آمنًا من الانقلاب والغرق

وتجول بين تلك البيوت قوارب الحلاّقين الصغيرة . وتعاين اربابها منصبّين على الاشغال يمارسون حرفتهم المهمّة عندهم . لان عليهم الاهتمام بتربية خُصَل الشعر الطويلة المسترسلة على اكتاف الصينيين

وتُباع فيها كل اصناف الطعام . فتشاهد قوارب برمّتها ملأى بالاوزّ والبطّ وغيرها بالدجاج والحمام وبعضها بالغنم وسواها بالقطط والكلاب والفأر . ويطلقون بعض تلك الحيوانات الى البرّ نهارًا لاجل المرعى و يأتون بها مساء . اما اصحاب هذه الحيوانات فيسكنون في بيت من خشب وسط القارب . لان لكل زورق تقريبًا بيتًا خشبيًّا لسكنى صاحبه وعائلته

واجمل تلك القوارب زوارق الازهار . فانك ترى بيوتها حسنة المنظر تتدلى من سقوف حُجَرها المصابيح والفوانيس المنقوشة المزخرفة المزدانة بالصُّوَر والمرائي وسائر انواع الزينة

ولاغنياء الصين زوارق على النهر يتنافسون ويتباهون بزينتها ونقشها وجمالها ويبنونها على اشكال مختلفة حسب ذوقهم وكما يخطر لكلّ منهم . وترتفع في هذا النهر الضوضاء والجلبة (١) . فتسمع هذا ينادي على بضاعته وذاك يضرب على الآلة الموسيقية وغيرهُ يساوم لشراء السلع . والشاء (٢) تثغو والسنانير تموء والكلاب تنبح وهلمّ جرًّا . والخلاصة انك تعاين على وجه المياه زحامًا ومشهدًا غايةً في الغرابة

وقد يشتدّ البرد في الصين فتجلّد الانهر ويشتدّ الزمهرير فكيف يستدفئون اذ لا كوانين نار عندهم ولا اثافي (٣) . وقد يشتد حرّ الشمس في النهار وان شتاء فلا يبالون باضرام النيران بل يلبسون جلابيب (٤) او جببًا او برانس مبطّنة بجلد الغنم . فمتى قرس البرد صباحًا لبسوا جبّتين او ثلاثًا ومتى اضحى النهار وزادت الحرارة خلعوا جبّةً وعند الظهيرة خلعوا أُخرى وحملوا المظلاّت اتقاء حرّ الشمس . وفي المساء يبرد الهواء فيستأنفون لبس تلك الاردية

اما النساء فمتى قرسهنَّ البرد حملنَ كانونًا نحاسيًّا بشكل السلّة تغطيه

شعريّةً من معدنٍ. يضرمنَ فيهِ نار فحمٍ ويتركنهُ حيثما ذهبنَ. ومتى جلسنَ وضعنهُ على المائدة او على الارض ويدفئنَ بهِ ارجلهنَّ وايديهنَّ. واذا حملت القهرمانة(٥) او المربّية ولدًا ضبطت كانونًا صغيرًا من هذا النوع تحت قدميهِ للتدفئة. ولا توقد النساء هذه المجامر الاَّ حين اشتداد صبارّة البرد وقرس الهواء

---

(١) اختلاط الاصوات (٢) الضأن والمعزى (٣) حجارٌ يوضع عليها القِدْر للطبخ (٤) قمصان او ثياب واسعة (٥) وكيلة اي امينة الدخل والخرج

وليمة الصينيين لآلهتهم

يحتفل الصينيُّون بالمآدب في الاسواق لآلهتهم المصنوعة من الخشب والحجار ويصلّون لها ويستعطفونها بالقرابين والهدايا

دخل احد السيّاح مدينة صينية فرأَى المصابيح والانوار الوافرة تضيء في الاسواق والشوارع كأَنَّ القوم مشتغلون بزينة باهرة. ثم شاهد مائدة طويلة مبسوطة في السوق عليها الصحاف والجفان(١) الكبيرة مُتْرَعة(٢). وكان في بعض تلك الجفان اغنامًا وخنازير مقلوّة برمّتها. وفي غيرها طيور الاوزّ والبطّ وسائر صنوف الطعام الشهيّة. وكانت الكراسي موضوعة حول المائدة والشوكات واباريق الشراب والكؤُوس كأَنها معدّة لجمهور المدعوّين. واجواق الموسيقى تضرب على الآلات وتوقّع الالحان الشجيّة(٣). غير انهُ لم يكن انسانٌ يؤنس تلك المائدة بل كانت مبسوطة للآلهة الوهميّة والموسيقى تُوقَّع لتسليتهم

ثم بعد انقضاء زمانٍ قال الصينيون "فرغت الآلهة من مناولة الطعام". على انهُ لم يُمَسَّ شيءٌ من ذلك. فاقبل القوم على الطعام والتهموهُ عن آخرهِ

ولا يخفى ان بعض الصينيين يعبدون كنفوشيوس الفيلسوف الشهير الذي نبغ قبل التاريخ المسيحي بنحو قرنين . وبعضهم يعبدون بوذه وهو انسان ادَّعى انهُ تحوَّل الى اله ويقيمون لهُ التماثيل العظيمة في الهياكل . ويعبد غيرهم اسلافهم او آلهة اخرى وهمية . غير ان دُعاة(٤) الدين المسيحي دخلوا هذه المملكة الفسيحة منذ عهدٍ غير بعيد وانتشروا في بعض مدنها واخذوا ينشرون انوار الدين الانجيلي بين اهلها . فاهتدى بعضهم الى الايمان ويُرجى ان يسود الدين الحقّ على تلك الاقطار التي يُعدّ سكانها بمئات الملايين

(١) قصاع كبيرة (٢) ملآنة (٣) مطربة ومحزنة (٤) داعون او مبشرون

ابنُ السماء

هٰذَا لَقَبُ إِمْبَرَاطُورِ ٱلصِّينِ . وَيَكَادُ يُحْسَبُ هٰذَا ٱلْإِنْسَانُ بَيْنَ ٱلصِّينِيِّينَ إِلٰهًا وَلَا يَتَشَرَّفُ بِمُشَاهَدَتِهِ سِوَى بَعْضِ ٱلْخَاصَّةِ ٱلْمُقَرَّبِينَ مِنَ ٱلْعَرْشِ وَٱلسُّفَرَاءِ . فَيَمْكُثُ مُحْتَجِبًا فِي بَلَاطِهِ ٱلْوَسِيعِ . وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا فِي بَعْضِ ٱلْأَعْيَادِ ٱلْكَبِيرَةِ وَٱلِاحْتِفَالَاتِ ٱلنَّادِرَةِ وَيَحْسَبُ نَفْسَهُ أَسْمَى مَقَامًا مِنْ أَنْ تَرْمُقَهُ ٱلْأَبْصَارُ . فَيَخْرُجُ فِي رَأْسِ ٱلسَّنَةِ بِمَوْكِبٍ جَلِيلٍ وَيَسِيرُ فِي أَسْوَاقٍ بَاكِيَنَ لِيَزُورَ ٱلْهَيْكَلَ حَيْثُ ضَرِيحُ أَسْلَافِهِ . وَلٰكِنْ

لَا يَتَجَرَّأُ أَحَدٌ عَلَى أَنْ يُطِلَّ وَيَلْمَحَهُ مِنَ ٱلرَّوَاشِنِ (١) وَٱلْكُوَى بَلْ تُغْلَقُ جَمِيعُهَا وَتُوصَدُ ٱلْأَبْوَابُ وَيُسْجَنُ ٱلْخَلْقُ حِينَ مُرُورِهِ فِي مَنَازِلِهِمْ. فَإِذَا وُجِدَ إِنْسَانٌ حِينَئِذٍ فِي ٱلْأَزِقَّةِ وَٱلشَّوَارِعِ حُكِمَ عَلَيْهِ بِٱلْإِعْدَامِ. وَيَمْشِي أَمَامَ ٱلْإِمْبِرَاطُورِ ٱلْمُنَادُونَ هَاتِفِينَ أَحْنُوا ٱلرُّؤُوسَ أَمَامَ سَيِّدِ ٱلْأَرْضِ. وَيَسْبِقُ هٰذَا ٱلْمَوْكِبَ إِلَى ٱلْهَيْكَلِ أُمَرَاءُ ٱلتَّتَرِ قَادِمِينَ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَمْلَكَةِ وَوِلَايَاتِهَا ٱلْخَارِجِيَّةِ يَنْتَظِرُونَ تَشْرِيفَ سَيِّدِهِمْ أَوْ بِٱلْحَرِيِّ إِلٰهِهِمِ ٱلْجَلِيلِ. فَحَالَمَا يَطْرُقُ هُتَافُ ٱلْمُنَادِينَ أَسْمَاعَهُمْ يَسْقُطُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ قَبْلَ أَنْ تَتَجَلَّى عَلَيْهِمْ أَنْوَارُ مُحَيَّاهُ وَتَمَسُّ وُجُوهُهُمُ ٱلثَّرَى. وَقَدْ يَكُونُ عَدَدُهُمْ زُهَاءَ (٢) ٱلْمِئَتَيْنِ. فَيَضْجَعُونَ عَلَى صُدُورِهِمْ سُطُورًا مُنَظَّمَةً وَرَاءَ بَعْضِهَا وَلَا يَتَجَرَّأُ أَحَدُهُمْ عَلَى رَفْعِ هَامَتِهِ (٣) عَنِ ٱلْأَرْضِ قَطُّ

قِيلَ إِنَّ أَحَدَ ٱلْأُمَرَاءِ فِي مُقَدَّمَةِ ٱلصُّفُوفِ حَاوَلَ أَنْ يَلْمَحَ كِسَاءَ ٱلْإِمْبِرَاطُورِ ٱلْأَصْفَرَ فَقُتِلَ فِي ٱلْحَالِ. فَيَجْتَازُ ٱلْإِمْبِرَاطُورُ بَيْنَ صُفُوفِ ٱلْأُمَرَاءِ ٱلْمُسْتَلْقِينَ عَلَى ٱلثَّرَى حَتَّى يَبْلُغَ ضَرِيحَ أَسْلَافِهِ فَيَسْجُدُ بِإِحْنَاءِ رَأْسِهِ. ثُمَّ يَخْرُجُ مَارًّا بَيْنَ سُطُورِ ٱلْأُمَرَاءِ وَيَعُودُ إِلَى بَلَاطِهِ

وَمَتَى تَوَارَى عَنِ الْعِيَانِ يَنْهَضُ الْأُمَرَاءُ عَنِ الْأَرْضِ آئِبِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ. وَيُكَابِدُ هَؤُلَاءِ الْخَانَاتُ عَرَقَ⁽٤⁾ الْقِرْبَةِ بِالْأَسْفَارِ مِنَ الْأَقْطَارِ الْقَصِيَّةِ ذَهَابًا وَإِيَابًا لِلْفَوْزِ بِشَرَفِ السُّجُودِ لَدَى الْمَلِكِ بِدُونِ أَنْ يَتَمَتَّعُوا بِرُؤْيَةِ طَلْعَتِهِ الْبَهِيَّةِ. وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ نَالُوا كَرَامَةً عَظِيمَةً بِإِحْنَاءِ الْهَامِ⁽٥⁾ لَدَى ابْنِ السَّمَاءِ. وَلَكِنَّهُمْ يَتَأَبَّوْنَ عَنْ ذَلِكَ بِأَنْ يُعْطَى لِكُلٍّ مِنْهُمْ مَبْلَغًا زَهِيدًا مِنَ النُّقُودِ. وَرُبَّمَا كَانَ بَعْضُهَا زَائِفًا أَوْ لَا قِيمَةَ لَهُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَتَجَرَّأُونَ عَلَى أَنْ يَفُوهُوا بِبِنْتِ شَفَةٍ. أَمَّا الْإِمْبِرَاطُورُ فَيَضْرِبُ عَلَى قَبَائِلِ التَّتَرِ مُكُوسًا⁽٦⁾ مِنَ الْإِبِلِ وَالْأَيَائِلِ وَالْخَيْلِ وَمَحَاصِيلِ الْأَرْضِ فَيُؤَدُّونَهَا صَاغِرِينَ⁽٧⁾. وَهُوَ يَعْتَبِرُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ فِي قَلْبِهِ بِمَنْزِلَةِ الْأَرِقَّاءِ وَالْعَبِيدِ

---

(١) كوى (٢) مقدار (٣) رأس (٤) كناية عن الشدة والجهود والمشقة (٥) رؤوس (٦) دراهم تأخذها اعوان السلطان على السلع (٧) ذليلين

———

دولاب الصلاة

ان قبائل التتر يعبدون بوذه غير ان بعضهم مسلمون موحدون. ويلقب كاهن بوذه عندهم بلاما ويلبس رداء اصفر طويلاً ويتمنطق بمنطقة حمراء وعلى صدره خمسة ازرار مذهبة ويضع في عنقه طوق مخمل ارجواني وقلنسوة صفراء عليها وردة حمراء. ولا يخفى ان التتر يتنافسون بالالوان الزاهية. ويلقبون كل من ليس من الطغمة الكهنوتية بالرجل الاسود ولا يسمعون له بالتكلم في موضوع الدين واذا تكلم بهذا الصدد ضحك القوم عليه وهزأوا به. لانه لا يؤذن لغير الكهنة بالوعظ والكرازة

ويعلم اللاما العباد صلوات كثيرة يكررونها مراراً. غير ان العابد يتعب ويكل من تكرارها فيلجأ الى دولاب الصلاة لينوب عنه. وهو آلة على شكل برميل يديرها الانسان بشد الخيط. فتوضع تلك الآلة في مجرى الهواء فتدور بقوته فتستغني عن الايدي. وهذه الحالة[1] من ورق صفيق تلصق عليه الصلوات التي يكتبها اولئك الكهنة. وكلما أُديرت الحالة مرة كان ذلك كناية عن تلاوة الصلاة وكلما تكرر دوران الدولاب حُسِب لمديره الفضل والثواب قدر دورانه

رأى احد المرسلين يوماً رجلين يتنازعان ويتشاجران عند الدولاب لان احدهما كان قد اتى اولاً وادارهُ نجاه الثاني واوقفهُ. ثم اخذ الخيط وادارهُ لنفسه فحنق الاول على الثاني وتشاتما حتى كاد يفضي[2] ذلك الى الصفع والملاكمة. واذا بكاهن جاء وحسم النزاع بان ادار الدولاب عنهما

ويسكن هولاء الكهنة في قصور تُدعَى اديرة ويُفرَض عليهم الطواف حول الدير والسجود على الثرى عند كل خطوة. قال احد السياح " بينما

كنت مارًا عند احد هذه الاديرة رأيت رجلًا راكبًا بغلًا يقود وراءهُ جملين. فأجفل البغل وشرد فاوقع الرجل ساحبًا معهُ الجملين فأجفلا ايضًا وهامت[٣] تلك الرواحل[٤] في الفلاة على وجهها. فلم اعلم السبب الى ان لاحت مني التفاتة حينئذٍ فابصرتُ كاهنًا منبطحًا على الارض بكسائهِ الاصفر وذراعاهُ مبسوطتان ووجههُ يمسّ الثرى. ففطنت لعلة الاجفال وعلمت ان ذاك الكاهن يؤدي الفروض المحتومة عليهِ لمعبودهِ"

(١) الدولاب والبكرة الكبيرة (٢) يبلغ بهِ الى ان ينتهي (٣) ذهبت وهي لا تدري اين تتوجه (٤) من الابل الصالحة لان يُحطّ عليها الرحل

امبراطور اليابان والامة اليابانية

اذا سرَّحت الطرف في مملكة اليابان رأيتها جزيرة جميلة لوفرة حدائقها الغنّاء[١] واخضرار حقولها وكثرة ازهارها ونظافة اسواقها ومنازلها. ولليابانيين عناية عظيمة ومهارة بخدمة البساتين والرياض وقد فاقوا بذلك امَمًا عديدة. فترى امام كل بيت حديقة نفيسة تزهو باشجار وازهار منتظمة انتظامًا بديعًا

ولهذه المملكة امبراطوران يسكن احدهما بلاطًا كبيرًا تحفّ بهِ الحدائق البهية والنباتات السامية ويظل محتجبًا في قصرهِ ولا يُسمح لاحد بان يراهُ لانهُ عندهم اقدس من ان تبصرهُ العيون. وهو يدَّعي بالتكلم مع ارواح الموتى. واذا شاء جعل من اراد قديسًا عند موتهِ. فيصلي الشعب لهذا القديس بعد ذلك كأنهُ اله. فقد صار رجال كثيرون في اليابان قديسين على هذا المنوال. فكانَ

هذا الامبراطور رئيس ديني بمنزلة اله

ويحكم على الشعب امبراطور آخر اقل تمجيداً من الاول يُدعى طيقون. لا يأذن له الشعب بالخروج من المدينة ويضعون الرقباء والعيون لصدّهِ عن مبارحة البلد. اما الامبراطور الحالي فقد خرق هذه الحجب والعوائد القديمة لانهُ رجل عُرِف بالحكمة والحزم والانصاف ودأبهُ العناية بتهذيب رعيتهِ وترقيهم في معارج الفلاح فقد بعث بانجب شبّان بلادهِ الى اوربا واميركا لتلقّي العلوم والفنون والصنائع. واحضر من هنالك امهر الاساتذة والصنّاع لتعليم ابناء بلادهِ. وسنَّ لمملكتهِ السُنن والشرائع العادلة بل تنازل عن بعض حقوقهِ الموروثة بوضع نظامات اساسية لرعيتهِ وتعيين مجلس نوّاب جرياً على منهاج[٢] اوربا المتمدنة

فتحطّطت في بلاد هذا الملك المسالك وتمهّدت المراقيب ومُدّت السكك الحديدية والاسلاك البرقية. وتشيدت المدارس والمعامل. وأُعطيت حرية الاديان وأُنشئت الجرائد ومجلاّت[٣] العلم والمكاتب. واخذت مملكة اليابان تجاري الامم المتمدنة في مضمار[٤] الترقي والتمدن. فبرع اليابانيون في العلوم والصنائع ونافسوا بها مصنوعات اوربا بدقّة الصنعة واحكامها وجمالها. حتى اقبل سراة اوربا واميركا واعيانها في معرض باريس الاخير على ابتياع مصنوعاتهم النفيسة باغلى الاثمان. وتسابقوا على احرازها لزينة قصورهم ومنازلهم والمباهاة بها. فكان المتاع الياباني الواحد يباع بمئات الليرات. ولا غروَ فان ذلك دليل قاطع على سموّ قريحة هذه الامة بالاعمال اليدوية

وقد امتازوا ايضاً بفن الزراعة والاقبال على العلوم والمعارف. وقد فُتِحت الابواب هنالك لدخول دعاة الدين المسيحي وانتشارهم في تلك المملكة الفسيحة الاكناف[٥]. فاهتدى خلق كثير وقال بالتعاليم الانجيلية. وما زالت انوار الدين والعلم آخذة بالامتداد. والترقّي سائر على قدم وساق وبضاعة المعارف والآداب رائجة واي رواج. فلا بدعَ ان حُسِبت هذه المملكة بعد زمن غير بعيد في رتبة ممالك اوربا المتمدنة. والفضل في ذلك جميعهِ

لامبراطورها الحاليّ الشهم[٦] الكريم الحكيم . ولا ريب في ان هذا الترقي السريع لمن غرائب هذا القرن وبدائعهِ

(١) كثيرة الشجر (٢) الطريق الواضح (٣) الصحيفة فيها الحكمة (٤) الموضع تضمر فيهِ الخيل (٥) جوانب او نواحٍ (٦) الذكيّ الفؤاد المتوقّد

مراوح اليابانيين وحوانيتهم

اصطلح اليابانيون على استعمال المراوح لتبريد اجسادهم بالتهوية في حرارة الصيف . فيستعملون لذلك مروحتين تُدعَى احداهما مروحة الحرب، وهي ذات غلاف فولاذي محدّد الطرف يستخدمهُ سلاحًا زمن القتال ومتى جلس الياباني بعد الصدام للراحة استعمل المروحة للتهوية والتبريد

غير انهُ لا يستعمل هذه المروحة آن السلم بل يجلس في حديقة بيتهِ ويبرّد نفسهُ بمروحة أُخرى جميلة . وهي خفيفة جدًّا حتى لا تكاد تشعر بثقلها ولكنها تجلب هواء كثيرًا . يستعملها بعض اليابانيين احيانًا للّعب والتسلية . وذلك بان يقصّوا اوراقًا صغيرة ملوّنة ويصنعوها بشكل فراشات بهية . ثم ينفخونها في الهواء فتطير ويروّحون بالمروحة ترويحًا لطيفًا فتظل تلك الفراشات طائرة كأنها حيّة . وتلوح كأنها تطارد بعضها بعضًا وتكاد الواحدة ان تمسّ الاخرى . ثم تستقرّ على ورقة خضراء او على المروحة ثم تطير في الهواء الى امد بعيد حتى تخال الهواء لا يصلها . غير ان حركاتها تتعلق على المروحة . ولليابانيّ خفّة ورشاقة غريبة بتلعيب هذه الفراشات . فيزاول[١] ذلك في الاسواق والحدائق والبيوت للّهو والتسلية . واذا عاينتهُ يمارس ذلك رأيت مشهدًا جميلًا يفتن الابصار

واذا سرحتَ الطرف في جذو عاصمة اليابان رأيت حوانيت ومخازن كبيرة تباع فيها المنسوجات الحريرية والصوفية والقطنية على انواعها . وفي غيرها الاواني والادوات الخزفية والفولاذية والخشبية الخ . ويبدو⁽²⁾ لك الحانوت قصرًا كبيرًا فيه الباعة والكتّاب وحوله رفوف وخزائن ومناضد⁽³⁾ منتظمة صفوفًا توضع عليها المنسوجات والاواني . غير ان مخبأ البضائع وحجرة الاستقبال في الطبقة العليا. فالى هنالك يصعد المساومون والشارون ويجلسون على مقاعد حسنة مغطَّاة بنسيج احمر. ثم يقدمون للشاري قبل المساومة فنجان شاي وغليون تبغ . فيتبوأ المجلس برهة بشرب الشاي ويدخّن . اما التاجر فيشتغل خلال ذلك بنشر المنسوجات الحريريّة والصوفية والمخملية من سائر الالوان واكثرها من صنع اليابان نفسها . لان اليابانيين يربّون دود الحرير كالصينيين بل يفوقونهم في احكام الصنعة . فينتخب الشاري ما يشاء ويساوم وينقد الثمن

وهنالك حوانيت خاصّة بالمظلّات (شمسيّات) واخرى بالمراوح وغيرها بالاحذية . ومن الغريب ان اليابانيين يصنعون احذيتهم من التبن غير انها قصيرة العمر فيلبسونها بضعة ايام ثم يخلعونها ويضعون اخرى جديدة . فاذا مررتَ بازقّة اليابان رأيت نعالاً كثيرة من هذا النوع ملقاة على الطريق

اما مخدَّرات اليابانيين فيركبنَ في محفّة تُدعَى بالاتكين ويسمح لهنَّ بالجولان في الاسواق بدون نقاب . ولكن متى تزوجنَ حلقنَ جفونهنَّ وسوّدنَ اسنانهنَّ . فهذه عادة سيّئة تشنّع وجوه النساء وتشوّه طلعتهنَّ⁽⁴⁾ . قيل ان علّة ذلك كي لا يصبو الى رؤيتهنَّ احد سوى ازواجهنَّ

---

(۱) عالج وحاول (۲) يظهر (۳) آلة يُنضَد عليها المتاع
(٤) رؤية او وجه

امة التتر وبواديها

إِنَّ مَوْطِنَ أُمَّةِ ٱلتَّتَرِ أَوَاسِطُ آسِيَا فِي صَعِيدٍ[1] مُرْتَفِعٍ عَنْ سَطْحِ ٱلْبَحْرِ يَحْتَوِي عَلَى جِبَالٍ شَاهِقَةٍ وَبَوَادٍ وَوَاحَاتٍ[2]. وَلَا يَعْزُبُ عَنْ فِطْنَةِ قَارِئِ ٱلتَّارِيخِ أَنَّ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةَ زَحَفَتْ فِي ٱلْأَعْصُرِ ٱلْمُتَوَسِّطَةِ عَلَى أُورُبَّا وَآسِيَا بَلْ عَلَى بَعْضِ أَفْرِيقِيَّةَ بِجُيُوشِهَا ٱلْجَرَّارَةِ. وَطَغَتْ عَلَى تِلْكَ ٱلْقَارَّاتِ كَطُوفَانٍ عَرَمْرَمٍ[3] حَتَّى أَنَّ رُومِيَةَ عَاصِمَةَ ٱلْعَالَمِ ٱلْمُتَمَدِّنِ لَمْ تَسْلَمْ وَتَنْجُ مِنْ فَتْكِ هٰؤُلَاءِ ٱلْجَبَابِرَةِ. فَقَدْ تَحَدَّرَتْ هٰذِهِ ٱلْعَشَائِرُ ٱلْهَمَجِيَّةُ عَلَى إِيطَالِيَا وَغَيْرِهَا تَحَدُّرَ ٱلسَّيْلِ فَدَوَّخُوا[4] ٱلْبِلَادَ وَٱلْعِبَادَ وَسَادُوا عَنْوَةً بِٱلصَّارِمِ ٱلْبَتَّارِ

وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْقَبَائِلِ أُمَّتَا ٱلْهَانْسِ وَٱلْمَغُولِ. وَمِنَ ٱلْأُولَى أَتِيلَا فَاتِحُ رُومِيَةَ ٱلْعَظِيمُ ٱلَّذِي كَانَتِ ٱلْوَالِدَاتُ يُخِفْنَ أَوْلَادَهُنَّ بِذِكْرِ ٱسْمِهِ فَيَرْتَعِدُونَ وَتَهْلَعُ قُلُوبُهُمْ. وَمِنَ ٱلثَّانِيَةِ تِيمُورْلَنْكُ وَجِنْكِيزْخَانُ وَغَيْرُهُمَا

وَٱلسَّوَادُ ٱلْأَعْظَمُ مِنْ أُمَّةِ ٱلتَّتَرِ يَسْكُنُ ٱلْبَوَادِيَ. وَهِيَ

مفاوز[1] وَاقِعة عِنْدَ حضيض الجِبَالِ . وَهُمْ يَنْقَسِمُونَ إِلَى عشائر شَتَّى مِنْهَا تَتَرُ الْمَغُولِ وَتَتَرُ الْقَلْمُوقِ وَتَتَرُ الْجَرْغِيز . وَجَمِيعُهُم مِنْ نَسْلِ فَاتِحِي رُومِيَةَ . أَمَّا الْمَغُولُ فَكَانُوا فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ أُمَّةً عَظِيمَةً حَتَّى اضْطَرَّ إِمْبَرَاطُورُ الصِّينِ إِلَى بِنَاءِ السُّورِ الشَّهِيرِ الْمَعْدُودِ مِنْ عَجَائِبِ الدُّنْيَا لِصَدِّ هُجُومِهِمْ . وَيَبْلُغُ طُولُ السُّورِ الْمَذْكُورِ أَلْفًا وَخَمْسَ مِئَةِ مِيلٍ . وَكَانَ عَرْضُهُ فِي بَعْضِ الأَمَاكِنِ كَافِيًا لِسَيْرِ سِتَّةِ فُرْسَانٍ مُتَحَاذِينَ . وَهٰذَا السُّورُ مَبْنِيٌّ عِنْدَ مُدُنِ الصِّينِ مِنْ حِجَارٍ وَفِي غَيْرِ مَحَالَّ مِنْ قَرْمِيدٍ أَوْ طُفَالٍ . وَلَمْ يَزَلْ هٰذَا السُّورُ بَاقِيًا إِلَى يَوْمِنَا هٰذَا .

وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَصُدَّ هَجَمَاتِ التَّتَرِ . فَإِنَّهُمْ غَزَوْا تِلْكَ الْبِلَادَ وَفَتَحُوهَا عَنْوَةً وَإِمْبَرَاطُورُهَا الْحَالِيُّ مِنْ أُمَّةِ التَّتَرِ . وَقَدِ اسْتَوْلَتْ رُوسِيَا الآنَ عَلَى قِسْمٍ كَبِيرٍ مِنْ هٰذِهِ الْمَمْلَكَةِ . وَمِنْ مُدُنِهَا خِيوَا وَبُخَارَى وَسَمَرْقَنْدُ وَطَشْقَنْدُ . وَقَدْ نَبَغَ فِي هٰذِهِ الْمُدُنِ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْمُؤَلِّفِينَ . وَكَانَ فِيهَا مُدُنٌ أُخْرَى عَظِيمَةٌ دُرِسَتْ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا سِوَى أَطْلَالٍ[2] وَرُسُومٍ بَالِيَةٍ

فَانْحَطَّ الآنَ التَّتَرُ سُكَّانُ الْبَوَادِي عَنْ عَظَمَتِهِمِ الْقَدِيمَةِ وَأَصْبَحُوا شَعْبًا هَمَجِيًّا فَقِيرًا يَجُولُونَ كَعَرَبِ الْبَادِيَةِ وَيَسْكُنُونَ

ٱلْخِيَامِ. أَمَّا هَوَاءُ تِلْكَ ٱلْبِلَادِ فَبَارِدٌ تَعْصِفُ فِي سُهُولِهَا رِيَاحٌ صَرْصَرٌ[٨] وَتَجْلِدُ ٱلْأَنْهُرَ. وَلَا يَدُومُ ٱلشِّتَاءُ فِي بَعْضِ أَنْحَاءِ ٱلتَّتَرِ أَكْثَرَ مِنْ شَهْرَيْنِ. فَتُحَاكِي فِي بَرْدِهَا ٱلْمِنْطَقَةَ ٱلْمُتَجَمِّدَةَ أَمَّا ٱلصَّحْوُ فَيَدُومُ زَمَانًا طَوِيلًا. ثُمَّ تَهُبُّ ٱلرِّيَاحُ فَتَرْفَعُ ٱلْغُبَارَ إِلَى عِنَانِ ٱلْجَوِّ فَيَسْتُرُ ٱلْأَشْبَاحَ عَنِ ٱلْأَبْصَارِ وَيَسْدُلُ ٱلظَّلَامُ ذُيُولَهُ حَتَّى كَأَنَّكَ فِي دُجَى[٩] ٱللَّيْلِ ٱلْبَهِيمِ[١]. فَتَلْتَحِفُ ٱلسَّمَاءُ بِٱلسَّحَابِ وَيَهْطُلُ ٱلْغَيْثُ سُيُولًا جَارِفَةً تَرْتَعِدُ لِهَوْلِهَا ٱلْفَرَائِصُ[١٠] فَكَأَنَّ ٱلْغُيُومَ تَفَجَّرَتْ مِنْهَا ٱلْجَدَاوِلُ فَتُغَطِّي ٱلْحُقُولَ وَٱلطُّرُقَ وَتَطْغِي عَلَيْهَا

وَيَسْقُطُ مَعَ تِلْكَ ٱلْأَمْطَارِ بَرَدٌ كَبِيرٌ يَقْتُلُ ٱلْمَاشِيَةَ. فَتَضُرُّ ٱلْأَمْطَارُ بِٱلْحَيَوَانِ وَٱلنَّبَاتِ ضَرَرَ ٱلْقَيْظِ[١١]

وَسَحْنَةُ ٱلتَّتَرِ تُضَارِعُ سَحْنَةَ ٱلصِّينِيِّينَ بِنُتُوءِ[١٢] عِظَامِ ٱلْخَدِّ وَصِغَرِ ٱلْأَعْيُنِ وَسَوَادِ ٱلشَّعْرِ وَقِصَرِ ٱلْقَامَةِ. وَيُبَايِنُونَهُمْ[١٣] فِي ٱلْعَوَائِدِ وَٱلْأَخْلَاقِ. فَإِنَّ ٱلتَّتَرَ أُمَّةٌ مُتَبَدِّيَةٌ شَرِسَةٌ مُولَعَةٌ بِٱلْحَرْبِ وَٱلْغَزْوِ وَٱلصِّدَامِ وَتُحِبُّ ٱلتَّرَحُّلَ وَٱلْجَوَلَانَ وَٱلْهِيَامَ فِي ٱلْفَلَوَاتِ وَٱلِٱسْتِقْلَالِ

بِخِلَافِ ٱلصِّينِيِّينَ فَإِنَّهُمْ يُؤْثِرُونَ ٱلْعِيشَةَ ٱلْحَضَرِيَّةَ

وَيمقتونَ الحَرْبَ وَيَصبُونَ إلى التَرَفِ[١] وَالنَعِيم

(١) المرتفع من الارض (٢) بقعة خضراء او روضة في قفر (٣) شديد (٤) قهروا واستولوا (٥) فلوات لاماء فيها (٦) المرتفع من آثار الدار (٧) ريح شديدة الهبوب والبرد (٨) ظلام (٩) ليل بهيم اي لاضوء فيهِ الى الصباح (١٠) اوداج العنق او مقاتلها (١١) شدة الحرّ (١٢) بروز الى الخارج (١٣) يخالفون (١٤) سعة العيش والتنعم

موارد ارزاق التتر ومعيشتهم

ان رزق التتر الاوفر من الابل والماشية كالبدو. فمتى انجع[١] الكلأ في حَزَن[٢] ضربوا فيهِ المضارب ولبثوا زمانًا الى ان تنتجع[٣] الماشية ثم يترحّلون يرودون مكانًا آخر تسرح فيهِ قطعانهم. وهم مغرمون بلحم الغنم فيقطعون الرأس اربع قطع ويلقونهُ في طاجن حديد فيهِ الماء الغالي ويسلقونهُ. ثم يضعون اللحم في احضانهم ويقطعونهُ بالمدى[٤] ويأكلونهُ. ويغمسون القصاع في المرق وينهلون[٥] قدر ما يشاؤون

ويكثر عندهم اللبن والشاي اما اللبن فمن الغنم والماعز وهم يفضّلون لبن الافراس عليها. والحلب من اعمال النساء اليومية فيصنعنَ من اللبن كعكًا بأن يحفرنَ في الارض حفرًا يضعنَ فيها طواجن الحديد الملأى باللبن ويضرمنَ تحتها نارًا. ثم يقف غلامٌ حاملٌ عيدانًا وجلّة لتجديد الوقود. فيغلي اللبن ويحرّك الى ان يختثر كالقشدة ثم يُقطع قطعًا مربعة ويُجفَّف في الشمس ويؤكل ويصنعون ايضًا شايًا كالثريد. وذلك بأن يبلّوا اوراق الشاي ويلصقون

بعضها مع بعض بدم الجاموس ويضغطونها في قالب ويتركونها حتى تصلب. ومتى شاء التتري مناولة الشاي كسرهُ بالفأس وفركهُ بين حجرين ووضعهُ في اناءِ حديد ومزج معهُ قليلاً من الحيض والدقيق والملح وغلاهُ على النار فكان اشبه شيء بالحساء

ومن حيوانات التتر القرعوس(٦). وهو يجول في تلك المفاوز هائماً على وجههِ يسوم(٧) الكلأ(٨). فاذا رأى انساناً ركض فامعن فيهِ النظر ثم عاد فانتجع الاعشاب. وقد يأكل التتري لحم الجمل ويظنهُ طعاماً مريئاً. وينتفع بلبن النوق انتفاع غيرهِ بلبن البقر. ويستعمل جلد الابل لمآرب شتى فيصنع منهُ خياماً وثياباً واحذية وسروجاً ويدبغهُ دبغاً حسناً

ولا يخفى ان مزية الجمل الصبر على الجوع والعطش. اما علة ذلك فسناماهُ لانهما ملآنان بسامٍّ صغيرة مذخورة دهناً. فمتى نفد طعامهُ جُذِب ذلك الدهن الى معدتهِ فغذاها. ولكن ان طالت مدَّة الصوم يرقّ السنامان وينفدان مادتهما الدهنية فيموت الحيوان. وهو يقنع بالنزر اليسير فقد تكفيهِ حفنة فول اوكرسنَّة وقد يسوم الانجم والعلّيق والاعشاب الواضحة في طريقهِ. وعلى ذلك كانت الابل لا تكلّف التتري نفقة كثيرة

واما صبرهُ على العطش فناشئٌ من أكياس صغيرة مدلاَّة على جوانب معدتهِ مُفعَمة بالماء. فيجذب منها الماء الى معدتهِ جذب الدهن من سناميهِ فيروي ظمأهُ امداً وقد يقتل السائح الصادي(٩) جملهُ ويستخرج الماء من اردانهِ(١١) المحيية وقايةً لحياتهِ. ومن مزايا الابل ايضاً قطع المسافات الشاسعة بدون الشعور بالتعب. وعلة ذلك تركيب اقدامها فانها مشطورة الى شطرين او اصبعين طويلتين لكلٍّ منها ظفر قصير. والاصبعان ملتحمتان عند طرفيهما بغشاء دهنيّ تحتهُ اخمص(١٢) قرني كثيف يمكنهُ من السير على رمال الصحاري والرمضاء بلين وسهولة

واذا حُثّ الجمل على السير في البوادي القصيّة قد تتأكّل اخامص

قوائمهِ فتتجرد حتى اللحم . فيضطر التتري الى ان يصلهُ بجلد الغنم فينتفع بذلك زماناً . ومتى انقضى هذا الزمان اخذ الحيوان يجمح فيضطجع على الارض ويتعذَّر على صاحبهِ انهاضهُ وان نزل عليهِ بالسياط . فيغادرهُ مطروحاً في الفلاة فريسة للضواري

وتجول في تلك البوادي الخيل البرية جولانها في مفاوز اميركا الشمالية . غير انها في هذا الاقليم كثة[١٣] الشعر متلبدتهُ . وعلى افواهها وخطومها ملَبَّ طويل يضارع شعر المعزى احمر اللون في الغالب وبعضهُ اسود او ابيض

وتعيش هذه الخيل رعالاً[١٤] من عشرين الى ثلاثين بالانفراد عن جاراتها كلٌّ يسوم الكلأ وحدهُ . ومتى فاجأها عدوٌّ انضمت معاً للدفاع عن نفسها وطردهِ . ومن الدّ اعدائها الذئاب والتتر

اما الذئاب في هذه الصحاري فضارية جداً شديدة النهم تهاجم رعيل الخيل جيشاً فتعوي وتكشّر عن انيابها المرعبة القتَّالة . فتضع الجياد الكبيرة مهارها في الوسط وتقف حولها للدفاع عنها وتأخذ بالصهيل والرفس بحوافرها وتهيج هياج الغضب والغيظ . غير ان الذئاب قد تكون وافرة العدد فلا تقوى الخيل على الدفاع فتعدو فراراً من انيابها . فتتعقبها الذئاب وتخطف بعضها وتفترسها

اما التتري فيخشى بأس الذئب وبغتة فلا يكلّ ولا يني[١٥] من مطاردتهِ اياماً حتى يدركهُ ويفتك بهِ . ولا بدعَ ان مقت التتر الذئاب لانها اضرى الوحوش واشدُّها بطشاً بالانسان . فلا تهابهُ ولا تفرُّ منهُ بل تهاجمهُ بجراءة وحشية . وتغادر الماشية بدون ان تمسّها بضرر وتدخل البيوت وتقبض على من تصادفهُ في سبيلها من رقبتهِ وتعدو بهِ الى الفلاة حيث تفترسهُ ولا تغادر لهُ اثراً

فاذا لمح التتر ذئباً امتطوا جيادهم واطلقوا لها الاعنَّة قابضين بايديهم قضباً طويلة في اطرافها حبالٌ لكلٍّ منها انشوطة . فيرمون تلك الحبال حول عنق الذئب كوميض البرق ويجرّونهُ الى مصرعهِ[١٦]

والتتري عناية كبيرة بالخيل المقتصة من البوادي وهيامٌ جزيل بركوبها حتى يكاد يقضي زمانة على صهواتها(١٧) . فقد يأكل ويرقد ويقضي اشغالهُ في السرج بدون ان يترجَّل . ويحاكي التتر هنود اميركا بالكسل والبطالة فلا يحبون الشغل ولذلك تراهم فقراء صعاليك

اما الآبار في تلك الحزون فقليلة . وقد تسافر العشيرة اميالاً ترود ماء لها ولمواشيها . وقد يدحرجون حجرًا على فم البئر كما كانت الحال في ايام ابرهيم الخليل . ومتى رفعوا الحجر اقبلت المطايا والخيل والاغنام والماعز للشرب . فتزاحمت ودفعت بعضها بعضًا وتقاتلت . واذا ورد البئرَ حمل كبير اجفلت الخيل وذهبت لا تلوي على احد وارتفع الصهيل والخوار(١٨) والثغاء(١٩) والنهيق من كل ناحية . وقد تكون البئر عميقة فيدلّون اليها الادلية . وهي زقاق من جلد الماعز وحبلها من شعور الابل لعدم وجود نجّارين وحبّالين في تلك البوادي

---

(١) اخصب (٢) سهل (٣) تذهب لترعاهُ (٤) سكاكين (٥) يشربون (٦) الجبل ذات السنامين (٧) ترعى (٨) عشب (٩) هنيئًا (١٠) عطشان (١١) اصل الاكام تُستعمل للدراهم والدنانير (١٢) ما لا يصيب الارض من باطن القدَم (١٣) كثيفة الشعر (١٤) القطعة من الخيل (١٥) يتعب (١٦) مقتلو (١٧) ظهورها (١٨) صوت البقر (١٩) صوت الغنم

بعض غرائب تيبت

تُحسب تيبت اغنى ممالك المسكونة وافقرها . اما غناها فمن وفرة مناجم

الذهب والفضة . فيلتقط الرعاة ركاز[1] هذين المعدنين من شقوق الجبال واخاديدها[2] . وليس فيها نقود نحاسية بل النقود الدارجة عندهم في الدراهم الفضيّة . واما فقرها فلأن كهنة دينها البوذي وهياكلها تمتص ثروة سكانها وتجفف موارد رزقهم

وترى ظاهر البيوت منقوشاً بالالوان الحمراء والصفراء والزرقاء وتلوح لناظرها جميلة لكنها من داخل دنيئة وقذرة وضيّقة المجال حتى لا يكاد ساكنها يتمتع بحريّة الحركة . اما معيشة القوم فعلى الشاي غالباً وخبز الشعير الاسود فالحنطة لا تنبت هناك لان اكثر ذلك الاقليم جبليّ قليل السهول والمراعي

ويشتد قرس البرد في هذه الاصقاع لانها محاطة بالجبال الشاهقة المغطّاة بالثلوج الدائمة حتى يكاد زائر هذا القطر شتاء يموت بردًا . فقد مرّ احد السيّاح بنهر فرأى فيه صُوار[3] ابقار وحشيّة جامدة لا تتحرك فخالها تسبح في الماء . وشاهد رؤوسها وقرونها مرتفعة فوق المياه انما بدون حركة . فدنا منها وامعن النظر ففطن للسبب وذلك انها غاصت في الماء حين كان آخذاً بالجمود فجمد سريعاً وتصلّب قبل خروجها منه حتى لم تعد تستطيع الحركة فطوّقها الجمد من سائر الجهات واماتها

ويضطرّ اهل تيبت الى اضرام النار في منازلهم للاصطلاء من البرد القارس . اما مواقدهم فمن طين ويثقبون كوّة في السقف لخروج الدخان

ويختلف سكّان تيبت عن تتر البادية بأنهم حضَر يقطنون الامصار[4] والقرى . اما اولئك فبدو رُحَّل لا يأوون البيوت قط . فاذا اتوا تيبت ابوا نزول المنازل المعمورة فلا يبيتون في الفنادق بل ينصبون المضارب في فلوات المدن وساحاتها كما يفعلون في مجاهل[5] البادية ومعالمها[6] حيث يضرمون النيران تحتها ويطبخون الطعام . فاذا حاول رب بيت حملهم على طهي طعامهم على كوانين المطابخ امتنعوا كل الامتناع . فانهم يفضّلون سكنى الفلاة صيفاً وشتاء

واذا اوى احدهم بيتاً معموراً حسب ذلك عجباً لا يُطاق ولا يصدّق متى يفلت منهُ ويطلق ساقيهِ للريح

(١) قطع الفضة والذهب (٢) الحُفَر المستطيلة (٣) قطيع البقر (٤) المدن (٥) الارض التي لا يُهتدى فيها (٦) ما يُستدلُّ به على الطريق

ياك تيبت

لِكُلِّ إِقْلِيمٍ حَيَوَانٌ خَاصٌّ يَجْنِي مِنْهُ ٱلْعِبَادُ رِزْقًا وَنَفْعًا . أَمَّا حَيَوَانُ تِيبِتَ فَيُدْعَى يَاكَ . وَيُحِبُّ هٰذَا ٱلْبَهِيمُ ٱلسُّكْنَى فِي ٱلْجِبَالِ ٱلْبَارِدَةِ . وَأَمَّا كِسَاؤُهُ فَشَعَرٌ مُتَجَعِّدٌ لَيِّنُ ٱلْمَلْمَسِ يُحَاكِي ٱلْفَرْوَ يَكْنُسُ ذَنَبُهُ ٱلْأَرْضَ وَهُوَ بَهِيُّ ٱللَّوْنِ جَمِيلُهُ . وَلَهُ قَرْنَانِ يُضَارِعَانِ قَرْنَيِ ٱلْبَقَرِ وَسَنَامٌ بَيْنَ كَتِفَيْهِ . أَمَّا قَوَائِمُهُ فَقَصِيرَةٌ جِدًّا حَتَّى تَرَى شَعَرَهُ ٱلطَّوِيلَ يَجُرُّ وَرَاءَهُ عَلَى ٱلْأَرْضِ وَيَجْعَلُ لَهُ مَنْظَرًا شَنِيعًا . غَيْرَ أَنَّ أَهْلَ تِيبِتَ يَحْسِبُونَ هٰذَا ٱلْحَيَوَانَ بَرَكَةً عَظِيمَةً لَهُمْ .

وَذٰلِكَ لِأَنَّ لَبَنَ أُنْثَاهُ خَاثِرٌ وَدَسِمٌ وَغَزِيرٌ وَيَصْنَعُونَ مِنْهُ سَمْنًا لَذِيذًا . وَيَحُوكُونَ مِنْ شَعَرِهِ أَرْدِيَةً نَفِيسَةً مَتِينَةً . وَيَنْسِجُونَ

مِنْ صُوفِهِ ٱلطَّوِيلِ خِيَامًا وَيَفْتِلُونَ مِنْهُ حِبَالًا. أَمَّا ذَنَبُهُ ٱلْبَهِيُّ ٱللَّوْنِ فَيَسْتَعْمِلُونَهُ لِلزِّينَةِ. وَيَسْتَخْدِمُونَ هٰذَا ٱلْحَيَوَانَ حَيًّا رَكُوبَةً (١) فَيَسِيرُ بِهِمْ فِي ٱلْوُعُورِ وَٱلْعَرَاقِيبِ (٢) وَلَا تَزِلُّ قَدَمُهُ. وَيَصْنَعُونَ لَحْمَهُ طَعَامًا وَقُرُونَهُ أَمْشَاطًا وَنِصَابَاتٍ وَأَمْعَاءَهُ أَوْتَارًا وَٱلْخُلَاصَةُ كُلُّهُ رِبْحٌ وَنَفْعٌ لِمَالِكِهِ. فَلَا بِدْعَ (٣) إِنْ أَحَبَّهُ ٱلتِّبْرِيُّ وَقَدَّرَ ثَرْوَتَهُ بِقَدْرِ مَا فِي حَوْزَتِهِ مِنْ هٰذَا ٱلْحَيَوَانِ

وَمِنْ طِبَاعِ أُنْثَاهُ مَحَبَّةُ فَلْوِهَا حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ ٱلْبَشَرُ مِنْهَا كَفَّتْ عَنْ إِعْطَاءِ ٱللَّبَنِ. وَإِذَا ذُبِحَ ٱلْفَلْوُ أَوْ مَاتَ عَمَدَتِ ٱلْمَرْأَةُ إِلَى قَوَائِمِهِ فَقَطَعَتْهَا وَأَلْقَتْهَا أَمَامَ ٱلْأُمِّ. فَتَنْعَطِفُ عَلَيْهَا تَلْحَسُهَا فَيَدِرُّ لَبَنُهَا فَتَنْتَهِزُ ٱلْمَرْأَةُ ٱلْفُرْصَةَ وَتَحْلِبُهَا. وَمِنْ طِبَاعِ هٰذَا ٱلْحَيَوَانِ ٱلِانْقِيَادُ وَٱلْخُضُوعُ لِصَاحِبِهِ

---

(١) ما يُركَب من الدواب (٢) طُرُق في الجبال (٣) لا عجب

عيد الزبدة في تيبت

يُسمّي التيبتيّون هذا الموسم عيد الازهار لكنّهُ بالحقيقة عيد الزبدة. فهو معرض عظيم مؤلّف من رجال ونساء وحيوانات وازهار وبيوت وحدائق كلها مصنوعة من السمن

فمتى آن اوان هذا الموسم هرع القوم الى تيبت قادمين من سائر بلاد التتر للفرجة . فتغص الطرق بقوافل الحجّاج الآتين لمعاينة هذا المشهد الغريب . ولما كان يوجد في تيبت دير عظيم لكهنة بوذه كان لهذا العيد علاقة كبرى بالدير المذكور

اما اعداد هذا الحفل الغريب فعلى الكيفية الآتية

يهتمّ التتر بهذا العيد قبل اوانو بثلاثة اشهر ينصبُّون في خلالها على عمل الصُّوَر السمنيَّة المزمعة ان تُعرَض للفرجة . ويشتغلون من الصباح الى المساء في عمل الاشباح على اختلاف اشكالها وانواعها . فترام كل دقيقة يغمسون ايديهم في الماء لتبريدها

ويحتفلون بهذا العيد في وسط الشتاء ولذلك يعانون من قرس البرد ما لا يوصف . ثم متى انجزوا عمل تلك الصُّوَر اشتغلوا بنقشها . لان لابدَّ من ظهورها مكسوَّة بالكساء الكامل

ومتى بدأ العيد غصَّت المدينة ورساتيقها[1] بالخلق حتى لاتكاد تسع الجماهير المحتشدة اليها من سائر الجهات . فتسمع ثُغاء[2] الغنم وخوار[3] البقر ونبح الكلاب من سائر الانحاء . وترى المضارب منصوبة في الفلوات يسكنها الزائرون الذين لم يفوزوا بمآوي في البيوت والفنادق . وتعاين هناك قبائل التتر وعشائرهم على اختلاف ازيائهم وعوائدهم يطوف بعضهم حول الدير ويطَّرحون على الارض في كل خطوة لاستعطاف بوذه واسترضائو

ثم متى كملت معدَّات العيد رأيت مشهدًا غاية في الغرابة

فانهم يضعون تلك الصُّوَر على دكك ومناضد مرتفعة تلقاء المياكل تخللها آنية حمراء وصفراء . ولما كان هذا الاحتفال يجري ليلاً رأيت اضواء وانوارًا ملوَّنة بهيَّة تبهر الابصار . ومن هذه التماثيل والاشباح ما هو كبير جدًّا . فتخال الحيوانات السمنيَّة حيَّة تكاد تمشي . وتعاين صُوَر البشر والنمور والذئاب والغنم وغيرها مما لا يُحصى . وتكاد تمسّ شعرها وصوفها لاستجلاء حقيقة الامر

فيا اذا كانت جلودها الوهمية اصلية . وتشاهد بين تلك الدُمى بوذه نفسه بجلده الابيض وشعره الطويل المسترسل . ومما يُعجب منه ان الاشباح كلها من السمن

وفي سائر الاسواق والشوارع لعبات وخيالات سمنيّة متوشحة بوشاحات الكهنة . وترى خُدّام الدين هولاء يمشون ذهابًا وايابًا بين تلك المعارض . ومتى فرغ القوم من الفرجة والتفرُّس بهذه الاصنام بدأت افراح الليلة واناشيدها . فيرقصون ويغنُّون ويصيحون ويدفعون بعضهم بعضًا كأنهم أُصيبوا بالجنون . هذا والكهنة يصعدون وينزلون حاملين مشاعل ملتهبة لحفظ نظام الجمهور والمحافظة على التماثيل من السقوط . ويدوم المرج[4] والمرج[5] والغناء والرقص والزعيق الى الصباح . فلا يبزغ الفجر حتى ينتهي المشهد ويُختَم الاحتفال

فينزلون تلك التماثيل السمنيّة ويطرحونها في حفرة قرب المدينة فتذهب اتعاب ثلاثة اشهر ادراج الرياح كأنها لم تكن . فقد كابد القوم هذه المشقة كلها وعانوا نفقات السفر واخطاره وبذلوا مقدارًا جسيمًا من السمن لاجل ليلة واحدة . ثم تَنفضُّ الحفلة وينطلق الزوّار مشاةً صامتين وايديهم مدلاة نحو الارض ولم يثابوا على هذا العناء والنفقة الا بهرج ومجون[6] وخلاعة ليلة واحدة

---

(١) السواد والقرى (٢) صوت الغنم (٣) صوت البقر (٤) فتنة واختلاط (٥) قلق واضطراب (٦) هزل

هيكل الذهب في تيبت

يعسر السفر في تيبت لان اكثر طرقها في الجبال الشاهقة ومسالكها حروف وعرية ضيقة وجُرُف[1] تكاد تنهار[2] ولذلك كان سلوكها خطرًا . وتدعى

جبال تيبت الشمالية الجبال الزرقاء والجنوبية حملايا والبلاد المأهولة واقعة بينهما . اما سكانها فمن عشائر التتر وملكها شخص يُعجَب منهُ يسكن على قمة طود صخريّ في ناحية لاسًا

امّا لاسًا فعاصمة تيبت . وبلاط هذا الملك هيكل كبير مشيد بين هياكل كثيرة حولهُ . وتعلو ذلك الهيكل قبّة مصفّحة بالواح ذهبية وهو قائم على اعمدة من نضار[٢] ايضًا . وقد مرّ بك ان الذهب يكثر في تلك الجبال

ويزور حضيض هذه الرابية كهنة الدين البوذي وخلق كثير قادمين من سائر انحاء بلاد التتر وينبطحون على الارض للسجود . فيشرف عليهم الملك ايام الاعياد والمواسم من رواق بلاطهِ بغية رمقهم بنظرهِ

ولذلك البلاط مدخل فسيح تزهو على جانبيهِ الاشجار الغضّة الجميلة . ولا يزال غاصًّا بالزائرين الآتين البعض فرسان والبعض مشاة ليعبدوا الملك لانهم يعتبرونهُ كاله ويقولون ان روح بوذه حلّت فيهِ وجعلتهُ قديسًا . وقد عاش في هذا الهيكل منذ الطفولية لان الكهنة احضروهُ اليهِ منذ كان صغيرًا

على انهُ ليس من نسل الملوك بل كان ولدًا اختارهُ الكهنة منذ نعومة الاظفار وملّكوهُ. اما كيفية اختيارهِ ومبايعتهِ فعلى الاسلوب التابع

يطلب الكهنة من الشعب اختيار ثلاثة اولاد واحضارهم اليهم . فيلقون قرعة باسمائهم مكتوبة على ثلاث اسماك ذهبية . ثم يضعون تلك الاسماك في اناء ذهبي يهزّونهُ لاختلاط الاسماك بعضها ببعض ويكلفون كاهنًا برفع احداها ويقرأون اسم الولد المكتوب عليها . ثم يمشون فيحضرون الفتى الذي اصابتهُ القرعة بموكب واحتفال ويعينونهُ ملكًا شرعيًّا او رئيسًا دينيًّا ويحملهُ الكهنة الى هيكل الذهب حيث يحظرون عليهِ اللعب واللهو والركض شأن الاولاد امثالهُ . فيقضي حياتهُ في الهيكل جالسًا على وسادة وهازًّا رأسهُ نحو الشعب القادم لعبادتهِ بوقار ومهابة

اما بيوت الكهنة فبالقرب من قصر الملك او بالحري الاله ولا يفعلون شيئاً سوى العناية بخدمته. فلا غروَ (٥) ان تكون حياة هذا الانسان ثقيلة عليه ومشوبة بالضجر والملال لانه يقضيها سجيناً منقطعاً عن المعاشرات والعلم ومعرفة امور الدنيا . وماذا تفيده هذه الابهة والعظمة

ولا يخفى ان تيبت مملكة مستقلّة تدفع عنها جبالها الشمّاء (٦) التي تطوّقها . فقد حاول الصينيون مراراً فتحها فامتنعت عليها لمناعتها (٧) الطبيعية

---

(١) عرض الجبل الاملس او ما تجرّفته السيول . (٢) تتهدم (٣) ذهب (٤) ينعون ويجرون (٥) لا عجب (٦) العالية (٧) لقوّتها وشدّتها

أَثَرُ قَدَمِ بُوذَه

إِنَّ أَهْلَ سِيلاَنَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ عُبَّادِ بُوذَهْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ حِينَ فَارَقَ إِلٰهُهُمْ هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةَ تَرَكَ أَثَرَ قَدَمِهِ عَلَى قِمَّةِ جَبَلٍ شَاهِقٍ يُدْعَى قِمَّةَ (١) آدَمَ. فَيَعْتَبِرُونَ هٰذَا ٱلأَثَرَ اعْتِبَاراً لاَ يُوصَفُ وَيَزُورُونَ ذٰلِكَ ٱلْجَبَلَ مَرَّةً فِي ٱلسَّنَةِ وَيُقَدِّمُونَ لِبُوذَه ٱلْقَرَابِينَ وَٱلْهَدَايَا

أَمَّا ٱلصُّعُودُ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْجَبَلِ فَمِنْ أَعْسَرِ ٱلأُمُورِ وَأَخْطَرِهَا لِأَنَّهُ كَثِيرُ ٱلْوُعُورِ وَٱلْعَرَاقِيبِ وَقِمَّتُهُ مَخْرُوطِيَّةُ ٱلشَّكْلِ

كَتَالِبِ سُكَّرٍ وَيَضْطَرُّ ٱلْقَوْمُ إِلَى ٱرْتِقَاءِ شَعَفَتِهِ (١) لِمُعَايَنَةِ قَدَمِ بُوذَهْ.

وَيَجْرِي عِنْدَ حَضِيضِ هٰذَا ٱلْجَبَلِ جَدْوَلُ مَاءٍ يَقِفُ ٱلزَّائِرُونَ عِنْدَهُ لِلِاسْتِحْمَامِ ثُمَّ يَأْخُذُ كُلُّ زَائِرٍ مِنْدِيلَهُ عَنْ رَأْسِهِ وَيَلُفُّ بِهِ هَدِيَّةً وَيَضَعُهَا عَلَى هَامَتِهِ. وَهٰذِهِ ٱلْهَدِيَّةُ مِنَ ٱلنُّقُودِ أَوِ ٱلْأَرُزِّ أَوْ جَوْزِ ٱلْهِنْدِ أَوِ ٱلْأَزْهَارِ. فَلَا يُجَاوِزُونَ هٰذَا ٱلْجَدْوَلَ حَتَّى تُصْبِحَ ٱلطَّرِيقُ وَعِرَةَ ٱلْمَسَالِكِ عَلَى بَعْضِ صُخُورِهَا ٱلْمَلْسَاءِ ٱلْبَاذِخَةِ مَوَاطِئُ مَحْفُورَةٌ بِٱلْإِزْمِيلِ لِتَسْهِيلِ ٱلِارْتِقَاءِ.

ثُمَّ يَبْلُغُ ٱلزَّائِرُونَ بَعْدَ مُعَانَاةِ أَتْعَابٍ لَا تُوصَفُ قِمَّةَ ٱلطَّوْدِ فَيُسْفِرُ (١) لَدَيْهِمْ مَشْهَدٌ طَبِيعِيٌّ بَدِيعٌ يَشْتَمِلُ عَلَى سُهُولِ ٱلْجَزِيرَةِ وَغَابَاتِهَا وَرِيَاضِهَا. وَلٰكِنَّهُمْ لَا يَكْتَرِثُونَ بِهِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَصْعَدُوا لِمُشَاهَدَةِ مِثْلِ ذٰلِكَ بَلْ لِيَتَشَرَّفُوا بِلَثْمِ أَثَرِ تِلْكَ ٱلْقَدَمِ ٱلْوَهْمِيَّةِ. فَيَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى خَيْمَةٍ صَغِيرَةٍ مَنْصُوبَةٍ عَلَى ٱلصَّخْرِ يُحِيطُ بِهَا جِدَارٌ وَهِيَ مَضْبُوطَةٌ بِسِلْسِلَةٍ حَدِيدِيَّةٍ. وَلَوْلَا هٰذِهِ ٱلسِّلْسِلَةُ لَنَسَفَتِ ٱلرِّيَاحُ تِلْكَ ٱلْخَيْمَةَ فَتَمَزَّقَتْ. فَتَحْتَ هٰذِهِ ٱلْخَيْمَةِ ٱلْأَثَرُ ٱلْمَحْسُوبُ عِنْدَهُمْ مُقَدَّسًا. وَهِيَ مُزْدَانَةٌ بِٱلْأَزْهَارِ وَٱلْمُزَرْكَشَاتِ. وَهٰذَا ٱلْأَثَرُ كَبِيرٌ يُحَاكِي صُورَةَ

ٱلْقَدَمِ ٱلْحَقِيقِيَّةِ كُلَّ ٱلْمُحَاكَاةِ . وَٱلْأَطْرَافُ ٱلْمُحِيطَةُ بِهِ مُطْلِيَّةٌ بِٱلذَّهَبِ . وَيَقُولُونَ إِنَّ بُوذَهْ وَضَعَ قَدَمَهُ ٱلْوَاحِدَةَ عَلَى هٰذِهِ ٱلْقِمَّةِ وَوَثَبَ بِٱلْأُخْرَى إِلَى ٱلْهِنْدِ

وَلَا يَدْخُلُ ٱلزَّائِرُونَ ٱلْخَيْمَةَ بَلْ يَقِفُونَ خَارِجًا يَتَفَرَّسُونَ بِٱلْأَثَرِ ثُمَّ يَنْحَنُونَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَيَرْفَعُونَ رَاحَاتِ أَيْدِيهِمْ ٱلْمُطْبَقَةِ مَعًا فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ . وَيَهْمِسُونَ (١) فِي خِلَالِ ذٰلِكَ صَلَاةً ثُمَّ يُقَدِّمُونَ قَرَابِينَهُمْ فَيَأْخُذُهَا ٱلْكَاهِنُ وَيَضَعُهَا بِضْعَ دَقَائِقَ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْأَثَرِ . ثُمَّ يَهْبِطُ ٱلزُّوَّارُ عَنْ تِلْكَ ٱلْقِمَّةِ قَلِيلًا وَيَأْخُذُ أَحَدُهُمْ كِتَابًا دِينِيًّا وَيَقْرَأُ لِلْجُمْهُورِ بِصَوْتٍ جَهِيرٍ

أَمَّا ٱلْهَدَايَا فَيَأْخُذُ أَكْثَرَهَا رَئِيسُ ٱلْكَهَنَةِ ٱلْمُقِيمُ فِي كَانْدِي حَاضِرَةِ (٢) سِيلَانَ وَٱلْبَاقِي يَأْخُذُهُ ٱلْكَهَنَةُ ٱلْمُقِيمُونَ فِي ٱلْخَيْمَةِ . وَلَا يَسْكُنُ هٰؤُلَاءِ دَائِمًا عَلَى ٱلْجَبَلِ لِأَنَّ قِمَّتَهُ مُغَطَّاةٌ بِٱلْغُيُومِ ٱلْمُتَلَبِّدَةِ فَيَتَعَذَّرُ ٱرْتِقَاؤُهُ شِتَاءً . بَلْ تَقْصِدُهُ ٱلزُّوَّارُ صَيْفًا فِي صَفَاءِ ٱلْهَوَاءِ وَحِينَئِذٍ تَسْتَطِيعُ ٱلْكَهَنَةُ ٱلْمُكْثَ فِي ٱلْخَيْمَةِ

وَٱلنُّزُولُ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْجَبَلِ أَعْسَرُ مِنَ ٱلصُّعُودِ عَلَيْهِ لِأَنَّ لَيْسَ لِطَرِيقِ ٱلْإِيَابِ (٣) مَوَاطِئُ كَٱلَّتِي فِي ٱلذَّهَابِ . لٰكِنَّهُمْ يُدَلُّونَ سَلَاسِلَ حَدِيدِيَّةً يَتَشَبَّثُ بِهَا ٱلْقَوْمُ فِي نُزُولِهِمْ . فَإِذَا

تَطَّلِعَ ٱلنَّاظِرُ بِمَا تَحْتَهُ عَرَاهُ ٱلدُّوَارُ (٧) وَلَاحَ لَهُ كَأَنَّ ٱلطَّرِيقَ مُعَلَّقَةٌ فِي ٱلْهَوَاءِ

(١) قلة الجبل (٢) رأس الجبل (٣) عالية (٤) ينكشف ويظهر (٥) يتكلمون بصوت خفي (٦) مدينة (٧) الرجوع (٨) (دوخة)

الفيل

١

اجمع علماء الطبيعة على ان الفيل اذكى جميع الحيوانات فطنةً ونباهةً. وفيهِ من اثهم ما يقبل بهِ التأديب ويفعل ما يأمرهُ بهِ سائسهُ من السجود للملك الى غير ذلك خيرًا او شرًّا في حالتي السلم والحرب

ومن اخلاقهِ انهُ يقاتل بعضهُ بعضًا والمقهور يخضع للقاهر. وقد يمرُّ بالانسان فلا يشعر بهِ لخفة خطوهِ واستتابهِ. غير ان الناظر الى ظاهر هيئتهِ وشكلهِ يحكم عليهِ بالبلادة. فجثتهُ الضخمة(١) وجلدهُ الاسمط العاري من الشعر وقوائمهُ الغليظة التي كأنها لم تُخلَق للحركة وصغر عينيهِ وسعة اذنيهِ المسترخيتين كل ذلك يدل على اتصافهِ بالبله. ولكنَّا اذا اعتبرنا خصالهُ ظهر لنا خلاف ذلك وعجبنا من نباهتهِ وفهمهِ الغريب

والفيل اقدر جميع ذوات الاربع واكبرها. وليس البطش والاذى من طبعهِ بل هو رزين الخُلق حليمٌ جريءٌ يبذل قصارى الجهد في الدفع عن نفسهِ وعن صاحبهِ. ومن طبعهِ المؤالفة والمؤانسة. واذا تكتّب إجالاً(١) كان اعظمها فطنةً مدبّرًا لها وقائدًا فتطيعهُ وتؤدي لهُ الولاء وتفديهِ بارواحها. وهو يهتمُّ

بامورها ويحافظ على نظامها ويرود لها المياه وينفرد وحده احيانًا بغية المكاشفة



واتقاء الخطر . ويذود[١] عنها العدو ويبدي نحوها انعطافًا وعناية ليست باقلّ من ولائها[٢] وخلوصها

واذا سارت الفيلة سربًا اعتصرت[٤] في رحيلها اغصان الشجر . واذا

دخلت مزرعةً لا تلبث حتى تفسد الحرث . ولا يكاد يصرفها عن غارتها عدد وافر من العساكر المتسلحة الأ ان القنّاصين يطاردون ما كان تائهاً منها ولا بدّ لهم من اعمال السلاح والحيلة لبلوغ الارب. لان القنّاص اذا اخطأهُ ولم يمكنهُ الهرب هجم عليهِ عدواً فضربهُ او لاً بنابهِ ثم تناولهُ بخرطومهِ ورمى بهِ في الجوّ وراقب سقوطهُ حتى يدوسهُ ويقتلهُ

ومن طبع الفيلة ايضاً المكث على شواطئ الانهار وفي الاماكن الندية والتحصُّن في الغياض الكثيفة. وفي تكدّر الماء قبل ان تشربهُ وكثيراً ما تخزنهُ في خراطيمها ثم تنشبهُ اما للعب او لتثأر ممن اساء اليها فينطلق انطلاق الشؤبوب . قيل ان فيلاً كان سائراً وحدهُ في اسواق مدينةٍ فمد خرطومهُ الى دكان خيّاط فنخسهُ احد الصنّاع بابرة ليسلّي نفسهُ واصحابهُ . فوطّن الفيل ذاتهُ على الانتقام فعمد الى بركة قذرة وملأ منها خرطومهُ ورجع الى الدكان واطلق ما فيهِ على الصانع الذي اذاهُ ونفى عنهُ ما لحقهُ من العار

ووجود الفيلة في افريقية على ما يُظَنّ اكثر مما في سواها. غير ان مجانسها في اسيا اكبر واعظم واوفر نفعاً لبني آدم وخصوصاً في الهند فانها تُدرَّب وتُضرى على الشغل والحركة في حالتي السلم والحرب على افضل نظام . وتُباع حسب ضخامتها والوانها . والابيض منها يعبدهُ اهل بورما وسيام كالاله سبحانهُ . وهناك يأوي القصور الفسيحة ويأكل الطعام الانيق ويُعيَّن لخدمتهِ ضبّاط من كبراء رجال المملكة بل قد تُفرَز لاعالتهِ كورة برمّتها . ولا يحسبون عرش الملك الرفيع كاملاً بدونهِ

قيل ان اربعة قرديين عثروا في سيام على فيل ابيض فكافأهم الملك بأن اعطى كلاً منهم الفين وخمس مئة ريال ووظائف والقاباً وعقارات. وقال احد السيّاح "بينما كنت في مدينة جافا انبأ القوم الملك بوجود فيل ابيض ولكن لا يمكن امساكهُ بدون اتلاف عشرة آلاف زنبيل ارزّ . فاجاب جلالتهُ وما هي العشرة الآلاف الزنبيل بالنسبة للفوز بفيل كريم كهذا . ثم اصدر امرهُ على الفور

بامساكهِ". وتقطن الافيال البيض احياناً في هياكل نفيسة يخدمها الكهنة والعظماء وتوضع في اعناقها السلاسل الذهبية المرصعة بالحجارة الكريمة وتُجلجِل(٥) عليها الاجراس الفضيّة. وتفرش الفتيات الجميلات الازهار تحت مواطئ اقدامها عند سيرها في المواكب والحفلات. وتُكسى بالانسجة الذهبية والمطرزات الارجوانية. هذه حياة تحسدها عليها سائر افيال اسيا وافريقية بل كثيرون من البشر

ثم ان الفيل متى انقاد كان اطوع وألين جانباً من جميع الحيوانات. ومحبته لسائسه اجدى العِبَر. فترى حينئذٍ ان غاية حياته ليست الاَّ لخدمة صاحبه وطاعته. ويسهل تعليمه بأن يُناخ لمُمتطى(٦). ويتودَّد الى من له به معرفة. ويسمح لمدبِّره ان يركب على عنقه ويسوقه بعصاً من حديد. وفي الغالب تكفي كلمة واحدة منه لحثِّه على السير. اما الغريب فهيهات ان يطيعه

وكانت ملوك الشرق قبل اختراع البنادق والمدافع يحملون ذخائر الحرب على الفيلة المُضرّاة ويحاربون عليها في شبه مركبات او هوادج او محفّات(٧). اما الآن فأخصّ قنيتها بغية التفاخر والمباهاة او لكونها قوية على حمل الاثقال اذ ليس صنف من الحيوان يطيق الحمل اكثر منه. فان له قدرة على ان يجرّ من ثلاثة آلاف رطل الى اربعة آلاف وعلى خرطومه وحده الف رطل. واذا حُثَّ على السير مشى في اليوم الواحد مئة ميل تقريباً اما معدله فخمسون او ستون. واهل الهند يعلّمون الفيلة الفتك بالمجرمين والانتقام منهم فتمزقهم بخرطومها او تنشب فيهم انيابها. ولكنها لا تميل الى ذلك طبعاً فهي انما تفعله قسراً اطاعةً للامر

---

(١) قطعاناً (مختصاً) بالسباع (٢) يدفع (٣) المحبة والنصرة والقرب (٤) اكلت (٥) تحرّك وتصوّت (٦) يركب (٧) مركب للنساء كالهودج

الفيل

٣

ولا يخفى ان للفيل نابين عظيمين بارزين من فكهِ الاعلى يستخدمهما للدفاع طولهما نحو عشر اقدام وهما حادَّان جدًّا حتى يستطيع بهما ثقب اصفق (١) جلد واغلظه. وهذا هو العاج الثمين الذي يستخرجهُ القنّاصون ويبيعونهُ باثمان عالية. وهو علة صيدهِ الكبرى. فاذا اسعد البخت قنّاصاً وفاز بهذه الغنيمة حسب نفسهُ قد استعاض عوضاً نفيساً عن جميع ما لقي من النصَب (٢) بل عن الخطر في قنصهِ. قيل ان الفيل يعيش اكثر من مئة سنة

اما خرطومهُ فعجيب التركيب جزيل الفائدة ولهُ ثلاث منافع كبرى. اولها حاسة الشمّ فهو كناية عن انف مَرِن مستطيل يمكّنهُ من شمّ الطعام المحجوب عن بصرهِ فيختار افضلهُ بل يشتمّ بهِ عن بعدٍ رائحة الضواري والبشر فيتقي الخطر. والثانية امتصاص الماءِ ارواءً لصداهُ (٣) . والثالثة كونهُ لهُ بمنزلة اليد فيتناول بهِ ما يشاءُ حتى الابرة والدبوس

واما طعامهُ فالاثمار والحنطة والبزور واغصان الاشجار ولهُ ميلٌ خاصٌّ الى المواد الحلوة السكَّرية

ومن صفاتهِ انهُ يحذّر بعضهُ بعضاً عند دنوّ الخطر باصوات خاصّة. وتبلغ الرقباءُ الحنبيه لرفاقها بأن تصوّت صوتاً يحاكي تغريد الطيور

وتهاب الفيل سائر وحوش الغاب وتحترمهُ كل الاحترام ولا ينازعهُ احدٌ في سبيلهِ حتى الاسد نفسهُ لا يأبى الانحراف عن الطريق واخلاءَ مكان لمرورهِ. والنمر يتسلّق الاشجار عند سماع وطءِ قدميهِ. واذا وردت وحوش الغاب ماءً لارواءِ ظمإِها ولمحت الفيل ابتعدت عنهُ واخلت لسيّد الغاب هذا سبيلاً. فتهزّ الزرافة عنقها وتصيح صياح الفرَق. ويعدو وحيد القرن كأنهُ

للوقوف على الحقيقة ومتى انجلى له الامر ركض يعدو من بأس الفيل. ويحوّل الفهد وجهة الى الفلاة

ولاتق الفيل انعطاف وعناية بدغافلها[٤] يُحجَب منها. وتعاني في قطعها مشقةً لا توصف. والفيلة البرّية تأتلف عراجل[٥] عددها من عشرين الى ثلاثين. ولهذه القطعان مع بعضها علائق وديّة. وقد تمتزج معاً بغية المعاشرة والالفة فيبلغ عددها مئتين او ثلاث مئة. واذا دهمها عدوٌ انبأ قائد كل قطيع جيشهُ فزحف بانتظام وترتيب وحارب حرب الابطال

وقد يوجد بين الفيلة فيلٌ وحيد طريد منفي تمقتهُ سائر الافيال وتجانبهُ. وهو في الغالب جميلٌ بهيُّ الطلعة نفيس العاج. ويُظَنّ ان علة طردهِ انهُ كان ملكاً عاتياً ظالماً ثارت عليهِ رعيّتهُ وخلعت عنها طاعتهُ. او كان شريراً قتل احد انسبائهِ او جار على رفاقهِ وتعدّى عليهم. ومهما يكن ترَ هذا الفيل ضد الجميع والجميع ضدّهُ. ولكنها لا تسيء معاملتهُ بل ترغمهُ على الاعتزال عنها بل قد تشرب معهُ وتغتسل في بركة واحدة. انما لا تسمح لهُ باجتياز هذا الحدّ. فلا تأتلف معهُ قط ولا تعاشرهُ بل تصرُّ على جفائهِ. واذا صِيد منها في وهق[٦] واحد ودنا منها اتحدت معاً على ابعادهِ بالقوة. واذا تجبرّاً في الفلاة وقصد الاختلاط معها قاتلتهُ الى ان ترغمهُ على الانزواء والانفراد

ولقنص الافيال اساليب شتّى. منها انهم يسيّجون مكاناً فسيحاً بقضب الخيزران المتينة ويفتحون لهُ باباً للولوج وباباً آخر للخروج. غير ان الباب الثاني لا يؤدّي الى الفلاة بل الى محلّ ضيّق لا يستطيع الفيل فيهِ حراكاً. فمتى دخل هذه الزريبة ركض للخروج من الباب الثاني فيُحبَس في ذلك المحبس الضيّق فيوصدون عليهِ الباب. ومتى وردت الافيال الماء لارواء ظمئها علم القنّاصون مكان ورودها وزمانهُ فشادوا هذه الزريبة في سبيلها. ثم متى شعروا بقدومها اضرموا ناراً شديدة حول ذلك المقنص ودربوا[٧] بالطبول ونفخوا بالزمور فتُذعَر الافيال وتعدو هائمة على وجوهها. ولا ترى سبيلاً الاّ من ذلك

الباب المفتوح فتدخلهُ ولكنها لا تتمّ حتى تقع في الشرك فتهيج وتزبد وتخبط وتحاول كسر الاوتاد انما على غير طائل . ومتى هدأ روعها قليلاً ادخلوا اليها فيلاً مدرّباً اليفاً فيأخذ بمؤانستها وملاطفتها الى ان يسكن جأشها (٨) فتلين وتُقاد للخدمة مع رفيقاتها

وقد اجاد الشاعر بوصف الفيل بقولهِ

تلقاهُ عند قديم الدوح متّكئاً حليمُ طبعٍ عظيمُ الخُبْرِ والخَبَرِ
كأنهُ ملكٌ حفّتْ بهِ خولٌ قامت لهيبتهِ في احسن الصُوَرِ
حيثُ الظلالُ على نيقارَ قد حجبتْ عن حسن مرآهُ عين الشمس والقمرِ
وحيثُ طاهر ماء الكنكِ قد ذهبت امواجهُ بذنوب الهند والقذرِ
وحيثُ مُزدحمُ الآجام تحسبهـــا جيشاً تكتّبَ تكتيباً الى الظفرِ
هناك يرتع ذو الخرطوم في دعةٍ سلمُ الجميع جليل القدر والخطرِ
اذكى البهائم قلباً وهو أقدرُها وما بهِ لعباد الله من ضررِ
هناك ينظرُ دولَ الدهرِ عاصفةً صروفُهُ بملوك الارض والبشرِ
يرى الممالكَ قد قامت وقد قعدت بينا هيَ الصفوُ اذ باتت على كدرِ
فما يبالي بمكر الناس تقصدهُ للفتك مكرًا لذا امسى على حذرِ
ظنوا انجبارَهُمُ في كسر اعظمهِ تحاولوهُ فبئسَ الحصرُ من وطرِ
تاهوا بتيههـــهِ جهلاً فما عقلوا وهيبوهُ وما الداعي سوى الأشَرِ (٩)
يا سعدهُ إن توارى عن دهائهمِ اذًا لباتَ بملكٍ غيرِ ذي خطرِ

او كما قال ابن حسن الجوهري

فيلٌ كرضوى (١٠) حين يلـــبسُ من رقاق الغيم بردا
مثلُ الغمامةِ مُلئت آكنافها (١١) برقاً ورعدا
ورأسٌ كقلّةٍ (١٢) شاهقٍ كُسيت من الخيلاء جلدا

فتراهُ من فرط الدلا ل مصعرًا(١٢) للناس خدّا
يزهو بخرطومٍ كمثـــلِ الصولجان يُرَدُّ رداً
يسطو بباريتي لُجين يحطمان الصخرَ هدّا
أُذناهُ مروحتانِ أُسندتا الى الفودين(١٤) عقدا
عينـــاهُ غائرتانِ طَبَّـــقتا لجمع الضوء عمدا
فكٌّ كفُوَّهة الخليجِ يلوكُ طول الدهر حقدا
تلقاهُ من بعدٍ فتحـــسبهُ غماماً قد تبدّى
متناً كبنيانِ الخورنق ماثلاً في الدهر كدّا
ردفاً ككدكدةٍ عنبرٍ متماثل الاوراك نهدا
ذنباً كمثل السّوطِ يضـــرب حولهُ ساقاً وزندا
يخطو على أمثالِ اعمدة الخباء اذا تصدّى
او مثل اميالٍ نُضِدْنَ من الصخور الصمِّ نَضْدا
متوارداً حوض المنيّـــةِ حيث لا يشتاق وردا
متملّكاً فكأنّهُ متطلّبٌ ما لا يؤدّى
متلفّعاً(١٥) بالكبرياء كأنّهُ ملكٌ مُفدّى
أدنى الى الشيءِ البعيد يُراد من وهمٍ وأهدى
اذكى من الانسان حتـــى لو رأى خللاً لسدّا

---

(١) ضد خفيف وفي الدارج اسمك (٢) تعب (٣) عطش
(٤) اولاد الفيل (٥) قطعان الفيلة (٦) الحبل في طرفيهِ انشوطة
(٧) ضربوا (٨) رواع القلب عند الفزع (٩) المرح والبطر
(١٠) جبل بالمدينة (١١) جوانبها ونواحيها (١٢) رأس الجبل
(١٣) ميلاً عن نظر الناس تهاونًا (١٤) معظم شعر الراس مما يلي الاذن
(١٥) مشتملاً ومغطى

النمر في سيلان

سيلان جزيرة بديعة يضوع[١] في هوائها الرخيم أرَج[٢] الازهار العطرية وتزهو فيها الرياض والحدائق والغياض وتتدفق على حصبائها[٣] الينابيع والانهر. وترتفع في اقاصيها الاطواد الشمّاء المسمّاة الجبال الزرقاء حيث يلجأ القوم ايام الحرّ والقيظ فيترطبون ويهنأون

وتكثر الوحوش الضارية في هذه الجزيرة . غير انهٔ منذ دخلها رجال اوربا اخذوا يقتصون تلك الوحوش ويفتكون بها فتكًا ذريعًا فلا يلبثون حتى يفنوها ويريحوا الناس من شرّها

ومن هذه الوحوش النمر وهو اشدّها فتكًا وبطشًا وموطنهٔ الغابات حيث تكثر الاجم النباتية والبردي[٤] والحلفاء . فهناك يكمن في وجاره ويترصد فرائسهٔ فيربض على الارض حتى لا تكاد تراهُ ويدبّ في الدغل دبيبًا لا تسمع معهُ وطء قدميهِ . فالويل للحيوان الذي يسوقهٔ شؤم الطالع الى ذلك المكمن فانهٔ لا يعلم بوجود النمر حتى يثب عليهِ ويفترسهٔ

والقوم في سيلان يخشون بطش النمر جدًّا واذا علموا بكمونهِ في ضواحي القرية لا يهدأ لهم قرار حتى يقتصوهُ ويتّقوا ضررهُ . وقد يذهبون لقنصهِ على ظهور الافيال . فيضعون عليها مركبة تشاكل الهودج يتسلّح ركّابها بالبنادق والحراب . غير انهم يدرّبون الفيل قُبيل ذلك ويمرّنونهٔ بأن يضعوا امامهٔ نمرًا مصبّرًا ويأمرونهٔ بدوسهِ تحت قدميهِ . غير ان الفيل يُذعَر جدًّا من النمر وربما فرّ عند نظرهِ حيًّا وان اقبل القوم على تعليمهِ

ومتى بلغ القنّاصون الغاب وعلم النمر الكامن قدومهم انسلّ وتوارى. ولكن اذا كان جائعًا او أُطلقت عليهِ بندقيّة فجرحتهُ وثب بزأر زئيرًا مرعبًا يريع الفيل فيحاول الفرار. غير ان راكبهُ يرغمهُ على التقدم ومهاجمة النمر

ويخاف الفيل من ان يضرّ النمر بخرطومهِ فيرفعهُ في الهواء ويضربهُ بهِ ضربة تصرعهُ الى الارض . غير ان النمر لما كان خفيف الحركة سريع الوثوب



يقفز كالهرّة وقد ينشب على جانب الفيل ويتعلَّق بهِ بمخالبهِ . واذ ذاك تشتدُّ ازمة⁽٥⁾ الخطر على الراكب لان النمر يثب في لحظةٍ الى وسط الهودج . غير ان الرجال يكونون قد هيأوا بنادقهم وحرابهم . فيطلقونها عليهِ في الحال فيخر صريعاً . اما الفيل فيعروهُ الفرَق⁽٦⁾ والهلع فلا يتجرأ على حمل النمر على ظهرهِ وان كان قد أُصيب بالرصاص وامسى جثةً لا حياة فيها ولا حراك

وكما ان للاسد بعض اخلاق الكلب المحمودة كذلك للنمر ما للهرّ من الاخلاق الذميمة والطباع الخبيثة . ويشبههُ ايضاً في الهيئة والخلقة مشابهة شديدة غير انهُ اكبر منهُ جثةً وقدراً . وهو وان يكن ارعب ذوات الاربع لكنهُ احسنها منظراً واخفها حركةً . فنعومة شعرهِ البهي وانسدال خصلهِ الحالكة على ظاهر

جنبهِ ذات الصفرة الفاقعة لمَّا تعجب الناظر وتشوّقهُ ان سلم من غوائل فتكهِ.
فكأن الحكمة الربّانيَّة تعلّمنا في ما خصَّت بهِ هذا الحيوان المغتال من حسن
الشكل والرونق ان الملاحة والجمال اذا لم يكونا في الجوهر واللذات كانا قليلَي
الجدوى. وهذا الحيوان مما اختصَّت بهِ اسيا واكثر وجودهِ في الهند الشرقية.
ولا يؤثّر في قساوة طبعهِ قسر او ملاينة. وسواءٌ على خبثهِ ان ينهش يد مطعمهِ
او مغذّيهِ. والمتبادر من ظاهر منظرهِ انهُ ليس شرساً ولا غضوباً. ولكن قد عُلم
بالتجربة انهُ اعظم جميع الحيوان بطشاً واشدهُ توحّشاً

ومن طبعهِ الكمون بين الاشجار التي على حافة النهر واقتناص ما يعنّ لهُ
من الحيوان ويدركهُ بخفّة غريبة ولو على امد بعيد. واذا اخطأ طريدتهُ رجع
خازياً. واذا فاز حمل قنيصتهُ غير مكترث بثقلها وان تكن حيواناً ضخماً كما
يحمل الهرُّ الفارة

والذي عُلم من اخلاقهِ ما لم يُعهَد في اخلاق الاسد اللؤْم والعنف والجبن
اذا دُهش وحُرم من مقصدهِ. وصيد هذا الحيوان عند بعض امراء الهند مع ما
لهُ من البأس والقوة لهوٌ مستحبٌّ. وجلدهُ غالٍ ولاسيما في الصين لانهُ يُفترَش
على كراسي القضاة فيجلسون عليهِ

---

(١) تنتشر رائحتهُ (٢) الرائحة الطيّبة (٣) الحصى (٤) نبات
لهُ ساق طويلة تُصنَع منهُ الحصر (٥) شدَّة (٦) الخوف

النخل السيلاني او شجرة الخبز

لهذه الشجرة الكريمة جذع طويل مستقيم يرتفع الى علوّ مئتي قدم. واوراقها
جميلةٌ خضراء تحاكي المروحة تنفتح وتُطبَق نظيرها. ومتى تمّت الورقة كانت

كبيرة جدًّا حتى يستطيع ثلاثون رجلاً التظلل تحتها . وهي ليست مع ذلك ثقيلة الوزن بل يمكن رفعها بكل سهولة . ولذلك تصلح ان تكون مظلّة حسنة. فيستعملها العساكر السائرون في تلك الانحاء فتظلّهم من المطر ومن حرّ الشمس

وهذه الاوراق صفيقة متينة حتى لا يخرقها الغيث وإن هطل سيولاً فهي بمنزلة المشمَّع . ولذلك ترى سيّاحًا ومسافرين كثيرين ينشرون ورقة من هذا النخل على اوتاد ويتظللون تحتها. وقد جرت العادة في سيلان قديمًا ان تُحمَل اوراق هذا النخل امام الكبراء والاعيان علامةً على رفعتهم وسموّ مقامهم . وكانوا يحملونها مطبوقة كمروحة . ولهذه الشجرة نفعٌ آخر عظيم وهو كون لبّها يشبه دقيق الحنطة فيستخرجونه ويصنعون منه خبزًا حسنًا

ولا تحمل هذه الشجرة ثمرًا الى السنة الاخيرة من حياتها . فينبت في رأسها حينئذٍ عذق[١] ازهار صفراء جميلة تنتشر اغصانًا كثيرة . ولبراعم[٢] هذه الازهار قشور او اغلفة متى اوشكت البروز تشقّقت بفرقعة شديدة وظهرت الازهار. انما يعبق منها رائحة قوية لا يستطيع مدانيها استنشاقها ولذلك يقطعون الشجرة قبل تفريخها

(١) قنو او كباسة من النخلة او العنقود (٢) كِمّ ثمر الشجر او زهرته قبل ان تتفتح

الطائرُ الدنّانُ

لِهٰذَا ٱلطَّائِرِ ٱلْجَمِيلِ أَكْثَرُ مِنْ عِشْرِينَ نَوْعًا . أَمَّا مَوْطِنُهُ فَفِي غَابَاتِ ٱلْبِلَادِ ٱلْحَارَّةِ فِي ٱلْهِنْدِ وَأَمِيرِكَا . وَلَهُ مِنْقَارٌ

ينتهي بطرفٍ شبيهٍ بالّولب . ولسانهُ كالخيطِ ورجلاهُ مطاوِعتانِ للمشي . أمّا حجمهُ فليس واحدًا فقد يكونُ أكبرهُ بحجمِ النّبنبةِ وأصغرهُ بحجمِ النّحلِ وعلى هذا يكونُ أصغر ذواتِ الجناحِ

وريشُ هذا الطائرِ بهيُّ اللّونِ نفيسهُ يتلألأُ بألوانِ قوسِ قزحٍ ويسبي أبصارَ النّاظرين . وله على رأسهِ عرفٌ أخضرُ يتألّق (١) كنجمٍ صغيرٍ . ولا تكادُ تشرقُ الشمسُ حتّى ترى الدنّانَ على أنواعهِ مرفرفًا على الأزهارِ . ولخفّةِ حركةِ أجنحتهِ لا يسهلُ تمييزُ لونهِ إلّا من لمعانهِ . ودأبهُ التنقلُ من زهرةٍ إلى أخرى واستخراجُ مادّتها العسليّةِ إلى أن يشبعَ جوفهُ . ولهذهِ الغايةِ خُصّ بلسانٍ كالمِذراةِ (٢) صالحٍ لأنْ ينشبَ في أكمامِ الزهرِ

ومن طبعهِ أنّهُ يعلّقُ وكرهُ في أطرافِ الأغصانِ والعساليجِ (٣) بإتقانٍ بديعٍ ويحشوهُ حشوًا ليسَ على إحكامِ صناعتهِ من مزيدٍ . وهو خفيفٌ كريشةٍ ومدلّى في الهواءِ كأكياسٍ صغيرةٍ . أمّا بيوضهُ فقدرُ حبّةِ الحمصِ وبيضاءُ كالثلجِ . ولا تزيدُ عن اثنتينِ . ويعاونُ الذكرُ الأنثى

فِي الحِضَانَةِ . وَتَنْقُفُ بَعْدَ ٱنْقِضَاءِ ٱثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا مِنْ وَضْعِهَا. وَتَكُونُ حِينَئِذٍ بِقَدْرِ ٱلذُّبَابَةِ ٱلزَّرْقَاءِ

وَيَأْكُلُ هٰذَا ٱلطَّائِرُ أَحْيَانًا ٱلْهَوَامَّ ٱلْمُخْتَبِئَةَ فِي قَاعِدَةِ ٱلزَّهْرِ . فَمَتَى لَمَحَهَا بِعَيْنَيْهِ ٱلْبَرَّاقَتَيْنِ أَنْشَبَ لِسَانَهُ بِهَا فَتَلْصَقُ بِهِ لِأَنَّ فِي لِسَانِهِ مَادَّةً لَزِجَةً[(١)] تُشْبِهُ ٱلْغِرَاءَ فَيَتَلَقَّفُهَا فِي فِيهِ وَيَبْلَعُهَا ثُمَّ يُنْشِبُ لِسَانَهُ عَلَى أُخْرَى وَهُوَ حَائِمٌ حَوْلَ ٱلْأَزْهَارِ يَدِنُّ بِجَنَاحَيْهِ . وَمَتَى فَرَغَ مِنِ ٱلْتِقَامِ ٱلْهَوَامِّ مَصَّ قَلِيلًا مِنَ ٱلْعَسَلِ وَعَادَ إِلَى عُشِّهِ .

فَإِذَا زُرْتَ دَوْحَ هٰذَا ٱلطَّائِرِ شَمِمْتَ عَبِيرًا[(٥)] بِعِطْرِ تِلْكَ ٱلْأَرْجَاءِ وَرَأَيْتَ ٱلْأَزْهَارَ ٱلْبَدِيعَةَ ٱلْغَرِيبَةَ ٱلْأَشْكَالِ تُزَيِّنُ ذٰلِكَ ٱلْأَيْكَ[(٦)] مِنْهَا بِصُورَةِ ٱلنَّحْلِ أَوِ ٱلْفَرَاشَةِ أَوِ ٱلْقِرْدِ أَوِ ٱلنَّمْسِ . وَٱلْأَشْجَارُ ٱلْغَضَّةُ تَمُوجُ وَتَتَمَايَلُ بِأَغْصَانِهَا ٱلْخَضْرَاءِ مَعَ ٱلنَّسِيمِ . وَهٰذَا ٱلطَّائِرُ وَأُلُوفٌ غَيْرُهُ تَتَلَأْلَأُ بِأَلْوَانِهَا ٱلنَّفِيسَةِ بَيْنَ تِلْكَ ٱلْغِيَاضِ وَتَنْجُعُ سَجْعًا يَأْخُذُ بِمَجَامِعِ ٱلْقُلُوبِ فَتَشْمَلُ طَرَبًا مِنْ هٰذَا ٱلْمَشْهَدِ ٱلْبَدِيعِ

(١) يلمع (٢) خشبة ذات اطراف كالاصابع تُنقّى بها الاكداس (٣) ما لان واخضرّ من قضبان الشجر (٤) دبِق وغَرَويّ (٥) اخلاط من الطيب (٦) الغيضة والشجر الملتفّ الكثير

البنيان

ان اصل هذه الشجرة العظيمة بزرة صغيرة تقذف بها طائر من رأس ورقة من اوراق النخل الجميلة النابتة في ادواح الهند . ثمّ فرّ وغادرها ملقاة كأنها قد نُسِيت. ثم اخذت تفرّخ بفعل حرارة الشمس ورطوبة الامطار فنبت لها جُذَير ثم آخر ثم آخر الى ان ثبتت وتمكّنت في اطراف تلك الاوراق السوداء البديعة . فكانت شجرة النخل موطنها ومنبتها الوحيد . ثم اخذت تلك الجذور بالنمو والتدلي والالتفاف كشبكة حول شجرة النخل القائمة في الدوح تزهو بقامتها الرفيعة وتباهي باغصانها الغنّاء . ولكن منذ تشبثت بها تلك الجذور وضبطتها بقوّة لا تقوى على فصلها انقطعت العصارة المغذّية عن السريان في اعضائها واخذت تحني وتخفض رأسها الرفيع وقد زالت نضارتها . وما فتئت الجذور ممسكة بها الى ان بلغت الارض ورسخت في التراب كالنخلة في سالف عهدها. اما الآن فقد انقضى اجلها وقامت مقامها جذور البنيان. وتلك الجذور من فصيلة تين يُدعى بهذا الاسم . وهذه الدوحة[1] غاية في الغرابة لانها لا تنبت كسائر الاشجار بل تنمو على اسلوبين مختلفين متميزين احدهما بالقاء الطيور البزر كما اسلفنا الكلام . وثانيهما بوسيلة تفوق الاولى غرابةً . وذلك بأن تتدلى منها حين بلوغ الشجرة النمو الكامل فروع وعساليج تلوح اولاً في الهواء ثم تنمو تدريجيًا الى ان تمسّ التراب . فيضرب كل عسلوج جُذَيرهُ في الارض ويمسي ساقًا تغلظ وتصلب على مرّ الزمان . ثم تتدلى غيرها وبصيبها ما اصاب الاولى ويدوم ذلك اعوامًا الى ان تبلغ الشجرة حجمًا عظيمًا جدًّا وتنتشر اغصانها الى مدًى بعيد فقد يكون للدوحة الواحدة مئة ساق بفروع متولدة منها يتظلل تحتها سبعة آلاف رجل او يزيد. وهي بركة كبيرة لابناء السبيل في تلك البلاد الحارة لانهم يتظلّلون تحتها من هجير[2] الشمس ولظاها

والهنود مُغرَمون بهذه الشجرة ويرغبون في اغانيها. فيحزمون على الاغصان عشباً مبلولاً فتسبب الرطوبة للعسلوج نموًّا . ثم يصنعون له غلافاً صغيراً من الخيزران فيحنيهِ الى الارض حيث لا يعتمّ ويتأصل فيكون اولاً كحبل دقيق

وكثيراً ما يصنع الراعي خيمة من شجر البنيان اتقاء حرّ الشمس. فيحوك الاغصان معاً ويملأ الفسحات الخالية بين سوق الشجر . وفي وقت قصير يصنع لنفسهِ خيمةً حسنة يستظل بها يراقب قطيعة المتجع (٣) الكلأ (٤) والرابض تحتها

(١) شجرة كبيرة (٢) شدة الحرّ (٣) راعي او آكل (٤) عشب

الرتيلاء القانصة الطيور

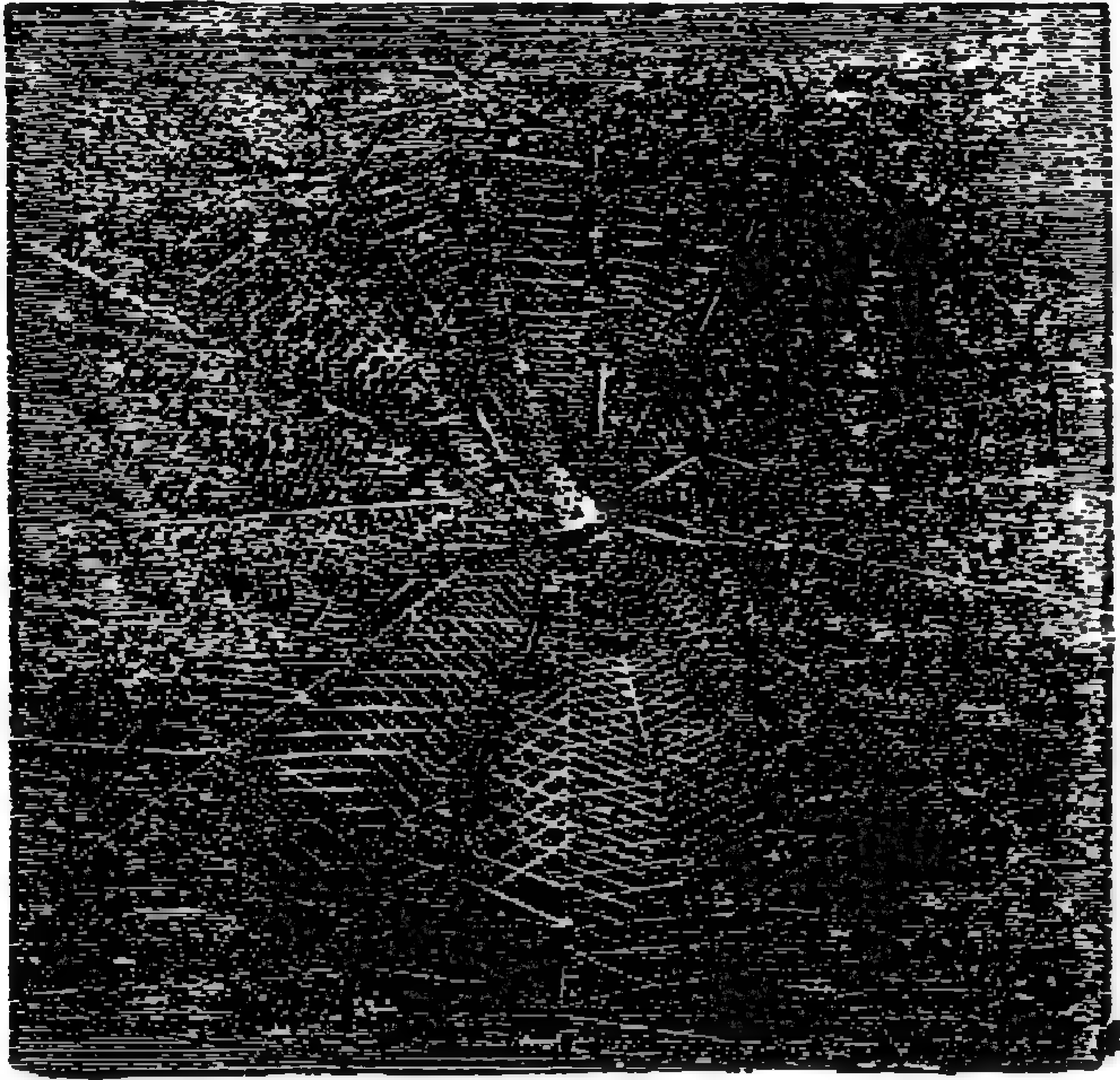
ان هذه الرتيلاء الكبيرة عدوّة الطائر الدنّان اللدود . فتنصب له شركاً اذا سقط فيهِ هيهات ان يسلم . وهذا الشرك من نسيجها القوي الذي تحوكهُ . وهي تصنع لنفسها وكناً تقطن فيهِ وتبطّنهُ بمادة رقيقة كالحرير حيث تكمن لفريستها وتتأهب للوثوب على هذا الطائر بعد اشتباكهِ في شركها . وهذه الرتيلاء جبّارة بين انواعها . فترى ارجلها بغلظ ريش الدجاجة مغطّاة بشعر خشن شائك اذا مسستهُ بانامك شاكك وآلمك عدة ايام فهذا هو شركها الذي تقنص بهِ الطيور الصغيرة

ومن هذه الرتيلاء نوع لا يقتصر على الكمون في الوكن بل يجول بغية الصيد فيتسلق الاشجار ويحتجب تحت الاوراق . فاذا عثرت هذه الرتيلاء على عش الطائر الدنّان افترست فراخهُ . واذا لقيت الام آتية تنشب في الهواء

وتقبض عليها بمخالبها الكبيرة فيستحيل عليها الفرار

وهذه الرتيلاء تصيد طيوراً صغيرة أُخرى منها خاطف الذباب الذي يعلّق عشّهُ في طرف غصن او عسلوج وهو يشبه كأساً صغيرة يصنعهُ من الزغب الذي يلتقطهُ من الهواء

اما موطن الرتيلاء الكبيرة ففي الهند واميركا الجنوبية. حُكي ان احد السيّاح



رغب في احضار هذه الهوام الى وطنهِ في اوربا فسأَل بعض الاولاد امساك واحدة فاحضروا لهُ المطلوب في الغد وذلك بأَن ربطوها الى فرس وجرُّوها على الارض جرَّ الكلاب

خاطف الذباب

ان خاطف الذباب يشاكل الطائر الدنّان جمالاً وهو صغير جدًّا بقدر انملة الاصبع ولا يزيد ثقلهُ عن ريشة واحدة. فاذا جال بين زنابق الماء لا يمسّ (١) المياه واذا استقرّ على اوراق النباتات الحسّاسة لا تنحني ولا تتجعّد لعدم الشعور بثقلهِ. واذا جثم على زهرة كبيرة من ازهار المنطقة الحارّة جعلها خيمة يتظلّل تحتها

وهذا الطائر يصنع عشّهُ من زغب يحاكي القطن المندوف يتناثر من شجرة قطن حريري تنشقّ كنافجها ويطير زغبها في الهواء فيلتقطهُ ويحوك بهِ عشًّا يشبه كأسًا صغيرة منوطًا في طرف غصن او عسلوج . ولا تقوم هذه المادة مقام القطن العاديّ لرقّتها فتنتشب عليها مئات من الطيور الصغيرة وتحملها بمناقيرها الى اعشاشها فتصنع بها الاوكار ودثرها (٢)

اما حجم هذا الطائر فليس واحدًا كما علمتَ في الكلام عن الطائر الدنّان فان منهُ نوعًا جبّارًا بالنسبة لسائر صنوفهِ يبلغ قدر العصفور الدوري . اما جناحاهُ فتزهوان بالوان بهيّة . فمنها اخضر زبرجدي او احمر كالياقوت او ابيض ناصع كالماس او مجموع الوان جواهر كريمة

ويأوي هذا الطائر المنطقة الحارّة ويأكل الهوام . فترى الوفًا منهُ تلمع في ايكة لا يجرأ انسان ان يسكنها لوفرة الاخطار والاعداء الكامنة بين ادغالها. لان الهواء هناك يحمل سمًّا زعافًا (٣) متناثرًا من بعض الاشجار والانجم . والافاعي والحيّات تنساب بين الاعشاب والكواسر الضارية تجول بغية القنص والافتراس. غير ان خاطف الذباب يتكاثر رغمًا عن هذه الاخطار الهائلة ويجرّ اذيال التيه والفخار

فتعاين خاطف الذباب يحوم بين سوق الاشجار البائدة والازهار العجيبة يرفرف اجنحتهُ بخفّة عظيمة حتى لا تكاد تراهُ . اما جسمهُ فساكن لا يتحرّك .

ثم ينشب منقارهُ الطويل في اعماق الزهرة فيسحب المادّة او يمصّ العسل . وهذا الطائر حادّ الخلق سريع الغضب فاذا رأى زهرة فارغة من المادة الحلوة حتى تمزّق اوراقها وتُوَحّيها قِطَعًا وتنثرها في الريح

ومن هذا الطائر نوع يصيد النحل وموطنهُ اميركا . فيقف على عسلوج او سياج بقرب خلية يراقب خروج النحل ثم يثب ويخطفها الواحدة بعد الاخرى. اما النحّال فيغتاظ منهُ لسلبهِ النحل فيأخذ بندقيتهُ ويكمن لهُ ويقنصهُ ان استطاع اليهِ سبيلاً

وهذا الطائر شديد الغيرة في حماية انثاهُ لانهُ يطرد عنها حين الحضانة كل عدوّ يجرأ على الايقاع بها . واذا كان عشّهُ في مزرعة لا يتجاسر نسر ولا صقر على الاتيان لاختطاف دجاج القرَويين فان خاطف الذباب ينشب كالسهم المارق(٤) ويمتطي ظهر النسر وينقدهُ بعنف شديد فيولّهُ ويعذّبهُ الى ان لا يرى مَندحةً(٥) من الفرار والنجاة

وهو ايضًا عدوٌّ لدود للافاعي التي تكثر في المنطقة الحارَّة . وهي سامَّة دقيقة الرأس فتنساب انسيابًا خفيفًا حتى لا تسمع لها صوتًا. وتدب بين الاوراق والاعشاب فلا تراها . والقوم هناك يخشون هذه الارقام(٦) جدًّا لانها تدهمهم على حين غِرَّة(٧). غير ان جيش هذه الطيور يروع الافعى ويدحرها على الاعقاب فمتى لح خاطف الذباب والدنّان الافعى صاتا وزعقا شديدًا . فتعلم سائر الطيور علة هذا الصراخ وتبادر جمهورًا واحدًا. فترى العنادل(٨) والزرقيقيات والدوري وغيرها مقبلة كتائب وكراديس فتأخذ معًا بطاردة الافعى وطردها. فترفع الحيَّة لسانها الشائك بدون طائل لان الطيور تحوّم فوقها وهي لا تطولها. فلا تغادر الطيور للافعى راحةً ولا سكونًا فتحاول اخفاء نفسها ولا يجديها ذلك نفعًا لان الطيور تتعقّبها تنعب وتصيح صياحًا يرمي بالصم. فكأنّها تنادي الانسان قائلةً تعال وأعِن فقد وجدنا عدوّك وعدوّنا فهلمّ نتعاضد على اهلاكهِ .

انّ الجوارح بالتنظيف تشتغلُ في اكلها جيفًا يا حبّذا العملُ

طارت الى القفر اتماماً لخدمتها | والبحرُ موردها والسهلُ والجبلُ
تقتُ فساد الاراضي وهيَ حائمةٌ | تفني الخَنَاشَ بعزمٍ ما بهِ كسلُ
يا ليتَ كنتُ كرخٍ في عزائمهِ | امسى مجداً وخُلقَ السوء اعتزلُ
أجني الأطائب لاكالرخ مرتحلاً | نحو الخبائث بل كالنحل انتقلُ

(١) تحرُّك (٢) ما يتغطى بهِ النائم (٣) المرّ الغليظ الذي لايطاق شربهُ (٤) النافذ (٥) سعة وفسحة (٦) جمع ارقم وهي اخبث الحيّات (٧) غفلة (٨) جمع عندليب وهو الهُزار

جوز الطيب وكبش القرنفل

في الهند الشرقية جزائر جميلة تُدعى جزائر الاطياب فيها منابت الاثمار العطريَّة وكبش القرنفل والقرفة وجوز الطيب الواردة من تلك الجهات

اما شجرة كبش القرنفل فبديعة المنظر تضارع شجرة الغار. وازهارها تنمو على اطراف الاغصان عنقوداً ولونها يشبه الدرَّاق. ومتى ذبلت الزهرة اخذ تُوَيجها الخارجي بالاصفرار ثم ضرب الى الاحمرار فتسقط عن الشجرة وضمنها بزرة واحدة سوداء كبيرة بيضيَّة الشكل هي كبش القرنفل فيجففونها بعد جمعها في الشمس

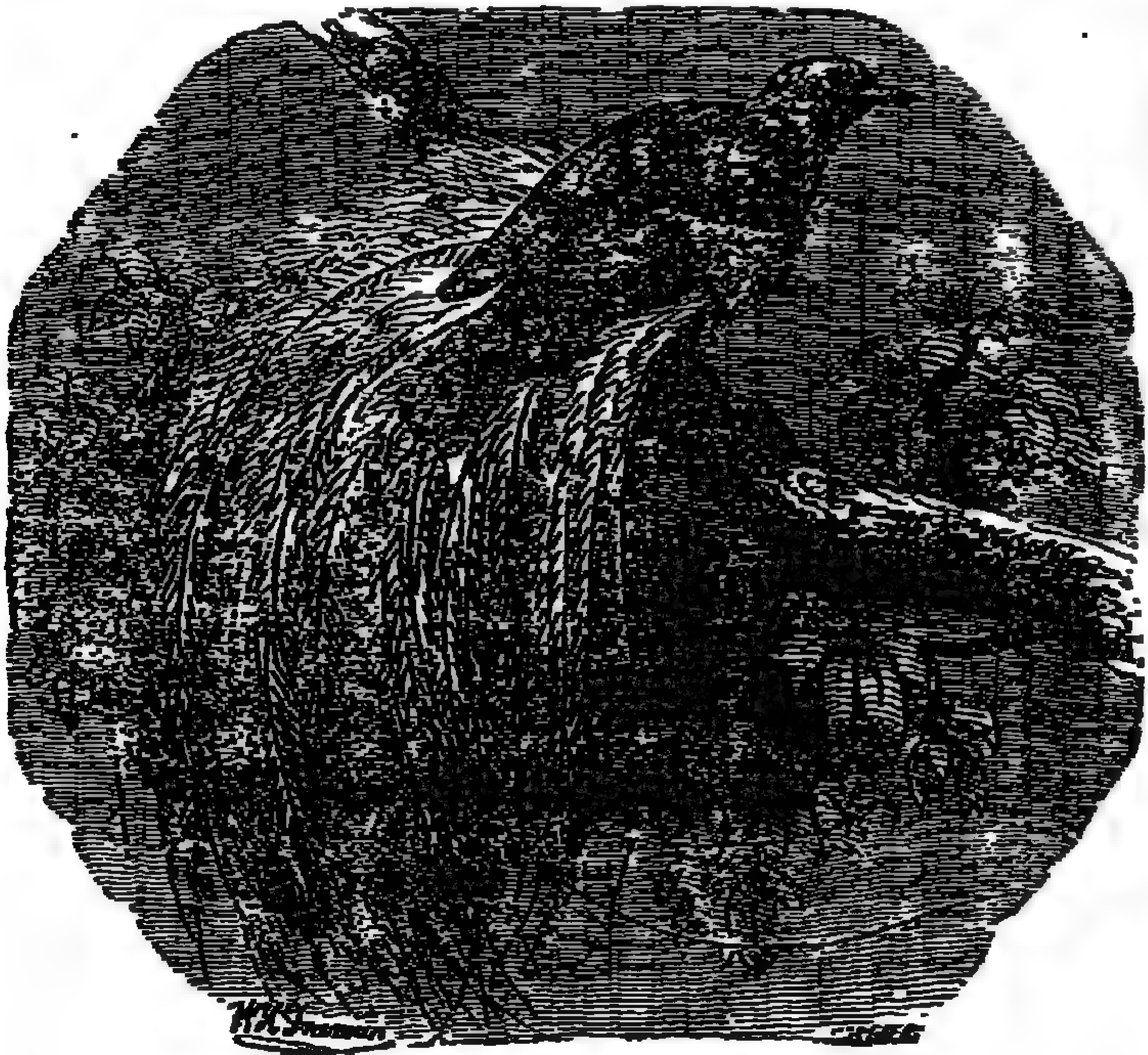
ولهذه الشجرة رائحة عطريَّة يورّج عبيرها الهواء الى مدى بعيد ولكنها لاتحمل ثمراً الى ان تعتق. فقد ينتظر مستنبت هذه الاشجار تسع سنين قبل استغلالهِ كبش القرنفل

اما جوز الطيب فيُستنبَت الآن في اماكن شتّى غير ان تربته الاصلية في جزائر الاطياب التي كانت من املاك الفلمنك. فرغب الفلمنكيون

في حصرها لانفسهم ومنع الغير من استنبابها . وقلعوا كثيرًا منها خشية كثرتها وانتشارها ومنع الغرباء عن المتاجرة بها ولكنهم لم ينجحوا في هذا المشروع

طائر الجنَّة

يقطن جزائر الاطياب هذه طائرٌ بهيٌّ نفيس يُدعَى طائر الجنَّة. وهو اجمل أشكال الطيور اجمالاً وافرادًا. ويعزُّ وجود نظيرهِ بين ذوات الريش. ولما



كان وجودهُ في اقصى الممالك الشرقية بقيت معرفتهُ ناقصة عند علماء اوربا الى ان سافر الاستاذ أسونيراتي الى غينيا الجديدة فكشف الحجاب عنهُ واتى على ذكر جملة انواع ما فات وصف الواصفين

ولا يخفى ان الشيء اذا كان بديعاً عزيز الوجود نشأ عنه اختلاف الروايات والاقاويل . فقد زعم البعض ان طائر الجنة لا يسكن الاّ الجوّ فقط وانهُ يقتات من ندى السماء ولا يقرّ على الارض اصلاً فقد نفوا بروايتهم هذه لزوم الساق لهُ. وقد اغترّ الاوربيون زماناً طويلاً بتصديق مثل ذلك . ثم لمّا رأى اهل ملقّا المتولّد عندهم هذا الطائر رغبة السيّاح والمسافرين في شرائهِ لغرابة حسنهِ ورونق ريشهِ واستدركوا ان رجليهِ لا تطابق بدنهُ البتة قطعوهما. فتأيدت بذلك اوهام الجهلاء التي اعتقدوها بعض التأبيد . ولما كان هذا المخلوق حائزاً من البهاء والحسن ما يفوق محاسن الطبيعة بوّأوهُ[1] مقاماً عالياً اكراماً لشأنهِ فاطلقوا عليهِ هذا الاسم وسيظلّ الدهر موسوماً بهِ

اما ريش هذا الطائر فناعم كالمخمل ذهبيّ اللون يتغيّر كلّما تغيّر النور. وريش ذنبهِ طويل بديع يزهو بالوان بيضاء وصفراء عسجديّة[2] تبهر الابصار. وهو نوعان يتميز احدهما في كبر الفراخ والثاني في كبر القبّرة . وكلاهما يتميزان عن سائر اصناف الطير ببهاء ريشها وخاصةً ريش اذنابها الطويلة الدقيقة. ويعلو هذا الريش في اطرافهِ زغب بارز من اعلى مؤخّرهِ وممتدّ الى ابعد من الذنب . غير ان هذا ليس بشائع في جميع انواعهِ ولكل نوع تركيب خاصّ لا يوجد في غيرهِ

ومن طبعهِ انهُ يجتمع اسراباً ويختفي الى غياض الجزائر الشرقية حيث يتوالد . ولما كانت البلاد التي يتناسل فيها عرضةً لدواعي الصواعق والامطار لا ترى فيها حينئذٍ من انواعهِ الاّ قليلاً . فيُظَنّ انها قطعت الى بلاد اخرى . ثم تحتشد في اوائل آب حتى تبلغ عدداً عظيماً فتتبع ملكاً يتقدمها ويقودها ويهديها . وقد ميّزتهُ عن سائرها بسموّ حسن ريشهِ ورونقهِ وبإمرتهِ عليها وانقيادها لهُ عن رضًى واختيار . وفي المساء تنزل في الغابة على شجر لهُ حبٌّ احمر يظهر انها تستأثرهُ على غيرهِ من الطعام

وقد انفرد الملك عن غيرهِ بالمحاسن وفاق جميع سوقتهِ . ويقرب حجمهُ من

حجم الشحرور واكثر ريشهِ الخارجي سنجابيٌّ ولهُ بريقٌ وبهجة . والوانهُ تبدو كأنها حرير لطيف . ويُرَى لهُ في بعض الحال لون معدني جليٌّ يتألق . والشابتان البارزتان من مؤخرهِ مسودَّتان لا زغب عليهما وهما ممتدَّتان من اسفل الذنب والجناح عند طرفهما شبه طرَّة شكلها كشكل دائرة كبيرة ذات لونٍ زمرُّدي لمَّاع . فحيثما استقرَّ الملك استقرَّ جندهُ وحيثما طار طارت . وجميعها تحاول الخفوق عكس مجاري الهواء لان ريشها الطويل يُنسَف حينئذٍ وراءها ولا يعرقلها في الطيران . وهي تحلّق كثيرًا في الهواء لانها كلَّما علت بلغت جوًّا ساكنًا صافيًا ونجت من الرياح والعواصف

ولمَّا وجد الاهلون من صيد طائر الجنَّة وبيعهِ للسيَّاح ربحًا اخذوا يذهبون الى المحلّ المذكور ويختفون بين الاشجار ومعهم القسيُّ والسهام يجهدون في قتل الملك اولاً لانهم اذا فازوا بهِ سهل عليهم صيد الباقي

---

(١) احلوه (٢) ذهبية

الكُوكُو

حَقِيقَةُ حَالِ هٰذَا ٱلطَّائِرِ وَٱلْبِلَادِ ٱلَّتِي يَعِيشُ فِيهَا لَمْ تَزَلْ مَجْهُولَةً . أَمَّا شَكْلُهُ فَمِنْقَارُهُ وَمَخَالِبُهُ أَضْعَفُ وَأَصْغَرُ مِمَّا لِلْجَوَارِحِ . وَلَهُ عَلَى سَطْحِ مِنْقَارِهِ مِنْخَارَانِ مُسْتَدِيرَانِ نَاتِئَانِ يَتَمَيَّزُ بِهِمَا عَنْ سَائِرِ ٱلطَّيْرِ . وَلَوْنُ بَطْنِهِ أَصْفَرُ . وَتَحْتَ صَدْرِهِ خُطُوطٌ سَوْدَاءُ مُعْتَرِضَةٌ . وَأَعْلَى صَدْرِهِ وَرَأْسِهِ وَأَعْلَى ظَهْرِهِ

مُعَلَّمٌ بِخُطُوطٍ سُمْرٍ جَلِيَّةٍ. وَبَعْدَ قُدُومِهِ إِلَى بِلَادِ ٱلْإِنْكِلِيزِ فِي ٱلْغَالِبِ بَشِيرَ ٱلرَّبِيعِ. أَمَّا سَجْعُهُ فَلَا خِلَافَ فِي رَخَامَتِهِ وَجَمَالِ إِيقَاعِهِ حَتَّى أَنَّ ٱسْمَهُ نُقِلَ مِنْهُ إِلَى جَمِيعِ ٱللُّغَاتِ

وَمِنْ طَبْعِهِ أَنَّهُ لَا يَبْنِي عُشَّهُ فِي ٱلدِّيَارِ وَلَا فِي ٱلْأَشْجَارِ بَلْ يُودِعُ بَيْضَهُ فِي عُشِّ غَيْرِهِ وَيَكِلُ إِلَيْهِ حِضَانَتَهَا وَتَرْبِيَةَ فِرَاخِهِ وَتَدْرِيبَهَا. وَيَتَوَلَّى ٱلْعَمَلَ فِي ٱلْغَالِبِ ٱلْقُوبَعُ وَعُصْفُورُ ٱلزَّرَائِبِ. وَإِذَا ٱتَّفَقَ تَرْبِيَةُ فِرَاخِهِ مَعَ فِرَاخِ ٱلْمُرَبِّي فِي وَكْنٍ وَاحِدٍ وَوَقْتٍ وَاحِدٍ تَعَدَّى عَلَى ٱلْفِرَاخِ ٱلْأَصْلِيَّةِ وَطَرَدَهَا مِنْ وَطَنِهَا. وَإِذَا نَشَأَ فَرْخُ ٱلْكُوكُو وَٱكْتَسَى رِيشًا لَا يَعْتَمُّ حَتَّى يَنْسَى مُرَبِّيَهُ وَيَرْجِعَ إِلَى مَا جُبِلَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْأَهْوَاءِ وَٱلْمَيْلِ

أَمَّا رَحِيلُهُ وَمَأْوَاهُ شِتَاءً فَٱلْعِلْمُ بِهِمَا قَلِيلٌ كَٱلْعِلْمِ بِمَأْوَى ٱلْخُطَّافِ. وَيَزْعَمُ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ يَمْكُثُ فِي جَوْفِ ٱلشَّجَرِ سَاكِنَ ٱلْحَرَكَةِ. حَكَى ٱلْأُسْتَاذُ وِيلُوبِي إِنَّ جِذْعًا أُخِذَ يَوْمًا لِيُجْعَلَ وُقُودًا فِي فُرْنٍ وَإِذَا بِٱلْكُوكُو قَدِ ٱنْتَعَشَ وَخَرَجَ مِنْهُ لَمَّا أَحَسَّ بِٱلْحَرَارَةِ وَأَخَذَ يَزْعَقُ وَيَصِيحُ. فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنَ ٱلْحُضُورِ إِلَّا عَجِبَ وَٱسْتَغْرَبَ ٱلْأَمْرَ. وَٱلظَّاهِرُ أَنَّهُ يَلْبَثُ عَدِيمَ ٱلْحَرَكَةِ أَوْ يَقْطَعُ إِلَى ٱلْبِلَادِ ٱلْحَارَّةِ لِأَنَّهُ لَا يُطِيقُ ٱلْأَصْقَاعَ

ٱلْبَارِدَةَ . وَقَدْ أَجَادَ وَاصِفُهُ بِقَوْلِهِ

جَمالُ الغِياضِ بهاءُ ٱلرِّياضِ بشيرُ الربيعِ حليفُ ٱلسَّفَرْ
اذا الأُقحوانُ زكا والمكانُ زها والزَّمانُ خَلا عن غِيَرْ
نزلتَ لدينا نزُولاً كريمًا وأطربتَ كلَّ شجٍ ذي عِبَرْ
يقولُ لك الرَّوضُ حين تُباكِـرُ مغناهُ أهلاً وسهلاً ومَرْ
أ نجمُكَ يهديك أنّى تؤمُّ وجدُّك يهديك صدْقَ الاثَرْ
تطوفُ البلادَ الرُّبي والوهاد وتجفو الرقاد لنيلِ الوَطَرْ
يراك الغُلامُ اذا خامَ حو ل البشـامِ ليجني غضَّ الزَّهَرْ
فيدهَشُ شوقًا اذا ما شجاهُ رخيمُ غنائك عندَ ٱلسَّحَرْ
فيُمسي يحاول من فيهِ تقليـدَ شدْوِكَ(٢) والطَّرْفُ عنهُ حسِرْ
ألاَ يا كثيرَ الرحيلِ وبذقَ الرَّعيـلِ(٣) وخلَّ الربي والشجرْ
اذا ما ألمَّ الشتـاءُ بأرضٍ تباعدتَ عنهـا ورُدتَ أُخرْ
فروْضُكَ طول الزمان نضيرٌ وجوُّك خالٍ عن المكفهِرّ(٤)
وشدوُك راعي السرورِ وعامـكَ صحوٌ ورغدٌ صفا عن كدَرْ
فيا ليتني كنتُ استطيعُ طيرًا اذًا لصحبتُكَ بحرًا وبرّ
وجُلنـا البلاد وزُرنا العباد وحزنا المراد ونلنـا الوطرْ

---

(١) بارزان (٢) ترنّم (٣) دليل الخيل (٤) المظلم

الهوامُّ المضيئة

ربما نظرتَ الحباحب المسماة في الدارج (سراج الليل) تضيء في الظلام وشاهدتَ نورها القليل المتألق كنجمٍ صغيرٍ على الارض. فهي تضيء لتهدي ذكرها

الذي يطير الى مكان وجودها . ولا يخفى ان نور هذه الدودة ضعيف بالنسبة الى الهوام والحشرات الاخرى

وتكثر هذه الحشرات في الجزائر الشرقية حيث تضيء كمصابيح مشتعلة . فيستغني القوم بضوئها عن المصابيح العادية فيقرأون ويشتغلون على نورها كما لو كانت شموعًا. فهذا النور لا ينبعث من الزيت ولا من البترول ولا من الشحم بل من هذه الجُعَل المجموعة معًا والموضوعة في مصباح فتلمع وتتألق وتبعث بالنور الكافي للاضاءة . وهي نافعة كل النفع لاهل تلك البلاد. فاذا مشى احدهم في الظلام ربط خنفسة بكلٍّ من رجليه فتنيران له ويبصر الطريق. والزنجيات مغرمات بالزينة فيضعنَ هذه الجُعَل المتلألئة على شعورهنّ فتلمع كالجواهر. ومتى ذهبت فتاة الى مرقص الصقتها بكمامها كلّه . فلا تأخذ في الرقص حتى ترى كأن رداءها منسوج من جمرات نار

وتوجد ايضًا فراشة كبيرة تُدعَى ذبابة النار تبعث من رأسها نورًا بهيًّا . اما هامتها فكبيرة مستطيلة معلّمة بالوان خضراء وحمراء . ومتى خيَّم الغسق رأيتَ رأسها الكبير يلمع كأنّهُ شعلة نار. فتستطيع ان تقرأ ادق الحروف على نوره. واذا رام الانسان مشعلاً عليهِ ان يربط بضع ذبابات منها بطرف عصاهُ فيفوز بأنور مشعل وابهاهُ

أُهدي لاحدى السيدات صندوق من ذبابات النار فسمعت في الليل طنينًا شديدًا . فذُعرت ونهضت من فراشها واضاءت شمعة وفتحت الصندوق لتجلي حقيقة الامر فرأت الصندوق مشتعلاً كأنّهُ بنار مضرَمة . فراعها الامر ورمت بالشمعة من يدها . واذا بالذبابات طارت من الصندوق ولاح كأنّ رأس كلٍّ منها جذوة نار محتدمة. ففطنت لعلّة ذلك واخذت تجمعها واحدة واحدة وتعيدها الى الصندوق. اما موطن هذه الهوام ففي المنطقة الحارّة في الهند واميركا

طبقات امّة الهند

تُقسَم الامّة الهنديّة الى اربع مراتب وفرَق . الاولى البراهمة وهم كهنة الهنود ويُفرَض عليهم انفاق حياتهم في الدرس والتأمل في الامور المقدّسة . والثانية الامراء ورجال الحكومة والجنود . والثالثة التجار والفلاّحون . والرابعة الصنّاع والفعلة ويلقّبون بسودرا

ومن اساطيرهم انهُ لما خُلِق الانسان خرج الكهنة من فم برهم والعساكر من ذراعيهِ والتجّار من صدرهِ والصنّاع من رجليهِ . وعلى ذلك كان البرهمي اسمى الكل مقاماً فيجول مطوّقاً عنقهُ بحبل ابيض يتوقع ان يحترمهُ الجميع ويجلّوهُ . وبعض البراهمة بائسون صعاليك غير ان ذلك لا يقلّل من عجبهم وخُيلائهم (١) . وقد يكون الصانع ذا ثروةٍ واموال وافرة غير ان ذلك لا يخوّلهُ اعتبارًا وكرامةً بين سائر الرتب . فلا يكاد يتنازل البرهمي للكلام معهُ او النظر اليهِ . اما الصانع فيوقّر البرهمي كل الوقار ويفعل كل ما يرضيهِ . فيخدمهُ ويشقّق لهُ الحطب ويجلب الماء ويشتغل كرقيق

اما البرهمي فيكافئهُ بمدّ يدهِ قليلاً نحوهُ دلالةً على اعطائهِ البركة . وقد تحلّ بالبرهمي المتربة (٢) والفقر المدقع (٣) ويثري الصانع حتى يضطرّ الاول الى ان يخدم الثاني . فيُستخدَم عندهُ كطاهي طعام . لكنهُ وان بلغ هذه الدرجة لا يُقلع عن صلفهِ (٤) وعجبهِ بل يمشي متبخترًا ويزدري بسيّدهِ . فترى آل المراتب الثلاث الاولى يترفّعون عن معاشرة اهل الرتبة الرابعة والاختلاط معهم

وتوجد فِرَق اخرى كثيرة اصغر من هذه . يُدعى ادناها باريا وهي مرذولة جدًّا وتُعامَل معاملة الكلاب . حتى ان السودرا نفسهُ لا يدَع ثوبهُ يمسّ احد ابنائها لئلاَّ يتنجس . واذا دنوا من احد غيرهم اشار اليهم بيدهِ كي يتعدلوا عنهُ ولا يمسّوهُ

وتحاول بريطانيا الحاكمة ودُعاة الدين المسيحي هدم هذه الحواجز وإبطال هذه الرتب الطائفيّة معلّمين الشعب بقول رسول الامم "ان الله صنع من دمٍ واحدٍ كل امّة من الناس يسكنون على كل وجه الارض" وبأن نفس الپارياه الحقيرة عندهم لها قيمة ثمينة عند الله كنفس البرهمي. ولكن قلَّ من يلتفت الى هذا التعليم. غير ان تلك العوائد قد تناقصت قليلاً ويُرتجى ان تزول على مرّ الزمان مع امتداد المعارف والتمدن

واذا قال احد هناك بالدين المسيحي خسر شرف رتبتهِ فكان ذلك عندهم بمثابة خسارة الحياة. فحينئذٍ اعزُّ انسبائهِ حتى زوجتهِ واولادهِ يطردونهُ من بينهم ولا يسمحون لاحدٍ من قومهم بالدنوّ منهُ والتكلم معهُ

(١) كبريائهم (٢) الفقر (٣) الشديد (٤) كبرياء

مستشفى الحيوانات في الهند

يعتقد البراهمة بتناسخ الارواح وبانتقال نفس الميت الى جسم انسان او حيوان او طائر بل الى جسم هامّة او حشرة ولذلك يأبون قتل كل حيّ من مخلوقات الله. وقد يضع بعض البراهمة قطعة نسيج رقيقة على افواههم لئلاَّ تدخل فيها هامّة او ذبابة فتُبتلع

وفي صورات مستشفى كبير للحيوانات حيث يعنون بتمريضها كل العناية. فاذا شاخ كلب او حصان وتعذَّر عليهِ الشغل حُمِل الى المستشفى فيصرف هناك سائر ايامهِ. واذا مرض حيوان او المَّ بهِ عارض أُخذ اليهِ فيُعالَج ويُخدَم

فترى في ذلك المستشفى الخيل والبغال والغنم والمعزى والحمير والقرود والافيال ونحوها. ويقول كبراء البراهمة ان هذا المستشفى أُسّس رأفةً بالحيوان.

غير ان هؤلاء البراهمة انفسهم المدَّعين بالشفقة على الحيوانات البكم يستأثرون الموت على الاكل مع احد السودرا امَّا الپارياه فلا يمسُّهُ البرهمي بانملهِ. قيل ان جماعةً من الپارياه ركبوا يومًا قاربًا يمخر في النهر فانقلب القارب بمن فيهِ. وكان هنالك جمهور براهمة في وسعهم انقاذ اولئك المنكودي الحظ فلم يمدَّ احدٌ منهم يدًا لاسعافهم خشية التدنُّس من لمسهم

مدارس الهنود

ومتى بلغ الغلام الهندي الخمس سنين ارسلهُ ابوهُ الى مكتب القرية حيث تُقام المدرسة غالبًا في الفلاة. فيجلس الغلمان متربّعين تحت ظل اشجار النخل الجميلة على جلد نمر او فهد او على حصر مصنوعة من اوراق النخل. وتبتدئُ المدرسة باكرًا جدًّا في الصباح قبل حموّ الشمس. ومتى حمي الهجير انصرف التلاميذ (واُغلقت الابواب)

فيُعلَّم الولد الاحرف الهجائية ويُطلَب منهُ كتابتها على التراب بانملهِ. ومتى تقدَّم في المعرفة كتبها على ورقة النخل فكانت لهُ بمنزلة اللوح. اما قلمهُ فمقدَّمة من القصب او قضيب من الحديد قصير محدَّد الرأس. ويجلس المعلّم على الارض وتلاميذهُ جلوس حولهُ فيتلو الاولاد الدروس مرّتين في النهار واذا غلطوا او تكاسلوا ضربهم بالقضيب

واجرة التعليم بخسة جدًّا. فان الولد يؤدي لمعلّمهِ عند اوّل مجيئهِ الى المدرسة نحو عشرين بارة شهريًّا ومتى استطاع الكتابة نقدهُ غرشًا وهكذا كلما ترقّت معرفتهُ زادت الاجرة

فيُعلَّم الغلام الصلاة للآلهة والقراءة البسيطة والكتابة. واذا رام الترقّي وكان قادرًا على النفقة تعلّم لغات الهند وقواعدها واصول الحساب وكل ما في وسع

استاذهِ تعليمهُ . والمعلمون في الغالب براهمة او سودرا

ومتى ناهز الولد التسع وكان والداهُ من فرقة البراهمة طلبا انتظامهُ في سلكهم لانهُ يُحسَب الى ذلك الحين من طائفة السودرا . وقد ينطلق الولد وهو في هذا السنّ قاصدًا حجّ بعض الاماكن المقدسة وكثيرًا ما لا يعود الى بيتهِ

اما كيفية انتظامهِ في سلك البراهمة فهي انهم يعطونهُ اولاً الحبل المقدَّس المبروم من ثلاث خصل . كل خصلة تدل على واحد من الآلهة الثلاثة برهم وويشنو وسيوا . ويجمع البراهمة الياف هذا الحبل من نبات يغلونها معًا . ولا تمسهُ سوى ايديهم

ولما كان هذا الاحتفال يقتضي بدعوة ضيوف كثيرين والقيام بفروض كثيرة كان جزيل النفقات وافر الاتعاب يتعذر على البراهمة الفقراء اجراؤهُ بدون اسعاف ماليّ . فيضطرّون الى التسوُّل من جيرانهم الاغنياء

فيأدبون مأدبة كبيرة الوانها الارزّ والفاكهة والسمن وجوز الهند وما اشبه ذلك . ويلتزمون ان يطهوا الطعام في طواجن جديدة يبتاعونها لهذه الغاية ولا يستعملونها بعد ذلك قط . فيجلس الغلام على كرسيّ والحلىّ ويُدهَن بالزيت ويُلبَس كساء جديدًا ويُوضع في عنقهِ طوق مرجان ودمالج في ذراعيهِ وتكحل عيناهُ بالاثمد

ويجلس والداهُ بجانبهِ والنساء يغنّين لهُ وينشدنَ ويدعونَ لهُ بالتوفيق والفلاح . ويجرون لهُ فروضًا واحتفالات اخرى يطول شرحها . هذا والولائم قائمة على قدم وساق واصوات الغناء والهتاف وآلات الطرب ترنّ في المنزل عدَّة ايام

اما مدارس دعاة الدين المسيحي والحكومة الانكليزية فتختلف عن مدارس الهنود بحسن النظام والادارة واصول التعليم وفروعهِ

بيوت الهند

بُيُوتُ ٱلْفُقَرَاءِ فِي ٱلْهِنْدِ دَنِيئَةٌ لِلْغَايَةِ وَهِيَ أَخْصَاصٌ ذَاتُ غُرْفَةٍ وَاحِدَةٍ جُدْرَانُهَا مِنْ قَصَبِ ٱلْخَيْزُرَانِ ٱلْمُشَبَّكَةِ مَكْسُوَّةٌ مِنَ ٱلدَّاخِلِ بِحُصُرٍ وَمُطَيَّنَةٌ بِٱلسِّبَاعِ (١) وَسَقْفُهَا مِنْ دِمَامٍ (٢) وَتِبْنٍ وَكَثِيرًا مَا تَرَى أَمَامَ هٰذِهِ ٱلْخِصَاصِ سِيَاجًا كَثِيفًا أَوْ دَوْحَ (٣) نَخِيلٍ تَحْجُبُهَا عَنِ ٱلْأَبْصَارِ

أَمَّا خَاصَّةُ ٱلْقَوْمِ فَيَبْنُونَ بُيُوتَهُمْ مِنَ ٱلْآجُرِّ وَٱلْحَجَرِ حَوْلَ دَارٍ فَسِيحَةٍ. وَلِلْغُرَفِ أَرْوِقَةٌ تُشْرِفُ عَلَى دَاخِلِ ٱلدَّارِ

وَلَيْسَ لِلْفُقَرَاءِ أَثَاثٌ وَرِيَاشٌ (٤) يُذْكَرُ بَلْ يَقْتَصِرُونَ عَلَى حَصِيرَةٍ يَجْلِسُونَ عَلَيْهَا وَيَرْقُدُونَ وَيَتَنَاوَلُونَ ٱلطَّعَامَ. وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ كَرَاسِيُّ وَلَا مَوَائِدُ بَلْ يَقْتَنُونَ قَصْعَةَ خَزَفٍ لِوَضْعِ ٱلْأُرْزِ وَسِرَاجًا مَصْنُوعًا مِنْ قِشْرِ ٱلنَّارَجِيلِ وَمَلَاعِقَ خَشَبِيَّةً وَحَجَرَيْنِ يَسْتَعْمِلُونَهُمَا كَهَاوُنٍ وَمِدَقٍّ

وَلَا يُبَالِي ٱلْأَغْنِيَاءُ أَيْضًا بِكَثْرَةِ ٱلْأَثَاثِ إِلَّا ٱلَّذِينَ رَغِبُوا فِي تَقْلِيدِ ٱلْإِنْكِلِيزِ. فَيُزَيِّنُونَ غُرَفَهُمْ حِينَئِذٍ بِأَمْتِعَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ تَعْسُرُ

ٱلْحَرَكَةُ ضِمْنَهَا . أَمَّا أَرْضُ ٱلْغُرَفِ فَمُجَرَّدَةٌ مِنَ ٱلْبُسُطِ وَٱلطَّنَافِسِ (١) إِذْ لَا حَاجَةَ إِلَيْهَا لِصَقَالَةِ سَطْحِهَا بَلْ يَنْشُرُونَ عَلَيْهَا نَسِيجًا أَبْيَضَ وَيَضَعُونَ وِسَادَاتٍ لِلتَّوَكُّؤِ. وَيُدَلُّونَ مِرْوَحَةً كَبِيرَةً مِنَ ٱلسَّقْفِ يَشُدُّونَهَا بِخَيْطٍ فَتَهْتَزُّ ذَهَابًا وَإِيَابًا لِتَبْرِيدِ ٱلْهَوَاءِ.

وَيَبْذُلُ ٱلْهُنُودُ أَقْصَى ٱلْجُهْدِ فِي تَبْرِيدِ ٱلْبَيْتِ. فَتَرَى لِكُلِّ ٱلْغُرَفِ شُرَفًا وَحُصُرَ خَيْزُرَانٍ مُدَلَّاةً مِنَ ٱلرَّوَاشِنِ (٢) وَلَا يَكُفُّ ٱلْخُدَّامُ عَنْ رَشِّ ٱلْحُصُرِ بِٱلْمَاءِ لِتَرْطِيبِ ٱلْهَوَاءِ حِينَ دُخُولِهِ. وَيُسْدِلُونَ حَوْلَ ٱلْفُرُشِ لَيْلًا سَتَائِرَ رَقِيقَةً ٱتِّقَاءَ ٱلْبَعُوضِ. وَحَالَمَا تَغْرُبُ ٱلشَّمْسُ عِنْدَهُمْ يُدْلَهِمُّ ٱلظَّلَامُ إِذْ مَا مِنْ شَفَقٍ فِي تِلْكَ ٱلْبِلَادِ. وَمَتَى خَيَّمَ ٱلْغَسَقُ وَتُرِكَ مَنْفَذٌ مَفْتُوحًا هَجَمَتْ جُيُوشُ ٱلْهَوَامِّ إِلَى ٱلدَّاخِلِ وَأَخَذَتْ تَحُومُ حَوْلَ ٱلْمَصَابِيحِ بِكَثْرَةٍ عَظِيمَةٍ حَتَّى تُطْفِئَ ٱلْأَضْوَاءَ.

---

(١) بالطين (٢) ما يُطلى به (٣) مجتمع الاشجار (٤) لباس فاخر (٥) السجّادات (٦) الشبابيك

النهر المقدّس

ان الهنود يصرفون قسمًا وافرًا من اوقاتهم في الحجّ وزيارة الاماكن المقدّسة التي منها مدن واقعة على ضفاف نهر الكنك الشاغل مساحة كبيرة من تلك البلاد. ويعتبر الهنود هذا النهر مقدّسًا ويقصدونهُ من سائر الجهات للاستحمام بمائهِ زاعمين ان لهُ خاصة التطهير من الاثم . واذا مات المغتسل فيهِ كان على يقين من الذهاب توًّا الى السماء

وقد جاء في اساطير البراهمة. ان علة قداسة هذا النهر كون زوجة سيوا احد آلهتهم وضعت يدها على سبيل اللعب امام عيني زوجها. فاختلّ نظام العالم برهةً واحتجب بصر سيوا بغشاوة. فتضايق جدًّا وقطرت من جبينهِ قطرات ماء كانت ينبوع نهر الكنك فاخذ يجري ويتدفق منذ ذلك الحين

وفي الهند انهر اخرى مقدّسة يقصدها الحجّاج . واذا تعذّر على الهندي زيارة النهر حاول جلب النهر اليهِ بأن يستخدم فعلة يجلبون لهُ الماء في جرار موضوعة في سلال تُحمَل على الاكتاف بواسطة دقرانةٍ لان الحمل على الرأس عندهم امرٌ دنيءٌ ولا يفعل ذلك الاَّ الاوباش والرعاع

وقد يبيع الهندي هذا الماء على سبيل التجارة . وكلما كان النهر بعيدًا زاد الثمن . ويستعملون كمية وافرة من هذا الماء في هياكل الاصنام لرشّ التماثيل . ويخدع الحمّالون الناس بأن يأتوا بالماء من نهر قريب او بركة عادية ويدَّعوا انهم جلبوهُ من نهر مقدَّس

ويسافر الحجّاج قاصدين الانهر المقدّسة في فصل الشتاء (ان صحّ وجود هذا الفصل عندهم) فترى البعض مشاةً حاملين المزاود على اكتافهم مزدانة بريش الطاوس. والبعض فرسانًا يختالون على متون الجياد. والبعض في عجلات تجلجل على رؤوس خيلها الاجراس . واولادًا حاملين خرافًا او جداءً على اذرعهم.

وشيوخاً يسيرون مرتجفين يتوكأون على اولادهم عالمين ان شمس حياتهم اوشكت الغروب فيرغبون ان تتوفاهم آلهتهم على ضفاف النهر المقدس . وتعاين مع هذا الركب ايضاً رجالاً يجمعون على ارجلهم ويكابدون اشد العناء في التقدم الى الامام طامعين في القاء عكاكيزهم والانغماس في النهر حتى الغرق . لانهم يخالون ذلك طريق السماء والغبطة

ومتى بلغ الزائر نهر الكنك جلس عند ضفته وحلق رأسه طارحاً الشعر في النهر المقدس. زاعماً ان كل شعرة تمس الماء تخوله مليون سنين سعادة في الفردوس . وعندهم ان بعض الاماكن من نهر الكنك اوفر قداسة من غيرها . وعلى ضفة النهر حيث ينفجر من الجبال ويجري الى السهول قرية حقيرة لا تزيد بيوتها عن الالف عداً يحترمونها كل الاحترام

ويبلغ عدد الحجاج في بعض السنين مليوناً وخمس مئة الف نسمة. ومتى تجمع هذا الجيش الجرار نزل بعضهم في البلد ونصب غيرهم المضارب خارجها وانتظروا سنوح الفرصة الملائمة للنزول في النهر. ثم يعطي احد البراهمة الاشارة المعينة فيبادر الحجاج للانحدار في الماء ويأخذون بالمشاجرة والنزاع والملاكمة بغية السبق اولاً الى المياه . ولما كانت طرق المدينة وازقتها ضيقة كان الزحام عظيماً جداً وقد يموت بعضهم من شدة الضغط

غير انهم منذ عهد غير بعيد وسعوا الاسواق لدرء اخطار كهذه. ولكن ما من مانع يقف في سبيل هؤلاء الاغبياء ليصدهم عن اغراق انفسهم في النهر. اذ كثيراً ما يمشي احدهم الى النهر رابطاً جرتين فارغتين على خاصرتيه لتمنعاه من الغرق غير انه يملأها بكأس في يده فيهبط الى العمق . والبراهمة يصيحون ويضجون الى ان لا يعود يرى له اثر فقد ذهب شهيد الخرافات والاوهام

بنارس

هي اقدس مدينة في الهند. وفي اعتقاد البراهمة ان من سكن فيها ولو زماناً وجيزاً لابدَّ من ذهابهِ الى السماء. وهي واقعة على رابية تشرف على نهر الكنك وهي ملآنة بالهياكل الواصلة الى حافَّة النهر. فاذا دنوتَ من هذه المدينة رأيتها ضيّقة الشوارع والاسواق حتى يكاد يتعذَّر على الراكب اجتيازها في بعض المحالّ

اما بيوتها على الجانبين فتوشك ان تمسَّ بعضها بعضاً واروقتها ورواشنها في بعض الاماكن متصلة بعضها ببعض من جانب الى آخر تتخللهـا احناش (١) متداعية الى السقوط مغطّاة بالغبار ونسيج العنكبوت الذي يحاكي الغلالة (٢) ويبدو كستائر مدلاة من الحائط. وهذه الاماكن الرثّة مكسوّة بصور الفيل والقرد والجمل والطاوس

وبعض الهياكل مزدان بنقوش جميلة تمثل الحيوانات والازهار واغصان النخل لان للهنود هياماً بتزيين ابنيتهم بالنقوش والصُّوَر. ويستعملون غالبا في نقشهم اللون الاحمر البادية صُوَرهُ محملقة الاعين رائعتها. وتعاين في تلك الشوارع الضيّقة ما لا يكاد يُحصى من الحيوانات فضلاً عن ازدحام اقدام البشر

ومن هذه البهائم الجاموس المقدَّس الابيض اللون ولهُ سنامٌ بين كتفيهِ. وهو داجن (٣) اليف يجول في الازقَّة والشوارع جولان الكلاب في بلاد الشرق ولا يخطر على بال احد ايذاؤهُ لانهم يعتبرونهُ مقدَّساً. وعلى هذا كان مُطلَق الحرية فيهيم على وجههِ ويضع خطمهُ في ابواب البيوت والحوانيت كأَنهُ يسأَل اربابها طعاماً فلا يخطئون عليهِ في سؤْلهِ. او يضطجع متمدّداً في الشوارع فيشغل الاماكن القليلة الفارغة ولا يسهل انهاضهُ لانهم يحسبون ضربهُ وازعاجهُ خطيئة. ولهذا اصبح كسلاً قليل الحركة. وبعض هذه الجواميس تشتغل قليلاً غير ان القوم يعاملونها معاملة الاحترام ولا يجترئُون قط على قتل احدها

وفضلاً عن هذه الجواميس توجد قرود مقدَّسة . قيل ان فاتح مدينة سيلان كان الهًا بصورة قرد ولذلك تقضي قرود بنارس حياة الرخاء والكسل. وتحتشد في بعض انحاء المدينة وتتسلَّق ستوف المياكل وتتشبَّث بالاعمدة والاوتاد الناتئة كما تفعل في غاباتها الطبيعية . فلو اقتصرت على ذلك لما كان منها كبير ضرر ولكنَّها تدخل رؤوسها في حوانيت باعة الفاكهة والحلواء وتخطف ما تقدر عليهِ . واذا رأَت ولدًا في السوق حاملاً بيدهِ زادًا تثب عليهِ وتخطف الطعام من يدهِ . والخلاصة ان اضرارها مما لا حدَّ لهُ

---

(١) بيوت صغيرة (٢) ثوب رقيق كالشاش (٣) (جوِّي)

غياض الهند

وبعض حيواناتها وطيرها

في اواسط الهند سهلٌ فسيح يعود الطرف عنهُ كليلاً . لكنهُ لا يشبه حزون اميركا التي اسلفنا الكلام عليها بل هو سهل خصيب مثمر تجري في اوديتهِ الانهر الكبيرة فتسقيهِ وتكسوهُ بالاعشاب والاشجار. وللهنود عناية تُذكَر بزراعة الارض وفلاحتها كعناية اوربا المتمدنة. وقد اتاها الانكليز بما لا يكاد يُحصى من النباتات النافعة فجادت واخصبت . من ذلك الارزّ وقصب السكَّر والنيلة والقطن والافيون وغيرها

اما بعض اقسام هذه السهول الخصيبة فتتعذَّر زراعتها لان الاشجار والانجم متلبِّدة فيها ومشتبكة حتى يكاد يستحيل على البشر خرقها . وهذه الغابات ممتدَّة الى مسافة اميال كثيرة . واذا سار فيها جيش شاكي السلاح رأَى قطعها فوق طاقتهِ لان فروع ذلك الايك منتشرة انتشارًا يُعجب منهُ . فتعانق الافنان

النضة تنمو في بضعة شهور نموًا غريبًا حتى يبلغ طولها ستين قدمًا ونيفًا . والانجم الشائكة والقتاد تملأ كل فراغ وفسحة. والاعشاب نفسها تزيد عن قامة الانسان طولاً وهي لينة الملمس كالحرير. واذا حاول الانسان المرور بينها ضلّ عن سبيلهِ لا محالة

وللانكليز مواقف ومخافر في هذه السهول تمكث فيها الجنود حفظًا للنظام يُدعى بعضها مخافر الغياض لقربها منها . ويزور النمر القاطن تلك الغابات احيانًا هذه المواقف ويخطف انسانًا وينطلق بهِ الى عرينهِ[1] فيفترسهُ . واذا اشتدّ بهِ القرم[2] زحف الى البيوت ودخل الاصطبلات ومرابط الخيول وخطف منها ما تيسّر فرسًا كان او حمارًا

ولذلك هال هذا الوحش المسمّى بالنمر الملكي اهل تلك البلاد فبذلوا قصارى الجهد بقنصهِ حتى امست مطاردتهُ عندهم عملاً عظيمًا يتنافسون بهِ

غير ان عدوًا لدودًا غير الانسان يفاجئ النمر في اقصى غابتهِ حين يتعذر على الصيّاد بلوغهُ . وهو افعى لمّاعة تنساب بين الاوراق اليابسة او تلتفّ حول الاشجار. فمتى اضطجع النمر للرقاد وحولهُ عظام الفرائس تدلّت تلك الافعى فوقهُ من غصن وافرغت سمّها بعنقهِ . فينهض النمر ويجأر ويزمجر ويكاد يتميّز غيظًا . غير انهُ لا ينقضي زمان طويل حتى يسري السمّ الى سائر اجزاء جسمهِ فيسقط جثة لا حراك بها

اما مخافر الغابة ومنازلها فتُدعى بانغالو . وهي بيوت بريّة مبنية من الطين سقفها من سياج او قرميد . تنفتح حجرها الى رواشن في صدرها شُبّاك[3] من خيزران حذرًا من دخول الضباع والذئاب اليها . اذ يضطرّ سكّانها الى فتح الابواب ليلاً لشدة الحرّ ولولا تلك الشبّاك دخلت الضواري الغُرَف وخطفت مَن ارادت لانها تجول حول الرواشن تزأر وتعوي عواء هائلاً

وقد تختبئ الهِرَر البريّة تحت الجدران فتتقاتل قتالاً عنيفًا وتموء مواء شديدًا . وتسمع عويّ جيوش بنات آوى الجائلة في تلك الانحاء وصرير

الصراصير . ونق الضفادع كأنها تناظر بعضها بعضاً في الزعيق والضوضاء حتى يتعذر الرقاد الأعلى الذين تعوّدوا على هذه الاصوات الهائلة فلا تورّمهم (٤) كثيراً فيضع القوم اسرّتهم المرتفعة جدّاً عن الارض في وسط الحجرة خوفاً من الحشرات اللدّاغة التي تدبّ على الثرى ويرخون عليها الكِلَل (٥) باحكامٍ وضبطٍ حذراً من البعوض . ويضطرّون الى الاسراع جدّاً في الدخول تحتها ويلفّونها حولهم جيداً لان البعوض الحائم يراقب سنوح فرصة الدخول فاذا لم يعجل الانسان ولج فلسعة وحرمة لذّة الوسن (٦)

ويشاهد الساكنون في ضواحي هذه الغابات مخلوقات بديعة نادرة المثال . من ذلك الحمام الاخضر والبنفسجي الصدر يحلق اسراباً . والدوري الاصفر الصدر اللمّاع الذي يخاله الناظر غيوماً ذهبية . والطيور الدنانة . وطيور الشمس المتألقة كجواهر طائرة في الفضاء

ومن هذه الطيور النفيسة الببغاء البهيّة الريش العائشة بسرور على اشجار



الغابة فاذا زرتَ ذلك الدغل سمعتها تكسر بزور اثماره الوفيرة وتلتقط الحبّ

وتطير الى جدول او نهر لتستحمّ وتتمرّغ عند حافة المياه وتهدر وتهدل كأنها زمرة اولاد تلعب معًا . وتنظرها في هاجرة النهار كتائب مكتّبة جاثمة في مكان ظليل تحت الاشجار . اما اوكارها ففي ثقوب سوق الاشجار حيث تأوي ليلاً وتضطجع على مهد الراحة

وهناك ايضًا الطاوس ناشرًا ريشه الجميل وماشيًا متبخترًا ومعجبًا بنفسه. وهو يحضن بيوضه في رؤوس الاشجار. فتشاهد احيانًا على شجرة واحدة نحو اثني عشر طائرًا من هذا النوع

وفي هذه الغابات ايضًا الطائر الخيّاط الذي يحاول اخفاء وكره عن الافاعي والقرود. فيخيطه بالاوراق وذلك بأن يأخذ ورقة ذابلة ويخيطها باسفل ورقة حيّة ويبني عشًّا في الفسحة بينهما ويبطّنه بنسيج العنكبوت . فيهتزّ الوكن مع الريح باهتزاز الورقة . ولمّا كان هذا العش مخبوءًا بين الاوراق يعسر تمييزه ان لم يُدقَّق فيه النظر. ولهذا الطائر منقار دقيق يستعمله كابرة للخياطة ويأخذ الخيوط من لحاء النبات ويخيط بها . اما حجمه فصغير يحاكي الطائر الدنّان .

يا ايُّها الطائر الخيّاط بالشجرِ انت المثالُ لنا بالجدّ والظفرِ
قد خطتَ بالعنكبوت العشّ مجتهدًا في حكمةٍ عظمت عن حكمة البشرِ
والشغلُ في ابرة المنقار يا عجبًا كيف اهتديتَ لنا بالعقل والنظرِ
لاريبَ في أنّ ربَّ الخلق من كرمٍ اعطاك موهبةَ الاعمال بالفِطَرِ
انت الوضيعُ ولكن جِدُّهُ عِبَرٌ للقوم من دهرهم من انفع العبَرِ

وفي هذا الدوح ايضًا فراش كبير مكسوّ بالوانٍ قرمزية وصفراء وزرقاء وخضراء وارجوانيّة والوان أُخرى بهيّة تلمع بين الازهار

وفي الدغل ايضًا جراد مجنّح يقفز بين الحشيش ويتألّق بلونٍ اخضر زبرجدي وجُعل مكسوّة بابهى الالوان تبدو كجواهر كريمة

ومتى خيّم الغسق تجول الحباحب ايضًا بين الاشجار حاملة المشاعل فتخال كأنك في بلاد الجان ولا تكاد تصدّق مرأى عينيك

قال ابو الطيب المتنبي يصف شعب بوّان

مغاني الشِعبِ طيبًا في المغاني ... بمنزلة الربيعِ من الزمانِ
ولكنّ الفتى العربيَّ فيهـــا ... غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ
ملاعبُ جنّةٍ لو سار فيهـــا ... سُليمانٌ لسارَ بترجُمانِ
طبتْ(٧) فرساننا والخيلَ حتى ... خشيتُ وإن كرُمنَ من الحِرانِ(٨)
غدَونا تنفُضُ الاغصانُ فيهـــا ... على أعرافها مثلَ الجُمانِ
فسِرتُ وقد حجبنَ الحرَّ عنّي ... وجئنَ من الضياء بما كفاني
وألقى الشرقُ منهـــا في ثيابي ... دنانيرًا تفرُّ من البَنانِ
لها ثمرٌ تُشيرُ اليك منهُ ... بأشربةٍ وقفنَ بلا أوانِ
وأمواهٌ تصلُّ بها حصاها ... صليلَ الحلْيِ في أيدي الغواني
ولو كانت دمشقَ ثنى عِناني ... لبيقُ الثردِ(٩) صينيُّ الجِفانِ
يَلَنجوجيُّ(١٠) ما رُفِعت لضيفٍ ... بهِ النيرانُ نديُّ الدخانِ
تحلُّ بهِ على قلبٍ شُجاعٍ ... وترحلُ منهُ عن قلبٍ جبانِ
منازلُ لم يزل منهـــا خيالٌ ... يشيّعني الى النَوْبَنْدَجانِ
اذا غنّى الحَمامُ الوُرقُ فيهـــا ... أجابتهُ أغانيُّ القِيانِ(١١)
ومَن بالشِعبِ أحوجُ مِن حَمامٍ ... اذا غنّى وناحَ الى البَيانِ
وقد يتقاربُ الوصفانِ جدًّا ... وموصوفاهما متباعدانِ
يقول بشِعبِ بوّانٍ حصاني ... أعَنْ هذا يُسارُ الى الطعانِ
ابوكم آدمٌ سنَّ المعاصي ... وعلّمكمْ مفارقةَ الجِنانِ

---

(١) بيت الاسد (٢) الجوع (٣) قضب مشبّكة (٤) تعلقهم (٥) (الناموسيات) (٦) النوم (٧) دعته (٨) الحران في الدابة ان تقف مكانها (٩) الخبز اذا فُتّ وبُلّ بمرَق (١٠) نسبة الى اليلنجوج وهو العود الذي يتبخر بهِ (١١) جمع قينة وهي الجارية

فصلا الغيث والقيظ في الهند

اما الفصول في بلاد الهند فاثنان فقط وهما فصل الغيث وفصل القيظ . اما الثاني فيبدأ في اول تشرين الثاني ويدوم الى نيسان فلا يهطل قطرة غيث في هذه الاشهر كلها بل لا ترى سحابة في الجوّ . فتنشر الشمس اشعّة لظاها يوماً بعد آخر الى ان يلفح الهجير كل سنبلة خضراء وكل عشب نضير فتبدو البلاد في ما خلا الاحراش والغابات جرداء مقفرة كأنها سكّة مطروقة . بل تتشقق الارض من القيظ فتنفتح فيها اخاديد(١) عميقة

ويشقّ السفر على السيّاح وابناء السبيل زمن الهجير من حرارة الطرق الجافّة التي لا تُحتمَل . وتثير الرياح الكثير(٢) سحاباً يضارع عواصف الرمال في بوادي افريقية ولولا سيول الامطار التي تهطل في الفصل الثاني لحسبت الهند بلاد الجوع والموت

وفي اوّل ايار يأخذ الجوّ يغيّم وتهبّ العواصف القاصفة ويومض البرق وميضاً يضيء الافق باسره ويدوم زماناً مديداً . وفي خلال ذلك يدمدم الرعد فتسمع هزيمه اولاً عن بعدٍ ثمّ يقرب تدريجاً الى ان يهول السامع صوتهُ . وتسحّ المزن الهتّانة(٣) مدراراً وتنصبّ سيولاً غامرة كأنّ ميازيب السماء تفتّحت واخذت تتفجر انفجاراً راهماً . فاذا تطلّع القوم من منازلهم رأوا كأنّ البلاد كلّها تحت طوفان هائل . فتطغي الانهر وترتفع فوق ضفافها وتصبح الجداول انهراً والانهر بحاراً وتجرف السيول خصاص الفلّاحين وغيرهم وتهدم رثيث الابنية وينتشر على البلاد ضباب كثيف يحجب نور الشمس وينهل الحيا عوارض جارفة . فتحوّل الامطار الارض الجافّة الى سهول خضراء خصبة

وتختلف اقاليم الهند بعضها عن بعض في مدّة الفصول . فيدوم فصل الغيث في بعضها ثمانية اشهر وفي غيرها اربعة. وتكثر في شمال تغيّرات الطقس

من المطر الى الصحو ومن الجوّ الصافي الى الضباب الكثيف كما في بريطانيا . اما الجبال فبردها قارس جدًّا وكلّما زادت شممًا(٤) زادت بردًا . فاذا جال السائح في الهند رأى الاقليم الذي يشتهيهِ والهواء الذي يصبو اليهِ تحت الرقيع

(١) خَزَر (٢) الغبار (٣) الامطار الغزيرة (٤) علوًّا

جسورُ الهند

لَا يَتَمَالَكُ ٱلْغَرِيبُ ٱلْمَاشِي عَلَى بَعْضِ ٱلْجُسُورِ فِي ٱلْهِنْدِ مِنَ ٱلرَّوْعِ وَٱلرُّعْبِ . فَإِنَّ لِلْأَنْهُرِ وَٱلْجَدَاوِلِ فِي ٱلْجِبَالِ ٱلشَّاهِقَةِ جُسُورًا يُصَابُ نَاظِرُهَا بِٱلدُّوَارِ . فَتَرَى هُنَا جِذْعَ شَجَرَةٍ مَطْرُوحًا فَوْقَ نَهْرٍ مُسَطَّحًا بَعْضَ ٱلتَّسْطِيحِ فِي ٱلْوَسْطِ مَنُوطًا مِنْ طَرَفَيْهِ بِسُوقِ بَعْضِ ٱلْأَنْجُمِ . يَقْطَعُ ٱلنَّاسُ عَلَيْهِ رِجَالًا وَنِسَاءً وَأَوْلَادًا . وَٱلْحَيَوَانَاتُ ٱلَّتِي تَسِيرُ عَلَيْهِ قَدْ لَا تَسْلَمُ مِنَ ٱلسُّقُوطِ . وَلَاسِيَّمَا إِذَا سَارَتْ قِطَارًا فَإِنَّ ثِقْلَهَا وَثِقْلَ مَحْمُولَاتِهَا يُزِيحُ ٱلْجِسْرَ مِنْ مَكَانِهِ فَيَنْحَرِفُ ٱلْجِذْعُ وَيَهْتَزُّ فَتَسْقُطُ ٱلْبَهَائِمُ فَتَغْرَقُ

وَٱلْجُسُورُ فِي ٱلْجِبَالِ ٱلْقَلِيلَةِ ٱلْعَرْضِ تُصْنَعُ مِنْ حَبْلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ مَنُوطَةٍ بِأَوْتَادٍ وَمَغْرُوزَةٍ عَلَى ضَفَّتَيِ ٱلنَّهْرِ مُرْتَفِعَةٍ عَنِ ٱلْمَاءِ

نَحْوَ ثَمَانِي أَقْدَامٍ . فَيَتَشَبَّثُ ٱلْمُسَافِرُ بِٱلْحِبَالِ وَيَتَدَلَّى مِنْهَا . وَلَهَا إِطَارَاتٌ كَحَلَقَاتٍ مَنُوطَةٍ بِهَا . فَيَجْلِسُ ٱلْإِنْسَانُ فِي ٱلْإِطَارِ إِذَا شَاءَ وَيَدْفَعُ نَفْسَهُ بِيَدَيْهِ كِلْتَيْهِمَا حَتَّى يَبْلُغَ ٱلضِّفَّةَ ٱلْأُخْرَى . وَإِذَا كَانَ مِمَّنْ تَرُوعُهُمُ ٱلْأَخْطَارُ وَيُصَابُونَ بِٱلدُّوَارِ أَعَانَهُ ٱلْآخَرُونَ عَلَى ٱلْعُبُورِ . فَيَرْبُطُونَ عَيْنَيْهِ كَيْ لَا يَرَى ٱلْمَاءَ مَائِجًا وَمُزْبِدًا تَحْتَهُ . ثُمَّ يَرْبُطُونَ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ بِٱلْحِبَالِ وَيَجُرُّونَهُ بِحَبْلٍ آخَرَ مَنُوطٍ فِي وَسَطِهِ

وَفِي تِلْكَ ٱلْجِبَالِ عَشَائِرُ كَثِيرَةٌ أَلِفَتْ تِلْكَ ٱلْجُسُورَ وَتَمَرَّنَتْ عَلَى ٱجْتِيَازِهَا . وَفِي بَعْضِ ٱلْمَحَالِّ لَا تَرَى فَوْقَ ٱلْأَنْهُرِ جُسُورًا قَطُّ . فَيَجْمَعُ ٱلْمُسَافِرُونَ كَمِّيَّةً مِنَ ٱلْيَقْطِينِ ٱلْكَبِيرِ وَيَرْبُطُونَهَا فِي أَوْسَاطِهِمْ ثُمَّ يَنْغَمِسُونَ فِي ٱلنَّهْرِ يَقُودُهُمْ دَلِيلٌ . فَيَرْفَعُ ٱلْيَقْطِينُ حَامِلَهُ فَوْقَ ٱلْمَاءِ وَيَدْرَأُ عَنْهُ ٱلْغَرَقَ . ثُمَّ يُمْسِكُ ٱلْعَابِرُ بِٱلدَّلِيلِ وَيَعُومُ إِلَى ٱلْجَانِبِ ٱلْآخَرِ . وَيَحْمِلُ ٱلْأَدِلَّاءُ أَمْتِعَةَ ٱلْمُسَافِرِينَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ وَيَنْجُونَ مَضْبُوطِينَ بِٱلْيَقْطِينِ

الخفّاش

الخفّاش متوسط بين ذوات الاربع والطير. وقد أعيا علماء الطبيعة استقصاء احوالهِ فلم يقدروا ان يجزموا بادخالهِ في احدى مراتب الحيوان. غير ان صفاتهِ الغالبة تقرب من ذوات الاربع. وفي بعض الاحوال يشابه الانسان

ومن طبعهِ انهُ يطير قرب غروب الشمس في ايام الصيف اللطيفة طلبًا للحشرات. ومن الغريب ان البعوض يخرج في ذلك الوقت يطلب قوتهُ وهو دم الانسان والحيوان فيلاقيهِ الخفّاش يطلب دمهُ فيقع طالب رزق على طالب رزق. فسبحان الحكيم. وفي غير ذلك الحين يبقى في وكرهِ الذي يكون غالبًا في الاماكن الخربة او في الاشجار المجوّفة. حيث يقضي اكثر اوقاتهِ نائمًا ولا يعرّض نفسهُ للعطب بالخروج نهارًا او في وقت المطر. واذا دنا الشتاء لزم وكرهُ واستكنّ فيهِ بدون حراك. ولهذا يطلب المكامن تحت الارض حيث ينشب مخالبهُ بشيءٍ يتعلق بهِ فيبقى مستريحًا لا تمسهُ الرطوبة ولا تقلب الهواء. واذا عرض ان وقع عليهِ ضوء الشمس وهو على تلك الحال انتعش وتحرّك قبل الزمن المحدود غير انهُ يصبح حينئذٍ في خطر الجوع لعدم ادخارهِ المؤونة او عرضة لصيد البوم او غيرهِ من الكواسر. اما حجمهُ فقدر الفأرة ولهُ جلدة يطلق عليها اسم جناح وهي عبارة عن اربع اصابع في يديهِ طويلة ومتصلة بجلدة رقيقة واصلة الى رجليهِ وذنبهِ. ومن عادة الانثى ان تلد في المرة من الفرخين الى الخمسة وترضعها كذوات الاثدي

والخفّاش في اوربا غير مؤذٍ. اما في الاقاليم الحارّة فمخيف للغاية ولا سيما اذا تجمّع اسرابًا فيحجب نور الشمس عند غروبها. وفي الصباح يعلق باعلى الشجر كالنحل الكثير

ومنهُ خفّاش غينيا ومادكسكر واكثر جزائر البحر الجنوبي التي لا تغادر شيئًا من الثمر والهوام وغيرها مما تنالهُ الا اكلتهُ اكلًا ذريعًا. ومن طبعها اذا

أوت الغياض ان تصبح صباحاً مقلقاً ولكنها تصمت عند طلوع الفجر . وعرض اجنحتها اربع اقدام وطولها قدم واحدة . وهي قبيحة المنظر تهمة سيئة الطباع

ومن هذا الجنس الخفاش الماص الدم الذي وان يكن منظرهُ اقل شناعة من المارّ ذكرهُ لكنهُ اكثر ضرراً . ووجودهُ الغالب في نواحي اميركا الجنوبية حيث يعيش على شجر النخل . ومن طبعهِ انهُ يترك وكرهُ عند المساء ويطير اسراباً كثيرة فيغطي القرى والمدن . ويحلّ بالناس والبهائم بلاءٌ عظيمٌ لانهُ يهلك كل ما فيهِ حركة ونسمة حياة اذا وجدهُ نائماً في الفلاة . واذا غشي الناس في مراقدهم نقلهم من الرقاد الى الموت لانهُ يدخل رأس لسانهِ الحادّ في رواهشهم (١) ويمتصّ الدم الى ان يشبع . ثم يصفّق باجنحتهِ ويروّح بها . فتجعل هذه الحركة النائم ان يستغرق بالنوم وعلى هذه الحالة يكون رقاد المسافر في الفضاء خطرٌ عظيم . واذا اوى بيتاً فعليهِ ان يحاذر الخصاص التي يدخل منها هذا المصّاص الظامئ للدماء . ولا يقتصر فتكهُ على الآدميين فقط بل يهلك الحيوانات ايضاً . حكى الاستاذ كوندامين ان الخفّاش اهلك في بعض جهات اميركا الجنوبية جميع الماشية التي اتى بها المهاجرون

ومنهُ خفّاش جاقا الكبير الذي يتظلل تحت اشجار السنديان العظيمة . وطول جناحيهِ ست اقدام . فينشب مخالبهُ الحادة ويتعلق بها ورؤوسهُ مدلاة الى اسفل يصيح ويخبط اختباطاً شنيعاً

ومتى دنا المساء استيقظ وشعر بالجوع . فيحلّ نفسهُ من الوثاق وينتشر في الجوّ انتشار السحاب . وتحمل الامهات افراخها بصدورها . ثم تأخذ باقتناص الحشرات والطيور والجُرذان والفأر . ولكنها تؤثر الاثمار فتستقرّ على اشجار الغياض والبساتين وتسترط (٢) قدر ما تستطيع . فيستيقظ البستانيُّ صباحاً ويرى الثمارهُ قد نُهبت عن آخرها وفي هذا الخطب الاغنياء والفقراء سواءٌ

فيصبو رب الحديقة الى الانتقام من هذه السلاّب . فيكمن لها في ضوء القمر حتى متى قدمت ترفرف باجنحتها العريضة مزدحمة على الاشجار يصوّب

نحوها بعد قينة ويرمي منها ما يتيسَّر اقتصاصاً على سرقة فاكهتهِ

(١) عروق ظاهر الكف (٢) تبتلع

الغورلاَّ واوران اوتانغ او انسان الغاب الوحشي

وقف علماء الطبيعة منذ نحو مئتي سنة على وجود هذا القرد الاقرب شبهاً بالانسان خلقاً وخُلقاً . غير ان الانباء التي وصلت اوربا ليست بالنبإ الاول لان حكومة قرطجنة بعثت منذ نحو الفي سنة بهانو للتطواف حول افريقية بحراً. فاقلع بستين سفينة لكلٍّ منها خمسون مجذافاً يقلّها جميعاً ثلاثون الف نسمة رجالاً ونساء . فخطَّ المومأ اليهِ انباء سفرتهِ بالدقة والضبط ومن ذلك قولهُ "اجتزنا في اليوم الثالث جبال النار وبلغنا جوناً يُدعى القرن الجنوبي فوجدنا في اقصاهُ جزيرة كالاولى رأينا فيها عدداً وافراً من الناس الوحشيين. غير ان اكثرهم كانوا نساء ولهنَّ اجسام مشعرة سماها التلامذة غورلاَّ. فتأثرناهنَّ وطاردناهنَّ ولكنَّا لم نستطع ان نمسك احداً لانهنَّ تواثبنَ على الصخور والمراقيب ودافعنَ عن انفسهنَّ بالحجار وقطع الصخر وفررنَ من امامنا . وبعد الجهد ادركنا ثلاث اناث فعضضنَ وخمشنَ ولم يردنَ اتباعنا فقتلناهنَّ وسلخناهنَّ وارسلنا جلودهنَّ الى قرطجنة . ثم توقفنا عن السير لفراغ الزاد"

قال الاستاذ اوين الطبيعي "الارجح ان غورلاَّ افريقية الحديث الاكتشاف هو نفس النوع الذي وصفهُ هانو وملاَّحوهُ في تاريخ سفرهم" . وناقض غيرهُ هذا القول مقدماً على ذلك بيّنات منها ان اثمار تلك الجزيرة لا تكفي لاشباع هذه

القرود النهمة . وان الذكور لا يسمحون بامساك اناثهم بدون دفاع وحشي الى الموت . وقد ذكر بلينيوس الذي نبغ قبل التاريخ المسيحي بستة قرون الغورلاَّ



في تاريخهِ الطبيعي . ثم سُدِلت الحُجُب عن انسان الغاب الوحشي هذا الى القرن السابع عشر بعد التاريخ المسيحي اذ اقدم اندراوس باتل على السياحة في افريقية الاستوائية وعاين الغورلاَّ بنفسهِ وتحرَّى احوالهُ وطباعهُ ونشر على العالم المتمدن نتائج سياحتهِ سنة ١٧٤٨

ويُدعى اعظم هذه الوحوش بونغو واصغرها انجيكو وهو يمشي منتصبًا وليس له ذنبٌ . وله قدرة على تقليد الآدميين في اعمالم وحركاتهم بتصرفٍ غريب . وقد اجمع السيّاح على انهُ ذو خفّة عجيبة ولباقة غريبة وشراسة طباعٍ ولكنّهم اختلفوا على مقدار جثّتهِ فمنهم من قال ان طوله ثلاث اقدام ومنهم من قال ست اقدام وبعضهم اوصله الى سبع اقدام . فهذا الاختلاف وان كان صحيحًا فهو ناشئٌ من اختلاف البلاد والسنّ . ومن المقرَّر الثابت ان طوله في الغالب بقدر الانسان غير انهُ اشدّ منهُ قوّةً . ولما كان اخذهُ حيًّا مستصعبًا جدًّا ندر وجودهُ في اوربا

ومن طبعهِ انهُ يأوي الآجام الواقعة في جزائر ملقًا وبورنيو وغيرها من جزائر الشرق . ويوجد ايضًا في اقصى بلاد الهند وفي افريقية وفي مادكسكر . وصيدهُ في بعض هذه البلاد لهوٌ مُستحَبٌّ للامراء والملوك لكنهُ لا يخلو من الغوائل المشؤومة

روى الاستاذ باتل ان هذا الحيوان يشبه الانسان في احوالهِ كلها ما عدا النطق وعلوّ القامة . اما وجههُ فيوشك ان يكون كوجه البشر غير ان عينيهِ غائرتان في دماغهِ اكثر من الانسان . وله على كلا فكّيهِ عارض طويل يشوّه وجههُ ويكسو جثّتهُ شعر خفيف . واذا مشى سار سير الجريء منتصبًا ويتفيأ ظلال الاشجار الغبياء ويبني فيها خصًّا يقيهِ من الحرّ والمطر وقوتهُ الثمر واوراق الشجر والحبوب والنمل لانهُ لا يأكل اللحوم

اما غريزتهُ فغريبة وخوفهُ قليل . فلا يضرم الزنوج نارًا بالقرب منهُ الاّ ويغشوها[1] عدوًا ويصطلي عليها . ومن طبعهِ ايضًا التأجّل وقلّ ان يصادف احدًا اعزل[2] ويرفق بهِ . وهو يقتحم ساحة الفيل ويهجم عليهِ بالنبود لانهُ يتقلد السلاح دون جميع اجناس الحيوان . والخلاصة انهُ ذو دهاء وقوّة وعنف . قيل ويسبي نساء الزنج . غير ان هذه الرواية عنهُ تفتقر الى التثبيت وقد انكرها اكثر العلماء الحديثون ممن يوثق بصدق روايتهم

روى العلاّمة بافون الفرنسي انهُ كان لواحد من هذا الحيوان ذكاء واحتذاء[٢] يقضي بالعجب. فكان يمشي على رجليهِ منتصباً رزين الحركات والسكنات وعلى وجههِ امارات الغمّ بخلاف نوعي الميمون والقرد فان حركاتهما لا تخلو من الجفاء والسفاهة وميلهما مختلٌّ ولا يتنادان الأمن الخوف وطبعهما الضرر والاذى. اما هذا فكان ذا تدبُّر وانتباه. ومجرَّد النظر اليهِ يكفي لردعهِ وحملهِ على الطاعة قال "وشاهدتهُ مرَّةً يشير بيدهِ الى الباب لجاعةٍ . واخرى جالسًا على مائدةٍ وهو باسط منديلهُ يمسح بهِ شفتيهِ ويوصل الطعام الى فيهِ بالملعقة والشوكة ويصبُّ مشروبهُ في قدح ثم يمسّهُ باقداح الشراب . ويأخذ الفنجان والصحنة ويضعهما امامهُ ثم يضع سكّرًا في الفنجان ويصبُّ فيهِ من الشاي ما شاء ويتركهُ قليلاً حتى يبرد قبل ان يشربهُ وكل هذا بدون ادنى اشارة من صاحبهِ . ومرارًا كثيرة بدون ان يُدعى الى ذلك"

"وكان في غاية الانقياد ومجانبة الاذية يدنو من الغرباء بوقار ويتعرَّض لاحسان الناس اليهِ اكثر من اضرارهم بهِ . وكان يحب الحلواء وعلى الخصوص الملبَّس . فكان كلٌّ يعطيهِ من ذلك قدرًا غير ان هذا الطعام قصَّر حياتهُ . وكان قد جيء بهِ الى لندن بعد ان مكث في باريس فصل الصيف فمات هناك . وكان يقتات بكل ما يُقدَّم لهُ . غير ان اكثر ميلهِ الى الفواكه ناضجها ويابسها . ولم يكن يعاف شرب قليل من الخمر ولكنهُ كان يؤثر استبدالهُ بالحليب او بالشاي او بغير ذلك من المشروبات المحلاَّة بالسكر. ولا ريب في ان حركاتهِ واطواره هذه كانت ناشئة من التربية فان القرد بالطبع غيره بالتطبُّع. وقد عُلِم بالتجربة غير مرَّة انهُ لا يلبث حتى يبلغ كال التحذّي والمحاكاة ما في طاقتهِ البلوغ اليهِ بخلاف نوع بني آدم . لكنهُ لم يظهر في شيءٍ من افعالهِ ما دلَّ على العقل"

وفي حياة الحيوان الكبرى للعلاّمة الدميري ما نصُّهُ "حُكي ان رجلاً صحب معهُ خمرًا في سفينة ليبيعهُ ومعهُ قرد فكان الرجل اذا قصد بيع الخمر شابهُ[٤]

بالماء ثم باعهُ . فاخذ القرد كيس الدراهم وصعد به فوق الدقل(٥) وجعل يطرح دينارًا في البحر وديناراً في السفينة حتى القى ثمن الماء في البحر وثمن الخمر في السفينة"

والغورلاَّ يفتك بالزنوج الساعين في الغابات ويصادم الافيال بيديهِ القويّتين وبجذوع الاشجار فتصيبهُ(٦) وتهرب من شرّهِ . ولا يتسنّى اقتناصهُ حيًّا لشدَّة بأسهِ . ولكنهم يقتنصون صغارهُ بالسهام المسمومة . واطفالهُ تتعلق ببطون والدتها وتتشبَّث بها كل التشبُّث . فاذا قتل الزنوج امًّا اخذوا الصغير المتدلّي من بطنها . واذا مات احد الغورلاَّ غطّاهُ رفاقهُ باغصان الشجر

وهو شديد القرم جزيل النهم وموطنهُ اعالي الاشجار وقايةً لصغاره من الضواري . ولا يتزوَّج الغورلاَّ باكثر من واحدة . ولا يأبى قتال البشر ومنازلتهم ولاسيما الزنوج فلا يفرّ من امامهم قطُّ بل يهاجمهم بصوت هائل تسمع له دويًّا وصدًى مرعبًا في الغاب فيفتك بهم . اما مشية العادي فليس على رجليهِ الخلفيَّتين بل على الاربع . فاذا سار على هذا الوضع كانت ذراعاهُ طويلتين جدًّا حتى يرتفع رأسهُ وصدرهُ كثيرًا عن الارض . اما الصغار فتسير منتصبة حين يطاردها القانصون فيبدو منظرها كالزنوج انفسهم . وقد حاول بعضهم قنصها حيَّةً فأعيتهُ الحيَل لشدَّة قوَّتها وتعذُّر انقيادها

واهل جزيرة سومطرا مغرمون باكل لحوم القرود المقلوَّة ويطلبون لحم الاوران من اناقة الموائد فيخرجون متقلّدين القسيَّ والسهام لصيدهِ . اما الاوران فيحاول الفرار من طريقهم فيتسلَّق على الاشجار ويثب من شجرة الى أُخرى فيتبعهُ القانصون ويطلقون عليهِ السهام فيأخذ منهُ الغيظ كل مأْخذ ويشرع بتكسير الاغصان والقائها على الارض . فيجني بهذا العمل على نفسهِ لانهُ يزيل الحُجب عن ابصار الصيّادين الذين يتربَّصون الى ان يكسر هذه الحواجز . ثم يصوّبون السهام نحوهُ فيسقط الى الارض قتيلاً

والهنود مولعون ايضًا بالقرود المقلوَّة والمشويَّة ويأكلونها بقرم(٧) شديد

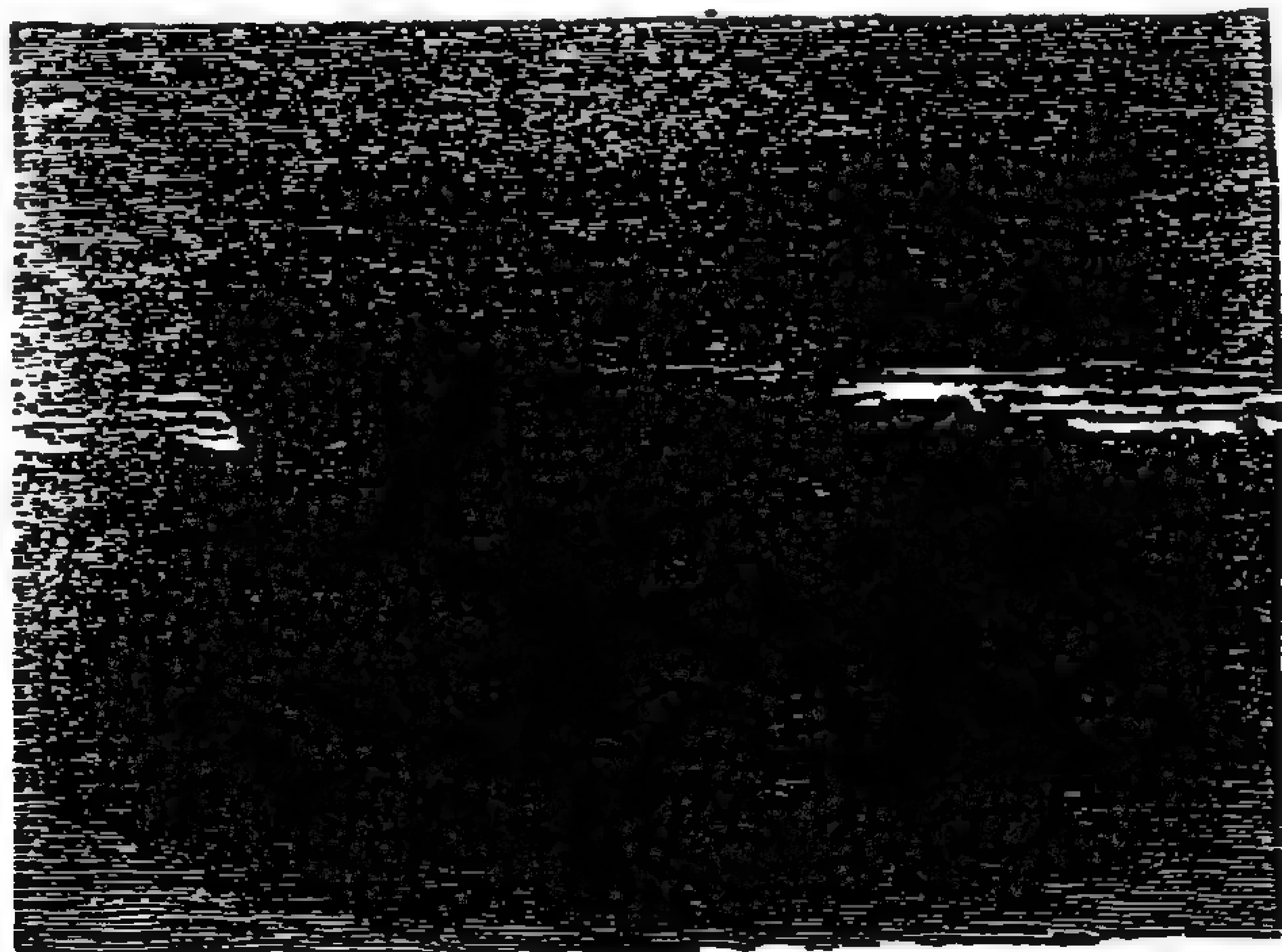
ويصنعون من جلودها اغطيةً للرأس وخُروَقاً يلبسونها ايام الاعياد والمواسم

(١) يقصد ليلاً (٢) من لا سلاح له (٣) اقتناء (٤) خلطة (٥) خشب السفينة الطويل الذي يُعلَّق بهِ الشراع (٦) تصوّت (٧) بنهم

الذئب

١

هذا الحيوان قريب من الكلاب وقد عُلِم انهُ يسفد[1] معها احياناً ولهذا تأتي جراؤهُ مشوبة[2] . ولهُ رأس طويل وانف مروَّس واذنان منتصبتان مثلَّثتان وذنب طويل كثّ وساقان طويلتان واسنان كبيرة هائلة وشعر طويل. وهو



اطول من جميع صنوف الكلب السلوقي ولونهُ غالباً احمر يضرب الى الصفرة. وبعض انواعهِ ابيض . وفي بلاد كندا اسود وعيناهُ مزورَّتان[3] لونها اخضر

يتقد . ووجهة بجملته وحشيّ يدل على ما فيه من الاخلاق والطباع

والذئب من الوحوش النهمة في اكل اللحوم ووسائلة كثيرة . فان لهُ من القوّة والانياب والخفّة ما يلزم للطارد الفاتك . على انهُ كثيرًا ما يموت جوعًا . واذا طردهُ الانسان راد الاماكن القاصية الخالية من الشجر ولا يجسر على مهاجمة القرى والبلاد الاَّ متى تضوَّر جوعًا . واذا غلب قرمهُ على خوفهِ كان هجومهُ هائلاً جدًّا فلا يسلم من وثباتهِ انسان ولا بهيمة

ومن الادلة على نهم الذئاب وبطشها الحادثتان التابعتان

قصَّ احد القواد الجركسيين على احد كتبة الانكليز الحكاية التابعة قال "في شتاء سنة ١٨٥٣ اذ كانت الحرب مشتبكة بيننا وبين الروس وكانت الارض منذ شهور مغطَّاة بالثلوج جمع الامير جيشًا وبعث بهِ الى السهول لقتال الاعداء . غير ان الروس استظهروا على ذلك الجيش فتشتَّت وعاد ناكصًا(٤) على الاعقاب وهامت الجنود شرائم(٥) وزرافات(٦) نحو اوطانها . اما كوكبتنا(٧) فكانت مؤلَّفة من احد عشر فارسًا ممتطين الجياد الحسنة ومسلَّحين بالبنادق والقربينات والسيوف ومعنا خمسة اسرى اربعة انفار وامرأة . فبينما كنا نقطع سهلاً فسيحًا اذا بعانة(٨) ذئاب عددها سبعة تعدو وراءنا فقتلنا منها ذئبين أو ثلاثة باطلاق الرصاص طمعًا بجلودها وتبدَّد الباقي . ثم اغذذنا السير . ولم تنقضِ برهة وجيزة حتى سمعنا خلفنا عواء مرعبًا لاح لنا اولاً كعاصفة شديدة . واذا باشباح كثيفة مظلمة انتشرت امامنا على الثلج كسحاب يعلو الافق . فهلعت(٩) قلوبنا فرقًا(١٠) حين علمنا ان جيشًا عرمرمًا من الذئاب يتعقَّبنا

اما خيولنا فكان قد اضنكها التعب والعياء من سفر اليوم بطولهِ . غير ان الخوف كساها اجنحة فسارت تحاكي هبوب الرياح واهجت بنا كأنها عالمة بشدَّة الاخطار التي تترصَّدها . ولم يكن لنا حينئذٍ ملجأ نأوي اليهِ لان اقرب عمار كان يبعد سبعة اميال على الاقل . وكانت الارض مترلجة بجرف الثلوج المنهارة(١١) حتى تعسَّر على خيولنا السير . فائتمرنا ائتمارًا وجيزًا وعوَّل رأينا على تضحية

الاسرى الواحد بعد الآخر لتعطي سائر الانفار فرصةً للفرار . فاستلّ احد الفرسان حسامة وعرقب[١٢] حصان المرأة فسقطت الى الارض وكانت فريسة الذئاب الاولى. واذا بصوت هائل ارتفع في عنان الجوّ ثم اعقبه الصمت الكامل فالتفتنا الى ورائنا وعلمنا انّا سبقنا الذئاب مسافة تُذكر. فسكنت افكارنا بعض السكون ولكنّا لم نكد نعدو قليلاً حتى رأيناها تعسل[١٣] في اعقابنا فاطلق احدنا الرصاص على فرس احد الاسرى فتوقفت الذئاب برهةً ريثما التهمته . ثم فعلنا بالثاني فعلنا بالاول وهكذا الثالث والرابع فغنمنا بهذا العمل زماناً ومجالاً فسيحاً . غير ان اعداءنا الضارية الظامئة الى الدماء ثأرتنا باشدّ ضرّى من ذي قبل . فكأنها شحذت اسنّة نهمها بدم البشر . فاخذنا باطلاق البنادق عليها انما على غير طائل . لانّا وان نكن قد جندلنا بعضها على الثرى كان سائرها يعسل الى الامام ولا يقف دقيقة واحدة . فبينما نحن كذلك اذا بجوادين من جياد فرساننا اضنكها العياء والنزع فسقطا الى الارض يصهلان ويحمحمان كأنهما عالمان بالاهوال التي ترصدها . اما راكباها فنهضا يهرعان عدواً كوميض البرق ولكنهما لم يستطيعــا ادامة حثّ الخطى على جرف الثلج فغشيهما الاعياء والونى فودّعا رفاقهما واسلما نفسيهما لحكم القضاء والقدر. واستلاّ حساميهما وصاحا بالذئاب صياح الابطال ودافعا دفاع الجبابرة الصناديد الى ان امسيا طعاماً هنيئاً لتلك الضواري

اما نحن الاحياء الباقون فبتنا على مسافة ميلين عن الملجإ. غير ان خيولنا اوشكت السقوط تعباً وسغباً[١٤] والذئاب على نحو مرمى بندقية . فساد علينا القنوط والوجل وخلنا انفسنا بين براثن[١٥] الضواري وانيابها تمزّقنا تمزيقاً . واذا بشيخ ابي شابين من فرساننا ودّع الرفاق حين ادرك هذه الحال الحرجة وتعذّر المناص وعرقب حصانة وقدّم نفسه ضحيةً لنجاة ولديه العزيزين. فانحطّ عددنا الى ثمانية . فحثثنا الجياد والذئاب تعسل وراءنا حتى كادت تدركنا بانيابها الحاكّة وتبطش بنا"

قال الراوي "فجذبت طبنجتي واطلقت النار على اقرب رجل مني فاصابته الرصاصة في رأسه فارتخى يديه وافلت اللجام ولكنه ما فتئ منتصباً في سرجه بقلة الجواد الخائف . فاطلقتُ عليه النار مرةً اخرى فسقط على الارض قتيلاً فتوقفت الذئاب برهةً اخرى عن مطاردتنا ريثما تلتقمهُ . فلاحت منا التفاتة واذا بالجبا امامنا . وهو بناء من خشب مشيد لوقاية السياح والمسافرين في مثل هذه الحال . وقد اسعدنا الحظ بأن رأينا بابهُ مفتوحاً فولجناهُ واوصدناهُ بزلاج حديديّ . واذا باصوات عواء الذئاب يمزق كبد الفضاء وزعيق انسان يزيد الهول اضعافاً . فتخلصنا من الشقوق والخُرَب[٢٦] ورأينا رجلاً من رفقتنا كان قد وقع حصانهُ تحتهُ فتثبط عنا ولم نشعر به فاحاطت به الذئاب وقاتلت قتالاً راتماً على السبق الى افتراسه . ثم جلبتهُ باسرع من لمح البصر من سرجه والتهمتهُ مع جوادهِ امامنا ولم تغادر لهما اثراً . ثم احاطت الذئاب بالمعقل[٢٧] احاطة السوار بالمعصم فوجدت حاجزاً يحول دون فرائسها واخذت تصارع بعضها بعضاً . وهي تحاول نبش التراب عن اوتاد البناء ورفع الالواح الخشبية والهجوم الى داخل . واذ كان البناء متيناً لم يكن نصيبها ساعتئذٍ الاّ الفشل والخيبة . فاخذنا نطلق عليهـــا النار من الشقوق فابلينا بها بلاءً حسناً منتقمين لدماء اصحابنا من انيابها الضارية . غير ان الذئاب الحية لم تتمَّ حتى افترست جثث رفاقها القتيلة وظلّت تعوي وتهرّ حول الغرفة الى مساء اليوم التالي اذ ثارت العواصف ودمدمت الرعود واومضت البروق فأجفلت وذُعِرَت وهامت على وجوهها تصل الى اوجرتها . اما نحن فما كدنا نصدّق انفلاتنا ونجاتنا من هذا الخطب الهائل . ففتحنا الباب وسرنا لا نلوي على احد حتى بلغنا اوطاننا"

اما الرواية الثانية فعن المستر اتكنسن الانكليزي اثناء سياحته في سيبريا قال "نصبنا المضارب نصف الليل مع جماعةٍ من القلموق في فلاة فسيحة عند بحيرة صغيرة ثم اضرمنا النار واحاط بها الرجال يصطلون . واذا بعواء هائل بعيد طرق آذاننا . فلم صحبي السبب وجمعوا خيولهم واخذوا يتفحصون اسلحتهم

النارية . وعرفوا ان ذخائرهم وان اجادوا باتقانها لا تكفي لصدّ الاعداء الفتاكة التي شمّت رائحتنا عن بعدٍ واوشكت الدنوّ منا . اما النار فكانت خامدة ولم تزدها ضراماً لان اختبار القلموق علّمهم وجوب اخماد النار الى ان يقترب قطيع الذئاب فيفوزون بخير فرصة لتسديد المرامي عليها . ثم يضرمون جذوات[١٨] الوقيد حتى يتلظى لهيبها فيوقعون الذئاب في وجل وحيرة ويتمكنون من معرفة محالّ وجودها . فلم تمضِ برهة وجيزة حتى سمعنا صوت وقع اقدامٍ كثيرة تسير نحونا . فاضرم الرجال النار وارتفع لهيبها نحو الافق . فوقفت الذئاب منبهةً في وجوم[١٩] رافعة آذانها واذنابها واعينهـا تحملق وتتقد كمشاعل نار . فاعطى احدنا الاشارة واطلقنا عليها البنادق دفعةً واحدة فجرحنا عدداً وافراً مستدلّين على ذلك بعوائها وهريرها الفجائيّ . ولم تنقض بضع دقائق حتى سمعنا وقع خطاها ناكصة على الاعقاب

غير انها لم تنهزم بل انفردت للائتمار في الوسيلة الافضل للمهاجمة ولم يطل زمان مشاورتها . لانّا استدللنا من صهيل الجياد وحمحمتها على وشك رجوعها وسمعنا صوت خطاها خلسةً بين المضارب والبحيرة . ثم انشطرت الى شطرين لتتسنّى لها مهاجمة المحلّة من الجانبين . وكانت اعين الذئاب في انسلالها على الثلج تقدح ناراً وتضطرم في الظلام الدامس . ثم تقدّمت الكتيبتان الى الامام فاطلقنا عليها الرصاص كالسيل مرّةً اخرى فتربّصنا وجمنا برهة ولكنها لم ترتدّ الى الوراء

اما نحن فتفرّسنا بهذه العراجل الوحشية المحيطة بنا واذا بها تزيد عن خمس مئة ذئب كلٌّ مكشّر عن انياب المنيّة ويهرول ظامئاً الى دمائنا . ولا تسل عمّا استولى علينا حينئذٍ من الوجل والروع ولا سيّما حين عجّت في آذاننا اصوات عانة اخرى جديدة تقبع نحونا فيئسنا من الحياة وايقنّا بالهلاك العاجل . ولكن يا للعجب العجاب من ان شدّة ضرى اعدائنا كانت علّة نجاتنا . فان الجيش الاول اخذ يعوي ويوعوع[٢٠] عند دنوّ الجيش الثاني دليلاً على احتدام غيظه

وغيرتهِ من قدوم وحوش غريبة تزاحمهُ على اختطاف الفرائس من فيهِ بعد ان تأثرها وامست له مغنمًا باردًا . وما دنا الخميس[٢١] الثاني العرمرم[٢٢] حتى تحوّل الأوّل من العواء الى تكشير الانياب ورفع البراثن . ثم استعرت بينهما نار الصدام وباتت المعركة عامةً ودامت رحى الحرب تدور والعراك يتلظى الى ان بلغ القتال اشدهُ . فلم يشعر الجيشان المتكافحان بانسلال القلموق لجلب الوقود وركمهِ فوق الجذوات الخابية . فما عمت النار حتى تصاعد لهيبهـا الى عنان الجوّ . فذُعِرَت الضواري واخذت تعوي وتهرّ وتتواثب في الهواء . ثم كفَّت عن الحرب ووقفت في بهت وذهول . فسدّدنا عليها المرامي واطلقنا النار في الحين الملائم فتبدّدت واهجت[٢٣] في عواء هائل تاركةً قتلاها الوفيرة في ساحة الوغى" . اه

وقد رُوئيت الذئاب احيانًا تتبع العساكر الزاحفة الى القتال . فاذا ظفرت بقتيل مُجدَّل على الثرى او بمن لم يُحكَم دفنهُ او بجريح التهمتهُ . واذا اعتادت مرّةً على اكل لحم الانسان فلا تعود ترغب عنهُ الى غيرهِ . فتؤثر اكل الراعي على رعيّتهِ

---

(١) يتزوّ او يتزاوج (٢) مختلطة (٣) متفرقتان (٤) رجع (٥) جماعات قليلة (٦) جماعات عشرة او عشرون (٧) جماعة (٨) قطيع من حُمُر الوحش (٩) جزعًا (١٠) خوفًا (١١) منهدمة (١٢) قطع عرقوب الفرس (١٣) تضطرب في عدوها (تختص بالذئاب) (١٤) جوعًا (١٥) الكتوف مع الاصابع (تختص بالسباع والطير) (١٦) تقوب (١٧) الملجأ (١٨) جمرات (١٩) سكوت من كثرة الغمّ والخوف (٢٠) يصوّت (تختص بالذئاب والكلاب) (٢١) جيش (٢٢) الجيش الكثير (٢٣) جدّت في الجري

الذئب

٣

لا يخفى أن قنص الذئاب لهو محبوب عند بعض الكبراء والأعيان وهو بالحقيقة قنص لا يخجل به العاقل ولا يتنغص له ذو المروءة والنخوة لما فيه من رفع المضار وربح الثناء ولأن إغاثة العالم من البلاء العام هو العمل الأولى بالأجر والثواب سواء كان بالقوة أم بالحيلة. وقد تصاد الذئاب بالشباك أو بالطعام المسموم أو بجرها إلى حفر عميقة تسقط فيها فلا تستطيع القيام والنجاة

ومتى أوشكت الذئبة الولادة هيأت فراشا وثيرا لأجريتها من المواد اللينة وبطنته بما يسقط من فروها. ومتى ولدت الأجراء تعودت قليلا على أكل اللحم. ثم متى بلغت أربعة أشهر اخذها والداها ومرناها على الصيد واحتمال المشاق والآلام بلا شكوى. قيل إنهما يعضانها ويسيئان معاملتها ويجرانها من أذنابها. وإذا صاحت واستغاثت قاصاها إلى أن تتمرن على التجلد والصمت

وَٱلذِّئْبَةُ مُولَعَةٌ بِأَجْرِيَتِهَا . وَتُسَرُّ إِذَا ٱسْتَمْلَحَ صِغَارَهَا ٱلْبَشَرُ وَدَلَّلُوهَا . قَالَ أَحَدُ ٱلسُّيَّاحِ إِنَّهُ رَأَى ٱلْهُنُودَ مِرَارًا يَذْهَبُونَ إِلَى كِنَاسِهَا⁽¹⁾ وَيَلْعَبُونَ مَعَ أَجْرَائِهَا فَتُبْدِي لِذٰلِكَ ٱرْتِيَاحًا وَسُرُورًا . وَتَعْلَمُ ٱلذِّئْبَةُ يَقِينًا أَنَّ صِغَارَهَا مَأْمُونَةٌ بَيْنَ أَيْدِي ٱلْهُنُودِ لِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ يُجَانِبُونَ ٱلْإِيقَاعَ بِهَا لِخُرَافَةٍ شَائِعَةٍ بَيْنَهُمْ وَهِيَ أَنَّ سَفْكَ دَمِ ٱلذِّئْبِ يَجْلِبُ ٱللَّعْنَةَ عَلَى فَاعِلِهِ إِلَى أَنْ يُكَفِّرَ عَنْ ذٰلِكَ

وَقَدْ وُصِفَتِ ٱلذِّئَابُ بِٱلْمَكْرِ وَٱلدَّهَاءِ حَتَّى فَاقَتْ بِخُبْثِهَا ٱلثَّعَالِبَ وَبَنَاتِ آوَى . وَمَتَى مَشَتْ مَحَتْ آثَارَ مَوَاطِئِ أَقْدَامِهَا بِذَنَبِهَا حَتَّى لَا يَهْتَدِيَ إِلَيْهَا أَحَدٌ . وَإِذَا سَارَتْ عَرَاجِلَ⁽²⁾ تَبِعَتْ آثَارَ رَفِيقَاتِهَا بِدِقَّةٍ وَإِصَابَةٍ يُعْجَبُ مِنْهُمَا . بَلْ قَدْ تَتَمَاوَتُ وَلَا تُبْدِي حِرَاكًا فَتَخَالُهَا جُثَّةً بِلَا رُوحٍ . وَهِيَ مُولَعَةٌ جِدًّا بِلَحْمِ ٱلْخِنْزِيرِ فَتَشْتَمُّ رَائِحَتَهُ مِنْ بَعِيدٍ وَمَتَى لَمَحَتْهُ تَثِبُ عَلَيْهِ وَتَتَلَقَّفُهُ وَلَا تَصُدُّهَا عَنْهُ نِبَالٌ وَلَا بَنَادِقُ . وَهِيَ شَدِيدَةُ ٱلْقَرَمِ⁽³⁾ حَتَّى لَا تَكَادُ تُشْبِعُهَا فَرَائِسُ كَثِيرَةٌ

وَقَدْ تَخْطَفُ ٱلذِّئَابُ فِي ٱلْهِنْدِ أَطْفَالًا وَتَذْهَبُ بِهِمْ إِلَى أَوْجِرَتِهَا حَيْثُ تُرْضِعُهُمْ مَعَ جِرَائِهَا وَتُرَبِّيهِمْ وَتَحْنُو عَلَيْهِمْ حُنُوَّهَا

عَلَى صِغَارِهَا. وَالْقِصَّتَانِ التَّابِعَتَانِ بِهٰذَا الصَّدَدِ تُرْوَيَانِ عَمَّنْ يُوثَقُ بِصِدْقِهِ. قَالَ

"كَانَ أَحَدُ أُمَرَاءِ الْهِنْدِ يَوْمًا مُسَافِرًا لِقَضَاءِ حَاجَةٍ مَعَ بَعْضِ أَعْوَانِهِ. وَإِذَا بِخَادِمِهِ لَمَحَ ثَلَاثَةَ أَجْرَاءِ ذِئَابٍ تَشْرَبُ مِنْ جَدْوَلٍ وَمَعَهَا غُلَامٌ لَا يَزِيدُ سِنُّهُ عَنِ الْعَشْرِ. فَفَاجَأَ الْخَادِمُ الْوَلَدَ وَقَبَضَ عَلَيْهِ. لٰكِنَّهُ أَظْهَرَ مِنَ الشَّرَاسَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْوَحْشِيَّةِ مَا كَادَ يُعْيِي ذٰلِكَ الْخَادِمَ عَنْ حَمْلِهِ. فَمَزَّقَ ثِيَابَ حَامِلِهِ. وَعَضَّهُ وَآلَمَهُ جِدًّا. فَأَمَرَ الْأَمِيرُ بِتَقْيِيدِهِ وَوَضَعَهُ فِي مِضْرَبِهِ. وَكَانَ يُطْعِمُهُ لَحْمًا نِيئًا. ثُمَّ بَعْدَ أَيَّامٍ حَلَّهُ وَأَطْلَقَهُ فِي مَدِينَةِ بُونْدِي. وَإِذَا بِبَصَرِ الْغُلَامِ الْوَحْشِيِّ وَقَعَ عَلَى فَخْذِ لَحْمٍ فِي حَانُوتِ جَزَّارٍ فَخَطِفَهُ وَانْطَلَقَ بِهِ يَعْدُو هَارِبًا. فَأَطْلَقَ عَلَيْهِ أَحَدُ حُرَّاسِ السُّوقِ سَهْمًا أَصَابَ فَخْذَهُ. فَرَثَى لَهُ خَادِمُ أَحَدِ التُّجَّارِ وَأَخْرَجَ السَّهْمَ مِنْ جَسَدِهِ وَهَيَّأَ لَهُ فِرَاشًا عِنْدَ شَجَرَةٍ غَيْنَاءَ كَانَ يَبِيتُ تَحْتَهَا بَعْدَ أَنْ رَبَطَهُ بِوَتَدِ الْخَيْمَةِ. فَظَلَّ ذٰلِكَ الْوَلَدُ يَأْكُلُ اللَّحْمَ النِّيءَ إِلَى أَنْ عَوَّدَهُ الْخَادِمُ تَدْرِيجًا عَلَى أَكْلِ الْأَرُزِّ وَالْقَطَانِيِّ". وَكَانَ فِي خِلَالِ ذٰلِكَ يَدْلُكُ مَفَاصِلَهُ بِالزَّيْتِ إِلَى أَنْ أَمْسَى الْوَلَدُ قَادِرًا عَلَى الْوُقُوفِ مُنْتَصِبًا بَعْدَ

أَنْ تَقضِيَ عَلَيهِ بِحُوسَتِهِ أَسَابِيعَ يَمْشِي عَلَى ٱلأَرْبَعِ . ثُمَّ أَنصَبَّ ٱلخَادِمُ عَلَى تَعلِيمِهِ بِٱلإِشَارَاتِ بِضعَةَ شُهُورٍ. وَعَوَّدَهُ ٱلطَّاعَةَ حَتَّى تَعَلَّمَ سَكْبَ ٱلمَاءِ بِٱلكَأسِ وَإِشعَالَ قَصَبَةِ ٱلدُّخَانِ وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَتَعَلَّمِ ٱلنُّطقَ

فَفِي إِحدَى ٱللَّيَالِي بَينَمَا كَانَ ٱلوَلَدُ مُضطَجِعًا تَحتَ ٱلشَّجَرَةِ رَأَى ٱلخَادِمُ ذِئبَينِ يَنسَلَّانِ نَحوَ ٱلوَلَدِ وَيَشُمَّانِهِ وَيَلحَسَانِهِ فَٱستَيقَظَ ٱلغُلَامُ وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَخَفْ وَلَمْ يَذعَرْ. بَلْ وَضَعَ يَدَيهِ عَلَى رَأسَيهِمَا فَأَخَذَا يَلعَبَانِ وَيَتَوَاثَبَانِ . وَٱلوَلَدُ يَرشُقُهُمَا بِٱلعُشبِ وَٱلتِّبْنِ فَحَاوَلَ ٱلخَادِمُ طَردَهُمَا فَلَمْ يَستَطِعْ. وَلٰكِنَّهُمَا لَمْ يَعتَبَا حَتَّى غَادَرَا ٱلوَلَدَ وَٱنطَلَقَا . ثُمَّ عَادَا فِي ٱللَّيلَةِ ٱلتَّابِعَةِ وَمَعَهُمَا ذِئبٌ ثَالِثٌ وَبَعدَ بِضعَةِ أَيَّامٍ رَجَعَا وَمَعَهُمَا ذِئبٌ رَابِعٌ. وَقَدْ ظَنَّ ٱلخَادِمُ أَنَّ ٱلذِّئبَينِ ٱللَّذَينِ أَتَيَا أَوَّلًا كَانَا ٱلجَروَينِ ٱللَّذَينِ وُجِدَ ٱلوَلَدُ مَعَهُمَا وَقَدِ ٱستَدَلَّا عَلَيهِ بِحَاسَّةِ ٱلشَّمِّ.

وَقَدْ تَعَذَّرَ عَلَى ٱلخَادِمِ تَربِيَةُ ٱلوَلَدِ عَلَى ٱلعَوَائِدِ وَٱلأَخلَاقِ ٱلإِنسِيَّةِ ٱلتَّهذِيبِيَّةِ. وَكَانَ كُلَّمَا ٱنتَقَلَ مُرَبِّيهِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ يُحَاوِلُ ٱلوَلَدُ ٱلوَحشِيُّ ٱلفِرَارَ إِلَى ٱلغَابِ وَٱللَّحَاقَ بِٱلذِّئَابِ رِفَاقِهِ. فَفِي أَحَدِ ٱلأَيَّامِ بَعَثَ ٱلتَّاجِرُ بِخَادِمِهِ لِقَضَاءِ حَاجَةٍ

خارجَ ٱلبلدةِ فغنمَ ذلكَ ٱلذئبُ ٱلبشريُّ ٱلفرصةَ وفرَّ هاربًا إلى ٱلأدغالِ. ولمّا عادَ معلّمُهُ رأى ٱلولدَ قد توارى عنِ ٱلعيانِ وٱنقطعَ خبرُهُ بعدئذٍ كلَّ ٱلانقطاعِ

أمّا ٱلروايةُ ٱلثانيةُ فهيَ

إنَّ فلّاحًا ساكنًا قريةَ جورنةَ ٱلبعيدةَ عن مدينةِ سلطانبور ٱلهنديّةِ نحوَ عشرينَ ميلًا ذهبَ سنةَ ١٨٤٣ ليحصدَ غلّاتهُ ٱلصيفيّةَ وأخذَ معهُ زوجتَهُ وٱبنهُ ٱلبالغَ عمرُهُ ثلاثَ سنينَ. وكانَ ذلكَ ٱلولدُ قد شُفيَ حديثًا من حرقٍ كواهُ في ركبتِهِ وغادرَ أثرًا. فبينما كانَ ٱلأبُ يحصدُ في ٱلحقلِ هجمَ على ٱلولدِ فجأةً ذئبٌ خطفَهُ وركضَ بهِ يعدو إلى ٱلأوديةِ وٱلأخاديدِ. فهرعَ ٱلوالدانِ وراءَ ٱلذئبِ يتبعهما ٱلقومُ للنجدةِ وٱلإغاثةِ. ولكنّهم لم يدركوا للذئبِ وفريستِهِ أثرًا. فعادوا بخفّي حنينٍ. ثمَّ بعدَ نحوِ ستّةِ أعوامٍ كانَ نفرانِ منَ ٱلجنودِ ٱلإسباهيّةِ يصيدانِ ٱلخنازيرَ عندَ أطرافِ ٱلغابةِ فشاهدا ثلثةَ أجريةِ ذئابٍ وصبيًّا خارجةً منَ ٱلدغلِ ومهرولةً نحوَ جدولِ ٱلماءِ للشربِ. ثمَّ ركضَ ٱلأربعةُ إلى غارٍ في ذلكَ ٱلأخدودِ. فتأثّرهما ٱلجنديّانِ يطاردانها فدخلتِ ٱلأجريةُ ٱلكناسَ وكادَ ٱلصبيُّ يدخلُ معها

وَإِذَا بِأَحَدِ ٱلنَّفَرَيْنِ قَبَضَ عَلَيْهِ مِنْ رِجْلِهِ وَجَرَّهُ عَنِ ٱلْغَارِ فَعَالَجَ ٱلْوَلَدُ وَحَاوَلَ ٱلْإِفْلَاتَ وَعَضَّ حَامِلَهُ وَنَهَشَ بِأَسْنَانِهِ أُسْطُوَانَةَ ٱلْبُنْدُقِيَّةِ حَتَّى كَادَ يَكْسِرُهَا. أَمَّا ٱلْعَسْكَرِيُّ فَبَذَلَ جُهْدَ ٱلْمُسْتَطِيعِ فِي ضَبْطِهِ وَأَتَى بِهِ إِلَى بَيْتِهِ حَيْثُ حَفِظَهُ عِشْرِينَ يَوْمًا كَانَ يُطْعِمُهُ فِي خِلَالِهَا لَحْمًا نِيئًا مِنْ لُحُومِ ٱلْأَرَانِبِ وَٱلطُّيُورِ وَغَيْرِهَا وَلَكِنْ تَعَسَّرَ عَلَيْهِ بَعْدَ حِينٍ وُجُودُ طَعَامٍ كَافٍ لِإِعَالَتِهِ. فَأَخَذَهُ إِلَى سُوقِ قَرْيَةِ كَالِيبُورَ وَطَلَبَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ إِسْعَافَ ٱلْوَلَدِ إِلَى أَنْ يَتَيَسَّرَ وُجُودُ وَالِدَيْهِ فَيَطْلُبَانِهِ

وَكَانَتْ تُقَامُ فِي يَوْمٍ مُعَيَّنٍ مِنَ ٱلْأُسْبُوعِ فِي تِلْكَ ٱلْقَرْيَةِ سُوقٌ يَنْتَابُهَا أَهْلُ ٱلْقُرَى ٱلْمُجَاوِرَةِ فَحَضَرَ فِي أَحَدِ هٰذِهِ ٱلْأَيَّامِ رَجُلٌ مِنْ قَرْيَةِ جُوزْبَهْ وَرَأَى ٱلْوَلَدَ فِي ٱلسُّوقِ. وَلَمَّا عَادَ قَصَّ نَبَأَ ٱلْغُلَامِ عَلَى جِيرَانِهِ. أَمَّا ٱلْفَلَّاحُ أَبُو ٱلْوَلَدِ فَكَانَ قَدْ مَاتَ غَيْرَ أَنَّ ٱلْخَبَرَ نَمَى إِلَى أُمِّهِ ٱلَّتِي كَانَتْ لَا تَزَالُ فِي قَيْدِ ٱلْحَيَاةِ. فَسَأَلَتِ ٱلرَّجُلَ عَنِ ٱلْإِشَارَاتِ ٱلَّتِي رَآهَا بِٱلْوَلَدِ. فَأَنْبَأَهَا عَنْ عَلَامَةِ ٱلْحَرْقِ ٱلْبَادِيَةِ عَلَى رُكْبَتِهِ وَآثَارِ أَسْنَانِ ٱلْحَيَوَانِ ٱلظَّاهِرَةِ عَلَى خَاصِرَتَيْهِ. فَٱنْطَلَقَتْ حَالًا إِلَى سُوقِ تِلْكَ ٱلْقَرْيَةِ وَرَأَتْ فَضْلًا عَمَّا ذُكِرَ عَلَامَةً ثَالِثَةً وَهِيَ أُنْحِيَةٌ خِلْقِيَّةٌ عَلَى فَخِذِهِ. فَأَخَذَتْهُ

عَلَى ٱلْفَوْرِ إِلَى مَنْزِلِهَا حَيْثُ لَا يَزَالُ حَيًّا. وَلَٰكِنْ مُنِيَ بِعَتَهِ ٱلْعَقْلِ وَأَمْسَتْ رُكْبَتَاهُ وَمِرْفَقَاهُ مُتَصَلِّبَةً مِنَ ٱلْمَشْيِ عَلَى ٱلْأَرْبَعِ مَعَ ٱلذِّئَابِ. وَٱلْآنَ تَرَاهُ يَجُولُ فِي ٱلْقَرْيَةِ كُلَّ ٱلنَّهَارِ وَيَنْسَلُّ فِي ٱللَّيْلِ إِلَى ٱلْآجَامِ وَٱلْغِيَاضِ وَهُوَ صَامِتٌ لَا يَسْتَطِيعُ ٱلنُّطْقَ وَلَا يَلْفِظُ أَصْوَاتًا وَاضِحَةً. وَمَتَى شَرِبَ يَغْمِسُ رَأْسَهُ فِي ٱلْمَاءِ وَلَٰكِنَّهُ لَا يَلِغُ كَٱلذِّئْبِ. وَمَا فَتِئَ يُؤْثِرُ ٱللَّحْمَ ٱلنِّيءَ عَلَى ٱلنَّاضِجِ. وَمَتَى مَاتَ جَامُوسٌ وَسُلِخَ جِلْدُهُ ٱشْتَرَكَ مَعَ كِلَابِ ٱلْقَرْيَةِ فِي نَهْشِهِ وَٱفْتِرَاسِهِ

وَلِلذِّئْبِ عِنْدَ تَنَفُّسِهِ بَخَرٌ كَرِيهٌ. وَهُوَ فِي جَمِيعِ ٱلْأَحْوَالِ مَكْرُوهٌ مُغْتَالٌ وَمَنْظَرُهُ وَحْشِيٌّ وَعُوَاؤُهُ كَثِيرٌ مُرْعِبٌ. وَرَائِحَتُهُ لَا يُمْكِنُ ٱحْتِمَالُهَا وَأَفْعَالُهُ شَرِسَةٌ وَأَخْلَاقُهُ ذَمِيمَةٌ مَمْقُوتَةٌ. وَهٰذِهِ ٱلصِّفَاتُ ٱلسَّيِّئَةُ أَوَّلُ مَا تَرَى فِي جِبِلَّتِهِ. وَهِيَ ٱلَّتِي جَعَلَتْهُ بَغِيضًا ضَارًّا حَالَ حَيَاتِهِ وَمَذْمُومًا لَا خَيْرَ فِيهِ بَعْدَ مَوْتِهِ. وَقَدْ أَحْسَنَ فِي وَصْفِهِ مَنْ قَالَ

إِذَا مَا ٱللَّيْلُ جَنَّ وَٱكْفَهَرَّا ... وَجَرَّ مِنَ ٱلشِّتَاءِ ٱلذَّيْلَ جَرَّا
وَحَدَّ ٱلْجُوعِ بَاتِرَةٌ ظُبَاهُ ... وَرَاشَ سِهَامَهُ يُصْمِي ٱلْأَغَرَّا
تَأَلَّبَتِ ٱلذِّئَابُ مِنَ ٱلْأَقَاصِي ... وَقَدْ أَبَتِ ٱلْخَلَاءَ لَهَا مَقَرَّا

وَجَاءَتْ مِنْ جِبَالِ ٱلْأَلْبِ تَعْدُو … وَمِنْ أَبْنِينَ تَنْتَقِمُ ٱلْأَمْرَا[١١]
وَمِنْ أَرْجَاءِ بِيرِينِسَ تَسْطُو … عَلَى مَا صَادَفَتْ قُلًّا وَكُثْرَا
لَهَا ظُلْمُ ٱلْمَنُونِ وَجُوعُ لَحْدٍ … عِطَاشًى لِلدِّمَاءِ تَؤُمُّ نَحْرَا
بَدَتْ مِنْهَا ٱلْعِظَامُ جَوًى وَجُوعًا … وَقَطَّبَ وَجْهَهَا لَغَبًا[١٢] وَضُرَّا
لَهَا هَزْلٌ بِلَا جِدٍّ وَجِدٌّ … إِذَا هَجَمَتْ بِلَا هَزْلٍ فَحَذْرَا
تَصُبُّ عَلَى ٱلْبِلَادِ فَكُلُّ حَيٍّ … غَنِيمَتُهَا وَتَهْصِرُ[١٣] مَا أَشْخَرَا[١٤]
تُضَاهِي شَمْأَلًا مَرَّتْ بِثَلْجٍ … فَتَكْسَحُهُ[١٥] وَتَعْفُو[١٦] مِنْهُ أَثْرَا
تَشِبُّ عَلَى ٱلْجَوَادِ فَتَمْتَطِيهِ … وَتَصْرَعُهُ وَتُخْلِي مِنْهُ صَدْرَا
وَلَيْسَ ٱلثَّوْرُ مُنْقِذَ نَفْسِهِ مِنْ … غَوَائِلِهَا وَلَا يَسْطِيعُ صَبْرَا
تَخِفُّ إِلَى ٱلنُّحُورِ فَكُلُّ أُمٍّ … بِهَا ثَكْلَى فَتَنْعَى ٱلنَّسْلَ دَهْرَا
فَحُسْنُ ٱلْمَرْءِ لَا يُجْدِيهِ نَفْعًا … إِذَا حَمَلَتْ عَلَيْهِ وَلَا مَفَرَّا
وَلَا يُجْدِيهِ إِحْسَانٌ إِلَيْهَا … وَلَوْ أَهْدَى لَهَا دُرًّا وَدُرَّا
وَإِنْ قَوْمٌ حَمَوْا عَنْهَا حِمَاهُمْ … وَضَاقَتْ حِيلَةٌ فِيهِمْ وَمَكْرَا
تَخَلَّلَتِ ٱلْقُبُورَ فَبَعْثَرَتْهَا … وَلَمْ تَتْرُكْ بِمَا ضَمِنَتْهُ سُورَا[١٧]
وَتَفْرَحُ إِنْ بَكَتْ أُمٌّ بَنِيهَا … لِسُوءِ نَابَ أَوْ شَرٍّ أَهَرَّا
وَإِنَّ لَهَا غَدَاةَ ٱلْحَرْبِ عُرْسًا … وَمِمَّا يَكْسِرُ ٱلْجَيْشَانِ جَبْرَا
تَرُوعُ صِفَاتُهَا خَطًّا وَسَمْعًا … فَكَيْفَ وَقَدْ بَدَتْ لِلْعَيْنِ جَهْرَا

فَيَا بُشْرَى لِقُطْرٍ عَنْهُ نَاءَتْ ... فَإِنَّ عَلَيْهِ يَهْمِي ٱلْخَيْرُ قَطْرَا
وَوَيْحٌ لِلْبِلَادِ وَمَنْ عَلَيْهَا ... بِرُؤْيَتِهَا وَسَاءَتْ مُسْتَقَرَّا

وَأَكْثَرُ أَنْتِيَابِ ٱلذِّئَابِ فِي رُوسِيَا وَسِيبِيرِيَا وَفَرَنْسَا وَإِسْبَانِيَا وَإِيطَالِيَا وَٱلْهِنْدِ. وَمِنْهَا قَلِيلٌ فِي سُورِيَا. وَلَا عَجَبَ إِذَا تَكَاثَرَتِ ٱلذِّئَابُ مَعَ إِقْبَالِ ٱلنَّاسِ عَلَى إِفْلَاكِهَا وَٱخْتِرَاعِ ٱلْحِيَلِ وَٱلْأَوْهَاقِ لِإِبَادَتِهَا. لِأَنَّ مُدَّةَ حَمْلِ ٱلْأُنْثَى لَا تَزِيدُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَتَلِدُ فِي ٱلْمَرَّةِ مِنْ خَمْسَةِ أَجْرَاءٍ إِلَى ثَمَانِيَةٍ .

---

(١) بيت الظبي (٢) قطعانًا (٣) شهوة الطعام (٤) الحبوب التي تُطبخ (٥) الكهف (٦) نقص العقل (٧) اظلم (٨) جمع ظُبَة وهي حدّ السيف (٩) الصق الريش على السهام (١٠) يرمي فيقتل (١١) الشبّان الذين لا تجربة لهم (١٢) تجمّعت (١٣) شدّة التعب والاعياء (١٤) تجذب وتميل (١٥) طال (١٦) تذهب به (١٧) تدرس وتمحو (١٨) البقية والفضلة (١٩) جملة يصوّت كصوت الكلب

البيداء

البيداء او المهمه[١] او الفلّ[٢] لا تشبه بوادي التتر ولا صحاري اميركا ولا السهول الكبيرة التي سلف الكلام عنها . فان تلك السباسب[٣] جافّة ومجرّدة

من الاعشاب صيفاً اما في الشتاء فتغمرها سيول الامطار والثلوج فتنبت العشب والكلأ للمواشي

اما هذه الفلاة الواقعة بالقرب من ترعة السويس ولا تبعد عن البحر المتوسط . فقد تنقضي اعوام عديدة لا يهطل عليها قطرة غيث ولا قطرة ندى ليلاً لترطيب الارض . فلا بدع اذا لم ترَ عليهـا نباتاً اخضر ولا عشباً تسومهُ الماشية ولا بقولاً ولا اثماراً يأكلها المسافر ولا اشجاراً يتفيأ في ظلالها . بل يدوس فيها على متلظٍ بحرارة الشمس لا يرى ينبوعاً ولا جدولاً يروي الصدى[٤] فهي سُبروت[٥] بلقع

والارض في هذه الغيفاء[٦] طبقات ملح كثيفة تتخللها صخور رملية او برامع[٧] متفتتة وكثبان[٨] واحقاف[٩] تحتها طبقة كلسية ملآنة بالملح. ومن هذه التنوفة[١٠] قسم كلهُ ملح يُدعى بحيرة الملح على انهُ ليس بالحقيقة الاَّ سهلاً ملحياً فقط

والملح هنالك صلب وصلد فتدوس عليهِ الابل ولا تغور اخفافها . وقد تسير عليهِ فتكسر كُتَل الملح نعال الخيل ولا تغور الاَّ قليلاً لان تحت هذه الطبقة طبقة اخرى اصلب منها . ولون هذا السهل ابيض ناصع يبهر الابصار والارض مرتكمة بقطع ملح كبيرة تتلألأ كالبلّور حتى انك ترى الجوّ الازرق فوق رأسك اسود بالنسبة الى بياض ذلك السهل

ولا يقطن هذه الحزون والكثبان الرملية انسان ولا حيوان لقيظها وجدبها الدائم وغياب الطعام والشراب عن فيافيها . فترى الصمت والسكون سائدين في ارجائها كأنك بين القبور . وهي باديتان عظيمتان احدهما في بلاد العرب وتُدعى بادية العرب والاخرى في افريقية وتُدعى الصحراء

اما الصحراء ففيها اغوار ومهاوٍ رملية عميقة . فقد سيّر احد ملوك الفرس (زركسيس) يوماً جيشاً عرمرماً في هذه الصحراء وعزم على قطعها بنفسهِ فهلك الجيش عن آخرهِ حتى لم يبدُ لهُ اثر . لانهم ماتوا عطشاً ودُفنوا في احاقيف الرمال . وتعاين في هذه المجاهل[١١] عظام بشر وحيوانات وضوارٍ منتشرة على

سطحيا . منها عظام الابل والمسافرين المنكودي الحظ الذين هلكوا في هذه التنائف[١٢] . ويندر ان ترى حيًّا سوى بعض الضواري تتعقّب آثار الركبان راجيةً اغتنام الفرائس

اما الارض الواقعة حول هذه المتنوفة فموحشة قفراء . فقد تهطل عليها الامطار آونةً وتجري فيها جداول صغيرة تشرب منها المواشي البرّيّة وينبت فيها الكلأ وبعض الاشجار والانجم فتُدعى واحات وهي تختلف كل الاختلاف عن الصحاري الرملية لان الوحوش تجول فيها وتكمن لفرائسها. فتسمع زئير الآساد ليلاً وضباح الثعالب وخرخرة النمور وعواء الذئاب وقباع الخنازير. وتخرج السباع من عرّيسها[١٣] تفتّش عن طعام للبواتها واشبالها فتأتيها بالغزلان واليحامير[١٤] والايائل. فانها تثب عليها حين رقادها او انتجاعها الكلأ على غير حذر فتبطش بها . لان الغزلان متى لمحتها تعدو كالبرق فلا تدركها الاسود

واذا سرحت الغزلان اسرابًا تجرّأت على الدفاع والصدام . فاذا كمن لها نمر وقفت لديه صفًّا مرصوصًا ونطحته بقرونها الطويلة وارغمته على الفرار خائبًا. لانه لا يجسر على مكافحة ارواقها[١٥] البتّارة فيذهب عنها ساغبًا[١٦]

ومن اعداء المسافرين في تلك المواجل الرياح . فاذا ثارت فجاءةً كسحت الرمال ورفعتها الى عنان الجوّ كالغيوم . فلا يعارضها في زعزعتها بيوت ولا هضاب ولا اشجار بل تعصف في تلك الاغوار والانجاد قصفًا هائلاً فتتكاثف الرمال وتتلبّد على مرّ الدقائق ويظلم الافق وترى الشمس صفراء فاقعة كأنها كُسفت . ويعاين المسافرون هذه الاعاصير مقبلةً عن بعدٍ تنسف الرمال وتسفيها ويشعرون بحرارتها المتلظّية تلظّي الاتون. فيسرعون على الفور ويفكّون الاحمال عن الابل والدواب ويلقون بانفسهم الى الارض ويلفّون رؤوسهم بارديتهم ويضطجعون كالاموات منتظرين قدوم هذه الريح التي يسمّونها الخماسين او ريح السموم

اما الابل فتعلم ذلك بالسليقة فتبرك على رُكَبها وتصكّ خطومها بالرمل

تسد خياشيمها . واذا بالريح قادمة في دوي قاصف تكنس الرمال فتنتشر دقائقها في الهواء وتضنك بلظاها ودقة ذراتها الابدان . حتى اذا استنشقها انسان كوت حلقومهُ وكادت تخنقهُ وتذهب بنفسهِ

وقد يغطّي الرمل احياناً الركب(١٨) كلَّهُ حتى يوشك ان يدفنهُ حيّاً . فيتحرّك رجالهُ ويحاولون نفضهُ عنهم ولكنهم لا يرفعون وجوههم عن الارض قط . واذا دام هبوب هذه الحرور(١٩) وقتاً طويلاً جفّفت مياه المسافرين في زقاقهم . ثم متى كفّت عن الهبوب نهض القوم شاعرين بحرارة لا تُطاق يصعدون زفرات العناء ويشكون من لدغ الرمضاء جلودهم الجافّة جفاف الرمال . ولكن ان احكموا لفّ رؤوسهم وتغطيتها لا يلمّ بهم ضرر يُذكر

ويشتدُّ ظمأُ المسافرين في هذه الصحراء وكذلك البهائم والدواب حتى ان الابل تمتصُّ الماء المالئ اكياس مِعَدها الحجبية فتفنيهُ وتشعر بصدًى وأوار(٢٠) شديدين فتمدّ اعناقها وتلويها من جانب الى آخر لتشتمّ الماء . فان لها خاصّة شمّهِ من مكان سحيق(٢١)

ويبدو للناظر في تلك البيداء(٢٢) شبح بعيد يحاكي بحيرة جميلة يترقرق فيها الماء وتلوح منها صُوَر هياكل وقُبَب واشجار منعكسة عنها . فتختال نفسك قادماً الى مدينة عامرة . فيستبشر الركب بوصولهِ الى ينبوع او جدول حتى الابل تحثُّ الخطى وتمدّ(٢٣) مادة اعناقها . واذ ذاك لا تسمع في القافلة الا كلمة الماء الماء تتناقلها الالسن وتلهج بها . اما الادلاء البدو فلا يغترّون بمثل ذلك ويعجبون من انخداع ابلهم بهذه الظواهر . ولا غروَ فان هذا الرسم ليس سوى خيال وهميّ يُدعى سرابًا علّتهُ انعكاس اشعة الشمس على الرمال الملتظية. اما الخيالات والاشباح فقطع صخور وحجار كبّرها النظر فتجسمت ولاحت كهياكل واشجار . والاقطع من ذلك كون الأوار والصدى اثرا بابصار السَّفْر في القفار فخالوا الوهم حقيقةً وعراهم الفشل والقنوط عند استجلاء العلة الاصلية . لانهُ متى بلغ المسافر هذه البقعة تلاشى ذلك المنظر من امامهِ وتبدد وزالت صورة تلك

الاشباح البادية على وجه البحيرة ولم يرَ غير قفار رملية . اما الدليل البدوي فلم يُصَب بمثل ذلك لخبرته ودرايته بهذه الارض بل يحث السير الى الامام حتى يبلغ الينبوع الحقيقي فيبرّد ظمأهُ

على ان تلك المهامه وان وُصِفت بالمحول والجفاف لا تخلو اطرافها من بقاعٍ خضراء نضرة تُدعى واحات حيث ينبت شجر النخل الذي يضرب اصوله في الرمل ويستمدّ منه الغذاء ويحتمل حرارة الهواء واشعة الشمس الملتظية. وفيها آبار وينابيع ماء قليلة كواحة ايليم التي حلّ عندها بنو اسرائيل قديمًا فوجدوا آبارًا ونخيلاً. ومنها ما هو فسيح المجال كثير الكلإ غزير الينابيع يسوم عليها عرب البادية مطاياهم ومواشيهم ويضربون فيها خيامهم ويتفيأُ تحت وارف[٢٥] ظلالها المسافرون وابناء السبيل . فقد شبّه بعضهم تلك الصحاري بجلد نمر مرقّط برقط سوداء على اديم اصفر . اما اللون الاصفر فالرمال واما الاسود فالواحات . وفي بعض هذه الواحات عدا النخيل اشجار التفّاح والمشمش والرمان والموز والكرم والبقول والازهار كحدائق سائر البلاد

---

(١) المفازة البعيدة (٢) ارض بعيدة الاكناف لا ماء فيها ولا يصيبها مطر (٣) المفازة او الارض المستوية البعيدة (٤) العطش (٥) الارض القفرة التي لا ماء فيها (٦) المفازة لا ماء فيها (٧) حجارة بيض (٨) تلال رمل (٩) المعوّج من الرمل (١٠) ارض واسعة لا ماء فيها (١١) اراضٍ لا يُهتدَى اليها (١٢) مفازات (١٣) مأوى الاسد (١٤) حمير الوحش (١٥) قرون (١٦) جائعًا (١٧) رياح تهبّ من الارض كالعمود (١٨) ركبان الابل (١٩) ريح حارّة (٢٠) العطش (٢١) بعيد (٢٢) مفازة لا يُهتدَى فيها لطريق (٢٣) تستقصي آخر ما عندها من السير (٢٤) المسافرين (٢٥) اتساع الظل وامتداده

العرَب

اخلاقهم وبعض عوائدهم

تُقسَم العرب قسمين كبيرين حضَر وبدو او (اهل وبَر). اما الحضر فسكَّان المدن والامصار والقرى . وهم يزاولون الزراعة والفلاحة والصناعة والتجارة . ومرتبطون بنواميس وشرائع متقرّرة مكتوبة ويخضعون لوازع اهلي وولاة وحكام ينوبون عنهُ في السياسة والقضاء وادارة الاحكام . يعيشون في الغالب بالمسالمة والامن ويتمتعون بلوازم الحضارة من الترف ورخاء العيش ولهم مع بعضهم علائق وصلات ومعاملات يقتضيها العمران والتمدن. اما اهل الوبر فعرب البادية الرحَّل الذين يأوون المضارب والخيام ويظعنون[1] لانتجاع موارد الكلإ لمواشيهم ورواحلهم وهي اهمّ مصادر رزقهم ومعاشهم . ومنهم من يتخذ الغزو وشنّ الغارة والسلب حرفة تحت قيادة زعيم او شيخ او امير يعتبرونهُ بمنزلة الحكَم والوازع[2] بينهم . ولهم سُنَن تقليدية يتوارثونها خلفًا عن سلف ولا يحولون عنها. وهم ينقسمون الى قبائل وعشائر وطوائف وبطون وافخاذ يطول الكلام عليها

وقد وُصِف عرب البادية بالشجاعة والبسالة والاقدام والمروءة والنخوة وحفظ الذمام وقرى الضيوف وطلاقة اللسان وبداهة الخاطر ونظم الشعر. وقد نبغ بينهم ولا سيما في سالف الايام خلقٌ كثير من الشعراء المجيدين والخطباء المفلقين والكتبة البارعين والاسخياء المشاهير الذين يُضرَب بذكرهم المثل . اما الآن فقد انحطّت درجة العلوم والمعارف بينهم واصبح جلّهم همجًا دأبهم المغازي والحروب . الآمن نزل منهم في جوار الحضر وألفوا الزراعة والفلاحة والمعاملات التجارية وخضعوا لاحكام الدولة العثمانية المظفَّرة . واستظلوا تحت

لواء شرائعها وسنتها العادلة . فأمنوا من الطوارق (٣) والدواهي في حمى الخليفة الاعظم الذي اقرَّ بسموّ سلطانهِ البدو والحضر من سكان السهل والجبل . وطوّق بقلائد فضلهِ وقسطهِ اعناق تبعتهِ على اختلاف المذاهب والنحل (٤). فأمن جيرانهم غوائل غاراتهم الموبقة (٥) وامسى الجميع يدعون لجلالة مليكهم الباسط عليهم سرادق (٦) نعمتهِ الوارفة الظلال . والرافع فوقهم اعلام سطوتهِ الراجحة رسوخ الجبال

قلنا ان دأب عرب البادية الرحيل والتنقّل حاملين معهم الكراع (٧) والمتاع يرودون الينابيع والآبار وينشدون المراعي والكلأ حتى اذا طاب لهم مكان حلّوهُ فضربوا فيهِ المضارب واضرموا النيران وسرّحوا المواشي وقاموا باعمال الجزّ والحلب والصرّ (٨) حتى تسوم الماشية اعشابهُ فيغادرونهُ ويظعنون طالبين منزلاً آخر . والعرب كرماء الطباع يقرون (٩) الضيوف ويجملون وفادتهم (١٠). فاذا طرق خيمة اعرابي زائرٌ تهيأ لضيافتهِ فامر زوجتهُ ان تذهب الى القطيع وتختار خروفًا او جديًا فيذبحهُ وتباشر المرأة طبخهُ فتطهيهِ (١١) بلبن الناقة وتقدّمهُ للضيوف برمّتهِ وهذا يذكّرنا بايام ابرهيم حين امر سارة باحضار عجل وذبحهِ واعدادهِ للوفد الالهي

ولنساء العرب قناعة واقتصاد وعفّة وخضوع لبعولهنّ ويقمن باكثر الاعمال المنزلية واشقّها . ولهم جميعًا جلَدٌ عجيب على احتمال مشاقّ الحرّ والبرد واتعاب السفر . وترى البدوي يضرب خيمتهُ في الفلاة وان قرس البرد ويضّجع مكشوف القدمين بلا نار للتدفئة ويلتفّ بعباءتهِ ويهنأ في الرقاد ويتمدد في الصيف على الرمضاء ملتفًّا بكسائهِ في هاجرة الشمس ناعم البال قرير العين غير مبالٍ بالهجير

ومتى نصب الاعرابيُّ خيمتهُ دقّ رمحهُ في الارض وهو قضيب طويل من الزان في رأسهِ سنان فولاذي مزدان عند اعلاهُ بريش النعام. والرمح للبدوي سلاح خطير لا غنى لهُ عنهُ. ومتى سار في القفار حملهُ واذا شاء الاناةَ على علوّ

وازنهُ فوق رأسهِ وهزّهُ برهةً ثم رمى بهِ بقوّةٍ فتسمع له دوياً وصليلاً . واذا كان العدوُّ وراءهُ القاهُ الى خلفهِ برشاقة يُتعجَّب منها . فقد يقتل جواد خصمهِ باتقاء سنانهِ على هذا المنوال . ومن اسلحة البدو ايضاً السيوف القاطعة الفولاذيّة ويتنافسون بالصوارم اليمنية والفرانْد (١٢) المفضَّضة والمذهَّبة . ولا يكاد البدوي يفارق حسامهُ حتى في مضارب خلاّنهِ وجيرانهِ . ويتقلد العرب ايضاً بالخناجر ويحملون البنادق النارية فيسدّدونها حسناً ويحسنون اطلاق المرمى . فقد يضطجعون على الارض حين القنص ويطلقون الرصاص باحكام يندر ان يخطئ . ويستعمل العرب ايضاً المقلاع ويجيدون الرمي بهِ ولاسيما الرعاة للدفاع عن المواشي من ضواري البادية . وقد برع البدو جدّاً باستعمال السلاح وعلى الخصوص السيوف فهي طوع بنانهم لتمرُّنهم على استعمالها منذ الحداثة

ويركب العرب (الهجن) التي تسابق الرياح في سيرها فيقطعون عليها المسافات الطوال ولا يشعرون بالعناء والتعب . واكثرهم يحترفون الغزو وشنّ الغارات والسلب شأنهم منذ زمن اسمعيل . فهم آفة السيّاح والمسافرين وابناء السبيل . الاّ اذا استجار المسافر بشيخ القبيلة ورئيسها وسار تحت حمايتهِ بعد استرضائهِ بالدراهم والخِلَع او كان نزيلهُ وقد ذاق خبزهُ وملحهُ. فان العرب يحترمون نزيلهم كل الاحترام ويجيرون المستغيث فلا يمسّونهُ بسوءٍ بل يدفعون عنهُ حتى الموت وان كان قاتلاً اعزّ انسبائهم . انما متى خرج مثل هذا من خيمة مضيفهِ فلا يأمن من بوائق (١٢) اخذ الثأر . لان البدو يعتبرون الاخذ بالثأر من اهمّ الواجبات ولو بعد امد مديد كما هو مشهور عنهم . واذا تمكّنوا من سلب قافلة او مسافر قلّما يتعرّضون للبطش باصحابها الاّ اذا امتنع المسلوب منهُ عن اعطاء سالبهِ ما يروم

وتركب نساء الامراء والسراة الابل في هوادج ومحفّات ضمنها مقاعد للجلوس وفي اعلاها شبابيك من قُضُب مشبكة يسدلون عليها النسيج الموشّى

والعرب احفظ الخلق ذماماً واحصنهم عرضاً واكرمهم قرًى واقدرهم على

تحمّل المشاق واحبّهم للحرية والسكنى في الفلاة. ومن شيمهم ايضاً الامانة والوفاء ويأنفون من اخلاف الوعد ولا محيص عندهم من اخذ الثأر . ولهم مناقب وخصال غير هذه حسنة وسيئة لا يحتمل المقام الاسهاب فيها

ويعتقد العرب بالفال والتيمّن والتشاؤم والتطيُّر[١٤] والكهانة[١٥] والعيافة[١٦] والقيافة[١٧] والزجر[١٨] والفراسة اكتفينا بالالماع اليها . وكانت العرب تستعمل الميسر والازلام[١٩] والقداح[٢٠] وهي قمارهم غير ان الشريعة الاسلامية نهت عن مثل ذلك

(١) يسيرون (٢) مدبّر امور الجيش . (٣) دواهي او مصائب (٤) اديان (٥) مهلكة (٦) فسطاط (٧) الخيال والبغال والحمير (٨) شدّ ضرع الناقة (٩) يضيفون (١٠) قدوم (١١) نطيحة (١٢) السيوف (١٣) دواهي (١٤) الفأل الرديء (١٥) القضاء بالغيب (١٦) زجر الطير للتسعّد او التشاؤم (١٧) تتبع الاثر (١٨) تناوُل بالطير (١٩) سهام كانوا يستقسمون بها (٢٠) سهم الميسر

العرب

حيواناتهم ومحصولاتهم وبعض صنائعهم

ان للعرب اليد الطولى في تربية الابل والقيام على نتاجها وطلب الانتاج لها الارتياد[١] مراعيها ومفاحص[٢] توليدها لشدّة الحاجة اليها في بلادهم . فهي مراكبهم التي يحمّلون عليها احمالهم وينقلون اثقالهم وياكلون لحومها ويقتاتون

على البانها ويكتسون من اوبارها . ويقايضون عليها في المبايعات ويقتدون اسرائهم بها ويعطون منها في الغرامات والديات والمراهنات ومهر الزوجات وبالجملة في مصدر غنائم

وللعرب ايضاً خيل مشهورة في الجودة والجمال والاصل . وحمير حسنة . وعندهم المعزى والغنم وهم يعتنون بتربيتها كل العناية . ومن حيوانات بلادهم الجاموس وبقر الوحش والفراء والخنزير والارنب والغزال والظبي والذئب والوعل والثعلب وابن آوى واليربوع والنسناس والنعام ومن الطير القطا والحجل والصقر والكروان والغراب والجبج والرخم والهدهد والسمرمر. وفي بلاد العرب احناش وحيّات موذية وعقارب وضباب[٢] وانواع من النمل والرتيلاء وكثيرًا ما يسطو على هذه البلاد الجراد ويُقال له الجندب فيتلف اغراسها . واكثر ما يستوطن في مفاوز نجد

ومن محصولاتها الخاصّة المرّ والبلسان والبنّ والحنّاء والطلح الذي منهُ الصمغ العربي والنارجيل والتمر الهندي والنخل والفلفل والعفص والبنج والنيلة وشجر اللبان وغير ذلك

ويصاحب قبائل البدو بعض ارباب الحِرَف والصنائع كالصاغة والحدّادين والبياطرة والسروجيّة قادمين من القرى المجاورة للبادية ويصرفون الصيف معهم في الخيام للشغل . اما العرب انفسهم وان كان لا غنى لهم عن هذه الصنائع وما ماثلها فيذهبون الى ان مقام الصنّاع دون مقامهم ويأنفون من تعلمها ومزاولتها . فيسمحون للبيطار بنعل خيولهم وللصائغ بصياغة حليّ نسائهم ولكنهم لا يعقدون[٤] لهم على فتياتهم . واذا شاء صانع الاقتران بزوجة تحتَّم عليهِ العقد على فتاة من عشيرتهِ او من بنات الارقّاء

وقد يمارس البدو بعض الصنائع النافعة كالنساجة والدبغ والصبغ . ولا بد بغون الّا جلود الابل فيملحونها ويتركونها يومين او ثلاثة . ثم يغمسونها في العصيدة . ثم يغسلونها بالماء الصافي ويكشطون عنها الشعر . ثم يأخذون قشر

الرمان او ورق السماق الجاف ويحمونه ويزجونه بالماء ويشعون الجلود فيه اياماً

اما شعر المعزى فيستعملونه محوكاً لعمل المضارب والبُلُس ولغايات اخرى. ويحوكهُ النساء على الانوال . فترى الأم وبناتها جالسات في الخيمة ينسجن ويغزلن ويخطن ارديتهن واردية رجالهن

(١) طلب (٢) الاماكن التي تكشف التراب عنهـا للتوليد
(٣) حيوانات تشبه الورل او انثى الحرذون (٤) يبرمون عقد الزيحة

العَرَب

خيامهم واثاثهم

خَيمَةُ ٱلْإِعْرَابِيِّ مَحُوكَةٌ مِنْ شَعْرِ ٱلْمَاعِزِ مَنْسُوجًا نَسِيجًا مَتِينًا وَمَخِيطَةٌ مَعًا وَمَنْتَصِبَةٌ عَلَى أَعْمِدَةٍ وَدَعَائِمَ كَثِيرَةٍ . تَحْتَوِي عَلَى غُرْفَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا لِلرِّجَالِ وَٱلْأُخْرَى لِلنِّسَاءِ . يَفْصِلُهُمَا عَنْ بَعْضِهِمَا سِتْرٌ صُوفِيٌّ خَشِنٌ أَبْيَضُ مُدَلًّى مِنَ ٱلسَّقْفِ . وَأَرْضُهُمَا مَفْرُوشَةٌ بِٱلْبُلُسِ أَوِ ٱلْبُسُطِ . وَكَانَ ٱلْعَرَبُ يَقْسِمُونَ ٱلْخَيْمَةَ ٱلَّتِي يَسْكُنُونَهَا بِسِتَارَةٍ تَحْتَجِبُ فِيهَا ٱلنِّسَاءُ وَكَانَتْ فِي ظَهْرِ ٱلْمَضْرَبِ . وَجَعَلُوا ٱلْبَيْتَ ٱلَّذِي يُضْرَبُ فِي مُقَدَّمِ ٱلْبُيُوتِ مَنْزِلًا لِلْغُرَبَاءِ فَلَا تَكُونُ فِيهِ ٱلْمُخَدَّرَاتُ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْبَهْوَ .

وَبَيْتُ ٱلنِّسَاءِ ٱلْخِدْرُ. وَمِنْ أَنْوَاعِ هٰذِهِ ٱلْبُيُوتِ ٱلسُّرَادِقُ وَهُوَ خَيْمَةٌ مِنْ نَسِيجِ ٱلْقُطْنِ. وَٱلْفُسْطَاطُ وَهُوَ بَيْتٌ كَبِيرٌ مِنَ ٱلشَّعْرِ. وَٱلْخِبَاءُ بَيْتٌ مِنَ ٱلصُّوفِ يُقَامُ عَلَى عَمُودَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ. وَٱلنِّجَادُ مِنَ ٱلْوَبَرِ. وَٱلْقَشْعُ مِنْ جِلْدٍ. وَٱلسُّتْرَةُ مِنْ طِينٍ يَابِسٍ. وَٱلْخَيْمَةُ مِنْ غَزْلٍ. وَٱلْقُبَّةُ مِنَ ٱللَّبِنِ. وَٱلْحَظِيرَةُ مِنَ ٱلشَّجَرِ. وَٱلطِّرَافُ مِنَ ٱلْأَدِيمِ.

وَيَضَعُ ٱلْإِعْرَابِيُّ فِي وَسَطِ حُجْرَتِهِ رُكَامًا مِنَ ٱلْأَجْرِبَةِ وَٱلزِّقَاقِ وَجَوَالِقَ (١) ٱلْحِنْطَةِ حَتَّى تَكَادَ تَبْلُغُ سَقْفَ ٱلْمَضْرِبِ. وَٱلسِّلَاحَ أَيْضًا وَأَقْتَابَ (٢) ٱلْإِبِلِ وَهِيَ تُسْتَعْمَلُ بِمَنْزِلَةِ مَجَالِسَ وَكَرَاسِيَّ يَجْلِسُ عَلَيْهَا ٱلرِّجَالُ وَيُدَخِّنُونَ. أَمَّا غُرْفَةُ ٱلنِّسَاءِ فَتَحْوِي أَمْتِعَةً وَافِرَةً مِنْهَا أَدَوَاتُ ٱلطَّبْخِ وَهِيَ فِي ٱلْغَالِبِ طَاجِنَانِ نُحَاسِيَّانِ وَرَحَى ٱلْيَدِ (جاروشة) لِطَحْنِ ٱلْحِنْطَةِ وَجُرْنٌ خَشَبِيٌّ وَمِدَقٌّ لِدَقِّ ٱلْبُنِّ وَقَصْعَةٌ خَشَبِيَّةٌ لِلَبَنِ ٱلنُّوقِ. وَكَأْسٌ خَشَبِيٌّ لِلشُّرْبِ وَإِبْرِيقُ قَهْوَةٍ. وَمَتَى شَاءَتْ رَبَّةُ ٱلْمَنْزِلِ طَهْيَ ٱلطَّعَامِ وَضَعَتِ ٱلطَّاجِنَ ٱلْأَكْبَرَ عَلَى ٱلنَّارِ فَوْقَ مَوْقِدٍ مُؤَلَّفٍ مِنْ ثَلَاثَةِ حِجَارٍ يُدْعَى إِثْفِيَةً (٣). وَفِيهِ أَيْضًا قَتَبُ ٱلنِّسَاءِ ٱلَّذِي يُضَارِعُ ٱلسَّرِيرَ يَضَعْنَهُ عَلَى ظُهُورِ ٱلْمَطَايَا فَيَمْتَطِينَهَا.

وهو مزدان بقطع نسيج ملونة وعليه ريش النعام يخفق في الهواء عند سير الرواحل. ومن أدواتهم المهماز لحث العيس(١) على السير إلى الأمام والأجراس الصغيرة لتعلق حول أعناقها. وكيس يوعون فيه وبر الإبل عند سقوطه أثناء السفر

وفيه أيضاً الماء الذي ينقلونه في البادية على ظهور الجمال. فترى البدوي في الصحراء يضع فمه في فوهة الزق ويشرب. وفي حجرة النساء أيضاً الخوان والقصاع والجفان(٥) ودلو من جلد الأباعر(٦) لسحب الماء من الآبار منوط بسير من جلد أيضاً

وللبدوي سلسلة حديدية ثمينة لديه جداً طرفها الواحد متصل بحلقة تحيط بإحدى قوائم جواده المحبوب. ولها قفل خاص بها والآخر في رزة مغروزة في الأرض قرب فراشه يسميها قيداً. وعلى هذا تصعب سرقة الجواد. غير أنه يأتي سلالون أحياناً إذ يكون البدوي مستغرقاً في النوم فيحتالون على الفرس

(١) عدل كبير من صوف او شعر (٢) براذع (٣) حجر يوضع عليه القدر للطبخ (٤) الابل البيض يخالط بياضها شقرة (٥) قصاع كبيرة (٦) جمال

قال الرئيس ابن سينا في وصف النفس

هبطَتْ اليك من المحلّ الارفع ورقاء ذاتُ تعزُّزٍ وتمنُّعِ
محجوبةٌ عن كل مُقلةِ عارفٍ وهيَ التي سفرَت ولم تتبرقعِ
وصلَت على كرهٍ اليك وربما كرهَتْ فراقك فهيَ ذات توجعِ
أَنِفَتْ وما أَلِفَتْ فلمَّا واصلَتْ أَلِفَتْ مجاورة الخراب البلقعِ
واظنُّهـا نسيت عهودًا بالحمى ومنازلاً بفراقها لم تقنعِ
حتى اذا اتّصلت بهاء هبوطها من ميم مركزها بذات الأجرعِ
علِقَتْ بها ثاء الثقيل فاصبحت بين المعالمِ والطلولِ الخُضَّعِ
تبكي وقد ذكرَت عهودًا بالحِمَى بمدامعٍ تهمي ولمَّا تقلعِ
حتى اذا قرب المسيرُ الى الحمى ودنا الرَّحيلُ الى الفضاء الاوسعِ
وغدَت تغرّد فوق ذروة شاهقٍ والعلم يرفعُ كلَّ من لم يُرفَعِ
وتظلُّ ساجعةً على الدِمَنِ التي دُرِسَت بتكرار الرياح الاربعِ
اذ عاقها الشركُ الكثيفُ وصدَّها نفصٌ عن الأوجِ الفسيحِ الاربعِ
وغدَت مفارِقةً لكلِّ مخلَّفٍ فيهـا حليف التُّربِ غيرَ مشيَّعِ
هجعَت وقد كُشِفَ الغطاء فأبصرَت ما ليس يُدرَك بالعيون الهُجَّعِ
وتعود عالمةً بكلِّ خفيَّةٍ في العالمين فخرقُها لم يُرقَعِ
فلأيِّ شيءٍ أُهبطت من شاهقٍ سامٍ الى قعر الحضيض الاوضعِ
ان كان أهبطَهـا الاله لحكمةٍ طويت عن الفذِّ اللبيب الاروَعِ
فهبوطها ان كان ضربة لازبٍ لتكون سامعةً لما لم تَسمعِ
وهيَ التي قطعَ الزمان طريقهـا حتى لقد غربَت بغير المطلعِ
فكأنها برقٌ تألّق بالحمى ثمَّ انطوى فكأنَّهُ لم يلمعِ

العرب

طعامهم ومضايفهم

يعرج العرب الدقيق بالماء ويعجنونهُ ويخبزونهُ ملّة على رماد الاثافي . ثم يخلطون معهُ قليلاً من السمن ويضعونهُ على الخوان ويمزجون معهُ لبن النوق او الماعز ليدسم ويطيب. وخبزهم فطائر مستديرة تشبه الكعك يخبزونها على الصاج مؤونة كل يوم بيومهِ

ويصنع العرب سمنهم من اللبن الرائب وذلك بأن تضعهُ المرأة في زق او شكوة[1] وتربطهُ باحد اوتاد الخيمة . وتأخذ بخضهِ ساعة او ساعتين فتكتل الزبدة على وجه اللبن . ولما تفرغ من المخض يأخذون ذلك الخيض ويغلونهُ على النار ويطرحون فيهِ قبضة من الدقيق والملح. فيطفو[2] السمن ويرسب الثفل. اما اللبن الرائب فيقتنون بهِ اذ يستعملونهُ في صنوف الطعام. وقد يضربون السمن ببيضهِ ويختّرونهُ ويجففونهُ في الشمس حتى يقسو ويطحنونهُ كالحنطة في رحى اليد

ويصنع العرب طعاماً من الكماة النابتة تحت الارض. فمتى افرخت وبدت جذيراتها فوق التراب في فصل الربيع ينبش اولاد البدو الارض باوتاد ويجمع كل عائلة منها عدالاً وتدخرها مؤونةً لقوتها زماناً فتقتصد بها عن لحوم الماشية. وهم يأكلونها مسلوقة او مشوية او يعجنونها مع اللبن والماء ويغمسونها بالسمن الذائب

والبدو يقتصدون بطعامهم جداً فيكتفون في الغالب باللبن والتمر او بالثريد والاقط . ويقتنصون الغزلان ويجففون لحومها في الشمس فتزودهم بالطعام اياماً . ويصيدون ايضاً اليرابيع[3] والضباب وتُدعى فأر الصحراء لانها تشاكل فأر المنازل العادية ولا تختلف عنها الا بكبر آذانها وطول اذنابها .

ويستطيب العرب لحم اليرابيع

قلنا ان العرب ذوو قناعة في المآكل نظرًا لقحل بلادهم . فان رعاعهم لا ياكلون الاَّ وقعة من خبزٍ رديءٍ مصنوع من الذرة ويأتدمون باللبن والسمن ونحوهما ويقلّ اكلهم اللحوم . ويسمّون المشوي منها بالحنيذ والمنضج في القدر بالقدير . ومن صنوف اطعمتهم الثريد وهو أُرزّ ودقيق ولبن تُغلى على النار . والاقط وهو خبز وتمر وسمن ممزوجة معًا . والرهيدة وهي حنطة تُدَقّ ويُصَبّ عليها اللبن . واللهيدة وهي العصيدة الرخوة . والهبيدة وهي حبّ الحنظل المحلّى يُطبَخ ويُضاف اليه شيء من الدقيق . والبكيلة وهي اقط يُلَتّ بسمن . والوديكة طعام من الدقيق والشحم . والبريك الرطب يؤكل بالزبد . والبروك الخبيص يعلونه من التمر والسمن . والبسيسة سويق او دقيق او اقط مطحون يُلَتّ بالسمن والزيت . والوهيّة جراد يُطبَخ ويُجفَّف ويُدَقّ ويُخلَط بدسم . ومن مآكلهم ايضًا الفالوذج وهو لباب الحنطة يُربَك مع عسل النحل . واللوزينج وهو نوع من الحلوى يُحشى باللوز والسكّر وهو شبه القطايف . ومن ذلك السكباج الى غير ما ذكر . ولا يعوّل في الصابون عندهم لاجل النظافة الاَّ قليلاً

وقد يولمون الولائم ويأدبون المآدب فتجتمع العشيرة باسرها او الاضياف حول الخوان . فيذبحون خروفًا او شاةً او جملاً ويقطعون لحمهُ قطعًا كبيرة يسلقون بعضها ويشوون بعضها . ثم يغسلون ايديهم قبل الطعام ويبسطون الخوان على الارض ويستعملون فضلات نسيج الخيمة المدلاة الخافقة في الهواء مناديل ينشرونها فوق احضانهم . وياكلون بسرعةٍ لا مزيد عليها . ولا يبالون بسخونة الطعام الشديدة وان كان في حال الغليان . فعلى الضيف ان يعجّل في الازدراد والاَّ فاتتهُ الفرصة ونهض جائعًا . وقد يطهون مع اللحوم الارزّ ويكثرون لهُ السمن ويضعونهُ في جفنة واسعة ويكتّلونهُ باصابعهم كتلاً يقذفون بها الى افواههم . واذا كان الخوان لا يسع سائر المدعوّين والضيوف جلس المتقدمون اولاً ومتى فرغوا اقبل غيرهم . ثم ينهضون عن المائدة وايديهم تقطر دهنًا فيمسحونها

بعوارضهم او بغراند سيوفهم

ولا يُسمح للنساء بالجلوس مع الرجال بل ياكلنَ بعدهم. وللعرب في بعض المحالّ مضايف يترل بها المسافرون وياكلون ويشربون بدون مقابل . ومتى نزل الضيف عندهم ذبحوا له ذبيحة . ويغسلون له رجليهِ ويتقاسمون له خبزًا وملحًا . ومن هذا الوقت يمسي حرمًا مأمونًا مدَّة اقامتهِ عندهم. فمع كونهم يسلبون المسافر في المفازة ولا يرقّ قلبهم لشكواهُ متى وصل الى اعتابهم وجب عليهم اكرامهُ واحترامهُ واطعامهُ ما تيسَّر عندهم

ويجب على المضيف ان يتفقَّد دابَّة الضيف ويكرمها قبل اكرامهِ . وان يحدّث اضيافهُ بما تميل اليهِ نفوسهم ولا ينام قبلهم ولا يشكو الزمان بحضورهم . ويبشّ عند قدومهم ويظهر لهم الغنى وبسط الوجه والطلاقة . ولا يحدّثهم بما يروعهم بهِ . وان يأمر غلمانهُ بحفظ نعالهم وتتفقَّد خدَّامهم بما يكفيهم . وان يمنع حاجبهُ(٤) عن الوقوف ببابهِ عند حضور الطعام. وان يسهر مع ضيوفهِ ويؤانسهم ويريهم مكان الخلاء ويشيّعهم وقت الانصراف

(١) وعاء من جلد للماء واللبن (٢) علاوهم برسب (٣) نوع من القار يُسمَّى بالدرص ايضًا (٤) بوَّاب

العرَب

لباسهم

ان العرب يلبسون الاردية الطويلة والبرود العريضة الخفيفة من قطن اوصوف . ويلبس الزعماء والشيوخ والامراء كساء من نسيج حريري او صوفيّ .

وأكثر البدو حفاة الاقدام مكشوفو الصدور يغطّون رؤوسهم بالمناديل (الكوافي) الحريرية او القطنية ويلفّون حولها لفافة من صوف مبروم تُسمّى "بالعقالات". وبعضهم يتعمّمون بالعمائم ويتنعلون بالنعال واذا امكنهم الحصول عليها استأثروها على تجرُّد الاقدام. وقد يلبسون سراويل واسعة ويتنطّقون بحزام من جلد

اما النساء فيلبسنَ ثوباً قطنياً طويلاً ازرق اوبروداً[1] صوفية ويعصبنَ رؤوسهنّ بالعصائب. وهنّ مولعات بالحليّ والوشْح فيلبسنَ الدماليج[2] والخواتم وربما تختّمنَ في اصابعهنّ العشر. ويتزينّ بالاقراط والقلائد والاساور. ويتحلّينَ كذلك بالحجول او الحجول او الخلخال وهي حلية من فضة كسوار كبير يجلل تلبسها نساء العرب في ارجلهنّ. ويتقلدنَ بالعقود في اعناقهنّ والخزائم في انفهنّ. ومن عاديهنّ ان يذررنَ الاثمد[3] على شفاههنّ ولثتهنّ ليشتدّ لمعان اسنانهنّ ويشمنَ[4] شفاههنّ ومعاصمهنّ ويسدلنَ النقب على وجوههنّ. ومن عوائدهنّ ايضاً احمار الشعر وترجيلة وعقدهُ في القفا وتقضيبه وتجعيدهُ وارخاء الغدائر[5] والعقائص[6] والذوائب[7] والاكتحال بالاثمد وتخضيب اظافر اليدين بالحنّاء. وتمشي نساء العرب في الغالب حافيات بلا نعال. ونساء الفقراء منهم يلبسنَ قميصاً وسربالاً لا غير. والحديثة السنّ تلبس الشوذر وهو الملحفة او بردًا يُشقّ من غير جيب ولا اكمام. وتتطيّب نساء العرب بالاطياب ويتضمّخنَ بالعطور

---

(١) اثواب مخطّطة (٢) حليّ يُلبس في المعصم (٣) حجر يكتحل به
(٤) ما حول الاسنان من اللحم (٥) ينقشنَ بالابر وفي اللارج دقّ
(٦) الناصية او منبتها من الرأس (٧) ضفائر شعر (٨) جمع ذؤابة وهي الناصية

العَرَب

زواجهم وجنائزهم

قلَّ في حرائر العرب من ترغب في الزواج بغير من هو كفوءٌ لها . وقد يعرض الآباء على بناتهم امر الزواج قبل العقد عليهنَّ . وكان الرجال يرغبون في الفتاة الغريبة أكثر من النسيبة ولذلك قالوا في امثالهم التزائع(١) ولا القرائب . وجرت العادة ان ابا البنت او اخاها اذا كان ابوها ميتاً او من كانت تحت حجرهِ من الاقارب يمدُّ يدهُ الى الخاطب او الى ابيهِ او لمن يكون بُعِث وسيطاً . في الطلب علامة الرضى واجابة السؤْل بعد ان يتفقا على مهر معلوم للزوجة وقد يبلغ المهر مبلغاً عظيماً . فلا يمكن للرجل ان يتزوَّج بدون اصداق(٢) الزوجة شيئاً يعطيها بعضهُ قبل الزواج وبعضهُ يبقى ديناً عليهِ تستوفيهِ منهُ متى طلَّقها او من تركتهِ بعد موتهِ عدا حقّها من ارثهِ

ومتى جاء اليوم المعيَّن للزفاف اولموا الولائم وانشدوا الاناشيد وترنموا بالغناء واوقعوا على آلات الطرب . وزُفَّت العروس الى عريسها بعد ان تصلح النساء المسميَّات بالمواشط شأنها . ويقدّم لها الزوج الجلوة(٣) وهي اما وصيفة او حلية مصاغ او كميَّة من النقود . ثم تُضرَب لهُ قبَّة فيدخل عليها وينثر للحضور في العرس اشياء كالكعك والخبيص يسمّونها النثار . قيل ان التمر كان نثار العرب في اعراسهم . ويقولون عن الرجل هو بعل المرأة او حليلها لانهما يحلّان منزلاً واحداً وفراشاً واحداً وعن المرأة هي بعلتهُ او حليلتهُ

ولا بدَّ لنساء العرب من متبنة وهي كيس يضعنَ فيهِ مرآتهنَّ وادواتهنَّ . ويضربون المثل بنقاوة مرآة الغريبة . لان المرأة التي تزوَّجت بغير قومها لا ترى من تعتمد عليهِ فتحتاج ان تنقّي مرآتها من كل ما يكدرها حتى تريها من

نفسها ما يخفى عليها فتزيلهُ. ولذلك يقولون لمن ارادوا المبالغة في وصف نقاوته "انقى من مرآة الغريبة"

واذا لم تحسن المعاشرة بين الزوجين كان للمرأة في الجاهلية حقٌّ ان تطلّق زوجها كما جرت عادة الرجال ان يطلّقوا نساءهم . بأن يقول الرجل لامرأتهِ الحقي باهلكِ . واما النساء اذا اردنَ الطلاق وكنَّ في بيوت من شعرفان كان البيت قِبل المشرق حوّلنهُ الى المغرب . وإن كان ازاء اليمن حوّلنهُ الى الشام وبالعكس . فمتى رأى الرجل ذلك علم ان امرأتهُ طلّقتهُ فلم يأتها بعدهُ . غير ان الشريعة الاسلامية حظرت(٤) على النساء تطليق رجالهنَّ

واما الجنائز فالعرب في الجاهلية يندبون الميت بقولهم "واحرباه" وبالرثاء في الاشعار وإبداء الحزن والاسف. واما تشييعهُ عند عرب البادية فيكون بمشي الاقارب خلف الجنازة حفاة. وتحلّ النساء شعورهنَّ ويلطخنَ رؤوسهنَّ بالرماد ويحلقنَ شعورهنَّ حزنًا على الفقيد . ويستأجر العرب النائحات ليظهرنَ شعار الحزن والحسرة ويذكرنَ مناقب الميت . ثم يحضرنَ شيئًا من الطعام بعد الرجوع من تشييعهِ . وكانت المرأة العربية اذا ناحت على زوجها في حال الوقوف والانتصاب علم انها لا تريد ان تتزوج بعدهُ

وربما دامت النائحات في بلاد مصر مستأجرات اسبوعًا او اكثر الى اربعين يومًا يندبنهُ صابغات ايديهنَّ بالنيلة صبغها بالحناء ولاطخات وجوههنَّ ايضًا بها. ويحللنَ شعورهنَّ ويرقصنَ في الساحات والمحافل رقصًا هائلاً على نقر الدفوف نقرات مزعجة ينشدنَ عليها بصوت حزين تحسبهُ خارجًا من قبور الموتى

---

(١) جمع تريكة وهي الغريبة (٢) مَنْ لها صداقها او مهرها

(٣) الجارية دون المراهقة (٤) منعت وحجزت

قال عنترة يتوعّد النعمان بن المنذر ملك العرب

لا يَحمِلُ ٱلحِقدَ مَنْ تَعلو بِهِ ٱلرُّتَبُ	وَلا يَنالُ ٱلعُلى مَنْ طَبعُهُ ٱلغَضَبُ
لِلّٰهِ دَرُّ بَني عَبسٍ لَقَدْ نَسَلُوا	مِنَ ٱلأَكارِمِ ما قَدْ تَنسُلُ ٱلعَرَبُ
قَدْ كُنتُ فيما مَضى أَرعى جِمالَهُمُ	وَٱليَومَ أَحمي حِماهُمْ كُلَّما نُكِبُوا
لَئِن يَعيبوا سَوادي فَهوَ لي نَسَبٌ	يَومَ ٱلنِّزالِ إِذا ما فاتَني ٱلنَّسَبُ
إِن كُنتَ تَعلَمُ يا نُعمانُ أَنَّ يَدي	قَصيرَةٌ عَنكَ فَٱلأَيّامُ تَنقَلِبُ
إِنَّ ٱلأَفاعي وَإِنْ لانَتْ مَلامِسُها	عِندَ ٱلتَّقَلُّبِ في أَنيابِها ٱلعَطَبُ
اَليَومَ تَعلَمُ يا نُعمانُ أَيُّ فَتًى	يَلقى أَخاكَ ٱلَّذي قَدْ غَرَّهُ ٱلعُصَبُ
فَتًى يَخوضُ غُبارَ ٱلحَربِ مُبتَسِماً	وَيَنثَني وَسِنانُ ٱلرُّمحِ مُختَضِبُ
إِنْ سَلَّ صارِمَهُ سالَتْ مَضارِبُهُ	وَأَشرَقَ ٱلجَوُّ وَٱنشَقَّتْ لَهُ ٱلحُجُبُ
وَٱلخَيلُ تَشهَدُ لي أَنّي أُكَفكِفُها	وَٱلطَّعنُ مِثلُ شَرارِ ٱلنّارِ يَلتَهِبُ
إِذا ٱلتَقَيتُ ٱلأَعادي يَومَ مَعرَكَةٍ	تَرَكتُ جَمعَهُمُ ٱلمَغرورَ يُنتَهَبُ
لِيَ ٱلنُّفوسُ وَلِلطَّيرِ ٱللُّحومُ وَلِلـ	ـوَحشِ ٱلعِظامُ وَلِلخَيّالَةِ ٱلسَّلَبُ
لا أَبعَدَ ٱللّٰهُ عَنْ عَيني غَطارِفَةً	إِنساً إِذا نَزَلوا جِنّاً إِذا رَكِبوا
أُسودُ غابٍ وَلَكِنْ لا نُيوبَ لَهُمْ	إِلّا ٱلأَسِنَّةُ وَٱلهِندِيَّةُ ٱلقُضُبُ
تَعدو بِهِمْ أَعوَجِيّاتٌ مُضَمَّرَةٌ	مِثلُ ٱلسَّراحينِ في أَعناقِها ٱلقَبَبُ
ما زِلتُ أَلقى صُدورَ ٱلخَيلِ مُندَفِقاً	بِالطَّعنِ حَتّى يَضِجَّ ٱلسَّرجُ وَٱللَّبَبُ
فَٱلعُميُ لَوْ كانَ في أَجفانِهِمْ نَظَروا	وَٱلخُرسُ لَوْ كانَ في أَفواهِهِمْ خَطَبوا
وَٱلنَّقعُ يَومَ طِرادِ ٱلخَيلِ يَشهَدُ لي	وَٱلضَّربُ وَٱلطَّعنُ وَٱلأَقلامُ وَٱلكُتُبُ

النَّعامُ

تمتازُ مطايا ٱلعرَبِ ورواحِلُهم بسرعةِ ٱلسَّيرِ وقطعِ ٱلبوادي وجوبِ ٱلصَّحاري. ويشتدُّ هيامُهم بها ومنافستُهم في ٱقتنائِها ولا سيَّما ٱلأمراءُ وٱلزُّعماءُ وٱلشُّيوخُ وٱلسَّراةُ. ومِن ذلكَ (ٱلهُجُنُ) ٱلشَّهيرةُ وٱلجيادُ ٱلكريمةُ ٱلَّتي يصيدونَ ٱلنَّعامَ علَى متونِها

أمَّا ٱلنَّعامُ طائرُ ٱلصَّحراءِ ٱلعظيمُ فكأنَّهُ حلقةٌ تصِلُ ذواتِ ٱلأربعِ بٱلطَّيرِ. وبينَهُ وبينَ ٱلجمَلِ مِن أوَّلِ وهلةٍ بعضُ ٱلمشابهةِ في ٱلصُّورةِ وٱلطُّولِ. ويعلوهُ ريشٌ أشبهُ بٱلشَّعرِ. وتركيبُ باطنِهِ يُشبِهُ تركيبَ كلٍّ مِن ذواتِ ٱلأربعِ وذواتِ ٱلجناحِ مشابهةً شديدةً

ولا خلافَ في أنَّ ٱلنَّعامَ أكبرُ جميعِ ٱلطُّيورِ فإنَّ علوَّهُ يحاكي قامةَ إنسانٍ راكبٍ علَى فرسٍ. وطولُهُ مِن أعلَى رأسِهِ إلَى ٱلأرضِ سبعُ أقدامٍ في ٱلغالبِ. أمَّا مِن ظهرِهِ فأربعٌ فقط. فيكونُ طولُ رأسِهِ وعنقِهِ ثلاثَ أقدامٍ أو يزيدُ. ومِن فمِهِ

رَأْسِهِ إِلَى ذَنَبِهِ سِتُّ أَقْدَامٍ طُولًا حِينَ ٱمْتِدَادِ عُنُقِهِ. وَذَنَبُهُ نَحْوُ قَدَمٍ. أَمَّا لَوْنُ زِفِّهِ (١) ٱلْغَالِبِ فَبَيْنَ ٱلْأَسْوَدِ وَٱلْأَبْيَضِ يَتَخَلَّلُهُ رِيشٌ أَشْهَبُ. وَأَطْرَافُ ذَنَبِهِ وَأَجْنِحَتِهِ بَيْضَاءُ فِي ٱلْغَالِبِ. أَمَّا ٱلصِّنْفُ ٱلثَّانِي فَأَسْوَدُ وَأَبْيَضُ وَكَذَا بَعْضُ ٱلرِّيشِ ٱلصَّغِيرِ ٱلَّذِي عَلَى ظَهْرِهِ وَبَطْنِهِ. وَلَيْسَ لَهُ عَلَى أَفْخَاذِهِ رِيشٌ وَلَا تَحْتَ ٱلْجَنَاحِ. وَجَمِيعُ مَا فِيهِ مِنَ ٱلرِّيشِ عَلَى أَصْنَافِهِ نَاعِمٌ كَٱلزَّغَبِ لَا يُمَكِّنُهُ مِنَ ٱلطَّيَرَانِ وَلَا يَقْدِرُهُ عَلَى دَفْعِ مَا يُلِمُّ بِهِ مِنَ ٱلْخَطَرِ وَٱلضَّيْمِ. أَمَّا جَنَاحَاهُ وَإِنْ كَانَ لَا يَطِيرُ بِهِمَا فَيُسْعِفَانِهِ عَلَى ٱلْهَذَجِ (٢) وَٱلتَّقَدُّمِ إِلَى ٱلْأَمَامِ كَأَشْرِعَةِ ٱلسَّفِينَةِ. وَأَمَّا أَعْلَى رَأْسِهِ وَرَقَبَتِهِ فَمُغَطًّى بِشَعْرٍ أَبْيَضَ لَطِيفٍ جَلِيٍّ لَهُ بَرِيقٌ كَهُلْبِ (٣) ٱلْخِنْزِيرِ. وَلَهُ فِي جُمْلَةِ مَوَاضِعَ خُصَلٌ يَشْمَلُ كُلٌّ مِنْهَا ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ رِيشَةً بَارِزَةً مِنْ مَنْبِتٍ وَاحِدٍ. وَيَقِلُّ فِي طَرَفِ جَنَاحَيْهِ هَنَةٌ (٤) كَٱلْمِهْمَازِ أَوْ كَرِيشَةٍ قُنْفُذٍ. وَسَاقَاهُ مُحَرْشَفَتَانِ (٥) وَمِنْقَارُهُ قَصِيرٌ مُسَنَّنٌ. وَعَلَى ذٰلِكَ كَانَ ٱلنَّعَامُ لَا يُحَاكِي سَائِرَ ٱلطَّيْرِ فِي خَلْقِهِ وَلَا فِي خُلُقِهِ

أَمَّا مَسْكَنُهُ فَفِي ٱلْبِلَادِ ٱلرَّمْضَاءِ مِنْ سُهُولِ أَفْرِيقِيَةَ وَآسِيَا. وَلَمْ يُعْلَمْ قَطُّ أَنَّهُ تَنَاسَلَ خَارِجَ ٱلْبِلَادِ ٱلَّتِي نَشَأَ فِيهَا أَوَّلًا.

فكأنّهُ خُلِقَ لِلإقامةِ في المحالّ الحارّة ذاتِ الرمالِ والهجير. ولا ينشرحُ إلّا بالمجالِ في الأماكنِ المنفردةِ التي لا يزينُ أديمَها إلّا النزرُ القليلُ مِنَ العشبِ والكلإِ ولا يهطلُ عليها الغيثُ إلّا قليلاً

ولا خلافَ في أنّ النعامَ لا يشربُ أصلاً. ويؤيّدُ ذلكَ مثواهُ وحالُ إقامتهِ. وقد شوهِدَ يسرحُ في هذهِ المواضعِ



نعام

الخاويةِ ويأكلُ ما يعثرُ عليهِ حتّى الحصى والحجارِ بدونِ فرقٍ. والظاهرُ أنّهُ لا يهمّهُ فقدُ المؤونةِ ما دامت لهُ كثبانُ الرملِ وأحقافهُ يمرحُ فيها. والنزرُ مِنَ الطعامِ يكفيهِ فلا يحتاجُ إلى كبيرِ كلفةٍ. وقوّةُ هضمهِ شديدةٌ يُعجَبُ منها

ومِن عادةِ الأنثى أنّها تبيضُ في المرّةِ مِن أربعينَ بيضةً إلى خمسينَ. ومعَ أنّ استمرارَ حضانتِها وترخيمَها[٢] على بيضِها في الأقاليمِ الحارّةِ ليسَ بضروريٍّ لا تغادرُ مباشرةَ هذا

ٱلْعَمَلِ لِلشَّمْسِ كَمَا هُوَ مَشْهُورٌ عَنْ رِوَايَةٍ قَدِيمَةٍ بَلْ تَدْفِنُ بَيْضَهَا فِي ٱلْأُدْحِيِّ (٢) وَتَحْضُنُهُ وَتَسْهَرُ عَلَيْهِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ لَيْسَ مِنَ ٱلطُّيُورِ مَا يُهِمُّهُ ٱلْاعْتِنَاءُ بِٱلْمُحَافَظَةِ عَلَى فِرَاخِهِ وَٱلْقِيَامِ بِحِرَاسَتِهِنَّ مِثْلَ ٱلظَّلِيمَةِ (٥) وَٱلظَّلِيمِ. فَإِنَّهُمَا لَا يَنْفَكَّانِ مُوَاظِبَيْنِ عَلَى إِمْدَادِهَا وَإِغَاثَتِهَا بِجَمِيعِ مَا يَتَيَسَّرُ لَهُمَا مِنْ أَصْنَافِ ٱلْغِذَاءِ ٱلْمُوَافِقِ لَهَا. وَلَمَّا كَانَ ٱعْتِبَارُ ٱلنَّعَامِ وَٱلرَّغْبَةُ فِيهِ مُسَبَّبًا عَنْ طِيبِ لَحْمِهِ وَنَفَاسَةِ بَيْضِهِ فَضْلًا عَنْ غَزَارَةِ رِيشِهِ ٱلْبَهِيِّ وَٱرْتِفَاعِ قِيمَتِهِ كَانَ لَهُ أَعْدَاءٌ كَثِيرُونَ يَرْقُبُونَهُ. فَلَوْلَا أَنَّهُ كَثِيرُ ٱلتَّفْرِيخِ وَافِرُ ٱلنَّسْلِ لَٱنْقَطَعَ جِنْسُهُ مُذْ زَمَنٍ مَدِيدٍ

وَيَقْنِصُ ٱلْعَرَبُ ٱلظِّلْمَانَ عَلَى ظُهُورِ ٱلْجِيَادِ. وَلٰكِنْ لَمَّا كَانَتْ أَخَفَّ حَرَكَةً وَأَشَدَّ عَدْوًا مِنْهَا يُعَانُونَ فِي صَيْدِهَا أَشَقَّ ٱلْأَتْعَابِ. فَقَدْ يُطَارِدُونَهَا يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلٰثَةً وَهِيَ تَخِفُّ (٦) أَمَامَهُمْ وَلَوْلَا تَعَبُ ٱلنَّعَامَةِ وَتَعَثُّرُهَا بَعْدَ هٰذَا ٱلطِّرَادِ لَمَا أَدْرَكُوا لَهَا أَثَرًا. وَلَوْ كَانَ سَيْرُهَا عَلَى خَطٍّ مُسْتَقِيمٍ لَفَاتَتْهُمْ وَعَادُوا بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ. غَيْرَ أَنَّهَا تَسِيرُ فِي تَعَارِيجَ بَعِيدَةٍ فَيُلَاقِيهَا ٱلْقَنَّاصُونَ عَلَى أَقْرَبِ ٱلطُّرُقِ وَيَصْطَادُونَهَا. وَقَدْ يَذْهَبُ ٱلْبَدْوُ زَرَافَاتٍ (٧) لِصَيْدِ ٱلنَّعَامِ فَيُحِيطُونَ بِٱلْقَطِيعِ حِينَ ٱنْتِجَاعِهِ ٱلْكَلَأَ ثُمَّ يَدْنُونَ

مِنْهُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ حَتَّى تَضِيقَ ٱلْحَلْقَةُ وَتَكَادُ تَمَسُّهُ فَيَذْعَرُ وَيَأْخُذُ يَدُوسُ بَعْضُهُ بَعْضاً. فَيَضْرِبُونَهُ بِٱلْعِصِيِّ حَتَّى يَقْتُلُوهُ. وَيَصِيدُ ٱلْبَعْضُ ٱلنَّعَامَ بِٱلصَّقْرِ وَٱلْبَازِي

(١) ريش صغار النعام (٢) سير النعام (٣) شعر الخنزير او الشعر كلهُ (٤) شيء (٥) ذات حراشف (٦) حضانتها (٧) بيت النعامة (٨) انثى النعام (٩) يعدو (مختص بالنعام) (١٠) جماعات من الناس

شجرة البُنّ

لا يخفى ان الشاي شراب الصينيين المأثور والقهوة شراب العرب المشهور. اما منابت شجرة البن الاصلية ففي بلاد العرب ولاسيما الحجاز واليمن. واما الآن فيستنبتونها في الهند والولايات المتحدة والبرازيل واماكن اخرى. فانهُ لما كان قد عمَّ استعمال القهوة وكثر شاربوها تعذَّر على بلاد العرب اصدار المطلوب الكافي من هذا الصنف

ولشجرة البن ساق طولها نحو اثني عشرة قدماً واغصان دقيقة مدلاة الى اسفل. ولها ازهار بيضاء تشاكل الياسمين. ومتى سقط الزهر برزت الحبوب شبه الكرز. ورأيت ضمن الكنافخ الصغيرة حبتين بقدر حجم اللوبياء هما البنّ بعينهِ

ومتى بلغت شجرة البن ثلاث سنين كانت في زهوة تزهيرها. ومتى حان الاوان اطلعت الازهار البيضاء في ليلة واحدة. فاصبحت الشجرة مكسوَّة بالازهار البديعة كأنها مكللة بالثلج. وحين ينضج الثمر يتساقط من الشجر فينشر صاحب

الاشجار على الارض ملاءة يجمع عليها الثمر . ومتى جمعة وضعة على حُصُر وجففة في الشمس . وفصل القشرة الخارجية عن الحبوب بالغسل . فتبقى قشرة اخرى صلبة تغلّف الحبوب فينزعها بضغطها بين مدارج خشبية

ويحمَّص البنّ على النار في وعاء من حديد كالمقلاة . ويُقلَّب اثناء ذلك بملعقة من حديد او خشب بمزيد العناية لئلاَّ يحترق فترشح منة مادة زيتيَّة تختثر حينما تبرد . والقهوة من المنبِّهات المنعشة تُستعمل بدون تحلية او محلاَّة بالسكَّر او ممزوجة معة ومع اللبن

قيل ان احد العلماء الفرنسيين اعطى رُبَّانًا مسافرًا الى الهند الغربية ثلاثة اغراس بنّ ليأخذها معة ويستنبتها. فاعتنى الربَّان بتلك الاغراس كل العناية. غير ان الماء العذب نفد من السفينة اثناء السفر ولم يفضل ما يكفي المسافرين اذا تناول كلٌّ منهم جرعة واحدة فباتت تلك الاغراس بدون سقي فمات منها اثنان . اما الربَّان فحرص على الفسيلة(1) الباقية وانكر نفسة لحفظها فسقاها الجرعة المسموح لة بها فعاشت وانتعشت وبهذه الوسيلة دخلت شجرة البنّ الى الهند الغربية فنمت واخصبت ووفرت اشجارها وفرة لا تكاد تُصدَّق حتى ان حكومة البرازيل وحدها اصدرت سنة ١٨٩٠ مليونين و٦٥٣ الف كيس بلغت قيمتها نحو ثلاثة عشر مليونًا ونصف مليون من الليرات الانكليزية

---

(1) النخلة الصغيرة تُقلَع من الارض او تُقطَع من الامّ فتُغرَس

الاقاليم الاستوائيَّة في الكرة الغربيَّة

ان للاقاليم الاستوائية بهاء يمتاز عن سائر المسكونة . وذلك بنضارة نباتها وتنوُّع حيوانها. على انها تشتمل على قسم صغير من الارض بالنسبة للكرة المعمورة.

ولا يخفى ان القسم الاعظم في المنطقة الشمالية المعتدلة تشغلهُ ارض فسيحة الارجاء. اما الاقاليم الحارَّة فتغمر جزءها الاكبر مياه الاوقيانوس. فكأن اميركا وافريقية الحارَّتين جزيرتان في بحرٍ واسع الاكناف. ولا جرم ان كثرة المياه في هذه الاقاليم علاج شافٍ هيأته العناية لتلطيف اشعة الشمس العمودية المتأججة فوق هذه المياه الوافرة في المنطقة الحارَّة. وهي علة الغيوث والسيول الهتَّانة والرياح الدوريَّة ومجاري الاوقيانوس الدائمة. وذلك مما ينوّع هواءها تنوُّعًا يحيّر الافكار. ناهيك ان الارخبيل الهندي وشبه جزيرة ملقًا وجزائر الهند الغربية واميركا الوسطى تمتاز لا محالة باعتدال هوائها الناشئ من المياه الغامرة امتيازًا اعظم مما لو كانت مجموعة معًا في قارَّة واحدة

ومن علل تنوُّع الاقاليم الاستوائيَّة تباين ارتفاع سطحها. فان علوَّ مواقع اراضٍ كثيرة في تلك الاقطار يلطّف فعل حرارتها الشديدة ويحوّلها هواء يحاكي هواء الاقاليم المعتدلة بل اقليمًا يشاكل الاقاليم الباردة. ولا غروَ ان جبال الاندس وحملايا الباذخة من اعظم جبال الدنيا. فترى قممها مكسوَّة بالثلوج الدائمة ضمن المنطقة الحارَّة او في ما يداني تخومها وهلا بيّنة على ان العناية قضت بذلك لتخفيض صرَّة(١) النزالة فوق مساحة ارض يعود الطرف عنها كليلاً. فلا بدعَ ان شاهدت في منطقة اميركا الحارَّة الغربية وفي افريقية واسيا بلادًا واسعة وفلَوات شاسعة مرتفعة فوق سطح الاوقيانوس آلاف اقدام يذكّر هواؤها المعتدل ومحصولاتها الوافرة المسافرَ القادمَ من البلاد المعتدلة بوطنهِ البعيد. ولذلك ترى ان هذه العلل الجيوية والجيولوجية التي تخالها مما لا يُعتَدُّ بهِ قد كست الاقاليم الاستوائية بابدع مطارف(٢) الجمال والنفع ونوَّعت هواءها تنوُّعًا يُتعجب منهُ وانمت في تربتها فصائل نبات وضروب حيوان تذهل الالباب

فاذا اخذنا وطأ اميركا الجنوبية نقطة تأملاتنا رأيناها تشتمل على سهول اللانوس العجيبة في فنيزولا وغرناطة الجديدة. وشاهدنا جبال الاندس الشاهقة ترتفع ارتفاعًا يمثّل كل الاقاليم النباتية من البلاد القطبيَّة المكسوَّة

بالثلوج الدائمة حتى اراضي خط الاستواء الزاهية بالاشجار الفخمة والبقول المتلبّدة . وتعاين على صعيد بيرو وبوليفيا حيوان اللاما والالبكا والفيسونا ترعى الكلأ الخصيب . وترى جمد الشتاء والربيع الدائم متدانيين دنوًّا لا تراهُ في سائر اقاليم الدنيا . وتعاين اودية عميقة تخرقها رياح هذه الانجاد القاصفة وتظلّل المسافر من البرد القارس حتى اذا خدرت اعضاؤهُ من زمهرير هذه الشواهق الرفيعة انحدر الى تلك المضايق المظلَّلة فرأى نفسهُ قد نُقِل فجأَةً من القطبيتين الى فردوسٍ ارضيّ

ولما كانت هذه الاودية واقعة في علوّ لا يشعر بهِ المسافر بالهجير والهواء ليس بشديد الرقّة والمكان مُحاط بالجدران الصخرية من عواصف تلك السهول الصردة[2] اصبحت ذات جوٍّ صافٍ وهواء مقوٍّ للابدان . فيرى السائح القادم من البلاد المجدبة نفسهُ محاطًا بحقول حنطة خصبة . ومروجٍ خضراء واشجار باسقة تكلّلها الاثمار اليانعة على اختلاف ضروبها وصنوفها. فيخال ان ساحرًا نقلهُ من وطنهِ البهج الى جنّةٍ غنّاء بديعة. ولولا الاشجار الغريبة مثل الكاكتس والاغيفس النامية عند حضيض الجبال لزادهُ الامر عجبًا واشكالاً

وتوجد في هذه البلاد العجيبة اقاليم يغادر بها المسافر مرقدهُ المغطّى بالثلج صباحًا ويقطف قبل غروب الشمس الصنوبر والتمر والموز من اطراف الغياض الطبيعية . فقد ذكّرتهُ اعشاب السهول القاحلة الجرداء الجافّة صباحًا بالمنطقة القطبية وقبل ان خيّم الغسق اضطجع تحت اشجار النخل الكبيرة الباسطة فروعها الى كل الجهات

ومتى هبط الى شاطئ الباسيفيك اصبح في ساحل بيرو الرمليّ القاحل حيث لا تكاد العين ترى سوى جرف الرمال وركامها ورُجُم الحجار . ولا يرى للنبات اثرًا على مدى اميال عديدة ولا يشاهد ينبوعًا ولا قطرة ماء. ولكن متى اتى الى جانب الاندس الآخر بدا لهُ مشهد عجيب يباين ذاك كل المباينة. فان ذلك القطر مفازة جرداء لا ماء فيها ولا شجر . اما هذا فحقيق[4] الامازون

الخصيب ملك الانهر وجبارها . فقد حفر هذا النهر لنفسهِ قناة واسعة جدًّا وسط مروج فسيحة وغابات عظيمة

اما نبع الامازون فمن قمّ جبال الاندس حيث بيني الرخم وكتة . وحوضهُ عظيم جدًّا حتى يمكن وضع اوربا الغربية كلها ضمنهُ بدون ان تمسّ اطرافهُ . وهو برمتهِ واقع في المنطقة الحارّة على جانبي خطّ الاستواء تهطل على مساحتهِ كلها امطار غزيرة

ويزيد هذا النهر شتاء زيادة عظيمة جدًّا حتى يبلغ ارتفاع المياه في بعض اقسامهِ اربعين قدمًا ونيفًا . فقد شاهد السيّاح صيفًا اشجارًا عند ضفّة النهر على جذوعها آثار طغيان سابق علوّها خمسون قدمًا ونيّف . ومتى زاد هذا النهر العجيب وارتفع طغى على ضفافهِ الواطئة فهاج وجاش[٥] وازبد واصبح جريانهُ في تلك البقاع رائعًا يذهل العقول . فترتجف اضخم اشجار الغابات تحت ضغطهِ الشديد وتُقلَع اعظم الجذوع وتُحمَل مع سيلهِ شاهدةً لقوّتهِ الغريبة . وتسبح الاسماك والدلافين والحيتان حيث كان النمر يأوي كناسهُ كامنًا لفرائسهِ . ولا يبقى الّا بضعة طيور على رؤوس الاشجار العالية فتشاهد هذا العجيج وتسمع هذا اللجب[٦] الذي ازعج سكون الغياض

ثم متى عاد النهر الى حدودهِ الاصلية برزت من ارضهِ جزائر جديدة واختفت جزائر قديمة . وامست السفن الماخرة في بعض محالّهِ تحت خطر السحق من انهيار الارياف التي تخللتها المياه . وهذه نازلة يكثر حدوثها ولاسيما اذا هبط الى النهر مع تلك الضفاف الرخوة اشجار كبيرة

واذا مخر السائح في الامازون رأى نباتات تسحر الالباب تزهو ببهائها البديع . وتاءين الدوح فوقهُ كمظلة غضّة باسقة تنفرج آونةً فيرفع نور الغزالة الحجاب عن اسرار تلك النجاد والوهاد ويخرق البصر اقاصي تلك الادغال العجيبة . وطورًا تتشبك فوقهُ الفروع والاغصان فتسدل الستر على تلك المشاهد البهيّة . وتارةً يرى روابي وآكامًا وهضابًا تبسق اشجارًا غبياء مشتبكة

تنافس جنّة عدن. ويعاين هناك ايضاً لحاء(٧) وليفاً تعرّش عليه اكاليل الازهار الجميلة وتفعم الهواء بشذا عبيرها. وطيوراً فائقة الاحصاء تتفاخر بنفاستها الوان الازهار النابتة في هذه الحدائق المعلّقة بعضها فوق بعض طبقات فتؤنسها برخيم سجعها وزخارف ريشها. ويستقرّ على هذه الاشجار طائر اناكو والعصافير الدنّانة تنشب من زهرة الى اخرى كوميض البرق. تحوم لديك هنيهة كأنها تريك لمحة من جمالها البديع ثم تغيب بسرعة تحاكي سرعة الافكار. وتدير بصرك فترى الجوارح ترفّ في الغاب والتمساح رابض في المياه "كجلود صخر حطّه السيل من علٍ". وتكاثر في هذه الأيك(٨) الوارفة(٩) القرود المختلفة الاجناس والانواع والاشكال. وكل نوع كراديس وكتائب مكتّبة تتناهب الاثمار التي يتعذّر على هيج تلك الاقطار الفسيحة الانتفاع بها. على ان كثيراً منها يعيش على الحشرات. وكلها تقتصر على سكنى الغابات ولا تخرج منها الى الفلوات قط الاّ اذا الجأتها الضرورة القصوى. لانّ اشجار الغياض تزوّدها بالطعام الكافي. فتأمن في وطنها غوائل الوحوش الفاتكة ولذلك لا ترى باعثاً على ابدالهِ بالمكامن المستهدفة للاخطار

وقد منحت الطبيعة هذه الحيوانات بقوائم قوية للتسلّق والجولان على الاغصان. وامدّتها بأيدٍ كبيرة وكفوف مندّاة بمادة غروية لتسهيل القبض على الفروع. وخوّلتها ذنباً يصحّ ان يُدعى يداً خامسة لا يقلّ تركيبهُ غرابةً عن خرطوم الفيل مكسوّ في اعلاهُ بشعر قصير ومجرّد منهُ في اقصى طرفهِ. فيلفّ القرد هذا العضو العجيب حول الاغصان كأنهُ اصبع ليّن وهو مع ذلك متين يتعلق بهِ فيتدلّى من الغصن ويهتزّ اهتزاز رقّاص الساعة فلا يكاد يمسك الفرع الآخر بقوائمهِ الطويلة حتى يلف يدهُ الخامسة عليهِ ويثب الى غيرهِ. فتراهُ ينتقل على رؤوس الاشجار آمناً من السقوط بسرعة البرق حتى لا تصلهُ في فرارهِ بندقيّة الصيّاد

ومن وحوش هذه الادغال الضارية النمر الاميركي. وهو شديد البطش

والفتك ويضارع الببر برُقط جلدهِ ويحاكي النمر البنغالي في جسمهِ وقوتهِ. فتعاينهُ النهار كلَّهُ جائلاً او سابحًا في الانهر الوسيعة . وهو عدوٌّ فتّاك سواء كان على اليابسة او في المياه . ومتى طاردهُ صيّاد وادركهُ هجم على قارب عدوّهِ والجأهُ الى القاء نفسهِ في الماء والفرار بغية السلامة من بطشهِ. وكثيرًا ما مزّق هذا الوحش المنود الجائلين في الاقطار القليلة السكان المتصلة ادغالها المتمة بالحزون والفلوات وافترسهم. ولا يتجرأ اهل تلك المزارع والضواحي على الخروج من اخصاصهم (١٠) بعد غروب الشمس خشية فتك النمور. فلا تذعرهُ رؤية الانسان ولاسيما اذا كان منفردًا وقد تضوّر الوحش جوعًا بل قد يهجم قرى الجبال طلبًا لفرائسهِ

اما القواصف التي تثور فجاءةً في الامازون فتذكّر المسافر بزعازع الاوقيانوس . وقبل قدوم هذه الانواء تنذر قهقهة القرود ومواء الهررة وقباع الخنازير وزئير سائر الوحوش وعواؤها وهريرها وارتياعها الصريح بوشك كباح العناصر الجوية . فتخف (١١) ثم النحل وتختفي حين لا تشعر بنسمة تحرك سطح النهر. ثم تسمع حفيف هواء خفيفًا ثم يلتحف الجوّ بالصباب القاتم ويومض البرق ويدمدم الرعد فكأن ابطال الطبيعة تجنّدت للصدام .

واذا بذلك الدوح المهوب يئنّ ويزفر تحت صدمة الزوابع العاصفة . فتحجب الظلمة المدلهمّة وجه الطبيعة وتنحّ الغيوث وابلاً (١٢) وشآبيب بين لمع البروق المومضة وزئير الرعود المزمزمة فيرتفع النهر كالاطواد شامخة ثم يهبط كاودية عميقة . فاذا الفت الاقدار سفينة في هذا النوء اضطرّ ربّانها الى مهارة فائقة كي يقيها من الغرق. غير ان الملاّح المتدرّب قلّما يبالي بهذه الاخطار بل يمخر بقاربهِ بين يديه تحركها البراعة والشجاعة مستدلاً على هياج العاصفة بعلامات يعلمها فيتدر ان تفاجئهُ على غرّة (١٣) وتطمو عليهِ بامواجها العجّاجة

ولا يخفى ان اشجار غابات الاقاليم المعتدلة متشابهة النوع في الغالب وقلّما تزيد عن ضرب واحد من الاشجار. غير ان غياض البلاد الاستوائية تحوي

عيالاً وطوائف لا تكاد تُعَدّ تزاحم بعضها بعضاً على الحياة. فاذا أجلتَ النظر في بقعةٍ وإن صغيرة لا تجد شجرة تشاكل اختها . ويبدو لك هذا الاختلاف ولو عن بُعدٍ. فتعاين اشكالاً وصوَرًا غير منتظمة . هنا شجرة تحاكي القبّة وهنالك اخرى منتصبة تضارع المرَم مرتفعة فوق الاوراق الخضراء العريضة وهكذا الى ما لا نهاية . ثم متى دنوتَ من هذا المشهد رأيتَ ايضاً الوانًا شتّى تزهو في تلك المنابت الغنّاء . ولا غرو ان اطراف الاقاليم المعتدلة مجرّدة في الغالب من الازهار. اما اشجار الغياض الاستوائية فكسوّة بازهار كثيرة وممتزجة مع زراجين[14] الاوراق تنافس الوانها البديعة اخضرار الغصون وتختلط رؤوس الاشجار الزاهية بالبياض والصفرة والاحمرار بالوان اقتم واغبس . ثم متى ولجتَ الدوح رأيت للاوراق صوَرًا واشكالاً لم تكن تخطر لك بالبال . وشاهدت بعضها أملس كالريش وغيرها كثيرًا جدًّا منتسماً الى دوائر منفصلة وسواها ضيقاً . وغيرها عريضاً . ومنها ما هو محدّد الرأس او مسنَّنة او واسعة. ومنها لامع غض كأنّه في نضارة الصبا . وغيرهُ مظلمٌ جافٌ كأنّه في هرَم الشيخوخة . ومتى هبَّ النسيم على الاوراق رأيتَ بعضها بلون اللجين . وغيرها بلون النضار . وسواها كالفيروز او الزمرّد او العقيق

ومما يميّز الاقاليم الاستوائيّة تنوّع النباتات. غير ان تلك الانواع لا تجتمع اجتماعاً يُعجب منه اكثر مما في صعيد المكسيك حيث يرتقي النبات من منطقة الى أُخرى من حضيض الجبال الى قمم لا مثيل لارتفاعها في العالم باسره

---

(١) شدّة حرارة الشمس (٢) اردية من خزّ (٣) الباردة (٤) وادٍ وكل مسيل شقّهُ السيل (٥) اضطرب (٦) هياج (٧) قشر الشجر (٨) الشجر الملتف (٩) نضرة ونعمة (١٠) بيوت صغيرة (١١) تصوّت (مختصّ بالشجرة والطائر) (١٢) مطرًا شديدًا (١٣) بغتة (١٤) شجر الكرم او قضبانه

الاقاليم الاستوائيَّة في الكرة الشرقيَّة

لما كانت افريقية قليلة البواغيز والخلجان والاغوار[1] كانت ادنى القارَّات بالتمدن والمعرفة بداخليتها اقل من سائر الاقاليم الاستوائية الاَّ اواسط اوستراليا غير ان ما عُرِف منها يدل على انها ليست مجرَّدة عن تنوعات الاوضاع والنبات والحيوان المميّزة للمنطقة الحارَّة التربية . وتمتدُّ افريقية الاستوائية من وسط الصحراء الى شمال سهول قبيلة البوشمَن في الجنوب. ومما يميّز هذه المساحة العظيمة البحيرات الكبيرة الواقعة على خط الاستواء وهي من اعلى ينابيع النيل . والنيل نفسهُ الذي يناظر الامازون في طول مجراهُ يُعدُّ نهرًا استوائيًّا . وتشتمل افريقية الاستوائية ايضًا على ثلاثة اطباع[2] اخرى عظيمة وهي النيجر شمالاً والكونغو غربًا والزاميزي جنوبًا

اما داخليتها فليست كما كانوا يزعمون كونها بلاقع وصحاري بل هي اقليم خصيب تسقيهِ مياه غزيرة . وهو خليق بالاعتبار لاتساع مساحة حياتهِ النباتية والحيوانيَّة. ومن اعظم عجائب نباتهِ شجرة الباوباب التي لقبوها صوليًّا فيل العالَم النباتي . فقد قاسوا قطر قاعدة شجرة واحدة فبلغ ٣٠ قدمًا ودائرها ٩٥ . ولما كانت هذه الاشجار في الغالب مجوَّفة استعملها القوم هناك مزارب ومحالَّ للسكن. قال الدكتور ليفنستون انهُ رأى شجرة يمكن عشرين او ثلاثين نفرًا الاضطجاع ضمنها كما لو كانت غرفة كبيرة . وفيهــا ايضًا حيّز ضخم ينصب الزنوج تحتهُ المضارب والخِصاص . وترى ايضًا عند سواحل البحر وضفاف الانهر اشجار المَاركروف الكبيرة الحاكية البنيان الممتدَّة الى مساحة لا تكاد تُصدَّق

امَّا فساد هواء مصابّ الانهر في افريقية فيُعزَى بالاكثر لهذه الاشجار. لانهُ ينبعث من جذورها المجرَّدة رائحة كريهة . ولذلك كان السكان بقرب هذه الاشجار مُعرَّضين لحميات وبيلة قتَّالة . قال المستر كيترلي " ان غابة ماركروف

خُسفت فجأة وكان وراءها دغلٌ آخر طبيعي والرداغ[٤] السائل تحتها مجرّدًا ضارًا بالصحة . والسراطين الكبيرة الارجوانية العديدة الاحصاء ترجف على لحاء الاشجار المشتبك صاعدةً ونازلةً . والضفاف الموحلة السوداء مغطاة باوراق كالجلود . والالياف المتدلّية من الاشجار بين الحجارة اللولبية تساقط لتتشبّث بالاغصان والرقارق وتنبت جذورًا جديدة . وكان ذلك جميعهُ شركًا هائلاً يقنص المسافرين بحبائلهِ الرائعة . ولم يكن هناك منفذ ولا باب للنجاة سوى منطقة سوداء من اشجار الماركروف . ولا تشاهد الاّ أيك اشجار كبيرة والدة ومولودة (اي اصليّة ومتأصل منها) تنتشر انتشارًا سريعًا هائلاً لتصدّ الهواء وتحجب النور . وكنت تسمع دجاج الماء الاسود ينق نقًّا محزنًا ويعدو نحو الظلام الموحش . وغربان الليل الجشّة الاصوات المخبأة بين الجذور ترعب المسافر بنعبها المجائي ثم يعقب ذلك صمت القبور

ونكثر في انهر افريقية التماسيح كثرتها في انهر اميركا . وفيها فرس الماء والكركدنّ . واشدّ هولاً من الجميع وحيد القرن . وزد الى ذلك عراجل الافيال الجائلة في الفلوات والسهول والسابحة في الانهر سطورًا سوية وخراطيمها مرتفعة في الهواء . او مستحمّة في البحيرات الضحليّة لترطّب اجسامها وتقي انفسها من الهوامّ . وهنالك ايضًا الرئم والزرافة والجاموس وحمار الوحش الوافرة العدد في حزون افريقية الوسطى وجنوبيها من نهر اورانج الى جنوبي سنيغال ونوبيا شمالاً

ولما كانت صحراء افريقية . بتلظية الرمضاء تزوّت[٥] عليها الحياة النباتية والحيوانية غير انها تطبع عليها شكلها الخاصّ . فقد كنت ترينها الاحياء على اديمها من البدو السمر الالوان حتى الدود الذي لا تكاد تميّزهُ في الرمال بكمائها الطبيعي اي الاصفرار الضارب الى السمرة . وعلى ذلك ترى الغزلان والايائل حتى القبّرة الطائرة في الجوّ مرتدية بهذا اللون . اما هذه القاعدة فلا تخلو من الشذوذ بين طوائف الطير ولاسيّما كلّما قربت تخوم الصحراء من الواحات

واذا اعتبرنا ندرة نبات الصحراء لا نعجب من قلّة الحياة الحيوانية فيها .
فقد اخطأ من سمّى الاسد ملك البيداء لانك لا تراهُ الاّ على تخومها. لان السباع لا تستطيع الحياة بدون لحمٍ وماء فهي تجانب المفاوز والابارق[٦] الرملية . ولا تغادر جبال الاطلس المدغلة ولا سهول السودان الخصيبة ولا تقامر بالجولان في السباسب[٧] . لذلك لا يقع بصرك هنالك الاّ على الحيّات والعقارب

والحياة الحيوانية تختلف في تلك الفيافي[٨] والتنائف[٩] بين الشمال والجنوب حسب الفصول . فمتى سحّت[١٠] المزن[١١] الوابلة على تخومها الشمالية شتاء وربيعاً احيت مفاوزها المقفرة بقيظ الصيف وجادت عليها بالحبوب الاخضر . فاخذت القبائل المتبدّية تضرب في اغوارها وانجادها ووهادها ووهادها تسوق قطارات الابل والخيل والغنم والماعز . ومتى تلظّت حرارة الشمس انتقلت الى الاقاليم الباردة وهجرت الوحوش والضواري كالاسد والنمر والضبع والغزال ذلك القطر ورحلت جنوباً . فوجدت زاداً يلائم ذوقها وشهوتها . ورأيت النعام يهدج[١٢] نحو الجنوب تاركاً مسرحهُ الشمالي حاسباً سهول الصحراء الحارّة فردوسة النضير حيث تحلو لهُ فيها المعيشة ويطيب المقام

ولا يخفى ان بلاد العرب وإن حوت اقاليم جيدة خصيبة تفرّدت بالاخضرار الدائم اكثرها قفار بين مجهل يضلّ سالكهُ وجدجد[١٣] يعثر راكبهُ وحزيز[١٤] يدمي واطئهُ . وقفا[١٥] يُخسف تحت دائسهِ . وبيهاء[١٦] تقلّ[١٧] احشاء جانبها الح وكلها تحت جوّ لا تحجبهُ الغيوم تمدّ حزوناً لا يدرك الطرف اقصاها وسباسب وصفاصف[١٨] رملية تقلّها قبّة زرقاء وبلاقع واحقاف[١٩] جرداء غرب عنها كل انس وبهاء . وتحيط بهذه الصحاري وتخللها جبال صمّاء تنتشر سلاسلها في جهات شتى من تخوم فلسطين الى سواحل الاوقيانوس الهندي

فلولا الاودية الخضراء هناك الواقعة بين الآكام والهضاب والآبار المجمعة من مياه الامطار لبات الجزء الاكبر من بلاد العرب قاعاً صفصفاً غير مأهول ولا معمور . فلا عجب ان كان ينبوع الماء في بلاد كهذه حيث تنقضي سنون

لا يهطل قطرة غيث كثرًا لا يُثمن عند كل عشيرة حلّت على اديم تلك الغبراء. فقد ترى محالّ فسيحة لم يذُق سكانها نعيم غزارة الماء بل لا تشاهد سوى مفاوز يطوي المسافر في سلوكها اياماً ولا يتمتع برؤية بئر واحدة

والارجح ان واحات اسيا الوسطى كانت مهد الخيل ومنشأها. غير ان هذا الحيوان الكريم لم يبلغ الدرجة العليا في النشاط والخفّة والسرعة الاّ في بلاد العرب. فان رقة معاملة الخيول هناك وتدريبها واحكام العناية بها اكستها طباع اللطف والولاء لاسيادها . فاذا لم يستخدم البدو العتاق (٢٠) واليعابيب (٢١) في الحروب والاسفار سرّحوها بين خيامهم. فقد تصادف الاولاد في سبيلها منجعين على الثرى فتضمّ قوائمها وتحيد عنهم خشية ايلامهم . فقد تعوّدت الخبب (٢٢) والاعجاج والاعناب والاهماج ولم تثلم مشاعرها بالمهاز والسوط بل ضبطت قواها للطراد والسباق والحاق حتى اذا احسّت بمسّ اليد او بحركة العنان اهتجت تعدو فتسابق الرياح . واذا ترجّل صاحبها في طرادهِ الحثيث وقفت على الفور الى ان يستأنف امتطاء صهواتها

ويعتبر البدو الجمال عطيّة مقدّسة لا تُثمن . فان تلك المطايا القوية الصبور تمِدُّ أعراب البادية بالقسم الاوفر من حاجاتهم بل تكفل استقلالهم وتؤمّنهُ من الطوارق بوضع الصحراء بينهم وبين الاعداء . ولذلك كانوا منذ القديم مفطورين على حبّ الحريّة لا يدينون لوازعٍ ولا يطيب لهم سوى الهيام في الفلوات . فكانت (هجن) العربية ورواحلها ذريعة حريتهم الابدية

واذا التفتنا الى دوح الهند رأينا النمر هنالك سيد الوحوش كما ان الاسد ملك الضواري في افريقية . والنمر حيوان بديع المنظر مخطّط بالوانٍ سوداء وبيضاء لطيف الحركة رشيقها شرس الطباع وحشيها . ولما كان جسدهُ منتصباً على قوائم قصيرة اعوزته صورة الاسد المهوبة . واذا نظرتَ رأسهُ المجرّد وعينيهِ القادحتين شررًا ولسانهُ القرمزي المتدلي من شدقيه علمتَ ان سحنتهُ كلها تدل على ظمإٍ للدماء لا يُروَى وطباعٍ وحشيةٍ لا تعرف الرقّة والرأفة . فهو يبطش

بكل حيّ يصادفهُ في سبيلهِ . فيكمن بين غابات الخيزران وعلى شواطئ البُرَك والانهر مترقبًا قدوم قطيع او عانة من الوحوش حيث ينشد فرائسهُ ويصرعها ركامًا . بل قد يغادر الرئم يتمرَّغ بدمهِ في نزع الموت ويثب على طرائد جديدة يزرق اجسامها بمخاليهِ . ثم يغمس خطمهُ في نجيع(٢٢) الجراح المتفجرة لينهل من نبعها السائل ويروي أُوامهُ(٢٤) الذي لا ينفكُّ متلظيًا

ولا شيء ابهج للقلب من دوح جاوا حيث تكثر الاشجار النضَّة التي غرستها يد الطبيعة فحوّلت تلك المفازة الى جنَّةٍ غنَّاء . غير ان المسافر لا يجرأ على خرق هذه الآجام ولو نهارًا بدون ان يصحب معهُ ادلّاء واعوانًا . فقد تقف الخيل في هلع ورعدة متى ولجت ذلك الغاب المشتبك المرتفع عن مهاد السهول الخضراء كجزيرة لاستدلالها بقوَّة شمّها الحادّ على نمر كامن في الدغل لا يبعد عنها الّا بضع خطوات

ويكثر حيوان الببر والابرد في اقاليم العالم القديم الاستوائية . فان موطن هذه الوحوش في افريقية والعجم والصين والهند وجزائرها . ولذلك كان لها مجال افسح مما للاسد والنمر . فهي تحاكي الاخير في وثوبها على الفرائس والكمون في جوانب الادغال والوثوب فجأةً على طرائدها . قيل ان صيد الببر اشد خطرًا من اقتناص الاسد . لانهُ يتسلق الاشجار على ايسر اسلوب ويتبع عدوَّهُ على الاغصان فيدركهُ

ثم اذا ادرنا البصر نحو براري اوستراليا الشمالية بدت لنا صورة جديدة من الحياة الوحشية . ورأينا بين نباتات ذلك الاقليم الجديدة وحيواناتهِ الغريبة طوائف بشر جديدة انفردت بلغات وعوائد واخلاق يُعجَب منها . فهذا الجيل وان كان همجيًا وفي احطّ مراقي الانسانية يلذّ للطالع الوقوف على بعض مناقبهِ ومعائبهِ . ولا نذكر منها الّا اسلوب صيدهِ حبًّا بالايجاز

متى رام الاوسترالي الهنديّ صيد القفر ناظر الهندي الاميركي النحاسيّ اللون ونافسهُ في العزم والثبات والذكاء وحدَّة البصر عند تأثُّرهِ وحوش

الغابات البرازيلية . فتراهُ يُجيل طَرْفهُ من جهة الى أُخرى بزيد الحرص والانتباه والقلق . فلا يقع بصرهُ على هذا الوحش حتى يخفّف وطأة خطاهُ ثم يقف كجلمود لا يبدي حراكاً كأنه صنمٌ او تمثالٌ . ثم تلقي زوجاته العيدات عنهُ قليلاً بانفسهنَّ الى الارض كأنهنَّ رُمينَ بالنار . فاذا حدَّقتَ النظر بالجهة الواقعة على مدى نحو مئة خطوة عن يمين الصيّاد رأيت القنفر منتصباً على



قائمتيهِ الخلفيتّين ومُسنَداً بذَنبهِ . وعاينتَ رأْسهُ المتطاول فوق جسدهِ المرتفع ارتفاعاً يعلو عن الارض خمس اقدام اوستّ واذنيه منتصبتين تنصتان للهندي باصغاء لا مزيد عليهِ . ثم ترى ايضاً رأْساً صغيراً يتلصّص من فوهة كيس لحميّ في صدر انثى الحيوان كأنهُ يروم الاستعلام عن السبب الذي ازعج امهُ . اما الهندي فيحافظ على السكون التامّ حتى لا تستطيع ان تميّزهُ عن جذوع الاشجار السوداء من تقادم العهد . ويبقى على وضعهِ المذكور بضع دقائق الى ان يسكن جاش القنفر ويثق بالامن . فيسقط على قائمتيهِ الاماميّتين ويقفز قفزةً او قفزتين يسوم الكلاَ

اما الهندي فيتقدّم متسللاً ماشياً مشياً بطيئاً ورافعاً ذراعيهِ متأهباً لاطلاق

النبال الى ان يدنو من طريدته. فيرسل السهم كالبرق وله رنين وصليل فيخرق جسد الحيوان المسكين . فيعجّ الغاب كله بهتاف النساء والاولاد الذين يشدُّون وراءهُ فيلتفت نحو مطارديهِ مسندًا ظهرهُ الى جذع شجرة ويتحفّز للوثوب على من يدنو منهُ ليمزّقه . اما الاوسترالي المكّار فيجانب مخالبهُ القتّالة ويرميهِ في صدرهِ بالحراب فيصرعهُ الى الارض

وقد امتازت الابحر الاستوائية بشدّة عواصفها وانواعها امتياز براريها بعظمة مناظرها الطبيعية . وتثور هذه الزعازع الهائلة في ابحر الهند والصين عند قدوم الرياح الدوريّة . اما في الهند الغربية ففي بدء فصل الشتاء . فقد اطارت هذه الزوبعة[٢٥] في جزيرة كواديلوب في تموز عام ١٨٤٦ ابنية متينة مشيدة من الحجر الصلد ومزّقت مدافع بطارية عن عجلاتها . وهدم غيرها منذ بضع سنين كنيسة وجرف اثنين وثلاثين سفينة الى الساحل فتحطّمت. ثم ثارت ريح هجوم[٢٦] بعد ايام في بورت لويس وكسّرت اسطولاً برمّته واطارت قلوع بعض سفنهِ في الهواء فاطلقت المدافع علامة الضيق الشديد على غير طائل

هذه هي بعض نوازل الزعازع الهائلة في الاوقيانوس الاتلانتيكي والاوقيانوس الهندي . اما عواصف الاوقيانوس الباسيفيكي فليست بأقلّ هولاً منها . وقد اخطأ من سماهُ بهذا الاسم (الباسيفيك في بعض اللغات الاوربية السلام) فان امواجهُ كثيرًا ما تطغو على الجزائر المرجانية وغياب بولينيسيا النخلية فتغرّقها . وقد ثارت ريح زعزع[٢٦] في آذار عام ١٨٤٥ في جزيرة بيكتاريزت فقلعت ثلاث مئة نارجيلة من اصولها والقتها في البحر . واغرقت كل زوارق الصيد في تلك الجزيرة . واستأصلت الوفًا من شجر الموز المثمر وجرفتها الى اليمّ[٢٧]

اما هذه العواصف الاستوائية وان حُسِبت آفة تلك الاقطار فقد جنى منها اهل تلك البلاد نفعًا لا يقلّ عن اضرارها . لانها تمحو آثار الامراض الوافدة الوبائية وتميت ملايين الحشرات القارضة آمال الفلاحين . وفضلاً عن ذلك هي وإن فاقت شدّتها هوجاء[٢٨] البلاد المعتدلة علة خصب النبات

وقصارته النادرة المثال وجودته العجيبة . وهذا دليل على ان خير الطبيعة المأثور مخبوء في احوال كثيرة تحت فَتِيّ غضبها وصخبها (٣٠) الشديدين

(١) جمع خور وهو الخليج من البحر ومصبّ الماء في البحر (٢) الانهر الكبيرة (٣) الطين الرقيق (٤) صوت غليظ فيه بحّة (٥) قلّت (٦) اراض غليظة فيها حجارة ورمل وطين مختلطة (٧) المفازات او الارض المستوية البعيدة (٨) مفازات لا ماء فيها (٩) الفلوات والاماكن الصلبة الغليظة (١٠) سالت (١١) السحاب ذو الماء (١٢) يسير (١٣) ارض غليظة صلبة (١٤) ارض ذات حجار كأنّها سكاكين (١٥) ما احدودب من الرمال (١٦) ارض واسعة لا ماء فيها (١٧) تُعطِش (١٨) المستوي من الارض (١٩) المعوّج من الرمل (٢٠) الخيل الكريمة الاصل (٢١) الافراس السريعة الجري (٢٢) الخبب اقل عدو الفرس والاهماج اشدّها (٢٣) الدم الذي الى السواد او دم الجوف (٢٤) عطشة الشديد (٢٥) الريح الشديدة المرور (٢٦) الريح الشديدة التي تقلع الخيام (٢٧) ريح شديدة الهبوب (٢٨) البحر (٢٩) الريح التي تحمل الغبار والتراب وتقلع البيوت (٣٠) شدّة الصوت والجلبة

العمل بالمواهب

اذا نلنا من المولى النفائس فلا نحنِ الرؤوس الى الخسائسْ
مواهبنـــا تقلُّ اذا علاها صداهٔ بالبطالة والوساوسْ
وتصدأ مثل الآلاتِ قوانا ولكنّ التدرُّب خيرُ حارسْ
اذا صدأت جلوناها بشغلٍ ودرسٍ في المكاتب والمدارسْ

سياستُنا بتمرينٍ وجدٍّ تعيشُ مصونةً والعقلُ سائسْ
يزينُ جسومنا أدبٌ وعلمٌ وتقوى لا الجواهرُ والأطالسْ
مواهبُنا مقدَّسةٌ قواها تُجلُّ عن الرذائلِ والدسائسْ
تشرِّفها الفضائلُ ناشراتٍ لواءَ هدًى وأخلاقٍ أوانسْ
وعفّةُ أنفسٍ وكلامُ صدقٍ تُزانُ بهِ المحافلُ والمجالسْ
جمالُ حياتنا يبدو سناهُ بأعمالِ التُّقى لا بالملابسْ
وبالعملِ الجليلِ وكلِّ كدٍّ بما فيهِ مواهبُنا تمارسْ
فما فقرُ الفتى عيبٌ ولكنْ فقيرُ فضائلِ الأعمالِ بائسْ
فهبُّوا وامتطوا صهواتِ شغلٍ وغزينَ كأبطالٍ فوارسْ

ليس الجميلُ جميلَ الوجهِ والحُللِ بل مَن ثنى العزمَ نحوَ الجدِّ والعملِ
يقضي الزمانَ بنفعِ الخيرِ مجتهدًا بالكدِّ مشتغلاً كالفارسِ البطلِ
انَّ المواهبَ من مولى العبادِ لنا للتبرِ والربحِ لا للَّهوِ والعطلِ
هذي الحياةُ لبذلِ العزمِ قد خُلِقت والشغلِ لا للونى والبطلِ والكسلِ
كلُّ التقدمِ بل أسنى الغنائمِ من جدٍّ بعلمٍ وأعمالٍ بلا مللِ

الأَسَدُ

هذَا ٱلحيوَانُ ٱلكريمُ جديرٌ بأَنْ يُقدَّمَ علَى جميعِ ٱلوُحُوشِ لِأَنَّهُ أَشرفُهَا وأَقوَاهَا وأَكرمُهَا وأَمضاهَا. ولَهُ رأْسٌ كبِيرٌ وأُذُنانِ قصيرتَانِ مستديرتَانِ وعرفٌ أَثيثٌ وبراثنُ

حَادَّةٌ وَذَنَبٌ طَوِيلٌ مَنْفُوشُ ٱلطَّرَفِ وَأَنْيَابٌ قَاطِعَةٌ . وَلَوْنُهُ فِي ٱلْغَالِبِ أَصْفَرُ مُكْمَدٌ يَضْرِبُ عِنْدَ بَطْنِهِ إِلَى ٱلْبَيَاضِ . أَمَّا طُولُهُ ٱلْمُتَوَسِّطُ فَثَمَانِي أَقْدَامٍ مِنْ أَنْفِهِ إِلَى مَغْرَزِ ذَنَبِهِ . وَٱللَّبُوَةُ أَصْغَرُ مِنْهُ قَلِيلًا وَلَا عُرْفَ لَهَا . وَٱلْأَسَدُ كَغَيْرِهِ يُؤَثِّرُ فِيهِ هَوَاءُ ٱلْبِلَادِ تَأْثِيرًا جَلِيًّا . فَإِنَّهُ فِي أَفْرِيقِيَةَ ٱلْحَارَّةِ أَهْوَلُ ذَوَاتِ ٱلْأَرْبَعِ وَأَبْطَشُهَا . بِخِلَافِ أُسْدِ جِبَالِ ٱلْأَطْلَسِ ٱلْمَكْسُوَّةِ بِٱلثُّلُوجِ . إِذْ لَيْسَ لَهَا مَا لِتِلْكَ مِنَ ٱلْبَأْسِ وَٱلْقُوَّةِ . وَكَذَلِكَ سِبَاعُ بِلَادِ ٱلْجَرِيدِ وَٱلصَّحْرَاءِ

وَلِلذَّكَرِ مَحَبَّةٌ وَهُيَامٌ بِأُنْثَاهُ أَمَّا هِيَ فَقَلَّمَا تُبَالِي بِهِ . وَمَتَى مَشَيَا مَعًا تَقَدَّمَتِ ٱلْأُنْثَى إِلَّا إِذَا جَاعَتْ فَإِنَّهُ يَتَقَدَّمُهَا حِينَئِذٍ لِيَأْتِيَهَا بِٱلطَّعَامِ . وَهِيَ تَضْجَعُ فِي خِلَالِ ذٰلِكَ لِلرَّاحَةِ عَلَى أَرْضٍ مَفْرُوشَةٍ بِأَوْرَاقِ ٱلْأَشْجَارِ وَمَتَى وَجَدَ ٱلذَّكَرُ فَرِيسَةً أَتَاهَا بِهَا . وَإِذَا أَعْجَزَهُ حَمْلُهَا زَمْجَرَ يُنَادِيهَا لِلْمَجِيءِ فَتَأْتِي وَتُشْبِعُ جَوْفَهَا . أَمَّا ٱلذَّكَرُ فَلَا يَمَسُّ طَعَامًا حَتَّى تَنَالَ كِفَاءَهَا ثُمَّ يَتَقَدَّمُ وَيَأْكُلُ ٱلْفَضْلَةَ ٱلْبَاقِيَةَ

وَلَا يَخْرُجُ ٱلْأَسَدُ مِنْ عَرِينِهِ نَهَارًا إِلَّا مَتَى ظَمِئَ . وَمُدَّةُ حَمْلِ ٱلْأُنْثَى فِيمَا يُظَنُّ سِتَّةُ أَشْهُرٍ وَزَمَانُ ٱلسِّفَادِ شَهْرُ كَانُونٍ

الثاني. ومتى وضعت الأنثى الجرو كان لحمة لا حس بها ولا حركة فتحرسه ثلاثة أيام. ثم يأتي أبوه بعدئذ فينفخ فيه المرة بعد الأخرى حتى يتحرك ويتنفس وتنفرج أعضاؤه وتتشكل صورته. ثم تأتي أمه فترضعه ولا يفتح عينيه إلا بعد سبعة أيام من تخلقه. وتضع الأنثى جروا أو اثنين إلى ثلاثة. فإذا وضعت اثنين كان الواحد ذكرا والآخر أنثى. وإذا كانت ثلاثة كان الاثنان ذكرين والثالث أنثى. وتحنو اللبوة على أشبالها كل الحنو ولا تفارقها بعد الولادة أياما. ومتى استطاعت الحبو(١) أخذتها وسارت بها قليلا وأنها بشقة لحم ومزقتها قطعا حتى لا يعرو لثاتها الرخصة ضرر. وحين تبلغ الأشبال الشهر الثالث أو الرابع تذهب مع أمها لملاقاة أبيها من قنصه. وبعد شهر آخر يأخذ الأسد واللبوة الأشبال معهما ليمرناها على الصيد. ويدفعاها على البطش بالماشية. أما هما فيكمنان لحراستها من الأخطار حتى إذا هاجمها وحش أو إنسان برزا من مكمنهما للذود(٢) عنها وإنقاذها.

ومتى ناهز الشبل السنتين يستطيع الفتك بفرس أو ثور.

وتأخذ قوته بالزيادة حتى يبلغ الحول الثامن فتكمل براثنه وقواطعه وعرفه ويقف عن النمو وتدوم قواه زمنا مديدا ولا تبدو على أنيابه وعضلاته علامة الانحطاط . بل يظل جليدا صبارم(١) إلى السنة العشرين بعد نموه الكامل ثم تأخذ قوته بالانحطاط وتسقط أسنانه ويمسي عاجزا جبانا . فقد يفتك به حينئذ الجاموس بل الثور أيضا . فتراه يدلف(٢) إلى القرى والمزارع فيخطف خروفا أو جديا أو امرأة أو ولدا كما كان يفعل حين كان شبلا منذ نحو ثلاثين سنة . ثم يعرو قوته العياء والزمانة(٣) وبصره الكلال وجسده الهزال ويجتزي بأدنى الأطعمة حتى لا يعاف الجرذ والفار . ثم يصاب بالسعار(٤) ويقضي نحبه(٥) أو تبطش به الضباع أو يعثر عليه الصياد تحت الأشجار مغضوبا(٦) فيوهطه(٧)

ولا تسير الليوث(٨) عراجل بل عيالا مؤلفة من خمسة أو ستة رؤوس ومنى . هاجم الليث فريسته صوب براثنه وأنيابه إلى عنقها تحت الفك أو إلى خاصرتها بقرب القائمة الخلفية . ولا يكدمها(٩) كيف كان بل يشقها شق الجزار الثور ويبدأ بأمعائها أولا أو ينزعها ويحفظها إلى الغد . ثم يلقمها(١٠)

مُحَطِّمًا ٱلْعِظَامَ تَحْطِيمَ ٱلْفُؤُوسِ ٱلْأَخْشَابَ ٱلْيَابِسَةَ

وَكَانَ لِلرُّومَانِيِّينَ هُيَامٌ شَدِيدٌ بِمُشَاهَدَةِ صِرَاعِ ٱلْأُسُودِ وَكِفَاحِهَا فِي ٱلْمَلَاعِبِ ٱلْعَامَّةِ مَعَ ٱلْأَسْرَى وَٱلْمُجْرِمِينَ أَوْ مَعَ بَعْضِهَا ٱلْبَعْضِ. قِيلَ إِنَّ بُومْبِيُوسَ أَدْخَلَ إِلَى أَحَدِ هٰذِهِ ٱلْمَلَاعِبِ خَمْسَ مِئَةِ أَسَدٍ حَيْثُ دَامَ ٱلصِّرَاعُ خَمْسَةَ أَيَّامٍ مُتَوَالِيَةٍ. فَجُنْدِلَتْ هٰذِهِ ٱلْوُحُوشُ عَنْ آخِرِهَا بِأَسْلِحَةِ ٱلْمُصَارِعِينَ أَوْ جَنْدَلَ بَعْضُهَا بَعْضًا

وَتَكْثُرُ ٱلْأُسُودُ فِي ضَوَاحِي صَحْرَاءِ أَفْرِيقِيَةَ وَبَاطِنِهَا. حَيْثُ تَسْرَحُ بِلَا مَانِعٍ وَتُهَاجِمُ ٱلرَّكْبَ وَٱلْمُسَافِرِينَ كَٱلسَّيْلِ ٱلْمُنْهَمِرِ وَتُعِيدُ كَثِيرَهُمْ قَلِيلًا. فَقَدْ يَهْجُمُ ٱللَّيْثُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَافِلَةَ كُلَّهَا وَيَرْصُدُهَا بِدُونِ أَدْنَى خَوْفٍ إِلَى آخِرِ نَسَمَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ. أَمَّا ٱلْأُسْدُ ٱلَّتِي لَهَا عِلْمٌ بِمَا لِلْإِنْسَانِ مِنَ ٱلْقُوَّةِ وَٱلْبَسَالَةِ فَتَتَّقِي بَأْسَهُ مَخَافَةَ أَنْ تُرْمَى بِٱلنَّارِ فَتَتَنَحَّى عَنْهُ. وَتَنْبَرِي تَفْتِكُ بِمَا لَا بَأْسَ لَهُ مِنْ أَسْرَابِ ٱلظِّبَاءِ وَقُطْعَانِ ٱلشَّاءِ وَٱلْأَنْعَامِ

وَٱلْأَسَدُ قَابِلُ ٱلتَّطَبُّعِ وَٱلتَّدَرُّبِ فَيَلِينُ وَيَنْقَادُ لِلْإِنْسَانِ. بِدَلِيلِ مَا جَاءَ فِي ٱلتَّارِيخِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَضَعُونَ قَدِيمًا ٱلْعَرَبَاتِ

وَالْهَوَادِجَ عَلَى ظُهُورِ الأُسُودِ فَتَجْرِي بِهِمْ طَوْعًا فِي الْمَعَارِكِ وَفِي مَوَاسِمِ الْقَنَصِ وَتَبْدُو مِنْهَا مَحَبَّةٌ وَرِعَايَةُ ذِمَّةٍ لِمَالِكِيهَا. وَلَا تَأْلُو جُهْدًا فِي خِدْمَتِهِ وَحِمَايَةِ حُرْمَتِهِ

وَالْغَضَنْفَرُ(٤) مَطْبُوعٌ عَلَى التَّوَدُّدِ لِصَاحِبِهِ. فَهُوَ وَإِنْ كَانَ صَعْبَ الْمِرَاسِ وَشَدِيدَ الشَّرَاهَةِ عَالِيَ الْهِمَّةِ وَالشَّهَامَةِ كَرِيمٌ عِنْدَ الْغَضَبِ عَفٌّ عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ وَعَرُوفٌ بِقَدْرِ الْمَعْرُوفِ. وَمِنْ طَبْعِهِ أَنَّهُ يَأْنَفُ افْتِرَاسَ الْحَيَوَانَاتِ الْحَقِيرَةِ. وَيَعِفُّ عَمَّنْ يُطْرَحُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِغَيْرِ عِلَّةٍ. وَإِذَا أَجْهَدَهُ السَّغَبُ(٥) تَعَرَّضَ لِافْتِرَاسِ كُلِّ حَيَوَانٍ صَادَفَهُ فِي طَرِيقِهِ

وَلَمَّا كَانَتْ جَمِيعُ ذَوَاتِ الأَرْبَعِ تَخْشَى لِقَاءَهُ وَتَبْتَعِدُ عَنْهُ تُلْجِئُهُ الضَّرُورَةُ إِلَى إِعْمَالِ الْحِيلَةِ وَمُدَاجَاةِ(٦) مَا عَزَمَ عَلَى افْتِرَاسِهِ. فَيَجْعَلُ مَقَامَهُ بِالْقُرْبِ مِنْ طَرِيقٍ مَسْلُوكٍ ثُمَّ يَزْحَفُ مُتَضَامًّا مُنْقَبِضًا وَيَثِبُ عَلَى مَا صَلَى(٧) لَهُ وَثْبَةً وَاحِدَةً

وَزَئِيرُ الضِّرْغَامِ(٨) جَهِيرٌ يَخْتَرِقُ الْمَسَامِعَ كَالرَّعْدِ الْقَاصِفِ. فَيُلْقِي الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ سَائِرِ الْحَيَوَانِ وَلَوْ كَانَتْ فِي أَمْنٍ وَتَحَصُّنٍ. فَلَا تَسْمَعُهُ إِلَّا وَيَغْشَاهَا الْفَرَقُ وَالِاضْطِرَابُ

وَٱلْعَرَقُ . وَأَكْثَرُ مَا يُخَافُ مِنَ ٱلْأَسَدِ إِذَا هَاجَهُ هَائِجٌ أَوْ وُلِدَ لَهُ وَلَدٌ

وَرُبَّمَا عَمَّرَ ٱلْأَسَدُ مِئَةَ عَامٍ . قِيلَ مَاتَ أَسَدٌ فِي بِلَادِ ٱلْإِنْكِلِيزِ بَعْدَ أَنْ أَتَى عَلَيْهِ بِهَا سَبْعُونَ عَامًا وَآخَرُ سِتُّونَ . وَتَزْعَمُ ٱلْعَرَبُ أَنَّ ٱلْأَسَدَ يَعِفُّ عَنِ ٱلنِّسَاءِ وَخَالَفَهُمْ آخَرُونَ . وَقَدْ شُوهِدَ مِرَارًا يَعِفُّ عَمَّنْ حَصَلَ تَحْتَ قُوَّتِهِ مِنْ بَنِي آدَمَ بَلْ شَارَكَ فِي طَعَامِهِ مَنْ عَفَّ عَنْهُ كَرَمًا إِبْقَاءً عَلَى حَيَاتِهِ كَمَا جَاءَ فِي قِصَّةِ أَنْدرُوكْلِسَ ٱلْعَبْدِ وَغَيْرِهَا

قِيلَ إِنَّ لِلْأَسَدِ مِنَ ٱلصَّبْرِ عَلَى ٱلْجُوعِ وَٱلْعَطَشِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِ مِنَ ٱلسِّبَاعِ . وَلَا يَأْكُلُ فَرِيسَةَ غَيْرِهِ . وَإِذَا شَبِعَ مِنْ فَرِيسَةٍ غَادَرَهَا وَلَمْ يَعُدْ إِلَيْهَا . وَإِذَا جَاعَ سَاءَتْ أَخْلَاقُهُ وَإِذَا شَبِعَ ٱرْتَاضَ . وَلَا يَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ وَلَغَ فِيهِ كَلْبٌ . وَهُوَ يَنْهَشُ وَيَلْهَمُ وَلَا يَمْضَغُ وَرِيقُهُ قَلِيلٌ جِدًّا وَلِذٰلِكَ يُوصَفُ بِٱلْبَخَرِ . وَيُعْرَفُ أَيْضًا بِٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْجُبْنِ . فَمِنْ جُبْنِهِ أَنَّهُ يَفْزَعُ مِنْ صَوْتِ ٱلدِّيكِ وَنَقْرِ ٱلطَّسْتِ وَمِنَ ٱلسِّنَّوْرِ وَيَتَحَيَّرُ عِنْدَ رُؤْيَةِ ٱلنَّارِ

وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْبَطْشِ لَا يَأْلَفُ أَحَدًا مِنَ ٱلسِّبَاعِ لِأَنَّهُ

لَا يَرَى مَا يُنَاظِرُهُ. وَعَلَامَةُ كِبَرِهِ سُقُوطُ أَسْنَانِهِ كَمَا تَقَدَّمَ

(١) مشية الرضيع (٢) للدفاع (٣) الاسد الشديد الخلق والقوة (٤) يمشي مشية الشيخ رويدًا (٥) العادة وتعطيل القُوَى (٦) اشد الجوع (٧) يموت بعد الهرم (٨) زَمِنًا قليل الحركة (٩) يصرعهُ صرعة لا يقوم منها (١٠) الأَسوُد (١١) يعضّ بادنى فيهِ (١٢) ياكل سريعًا (١٣) صُرِعت الى الارض (١٤) الاسد (١٥) الجوع (١٦) مساترة بالعداوة ومنافقة (١٧) خاتل ورصد ناصبًا عنقهُ للوثوب (١٨) الاسد

الاقاليم المعتدلة

ا

ان المنطقة الشمالية المعتدلة تُحسَب حانوت اشغال العالم. اما المنطقتان الباردة والحارّة ففيها الطبيعة سائدة سيادة مطلقة. فالاولى تغلب على الانسان بجدبها وقحولتها. والثانية تستغني عنهُ بخصبها الطبيعي. غير ان للانسان السلطة النافذة في الاقاليم المعتدلة. وهذه هي الصفة الخاصّة التي تميّز المنطقة المعتدلة عن اختيها المذكورتين. وهي تحوي ثلاثة ارباع الجنس البشري وقد ارتقى التمدن فيها الى اسمى درجاتهِ. وبها جرت اعظم حوادث التاريخ في الازمان القديمة والحديثة

ولا مراء في ان الاقليم عامل فعّال في النشاط والحركة. قال العلّامة كويو[١] ان تعاقب الحرّ والبرد في الاقاليم المعتدلة وتغيُّرات الفصول والهواء الرخيم

التي مما يدفع الانسان الى الجدّ الدائم وانتباه البصيرة والى سائر الاعمال العقلية الشاقة. فلا تعطي الطبيعة المقتصدة للانسان شيئاً الاّ بعرق جبينهِ فيتمتع بمواهبها جزاء خدمتهِ وكدّهِ. ويتصدّى لكفاحها وصدامها راجياً بل موقناً بالظفر والنصرة. فهي وان لم تستعمل الاسراف والتبذير تمنح اعمالهُ العقلية النشيطة نصيباً اوفر مما تقتضيهِ حاجتهُ. وتستفزّ همّتهُ للعمل وتخوّلهُ في خلال ذلك يسراً وراحة وتسمح لهُ بترقية قوى عقلهِ العليا. فليست قواها الطبيعية بالحاكم الجائر بل المعين النافع. فان المدارك العاملة والفهم والتمييز تحكم على الفطرة وعلى سائر القوى الحيوانية. والنفس تسود على الجسد والانسان على الطبيعة

وفي المنطقة المتجمدة ايضاً يجاهد الانسان ضد الطبيعة غير انها عنيفة ضنينة شحيحة. وذلك القتال كناية عن كفاح المتهالك المستميت حرصاً على الحياة. فلا يحصّل الانسان قوتهُ النحيف الذي بالكدّ يضبط فيهِ رمق الحياة شتاء الاّ بمزيد العناء وشقّ الانفس. وعلى ذلك اصبح الترقّي في سلّم المدنيّة تحت هذه الاحوال المعاكسة امراً مستحيلاً"

ولما كانت الطبيعة في المنطقة الحارّة على غاية الاسراف في هباتها. لا ترغم الانسان على اغتصاب خبزهِ اليومي بعملهِ الدائم الشاقّ. بل لما كان هواؤها في الغالب على حال واحدة وفصولها لا تعرف رقاداً وسباتاً كالاقاليم المعتدلة كان اعمال الفكرة والتمعن مما لا يجدي الانسان نفعاً. فلا تدعوهُ الضرورة الى الجهاد العقلي العنيف ضد طبيعة رقّت قواهُ الجسدية الى اسمى الدرجات. فلا يخطر على بالهِ مصادمة قواها العاملة بل تنتصر عليهِ فيخضع لسلطانها ويمسي انساناً حيوانيّاً بنسبة اذعانهِ لعواملها الظافرة ونسيان مقامهِ الادبي على اديمها

اما الاقاليم المعتدلة فعلى غاية الملاءمة لترقية قوى الانسان الجسدية والعقلية. وهي تناسب ايضاً انتشار الحياة النباتية والحيوانية في خير سبيل يقوم بحاجة الالفة البشرية. وعلى ذلك كانت موطن البقر والغنم وهما من انفع الحيوانات المجترّة للانسان في المنطقة المعتدلة. وانتشرت الخيل من وطنها في اسيا الوسطى الى

اكثر اقسام الكرة . وهي رفيقة لا غنى عنها للانسان في صنائعهِ واسفارهِ آن الحرب والسلم وشريكته في السرَّاء والضرَّاء. وتتوفر ايضاً في هذا الاقليم طوائف الطير حتى اصبحت في بعض البلاد صنف الطعام الاول للانسان

ثم اذا التفتنا الى المملكة النباتية رأينا الغلال والحبوب الاوفر ملائمةً في القيام بغذاء الانسان المتمدن منتشرة في المنطقة المعتدلة انتشارًا عظيمًا ولا غروَ ان الانسان لا يزرع القطاني[1] الاَّ متى استوطن مكانًا استيطانًا دائمًا وغادر عيشة البدويَّة واصبح فلاَّحًا يستعمر ارضًا ويستغلها . والامر واضح ان الحبوب لا تنبت لنفسها وتنتشر كالاعشاب البرّيَّة بل لا بدَّ لها من زارع يزرعها وفلاَّح يحرث الارض ويهيِّئها وحاصد يحصدها

قال احد علماء النبات "ان القطاني تتقدَّم التمدن وتسبقهُ . ولها علاقة كبرى بالراحة والسلام والسعادة المنزلية التي يجهلها همج البادية. فلا بدَّ للامم في استنباتها من اراضٍ مقرَّرة والتوطن فيها . ثم متى هيَّأوا لهم ذلك ورسَّخوا اقدامهم عليها اعقب ذلك الترقّي في الاخلاق والعوائد . فيكفّوا عن الظما الى الحروب الدموية ولم يتزلوا ميدان الكفاح الاَّ للدفاع عن الحقول التي يستغلّون منها ارزاقهم والذود[2] عن عيالهم"

فالحبوب اذًا خير طعام يلائم الانسان في حالهِ الالينة . فتصبح البلاد باتقان زراعتها قادرة على اعالة سكانها الوافري العدد اعالةً دائمة . اما سائر الاصناف فنفعها وقتيٌّ ولا يمكن خزنها الى زمن مديد . فان الجذور والفاكهة لا تلبث حتى تنفد وتفرغ او تفسد وتعفّن . وقناقص الصيد غنيمة يُشَكّ في وفرتها ودوامها . ومتى زاد الجدُّ في طلبها قلّت او فنيت. فترى في بعض بلدان المنطقة الحارَّة لبّ شجرة الخبز النخلية وجذور المانيوق المغذّية ونباتات اخرى طبيعية تعول قبائل قليلة العدد متفرقة الاوطان قنوعة ببساطة العيش . غير ان الانسان في هذه الاحوال الفجية منحطٌ في سلّم المدنية جسدًا وعقلاً يتعذَّر عليهِ ترقية امورهِ واصلاحها . غير ان زراعة الغلال تزوِّدهُ اكثر ايام السنة

بطعام ملائم وتفرض عليه اعمالاً وتمرينات تؤثر بطباعهِ وعوائدهِ واخلاقهِ خير تأثير واكمله

فهذه هي النباتات التي تتميز بها محصولات الاقاليم المعتدلة . فالحنطة التي لا تجود في المنطقة الحارَّة تخصب في كل المنطقة المعتدلة على سائر درجات الارتفاع . والذرة تنتشر في اميركا الشمالية والجنوبية على مساحة جغرافية كبيرة . والشعير ينمو في اوربا وآسيا حيث الارض والاقليم لا يلائمان الحنطة . ويخصب المرطان(٢) في الشمال البارد ولا ينقطع الا متى بلغت المنطقة المتجمدة حيث تستحيل على الانسان الحياة في حال تمدنية اللفة . فقد هيأت العناية في تنوُّعات الاقاليم والتربة وصلاحية بعضهـا لحبوب وغيرها لاخرى الطعام الضروري لاعالة الجنس البشري

ثم ما هي الاشجار الافيد للانسان البالغ مقاماً عالياً في التمدن لا غرو انها التي تزوده باوفر نصيب من الاخشاب . ولسائل ان يعترض "أليست اخشاب الزينة النفيسة التي يتأنق باقتناء ادواتها السراة(٤) هي من محصولات البلاد الحارَّة ؟" فاجيب نعم ولكن الصنوبر والارز والجوز وما شاكلها الخادمة حاجات الانسان الضرورية تختص بالمنطقة المعتدلة . فقد يبعث سكانها الى ثغور هندوراس لاستجلاب خشب الماهوكاني الثمين . والى البرازيل لاحضار خشب الورد لعمل انفس امتعة قصورهم . غير ان الصنوبر والدردار والسنديان والعرعر والجوز والحور والزان هي الاخشاب المستعملة في صنع آلاتهم وعجلاتهم وسائر ادواتهم الفائقة الاحصاء . فقد وفرت هذه الاشجار في ادواحهم وغياضهم فتيسَّر لهم الحصول عليها بايسر مرام . لانهم استنبتوها في اقليمهم وشاركتهم باستنشاق هواء واحد

هذا وان ما يصدق على العالم النباتي فوق الثرى يصحُّ ايضاً على المملكة المعدنية تحته . فترى انفع المعادن للانسان الداخلة في خدمته المنزلية وصناعته كالحديد والقصدير والنحاس والرصاص متوفرة في المنطقة المعتدلة . ولا يخفى

ان ركاز(٥) هذه المعادن لا تمكن اثاثتهُ والانتفاع بهِ في الاعمال والصنائع بدون وقود كافٍ وهذا ايضاً هيأته العناية بكثرة في المنطقة المعتدلة وهو الفحم الحجري

غير ان المنطقة المعتدلة نفسها جزيلة التباين والاختلاف لتنوُّعات الاقاليم والاوضاع. فان اسيا الوسطى مثلاً بل سائر اسيا الواقعة الى شمالي خط القوقاس وحملايا وسور الصين مفازات مجدبة . وما برحت كما كانت منذ ستة قرون موطن الهمجية والسلب. فلماذا ذلك يا تُرى ؟ لان صحاريها قصيّة جدًّا عن عوامل الابحر . والجبال الشاهقة تجعل بردها قارساً كالاقطار الشمالية . ولأن انهرها تجري الى بحيرات مالحة بدون مصبٍّ او الى اوقيانوس متجمد يسدّ دونها ابواب التجارة

اما تفرُّس باوربا ترَها اكثر القارّات تخللاً بمياه البحر. ومع ان اسيا تزيد مساحتها عن قارّة اوربا اربع مرّات في دونها في الارياف البحرية فان سواحل اوربا المائية تزيد عن سواحل اسيا خمسة اضعاف . ولا تشاهد فيها محلاً يبعد عن البحر اكثر من ثلاث مئة ميل ما خلا سهول روسيا فقط. بيدَ ان توزُّع الانهر الصالحة لركوب السفن يقرّب الاوقيانوس حتى في اقصى محالّهِ تقريباً يسهل بلوغهُ

وما هي نتائج هذا كلّهِ. فاذا القيتَ بصرك على خريطة اوربا انجلى لك الامر فرأيتها اوفر القارّات ازدحاماً بالمدن والقرى والسكك والقنوات وطرق الحديد التجارية والضياع والامصار والقساطيط(٦) والواصلتها ببعضها وصل الشبكة . فهنالك ضرب التمدن اطنابهُ والقى عصاهُ ورسَّخ اقدامهُ . والعلوم والصنائع بلغتا منزلتها السامية. وهنالك ولدت ونمت الاختراعات الآليّة العظيمة التي ضمَّت شتات العالم ونظمتها في عقد جمعية واحدة متفاوتة الاستقلال. وكملت الزراعة والصناعة والتجارة كمالاً لا مثيل لهُ

فقد تزوّدت اوربا من سائر القارّات بموادّ وافرة تعززت بها قوتها الطبيعية . ولكنها خوّلت العالم ايضاً فوائد ليست باقلّ من تلك المواد نفعاً .

فانها كانت مهداً للنظامات السياسية التي كفلت استقلال الانسان ورقّت العلوم والفنون والصنائع الى اسمى المراقي واخذت تنشرها الى سائر انحاء البسيطة

فاذا اخذنا مملكةً واحدة مثالاً كبريطانيا او فرنسا او تركيا او المانيا او ايطاليا او النمسا رأينا كلاًّ منها محوراً تدور عليهِ المدنية والمعارف والصنائع فقد نشرت مهاجر المملكة الاولى تتائج همّة ابنائها وحميّتهم في سائر الاقطار حتى اصبح المناظرون لتقدُّمها ونجاحها من اولادها انفسهم

فترى لموقعها هواء تزيد حرارته درجات عن بلاد اخرى واقعة في هذا الطول نفسهِ. فليست بقارسة البرد ولا بشديدة الحرّ. فلا يتعذّر عليك الشغل في اقليمها ساعة من ساعات السنة ولا تزعج حرارتها القوى الانسانية كل الازعاج حتى تحمل على الونى[7] والتراخي بل يربّي هواؤها العضلات ويقوّي البنية . اما مساحتها فصغيرة جدًّا بالنسبة الى سائر اوربا ولكنها تحوي سهولاً وجبالاً وآجاماً وغابات وانهاراً وجداول وسواحل الخ حتى بانت مختلف اوضاع متباينة ومتنوّعة تنوّع انجادها ووهادها ووهادها . فهي وان كثر فيها الضباب ووفرت الامطار تبعث الى اقطار العالم بارصادها الفلكية. وان عجزت انهرها القصيرة عن القيام بالقوّة المائيّة ترى الارض ترتعد تحت رعود معاملها البخارية . وان لم تحوِ مناجم ذهب يُعتدّ بها تشتمل على كنوز نضار تفوق سائر البلدان وعلى مناجم فحم حجري وقصدير تشغّل سفنها وقطاراتها ومعاملها الفائتة الاحصاء . ثم وان كان موقعها الشمالي مما لا يخصب فيهِ الكرم ترى محاصيل كروم سائر البلاد مالئة مرافئها وتعاين البرتقال والليمون والتفاح رخيصةً في لندن رخصها في البحر المتوسط

---

(١) الحبوب التي تُطبخ (٢) تدفع او تحامي (٣) حبٌّ متوسط بين الشعير والحنطة او البشلة (٤) السادة الشرفاء (٥) قطع الفضة والذهب من المعدن (٦) السرادق من الابنية او كل مدينة جامعة (٧) الفتور والكلال والاعياء

الاقاليم المعتدلة

٣

ثم ماذا نقول عن اسيا الصغرى وارمينيا وسوريا الواقعة في هذه المنطقة نفسها وهي جنة الله في ارضهِ . بلاد طاب هواؤها . وعذب ماؤُها . ووفر خصبها . وندر جدبها . وانبسط خيرها . وتقلّص ضيرها . ماؤُها نمير(١) . وروضها نضير . وجُودها وفير . حدائقها باسقة . ونهورها دافقة . مروجها خضراء ومدنها فيحاء . معتدلة الموقع والاقليم . رقّ فيها الماء واعتلّ النسيم . متنوّعة الزهور . ضاحكة الثغور . كثيرة الثمار والغلال . بديعة الحزون والجبال . اريضة الحقول . زاهية الاعشاب والبقول . تأرّجت في حدائقها الازهار . وغرّدت على افنان جنّاتها الاطيار

وأطلقَ الطيرُ فيها سجعَ منطقهِ ما بين مختلفٍ فيها ومتفقِ
والظلُّ يسرقُ بين الدوح خطوتهُ وللمياهِ دبيبٌ غيرُ مسترَقِ
وقد بدا الوردُ مفترّاً مباسمهُ والنرجسُ الغضُّ فيها شاخصُ الحدَقِ
من احمرٍ ساطعٍ او أخضرٍ نضرٍ او اصفرٍ فاقعٍ او ابيضٍ يققِ
والسحبُ تبكي وثغرُ البرقِ مبتسمٌ والطيرُ تسجعُ من تيهٍ ومن أنقِ
فالطيرُ في طربٍ والسحبُ في حربٍ والماء في هربٍ والغصنُ في قلَقِ

تخترقها جبالٌ شمّاء(٢) . واودية نضرة غنّاء . وسهول وسيعة فسيحة . حوت الحقل والغابة والبحيرة والبطيحة(٣) . ازدانت باعجب العاديّات والآثار . وتباهت باقدم المدائن والامصار . منها غوطة دمشق الفيحاء . وبقاع حلب الشهباء . التي ترنّمت بمدحها الشعراء . وثملت بذكرها النفوس . كالشيخ عبد الغنيّ النابلسيّ وغيره مما تضيق عن ذكرهِ الطروس . فممّا قالهُ المذكور في وصف جلّق ما يأتي

ان سامك الخطبُ المهولُ فأقلقا　　فانزلْ بأرضِ الشام واسكُنْ جِلَّقا
تجد المَرامَ بها وكلٌّ مُناك بل　　وترى بها عزًّا وتنجحُ منطِقا
بلدٌ سمتْ بين البلاد محاسنًا　　وتمتْ بهاء واستزادت رونقا
إن تعشقوا وطنًا فذي أولى لكم　　دون البلاد بأن تُحبَّ وتُعشقا
طابت هواء للنفوس وماؤها　　عذبٌ زُلالٌ سائغٌ لمن استقى
جلَّتْ محاسنها عن التعداد فلستأثرِ بما يختارُ منها ويُنتقى
يا حُسنَ واديها وطيبَ شميمهِ　　قد فاحَ عرفُ الزهرِ فيهِ وعبَّقا
وتراسلتْ أطيارُهُ بين الربى (٥)　　سحرًا فهيجتِ الفؤادَ الشيِّقا
كيف انتبهتَ يخرُّ نحوك ماؤهُ　　وإليك يركعُ كلُّ غصنٍ أورقا
يا حبذا اشراقُ مرجتها التي　　أضحى غنيُّ المثمرِ فيها مُملقا (٦)
ضحكت أزاهرُها على أغصانها　　فأتى النسيمُ يميلهنَّ وصفقا
قد دندنت انهارُها في جريها　　لمَّا شدا ذاك الحمامُ وشقشقا
سُقيتِ دِمشقُ الشامِ صوبَ غمامةٍ　　أسقى على غيطانها (٧) فتدفَّقا
كم نزهةٍ للعين فيها قد زهتْ　　وسرتْ على طرفِ الهموم فأطرقا
في شامنا أعلى الالهُ منارَها　　وبها أدامَ اللهُ عيشًا رَيِّقا

ومن بلادها حمص وانطاكية وحماه. ربوع حلَّ بها الانس في اطيب حياه. مغانٍ قد اطاعها العاصي وجرت امواهه اليها من الاقاصي . قال ابن حجة الحموي متشوقًا الى البلد الاخير

واذا تنسمتَ الفلا وتعطرت　　منك الذيولُ وطبتَ يا ريحَ الصَّبا
عرِّجْ على وادي حماةَ بحجرةٍ　　متيمِّمًا (٨) منهُ صعيدًا طيِّبا
واحمِلْ لنا في طيِّ بُردِك نشرهُ　　فبغيرِ ذاك الطيبِ لن تتطيَّبا
للهِ ذاك السفحُ والوادي الذي　　ما زال روضُ الانسِ فيهِ مُخصِبا
يا ساكني مغنى حماةَ وحقِّكمْ　　مِنْ بعدِكُمْ ما ذقتُ عيشًا طيِّبا

ومنها جبل لبنان البديع . بما فيهِ من العيون الباردة والينابيع . والمناظر

الساحرة الالباب . والاودية الخضراء والروابي والهضاب . والدساكر والقرى والضياع . وشذا الازاهر التي تأرّج عبيرها وضاع . والهواء النقيّ المقوّي للابدان . والرياض اليانعة والحقول والغيطان . والارز الوارد ذكرهُ في كتب الانبياء والزبور . والشعوب التي اشتهر تأريخها من سالف الدهور . والانهر التي عذب ماؤها وصفا . كالباروك وابي علي وابرهيم والصفا . فهذه جداول سحّ بها عليه الغيث المدرار . فأغدقت على الاعلين وايل[٩] الجين[١٠] والنضار[١١]

واين انت من ثغورها البحريّة وتاريخها الجلَل . القائمة كعرائس تختال في ابهى الحلَل . كطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا ويافا وغزّة . المائسة في برود التيه والتقدم والعزّة . فيجتزئ بما قيل عن الاولى فقط . قال ابو الطيّب

آكارمُ حسد الارضِ السماءُ بهم ... وقصّرت كلُّ مصرٍ عن طرابلسِ

وقال ابن الرومي

باربعةٍ سادت وساد مقامُها ... على سائر الامصار في البحر والبرِّ

بأبيضِ ثلجٍ واحمرار كثيبها ... وخضرةِ مرجٍ قد جلا زرقةَ البحرِ

ناهيك ايضاً بمدنها الفلسطينية ارض الميعاد ومهبط وحي التورية والانجيل . كطبرية وصفد والناصرة والقدس الشريف والخليل . وبحيراتها كبحيرة انطاكية البهيّة . وافاميا والمرج والحولة ولوط وطبريّة . التي يقول فيها ابو الطيّب

لولاكِ لم أترك البحيرةَ والـ ... غورُ دفيٌّ وماؤها شبِمُ[١٢]

والموجُ مثل الفحول مزبدةً ... تهدرُ فيها وما بها قطَمُ[١٣]

والطيرُ فوق الحُباب تحسبها ... فرسانَ بلقٍ تخونها اللُجُمُ

كأنّها والرياحُ تضربها ... جيشٌ وغًى هازمٌ ومنهزمُ

كأنّها في نهارها قمرٌ ... حفَّ بها من جنانها ظُلَمُ

تغنّتِ الطيرُ في جوانبها ... وجادت الارض حولها الدِيَمُ[١٤]

فهيَ كماريّةٍ[١٥] مطوّقةٍ ... جُرّد عنها غشاؤها الأَدَمُ[١٦]

والخلاصة انها بلاد ميّزها الخالق بطيب التربة والنماء . وزانها بصفاء

الافق واعتدال الهواء . ونوّع فيها الاوضاع والمواقع . وجاد عليها بكل نبتٍ يانع . وانبع من جوفها الماء الزلال . وطوّق جبالها بعقود الجمال . ووفّر فيها الازاهر والرياحين . واكثر على اديمها الرياض والبساتين من كل فاكهةٍ بها زوجان . تسجع ورقها على منابر الاغصان . تتلو آيات الثناء والطرب . فيجيبها خرير الغدير بالتصفيق والعجب . ويتلاعب النسيم بالافنان . فينقّط بساطها النيروزي باللآلئ والعقيان . وقد اوسع المولى فيها الحقول والغياض . المنمّقة بوشي الاخضرار والاحمرار والبياض

أتقنها ذو العرشِ جلّ جلالهُ سبحانهُ من واحدٍ متفرّدِ
بمفضّضٍ ومذهّبٍ ومطرّزٍ ومجوهرٍ ومُعنبرٍ ومُورّدِ
والآسُ بينَ شقائقٍ وحدائقٍ والغصنُ بين موشّحٍ ومقلّدِ
والطيرُ بين تسبّحٍ وتقدّسٍ وتهلّلٍ وتشكّرٍ وتمجّدِ
والماء بين تدفّقٍ وترقرقٍ وتقيّدٍ وتسلسلٍ وتجعّدِ
والدوحُ يرقصُ والنسيمُ مشبّبٌ والنهرُ بين تصعّقٍ (١٧) وتنهّدِ (١٨)
والوردُ يحكي بالغصون مجامرًا نارٌ على ماء الحيا لم تخمدِ
والياسمينُ مفتّحًا ومغلّقـًا يحكي بحمرتهِ عقولَ الحسّدِ
وكذاك النسرينُ اصبحَ باسمًا في ثغرهِ تبرٌ براحةِ نَدِي
والاقحوانُ بسيفهِ وبترسهِ مذ لاح يزهو كالحسام الأجردِ
والرندُ والسوسانُ مع ريحانها ما بينها شيءٌ يعابُ من الردي
والروض جامعُ والازاهرُ بسطهُ وتناولُ الأترنجِ لاحت في النَدِ
والطيرُ يخطبُ والغصونُ منابرٌ والعرقُ اضحى راكعًا بتعبّدِ
صاحَ الهزارُ مسبحًا وممجدًا ومقدّسًا يشدو بصوتٍ مفردِ
من بعد هذا قد رأيتُ عجائبًا والصبحُ يطردُ للظلام الأسودِ
هذا صنيعُ اللهِ جلّ جلالهُ قد اتقنَ الاشياء حتى تهتدي

اما عقول اهليها فرفيعةٌ ذكيّةٌ . لاسيّما متى توفّرت لهم وسائل العلم

والصناعة العملية . ووُصِفوا منذ عصر الفينيقيين واليونان والرومان . بعلوّ الهمم وتوقّد الاذهان . وقد اخذوا ينشطون لله الحمد من عقال . بعد ان اخنى عليهم الدهر بصروف الاهوال . فأنشأوا المدارس والمكاتب والمطابع والجرائد . واتخذوها ذرائع(١٩) للترقية واحراز الفوائد . بظل جلالة مليكهم الباسط لهم اكفّ الغوث والقسط والامداد . الرؤوف بهم رأفة الاب المحب بالاولاد . فلا يعوز هذا القطر السعيد . الاّ تقريب الاتصال بسكك الحديد . وتمهيد طرق المركبات . وترقية الصنائع والآلات . وفتح المعامل وتشغيل العقول البارشة . وعقد الشركات للمشروعات النافعة . واعلاء شأن الزراعة وجلب آلاتها . ودفع اسباب انحطاطها وردع آفاتها . والعناية بالمعادن (والاحراش) . والاقتصاد بالاثاث والرياش . وتآزر ابناء الوطن وتضافرهم على الخير العام . وتناصرهم على الحب والولاء والسلام . ولا غروَ فان مرفأ ثغر بيروت وصلته بخط الترموي البخاري مع دمشق الشام . خطوةٌ مهمّة تدفعنا الى الامام . وتبشرنا بصعود سوريا على مراقي النجاح . وسيرها في سبل التقدّم والفلاح . فلا تعتّم ان شاء الله حتى تستأنف سالف مجدها . وتستردّ فائت عزّها بكدّها وجدّها . تحت لواء حضرة سلطانها وولي امورها الجليل . المسبغ عليها مطارف نعمتهِ الوارفة الظليل

---

(١) الزاكي والناجع من الماء (٢) مرتفعة (٣) مسيل واسع فيهِ رمل ودقاق الحصى (٤) اشغال وطوابر كل شيء وهو ما انقاد معهُ من عرضهِ وطولهِ (٥) جمع رابية وهو ما ارتفع من الارض (٦) فتيرًا (٧) جنينات (٨) توخّى وتعمّد وقصد (٩) المطر الشديد الضخم القطر (١٠) الفضة (١١) الذهب والفضة (١٢) بارد (١٣) شهوة (١٤) جمع ديمة وهو مطر يدوم بلا رعد ولا برق (١٥) ولد البقرة الاملس الابيض (١٦) البشرة او الجلد (١٧) اشتداد الصوت (١٨) تنغّم (١٩) وسائل او وسائط

فهرس

الجزء الاول

من

قلادة الفخر في غرائب البرّ والبحر

* للدلالة على انه مشكّل + للدلالة على انه فيه رسوم

اصلاح خطإٍ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦	١١	ٱلتَّخمِ	ٱلتَّخَم
٩٦	١٠	أقلِّ	أقلَّ
٩٨	٦	ٱلآنِ	ٱلآنَ
١١٧	١٣	سُرَاةِ	سَرَاةِ
١٢١	٢	نحويها	تمويها
١٢٤	٢٠	جبيًا	جبيًا
١٥٣	٢٠	قردين	قرويين
١٦٠	٦	معذِّبهِ	معذِّبهِ
١٧٤	١٤	راعي	داعي
١٩٤	١٠	خطرٌ عظيم	خطرًا عظيمًا
٢١٣	١٤	تخلّدت	تخلّلت
٢١٥	٩	الفيفاء	الفيفاء
٢٣٤	١٣	ٱلمَضْرَبِ	ٱلمِضْرَبِ
٢٣٥	٨	ٱلمَضْرِبِ	ٱلمِضْرَبِ
٢٧١	١٩	وقناول	وقنادل

وقد وقع بعض اغلاطٍ غيرها في الطبع لا تخفى على القارئ

قلادة النحر

في

غرائب البر والبحر

الجزء الثاني

في غرائب البحر

لمؤلفهِ سليم كساب عُفي عنهُ

بالرخصة الرسمية من مجلس معارف ولاية بيروت الجليلة نمره ٤٧٠
٢٤ تشرين الثاني سنة ٣٠٧

طُبع في مطبعة الاميركان في بيروت سنة ١٨٩٢

الجزء الثاني

غرائب البحر

قعر البحر وعمقهُ وقياسهُ وسكَّانهُ

البحر يغطّي ثلاثة ارباع سطح الارض تقريباً . واذا غصنا في اعماقهِ نشاهد جبالاً واودية ووعوراً وسهولاً وآكاماً وحدائق جميلة ونباتات غريبة وحيوانات عجيبة صغاراً وكباراً تتوالد وتنمو وتسكن اماكن معيَّنة حسب اجناسها وانواعها وصنوفها . فلو انكشف قعر البحر لرأيناهُ كوجه اليابسة

وقد استعملوا لقياس عمقهِ حبلاً متيناً منوطاً بهِ قضيب حديد ثقيل في طرفهِ الاسفل شبه كأس مطليّ بشحم او مادة دهنية أُخرى لاخراج بعض الرواسب في قرارهِ وعلّقوا بهذا القضيب كرة رصاصية ثقلها نحو ستة ارطال مضبوطة بمرس داخل في حلقات . فاذا بلغ الحبل القرار كفَّ الشدّ وأُفلت المرس من الكلاليب وسقطت الكرة الى الارض وبطل ثقل القضيب فيتيسَّر لهم جذبهُ . وفي خلال ذلك يلصق بالكأس المدهونة بالشحم رواسب من قعر البحر . فقد استخرجوا بهذه الواسطة انموذجات على عمق اربعة اميال

وقد سبروا[1] بهذه الآلة الاتلانتيك الشمالي بين ٣٥° و٤٠° والى جنوب جزيرة نيوفوندلند العظيمة . فوجدوا العمق هنالك لا يزيد عن ٢٥ الف قدم . قال احد اولئك السابرين " ان قرار الاتلانتيك كلهِ طويل يفصل

العالم القديم عن الجديد والارجح انهُ يمتدّ من قطبة الى قطبة. وهو يباين الاوقيانوس الباسيفيكي عرضاً. وقد بلغ اعمق مكان سبروهُ بتلك الآلة من رأس كامبوبازو الى قعر الاتلانتيك تسعة اميال قياساً عموديّاً. وقد حسب بعضهم معدّل عمق البحر من يابان الى كليفورنيا فبلغ ١٤٤٠٠ قدم. وفي الاوقيانوس الباسيفيكي على عرض ٦٠° جنوباً و١٦٠° شرقاً ١٤٦٠٠ قدم وذلك نحو ميلين ونصف

اما عمق البحر المتوسط فقليل بالنسبة الى الاوقيانوسات فانهُ لا يزيد عن ٥٧٠٠ قدم وفي الاجزاء الضيقة من ١٠٠٠ الى ٣٠٠٠. قيل ان الادرياتيك قليل الغور ولا يزيد عن ١٤٠ قدماً بين سواحل دلماطية ومصابّ نهر بو. وكذلك البلتيك فان معدّل عمقهِ الاعظم لا يزيد عن ٦٠٠ قدم. ومعدّل عمق البحر العامّ ١٢٠٠٠ قدم

فهذه القياسات اعانت كثيراً على مدّ اسلاك البحر البرقية. وفحص الحيوانات القاعية(٢) القاطنة تلك الاعماق. فقد استخرج بعضهم من عمق اربعة او خمسة اميال ١٢٥ نوعاً من تلك الحُيَيوينات منها ٢٢ نوعاً جديداً

وقد حُسب انهُ لو اجتمعت مياه كل الابحر معاً لتألّفت منها دائرة مساحتها ٥٠ او ٦٠ فرسخاً. فلو فرضنا وجه الكرة مسطحاً لغطّتها تلك المياه الى علو ٦٠٠ قدم ونيّف. ولو فرضنا معدّل عمق البحر ١٢٠٠٠ قدم لكان قياس ما حواهُ من المياه اثنين ومئتين وخمسين مليون ميل مكعّب. ولو تصوّرنا ان البحر قد جفّ لاقتضى لقنوات اليابسة وانهرها واسرابها ان تنصبّ فيهِ اربعين الف سنة كي تملأ حوضهُ الفسيح

اما سكان اليمّ فاوفر عدداً من سكان اليابسة واعظم غرابةً. فان جبالهُ واوديتهُ ووهادهُ وبطاحهُ ملأى ومزدانة بالاجسام الحية الفائقة الاحصاء. منها النباتات المجموعة والمتفرقة المنتصبة والمنحنية المنتشرة مروجاً او حقولاً او ادواحاً تأوي فيها وتنشأ منها ملايين من الحيوانات الزاحفة والدابّة والراكضة والسابحة

والطائرة . تغطس في الرمال او تلتصق بالصخور او تأوي الثُّغر والشقوق او تبني لها اوجرةً وجحورًا . تفرُّ وتتواثب وتعدو وتتلاعب وتتطارد ويقاتل بعضها بعضًا . يتوادُّ ويدلّل احدها الآخر او يفترسهُ حتى تُبَدُّ حيوانات ادغال اليابسة وبراريها دونها عددًا وغرابةً . فالاوقيانوس وإن حُسِب للانسان غمر الموت والاختناق هو موطن الحياة والتنعُّم والحبور لالوف الوف من الخلائق التي تذهل الالباب . وهنالك اشدّ الاجسام رخاوةً كالهلام (٢) واعظمها صلابةً كالاصداف وادقّها حجمًا كالنقاعيات التي لا تُرى بالعين المجرَّدة واكبرها جسمًا كالبال البالغ طوله ٧٠ ذراعًا . فهو مجموع التضارع والتباين . والبساطة والتركيب . والتدنّي والترقّي . والسكون والاضطراب ومشهد العجائب والغرائب وقد قلت في وصفهِ هذه الابيات

أَقْبِلْ إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْعَجِيبِ ٱلزَّاخِرِ   وَٱنْظُرْ بِهِ صُنْعَ ٱلْحَكِيمِ ٱلْقَادِرِ
مِنْ كُلِّ حَيٍّ سَابِحٍ أَوْ طَائِرٍ   أَوْ زَاحِفٍ أَوْ عَائِمٍ أَوْ غَائِرِ
يَنْسَابُ فِي أَبْهَى ٱلْحُلَى وَٱلْبُرْدِ

كَمْ فِي مِيَاهِ ٱلْبَحْرِ مِنْ أَصْدَافِ   تَزْهُو بِثَوْبِ ٱلْحُسْنِ وَٱلْأَلْطَافِ
أَسْمَاكُهُ تَاقَتْ عَلَى ٱلْأَوْصَافِ   بِٱلْجِنْسِ وَٱلْأَلْوَانِ وَٱلْأَصْنَافِ
تَأْوِي أَشْجَارَ ٱلْوَاسِعَاتِ ٱلْمِهَدِ

وَٱلْكُلُّ يَسْعَى سَابِحًا أَفْوَاجَا   قَدْ شَقَّ فِي أَلْعَابِهِ ٱلْأَمْوَاجَا
لَا يَخْتَشِي بَحْرًا غَدَا عَجَّاجَا   يَمْشِي حَثِيثًا (٤) خَارِقًا مِنْهَاجَا
فِي جَوْفِ بَحْرٍ زَاخِرٍ مُمْتَدِّ

كَبِيرُهَا يَقْتَاتُ بِٱلصَّغِيرِ   تَجْرِي وَلَا تُعْيِي مِنَ ٱلْمَسِيرِ

تَزْدَهِي بِلَوْنِ ٱلْعَسْجَدِ ٱلْمُنِيرِ أَوْ أُرْجُوَانٍ لَاحَ أَوْ حَرِيرِ
بَيْنَ ٱلصُّخُورِ وَٱلْغُصُونِ ٱلْمُلْدِ

لَا تَغْبِضُ ٱلْأَجْفَانَ وَسْطَ ٱلْيَمِّ فِي صَيْدِهَا رِبْحٌ وَطَرْدُ ٱلْيَمِّ
مِنْ زَيْتِهَا نُعْطَى عِلَاجَ ٱلسُّقْمِ فِي جِسْمِهَا لَحْمٌ لَذِيذُ ٱلطَّعْمِ
مَعْ كُلِّ ذَا تَبْقَى بِغَيْرِ عَدِّ

قَدْ دَقَّتِ ٱلْأَجْنَاسُ وَٱلْأَنْوَاعُ وَٱمْتَازَتِ ٱلْأَعْضَاءُ وَٱلطِّبَاعُ
قَدْ صَانَهَا فِي مَهْدِهَا ٱلْإِبْدَاعُ رَاقَتْ بِهَا ٱلْأَبْصَارُ وَٱلْأَسْمَاعُ
لَمَّا حَوَتْ بَدِيعَ صُنْعِ ٱلْفَرْدِ

قَامَتْ نُقَاعِيَّاتُهُ لِلشُّغْلِ تَبْنِي جِبَالًا رَاسِيَاتِ ٱلْأَصْلِ
بَلْ جُزُرًا مِنْ كِلْسِهَا وَٱلرَّمْلِ فَهْيَ ٱلصِّغَارُ إِنَّمَا فِي ٱلْفِعْلِ
بَانَتْ كِبَارًا فَائِقَاتِ ٱلْجُهْدِ

أَزْهَارُهُ فِي رَوْضَةِ ٱلْمَرْجَانِ تَزْهُو بِأَبْهَى ٱلْوَشْيِ وَٱلْأَلْوَانِ
قَدْ حَاكَهَا ٱلدَّبِيبُ كَٱلْعِقْيَانِ وَٱلْوَرْدِ وَٱلنِّسْرِينِ وَٱلرَّيْحَانِ
مِنْ قُوتِهِ ٱلْمَذْخُورِ ضِمْنَ ٱلْجِلْدِ

مَنْ يَا تُرَى يَدْرِي بِمَا فِي ٱلْبَحْرِ مِنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ عَجِيبِ ٱلذِّكْرِ
أَوْ هَائِلَاتٍ لَا تُرَى فِي ٱلْبَرِّ أَوْ لُؤْلُؤٍ أَوْ أَنْجُمٍ أَوْ دُرِّ
تَحْلُو لَدَى ٱلْمَرْءِ ٱلصَّحِيحِ ٱلنَّقْدِ

حِيتانُهُ وَالسَّيفُ باتَتْ تَشهَرُ   حَرْبًا بَدا فِيها الْحُسامُ الأَبتَرُ
وَالْكَلْبُ وَالذِّئبُ الْخَفِيفُ الْمُذْعِرُ   عَنْ حَرْبِها مَعْ بالِهِ لا تَفْتُرُ
تَسْطُو بِعَزْمٍ فاقَ عَزْمَ الأُسْدِ

غَمْرٌ فَسِيحٌ مُدْهِشُ الأَبْصارِ   تَسْعَى عَلَيْهِ الْخَلْقُ فِي الأَسْفارِ
يُعْطِي حَياةَ الأَرْضِ بِالأَمْطارِ   يَسْطُو عَلَيْهِ واجِدُ الأَقْمارِ
فَيَغْتَدِي فِي جَزْرِهِ وَالْمَدِّ

فِي جَوِّهِ الأَنْواءُ وَالإِعْصارُ   فِي جَوْفِهِ الدُّرْدُورُ وَالتَّيارُ
ثارَتْ بِها الأَهْوالُ وَالأَخْطارُ   حارَتْ بِها الأَفْهامُ وَالأَفْكارُ
سُبْحانَ بارِيها الْمُعِيدِ الْمُبْدِي

---

(١) قاطع (٢) الصغيرة الجبهويّة (٣) كالخيصة (٤) سريعًا

ألوان البحر

ألوان البحر تختلف على الدوام . فمنها الازرق واللازوردي والابيض والاصفر والاخضر والاحمر والاسود. فالازرق في الاوقيانوس واكثر الابحر. والابيض في جون غينيا. والاصفر في سواحل يابان. والاخضر في غربي الجزائر الخالدات . والاحمر في خليج لوانغو. والاسود حول جزائر ملديف . اما البحر الابيض فيسمَّى كذلك لكثرة ثلوجهِ. والاسود لوفرة عواصفهِ. واما اختلاف هذه

الالوان فلهُ اسباب محليَّة شتَّى . منها ما يتعلق بلون قعر البحر وما يجاورهُ من الصخور والرمال . ومنها ما ينشأُ عن الوان الحيوينات الملوَّنة والفصفوريَّة

بهاءُ مناظر البحر الناريَّة واسبابها

ان فصفوريَّة البحر اي الوانهُ الناريَّة اللامعة تنشأُ من بعض نقاعياتهِ وحيواناتهِ وتُعدُّ من ابدع المناظر وابهاها . فاذا مخرت السفينة بين لجج بعض الابحر خال راكبها انهُ في جوف لهيب يتأجج بالوانٍ حمراء وزرقاء وصفراء وخضراء . ورأى ملايين من تلك الحيوينات تتلاعب وتتواثب على اللجج . فتجتمع وتفترق وترتكم وتختبط فيتوهمها ميدان لظًى فسيح الارجاء . ويزداد بهاء تلك المناظر آن العواصف والزعازع . اذ يعاين المسافر الامواج تعجّ وترتفع وتتكسر فيبدو منها زبدٌ فضيٌّ تنسج عليهِ امواج برّاقة يظنها اسياكًا ناريَّة تطارد ويمسك بعضها بعضًا . ثم تُفلَت وتنتشر ايضًا . ومتى ارتفعت الموجة رأيتَ ذلك الجسم الناريَّ على قمّتها ومتى هبطت انبسط النور الى سائر الجهات . فتلتصق بالدقة وتصطدم بمقدَّم السفينة وتتلاعب حول الصخور المتلاطمة عليها الامواج . فيعاين الناظر مشهدًا سحريًا يخلب الالباب . وتفرز هذه الحيوينات في سباحتها سيالاً منيرًا يتمدد ويتعرَّج وينتشر . وكلَّما سارت غادرت وراءها خطوطًا وسطورًا وسلاسل متألقة تمتدُّ بسرعة مدهشة

ومن اغرب هذه النقاعيات صنف يُدعى بيروسوما . وهي كيس هلاميٌّ طولهُ عقدة واحدة يلقي على ظهر السفينة نورًا يحاكي قضيب حديد محمّىً الى درجة الحرارة البيضاء . ومنها كرة هلاميَّة لا تُرى بالعين المجرَّدة ولكنك اذا فحصتها بالمجهر رأيتَ لها فمًا ومعدة واهدابًا متدلية واوعية دقيقة يومض منهـــا النور كوميض البرق وهو تحت سلطتهـــا فتبديهِ عند اقلّ حركة . وقد امتحن

احد علماء الطبيعة ذلك بأن ملأَ اناءً من ماء البحر المُفعَم بتلك الحيوينات . فبعد ان سكن الماء كفّت عن الانارة وهدأت. ثم صبَّ في الماء قليلاً من الحمض واذا بها اضطربت وتماوجت وتألقت بالوان بهيَّة كنجومٍ تساقطت من السماء. ومنها حيوانات صدفيَّة ذات قوة فصفورية شديدة حتى اذا اكلها البعض اضاءت شفاههم كأنها التهبت بنار . وقد وضع بعضهم قدرًا من هذه الحيوانات في اللبن فتأجج حتى استطاع القوم القراءة على ضوئهِ ليلاً

قال الربَّان كينان الاميركي في احدى سفراتهِ "قطعنا منطقةً طولها ٢٢ ميلاً ملأى بهذه الحيوينات الفصفورية . فكانت تتلوَّن منهـا المياه على امد ٨ ساعات باللون الابيض واللبني ثم تحوَّلت الى ميدان ثلج فسيح الارجاء. وكان يتراءى لنا البحر احيانًا مشاعل انوار باهرة . وكانت حركة السفينة او المجذاف تزيد لمعانها والصخور واعشاب البحر تضطرم منهـا بعد انحسار المدّ" . وقال المستر بيرسن في رحلتهِ الى جزائر فرانس "بينما كانت سفينتنا تشقُّ عباب الامواج اذا بطبقة فصفورية انتشرت امامنا كبساط عظيم عائم على الغمر. وكان اعمقها وضعًا ككرات نار حامية . والسطحية تحاكي انابيب حديدٍ حمراء محمَّاة . وكان ظاهرها منتفخًا من غُدَد تتألق كحجارة كريمة . ولاح لنا ان تلك الغُدَد هي علة لمعانها الاصلية . اما جوفها فكان حاويًا ايضًا غددًا عديدة مستطيلة ضيّقة ذات قوة فصفورية شديدة . فاذا كانت تلك الحيوينات في حال السكون رأيتَ لونها اصفر برَّاقًا ممزوجًا بأخضر. ولكنها تنكمش عند اقل حركة وتتقلص وتومض بالوان لامعة تختلف بين الاحمر القاني والاخضر الزمردي والازرق اللازوردي" . وقال السر جون هرشل "رأينا على سطح ماء ساكن نوعًا غريبًا من تلك الحيوينات الفصفورية من جنس البوليغون ذات صُوَر قوية الخطوط تغطّي مساحة كبيرة انارت المياه بضع دقائق بانوار باهرة ثم اجتازت وتوارت عن العيان كلمح البصر"

ومن الغريب انهُ اذا زاد تكاثف المياه بكثرة الامطار او رقَّت بقلَّتها مانت

هذه الحيوينات . وهي توجد في كل الابحر ولا سيما في الاوقيانوس الهندي وخليج العرب

مُلوحة ماء البحر وثقلهُ

مِنَ ٱلْمَعْلُومِ أَنَّ مِيَاهَ ٱلْبَحْرِ أُجَاجٌ [1] وَأَثْقَلُ مِنَ ٱلْمِيَاهِ ٱلْعَذْبَةِ . وَعِلَّةُ ذٰلِكَ ٱلْأَمْلَاحُ ٱلْمَعْدِنِيَّةُ ٱلذَّائِبَةُ فِيهِ . فَإِذَا كَانَ ثِقْلُ قَدْرٍ مِنَ ٱلْمَاءِ ٱلْعَذْبِ ٱلْخَالِصِ ١٠٠٠ رَطْلٍ مَثَلًا كَانَ ثِقْلُ مِثْلِهِ مِنْ مَاءِ ٱلْبَحْرِ ١٠٢٦ رَطْلًا . أَمَّا تَعْلِيلُ مُلُوحَةِ مَاءِ ٱلْبَحْرِ عَلَى مَذْهَبِ أَشْهَرِ ٱلْعُلَمَاءِ فَكَمَا يَأْتِي . إِنَّ قِشْرَةَ ٱلْأَرْضِ فِي دَوْرِ سَيَّارِنَا ٱلْأَوَّلِ قَبْلَ تَكَاثُفِ ٱلْأَبْخِرَةِ ٱلْمَائِيَّةِ وَقَبْلَ سُقُوطِهَا عَلَى ٱلْأَرْضِ مَطَرًا كَانَتْ تَحْتَوِي عَلَى مَوَادَّ مَعْدِنِيَّةٍ شَتَّى يَذُوبُ بَعْضُهَا فِي ٱلْمَاءِ . فَلَمَّا أَخَذَتِ ٱلْأَمْطَارُ بِٱلِٱنْسِكَابِ ٱلْمَرَّةَ ٱلْأُولَى عَلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْمُتَلَظِّيَةِ جَرَفَتْ مَعَهَا كُلَّ ٱلْمَوَادِّ ٱلْقَابِلَةِ ٱلذَّوَبَانِ فَتَجَمَّعَتْ وَرَسَبَتْ فِي أَغْوَارِ ٱلْأَرْضِ وَمُنْخَفَضَاتِهَا مُذِ ٱلْأَدْوَارِ ٱلْمُتَوَغِّلَةِ فِي ٱلْقِدَمِ . وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ فِي هٰذِهِ ٱلْأَحْوَاضِ مِنْ مَنْفَذٍ لِخُرُوجِهَا كَانَتْ تَرْتَكِمُ ضِمْنَهَا إِلَى

ما شاء الله. لو لم يكن قد سخر المولى حيوانات البحر ونباتاته الوفيرة للانتفاع بها واستخدامها لحاجتها. فإن نباتة يغتذي بالكلس والسلسيوم والبوتاسيوم والبود فتدخل في تركيب نسيجه. وحيوانه ينسج غطاءه وأصدافه من كربونات الكلس والسلسيوم والبوتاسيوم والمغنيسيوم. والنقاعيات كذلك ومنها الحيوانات المرجانية

فالأمطار إذا علة أبحر الكرة الأولى المجتمعة في أحواض فسيحة والذائب فيها كل المواد القابلة الانحلال مثل كلوريد الصوديوم وسولفات الصودا والمغنيسيا والبوتاسيوم والكلس بصورة سليكات ذائبة. فإذا تحرينا الأمر وعلمنا أن نواميس الطبيعة لم تتغير منذ بدء الكون حتى الآن وأن كل مواد الأبحر الأولى القابلة للذوبان بقيت هنالك وأن ماء الأنهر العذب لا يكف عن القيام مقام الماء الصاعد بالتبخر تسنت لنا معرفة العلة الحاملة على ملوحة ماء البحر

ولا يخفى أن ماء البحر مركب كالماء العذب من جزء أكسجين وجزئي هيدروجين. ولكن يدخله أيضاً مواد معدنية

مَحْلُولَةً فِيهِ . فَفِي كُلِّ أَلْفِ قَمْحَةٍ مِنْ مَاءِ ٱلْبَحْرِ تُوجَدُ ٱلْجَوَاهِرُ ٱلْآتِيَةُ

قمحة	
٩٦٣	ماء
٠٢٧	كلوريد الصوديوم او الملح العادي
،٤	كلوريد المغنيسيوم
،٤	كلوريد البوتاسيوم
،١	بروميد المغنيسيا
١،٣	سلفات المغنيسيا
،٨	سلفات الكلس
،١	كربونات الكلس
٣،٩	فيبقى بقية قدرها
١٠٠٠	

وَهٰذِهِ ٱلْبَقِيَّةُ مُرَكَّبَةٌ مِنَ ٱلْهِيدْرُوجِينِ ٱلْمُكَبْرَتِ وَهِيدْرُكْلُورَاتِ ٱلْأَمُونِيَا وَٱلْيُودِ وَٱلْحَدِيدِ وَٱلنُّحَاسِ وَٱلرَّصَاصِ وَٱلْفِضَّةِ يَتَفَاوَتُ قَدْرُهَا بِتَفَاوُتِ ٱلْمَحَلِّ وَٱلنَّوْعِ فَقَدْ فَحَصُوا فِي فَالْبَارِيزُو قَاعِدَةَ سَفِينَةٍ مُصَفَّحَةٍ بِٱلنُّحَاسِ أَطَالَتِ ٱلسَّفَرَ فِي ٱلْبَحْرِ فَوَجَدُوا عَلَيْهَا آثَارَ فِضَّةٍ لَصِقَتْ بِهَا مِنْ مِيَاهِ ٱلْبَحْرِ. قَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ ٱلْبَحْرَ يَحْوِي نَحْوَ مِلْيُونَيْ وَسْقٍ فِضَّةً ذَائِبَةً. وَيُوجَدُ عَدَا ذٰلِكَ مَادَّةٌ هُلَامِيَّةٌ حَيَوَانِيَّةٌ وَنَبَاتِيَّةٌ مَحْلُولَةٌ فِي

مياهِ الأوقيانوسِ ناشئةٌ مِنْ تولُّداتٍ حيوانيةٍ متعاقبةٍ لا تُحصَى انقرضَتْ مُذْ بدْءِ العالَمِ . ومُلوحةُ البحرِ عندَ القطبَيْنِ أقلُّ مِنها عِندَ خطِّ الاستواءِ غيرَ أنَّ هذهِ القاعدةَ لا تخلُو مِنَ الشذوذِ

---

(١) مرٌّ مالح

كثافة مياه البحر وفوائد ملوحتهِ

ان كثافة مياه البحر تختلف باختلاف اقسامها ومواقعها . فمياه الاوقيانوس الاتلانتيكي اكثف من مياه الباسيفيكي واثقل منها . وملوحة البحر تزيد كثافة وقوة حملهِ الاجسام وتجعلهُ صالحاً لحمل السفن والاثقال وتسييرها . وتمدُّ اليابسة بقلي يخصب مزروعاتها . وتعين الاشعَّة على احتراق سطحهِ . وتمنع فساد الماء الناشئ من انحلال المواد الحيَّة القاطنة فيهِ . وتعطي البحر قوة حركتهِ وشدَّة مجاريهِ . فضلاً عن انتفاع الانسان بجوهر الملح في طعامهِ . هذه كلها خاصَّات لا توجد في الماء العذب . اما مياه التقية المتبخرة اي المنسكبة امطاراً فلا تحوي الاَّ املاحاً قليلة تصفى في الطبقات الصخرية ثم تحمل معها الى البحر المواد المحية . فالاوقيانوس اذاً مُستودَع كل المواد القابلة التحلل المجرفة اليهِ عن سطح اليابسة . وملح البحر يعطي مياههُ ذلك الشذوذ الغريب في ناموس التجمد والتمدد بالحرارة . قال الباحثون في مياه البحر انهُ لو انتشرت املاحهُ على سطح اليابسة لرسب عليها طبقة علوها ٣٠ قدماً او يزيد

حركة البحر

للبحر حركة لا تسكن على مرّ الايام والسنين زمان هبوب الرياح وسكونها. فتضطرب امواجهُ وتجري تياراتهُ وإن سكنت الرياح وصفت السماء . واذا ثارت العواصف طغت اللجج وخُيّل للناظر ان البحر بلغ السماء . واذا صحب ذلك وميض البروق وهزيم الرعود رأى ما ليس اغرب منهُ في عجائب الطبيعة. وحركات البحر اربع الامواج الريحيّة والتيّارات السطحيّة والتيّارات السفليّة وحركة المدّ والجزر

اما التيارات السطحية فهي ما التفّ من الامواج دائمًا وجرى جريًا قياسيًّا في جهات معيّنة حسب دفع الرياح القياسية . وسُمّيت بالسطحية لندرة بلوغ عمقها اكثر من خمس مئة قدم . منها التيار الاستوائي وعمقهُ في الاتلانتيك ٣٠٠ قدم ونيف ومعدّل سرعتهِ في اليوم ١٨ ميلاً . ومنها تيار الاوقيانوس الباسيفيكي المنقسم عند تخوم اسيا الى قسمين التيار الياباني وتيار الاوقيانوس الهندي

واما التيارات السفلية فهي ما يجري تحت سطح البحر من القطبين الى المياه الواقعة في خط الاستواء. وذلك لان الحرارة تزيد حجم الماء وتغيّر قوة جاذبيتهِ النوعية فيتمدد او يتكاثف حسب درجة حرارتهِ . فحين يبرد يهبط الى الاعماق لثقلهِ حتى تبلغ حرارتهُ اربع درجات و٢٥ دقيقة تحت الصفر فلا يتغير. فيظلّ في كل الاطوال على عمق الف يرد على هذه الحال . ثم يخفّ عن هذا القياس فيصعد. اذًا كلّما زادت الحرارة عن ٤ درجات و٢٥ دقيقة خفّ الماء وصعد الى السطح وهبط الماء البارد الى العمق . وكلما نقص عن هذا القياس انعكس الامر. ولا ينفأ العامل الاول جاريًا عند خط الاستواء والثاني عند القطبين . فان المياه الباردة تهبط الى الاعماق لثقلها وتجري تحت المياه الحارّة. فتجري هذه الى جهتي القطبين فتشغل امكنة تلك . ومتى بلغت الباردة المحالّ الاستوائية

ارتفعت الى سطح البحر فانقلبت جارية الى القطبين وهكذا على التوالي والتعاقب . وهذا الناموس يضارع ناموس الهواء ويعمل على تطهير الماء وتنقيته

واما المد والجزر فالاول ارتفاع ماء البحر وامتدادهُ الى البر في وقتٍ معيّن . والثاني هبوطهُ وانحسارهُ عنهُ كذلك . وعلّتها اختلاف جذب الشمس والقمر لاجزاء الارض باختلاف اوضاعها . فجاذبية القمر تزيد عن جاذبية الشمس لزيادة قرب الارض اليهِ عن الشمس . فيجذب القمر الجزء المتجه اليهِ اكثر مما يقابلهُ . ويجذب المقابل اكثر من الماء الذي عليهِ فيرتفع الماء على المتجه بجذبهِ عن الارض ويرتفع عن المقابل بجذب الارض عنهُ . فمعظم المدّ في جهتين متقابلتين ابدًا . ومعظم الجزر في جهتين متقابلتين كذلك . كلٌّ منهما على منتصف البعد بين مدّين المدّين . فالمدّ نوعان شمسيٌّ وقمريٌّ يلتقيان ويفترقان على التوالي . فيزيد المدُّ حين الاقتران ويُسمّى المدّ الاقتراني وينقص عند التربيع ويُسمّى المدّ التربيعي . وحينئذٍ يقع معظم المدّ القمري موقع معظم الجزر الشمسي وبالعكس . ويزيد المدّ ايضًا في الاستقبال ويُسمّى المدّ الاستقبالي . فلنا مدٌّ اعظم في كل شهر مرّتان . والمدّة بين مدّين في مكان معيَّن ١٢ ساعة و٢٥ دقيقة . ولنا في كل موضع في البحر مدّان في كل ٢٤ ساعة و٥٠ دقيقة . مدٌّ بجذب الماء عن الارض ومدٌّ بجذب الارض عن الماء . ومعدّل ارتفاع المدّ قدمان ونصف . وقد يرتفع في بعض الاماكن ٦٠ او ٧٠ قدمًا وفي بعضها قد لا يُشعَر بهِ

مجاري الهواء وفعلها بالامواج

ان لمجاري الهواء تأثيرًا عظيمًا على الامواج . فاذا قصفت الرياح وصدمت الامواج المرتفعة سمعت لها عجيجًا هائلاً يخشاهُ سكّان بعض السواحل كثيرًا . فقد

يهدم السدود والحواجز ويجرف امامها كل ما تصادفه . وقد يصطدم المدّ بعباب الانهر الكبيرة حين جريانها الى البحر بسرعة تحاكي وميض البرق . فيسوق امامه المياه ويدفعها بهياج شديد . وقد يبلغ طول الموجة اربعة اميال وعلوّها ثلاثين قدماً . فتتلاطم بالقوارب والسفن الراسية هناك فتنقلب بمن فيها وترتطم . ويحدث احياناً ان هذه الموجة الهائلة تعجّ وترتفع فجاءةً حين سكون الهواء وصفاء الجوّ فتزبد ويُسمع لها صوت كهزيم الرعد . ويخال الناظر سوراً ابيض تشيّد لديهِ فلا يتمالك من الروع والذهول . فلا يتمّ هذا السور حتى يتداعى الى السقوط ويعقب ذلك السكون فترى البحر امسى صافياً كالزجاج . غير ان الامواج تظلّ تتلاطم وتزبد عند الشاطئ كأنّ الزعازع تسوقها الى هناك في حين لا تعاين لذلك علة ظاهرة. فقد تحطّم هذه الامواج مرامي السفن وتجرف البيوت وتهدم المدن . ولا يخفى ان مدينة ليسبون دُمّرت منذ نحو قرن بمثل هذه الحادثة . ولا علاقة لهذه الطوارئ بالمدّ بل انها من الامور الغامضة في الطبيعة

ثم نقول في الختام ان حركات البحر ناتجة من اسباب شتّى منها قوة الرياح . وارتفاع المدّ وهبوطهُ في كل الابحر . واختلاف كثافة المياه بالنظر لدرجة حرارتها . وقوّة بخر الهواء . وكثرة ملوحة الماء وقلّتها . واختلاف الضغط الى غير ذلك

صفة عاصفة

ذَكَرَ ٱلسُّيُوطِيُّ عَاصِفَةً حَدَثَتْ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ قَالَ " كَانَ فِي لَيْلَةِ ٱلْجُمُعَةِ ٱلتَّاسِعِ مِنْ جُمَادَى ٱلْآخِرَةِ أَتَى

عَارِضٌ فِيهِ ظُلُمَاتٌ مُتَكَاثِفَةٌ . وَبُرُوقٌ خَاطِفَةٌ . وَرِيَاحٌ عَاصِفَةٌ . فَقَوِيَ اهْوِيَتُهَا . وَاشْتَدَّ هُبُوبُهَا . فَتَدَافَعَتْ لَهَا أَعِنَّةٌ مُطْلَقَاتٌ . وَارْتَفَعَتْ لَهَا صَوَاعِقُ مُصْعِقَاتٌ . فَرَجَفَتْ لَهَا ٱلْجُدْرَانُ وَٱصْطَفَقَتْ . وَتَلَاقَتْ عَلَى بُعْدِهَا وَٱعْتَنَقَتْ . وَثَارَ بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ عَجَاجٌ فَقِيلَ لَعَلَّ هٰذِهْ عَلَى هٰذِهِ أَطْبَقَتْ . وَيُحْسَبُ أَنَّ جَهَنَّمَ قَدْ سَالَ مِنْهَا وَادٍ . وَعَدَا مِنْهَا عَادٍ . وَزَادَ عَصْفُ ٱلرِّيَاحِ إِلَى أَنِ ٱنْطَفَأَتْ سُرُجُ ٱلنُّجُومِ . وَمُزِّقَتْ أَدِيمُ ٱلسَّمَاءِ وَمُحِيَتْ مَا فَوْقَهُ مِنَ ٱلرُّقُومِ . لَا عَاصِمَ مِنَ ٱلْخَطْفِ لِلْأَبْصَارِ . وَلَا مَلْجَأَ مِنَ ٱلْخَطْبِ إِلَّا مَعَاقِلُ ٱلْإِسْتِغْفَارِ . وَفَرَّ ٱلنَّاسُ نِسَاءً وَرِجَالًا . وَنَفَرُوا مِنْ دُورِهِمْ خِفَافًا وَثِقَالًا . لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا . فَٱعْتَصَمُوا بِٱلْمَسَاجِدِ ٱلْجَامِعَةِ . وَأَذْعَنُوا لِلنَّازِلَةِ بِأَعْنَاقٍ خَاضِعَةٍ . وَوُجُوهٍ عَانِيَةٍ . وَنُفُوسٍ عَنِ ٱلْأَهْلِ وَٱلْمَالِ سَالِيَةٍ . يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَيَتَوَقَّعُونَ أَيَّ خَطْبٍ جَلِيٍّ . قَدِ ٱنْقَطَعَتْ مِنَ ٱلْحَيَاةِ عُلَقُهُمْ . وَعَمِيَتْ عَنِ ٱلنَّجَاةِ طُرُقُهُمْ . وَوَقَعَتِ ٱلْفِكْرَةُ فِيمَا هُمْ عَلَيْهِ قَادِمُونَ . وَقَامُوا إِلَى صَلَاتِهِمْ وَوَدُّوا أَنْ لَوْ كَانُوا مِنَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَيْهَا دَائِمُونَ . إِلَى أَنْ أَذِنَ ٱللّٰهُ فِي ٱلرُّكُودِ . وَأَسْعَفَ

ٱلْهَاجِدِينَ بِٱلْهُجُودِ . وَأَصْبَحَ كُلٌّ يُسَلِّمُ عَلَى رَفِيقِهِ . وَيُهَنِّيهِ بِسَلَامَةِ طَرِيقِهِ . وَيَرَى أَنَّهُ قَدْ بُعِثَ بَعْدَ ٱلنَّفْخَةِ . وَأَفَاقَ بَعْدَ ٱلصَّيْحَةِ وَٱلصَّرْخَةِ . وَأَنَّ ٱللهَ قَدْ رَدَّ لَهُ ٱلْكَرَّةَ . وَأَدَّبَهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ يَأْخُذُهُ عَلَى ٱلْغِرَّةِ . وَوَرَدَتِ ٱلْأَخْبَارُ . بِأَنَّهَا كَسَرَتِ ٱلْمَرَاكِبَ فِي ٱلْبِحَارِ . وَٱلْأَشْجَارَ فِي ٱلْقِفَارِ . وَأَتْلَفَتْ خَلْقًا كَثِيرًا مِنَ ٱلسُّفَّارِ . وَمِنْهُمْ مَنْ فَرَّ فَلَمْ يَنْفَعْهُ ٱلْفِرَارُ

تيّار الخليج

هُوَ نَهْرٌ حَارٌّ عَظِيمٌ عَجِيبٌ لَيْسَ أَكْبَرَ وَأَغْرَبَ مِنْهُ فِي ٱلْمَسْكُونَةِ . فَإِنَّهُ أَسْرَعُ جَرْيًا مِنَ ٱلْأَمَازُونِ وَأَشَدُّ قُوَّةً مِنْ مِيسِيسِبِي وَأَكْبَرُ مِنْهُ بِأَلْفِ مَرَّةٍ . وَلَوْلَا مَا يَعْرِضُ لَهُ مِنَ ٱلْمَوَانِعِ لَجَرَى حَوْلَ ٱلْكُرَةِ ٱلْأَرْضِيَّةِ كَطَبِيعٍ(١) عَظِيمٍ مِنَ ٱلْمِيَاهِ ٱلْحَارَّةِ . وَلَوْنُهُ يَخْتَلِفُ عَنْ مِيَاهِ ٱلْبَحْرِ وَلَا يَمْتَزِجُ مَعَهَا فَقَدْ يَكُونُ نِصْفُ ٱلسَّفِينَةِ فِي هٰذَا ٱلتَّيَّارِ وَنِصْفُهَا خَارِجَهُ . وَقَدْ يَحْدُثُ أَنَّ ٱلْبَحَّارَةَ وَٱلرُّكَّابَ ٱلْمُقْرَقِفِينَ(٢) مِنْ قَرْسِ صَبَارَّةِ ٱلْبَرْدِ وَٱلزَّمْهَرِيرِ يُبْحِرُونَ بِسَفِينَتِهِمْ إِلَيْهِ فَيُعَاوِدُهُمُ ٱلدِّفْءُ وَٱلْحَرَارَةُ وَيَغْسِلُونَ

أطرافهم الخدرة بمياهه السخنة فكأنهم انتقلوا من الشتاء إلى الصيف

أما نبع هذا التيار فمن خليج المكسيك الملآن بالينابيع والأنهر الحارة فكأنه مرجل كبير. ومتى انبجس هذا التيار من ذلك المرجل أسرع في جريه ومرّ في الأوقيانوس الأتلانتيكي من شطوط أفريقية إلى تخوم أميركا. ثم ينعطف إلى الشمال الشرقي نحو سبتزبرجن فيتسع مجراه هنالك وتنخفض سرعته وحجمه. حتى إذا بلغ جزائر الأزور عند الدرجة الأربعين انقسم قسمين يجري أحدهما إلى أرياف إرلندا ونروج حاملاً بزور الأقاليم الاستوائية ومسخناً مياه الأبحر الجمدية. والآخر ينعطف إلى الجنوب ويجري إلى ساحل أفريقية ثم يرتد إلى الأنتيلس ويعود إلى خط الاستواء نبعه الأصلي. وحينئذٍ يكون قد قطع مسافة لا تنقص عن عشرين ألف ميل

ويجرف هذا التيار معه في سياحته الطويلة إلى الأوقيانوس أسماكاً ونباتات وبزوراً وأخشاباً وأمتعة وفيرة حتى أنها كثيراً ما تعيق السفن عن التقدم. ويخال الناظر كأن في استطاعته

ٱلسَّيْرُ عَلَيْهَا . تَتَمَاوَجُ بِأَلْوَانِهَا ٱلزَّاهِيَةِ مَعَ ٱلنَّسِيمِ وَتَأْوِي حَيَوَانَاتٍ صَدَفِيَّةً وَنَقَاعِيَّاتٍ جَزِيلَةً . أَمَّا عَرْضُ هٰذَا ٱلتَّيَّارِ عِنْدَ زُقَاقِ فَلُورِيدَا فَأَرْبَعَةٌ وَثَلَاثُونَ مِيلًا وَعُمْقُهُ ٣٢٠٠ قَدَمٍ وَيَجْرِي أَرْبَعَةَ أَمْيَالٍ وَنِصْفٍ فِي ٱلسَّاعَةِ . وَمُعَدَّلُ حَرَارَةِ ٱلْمِيَاهِ فِي جِوَارِهِ ٣٠ سَنْتِيغْرَاد. وَمَاءُ هٰذَا ٱلتَّيَّارِ بَارِدٌ فِي ٱلْقَعْرِ وَحَارٌّ فِي ٱلْوَسَطِ تَبْلُغُ حَرَارَتُهُ عِنْدَ زُقَاقِ فَلُورِيدَا ٨٠° فَارِنْهِيتْ . وَهُوَ يَجْرِي بِشِدَّةٍ مِنَ ٱلزُّقَاقِ ٱلْمَذْكُورِ إِلَى جَنُوبِ شَوَاطِئِ نِيُوفُونْدْلَنْد . فَيَلْتَقِي هُنَاكَ بِٱلْمِيَاهِ ٱلْبَارِدَةِ ٱلْآتِيَةِ مِنَ ٱلْأَبْحُرِ ٱلشَّمَالِيَّةِ جَارِيَةً بِسُرْعَةٍ عَظِيمَةٍ إِلَى ٱلْجَنُوبِ . فَيَرْتَدُّ قِسْمٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمِيَاهِ إِلَى ٱلْقُطْبَةِ عِنْدَ سَاحِلِ غْرِينْلَنْدَا ٱلْغَرْبِيَّةِ. وَقَدْ تَرَكَّبَتْ شَوَاطِئُ تِلْكَ ٱلْبِلَادِ عَلَى تَمَادِي ٱلْقُرُونِ مِنَ ٱلْبَقَايَا وَٱلْعَادِيَّاتِ ٱلْمَجْرُوفَةِ بِهٰذَيْنِ ٱلْمَجْرَيَيْنِ ٱلْعَظِيمَيْنِ

وَلِحَرَارَةِ هٰذَا ٱلتَّيَّارِ نَفْعٌ عَظِيمٌ يَجْنِيهِ سُكَّانُ ٱلْبِلَادِ ٱلْجَارِي بِقُرْبِ سَوَاحِلِهَا . فَلَوْلَا حَرَارَتُهُ لَمَا ٱسْتَطَاعَ أَحَدٌ ٱلسُّكْنَى فِي إِنْكِلْتَرَا لِبَرْدِهَا ٱلْقَارِسِ وَسُدَّتْ مَوَانِيهَا وَمَرَافِئُهَا بِٱلثُّلُوجِ . وَقَدِ ٱسْتَمَدَّتْ مِنْهُ بَعْضُ أَرْيَافٍ فَرَنْسَا هَوَاءً مُعْتَدِلًا مُقَوِّيًا لِلْأَبْدَانِ تَقْصِدُهَا ٱلْمَرْضَى مِنْ سَائِرِ ٱلْأَقْطَارِ لِلِٱنْتِفَاعِ

بِمَوَاقِعِهَا الْحَسَنَةِ. وَيُظَنُّ أَنَّ بَعْضَ مَجَارِيهِ بَلَغَتِ الْقُطْبَةَ الشَّمَالِيَّةَ فَنَشَأَ مِنْهَا الْبَحْرُ السَّائِلُ وَرَاءَ الْقُطْبَةِ الْمَذْكُورَةِ كَمَا سَيَأْتِي الْكَلَامُ عَنْ ذَلِكَ

وَلَا يَخْفَى أَنَّ اخْتِلَافَ الْحَرَارَةِ بَيْنَ هٰذَا التَّيَّارِ الْعَظِيمِ وَالْمِيَاهِ الَّتِي يَجْتَازُهَا عِلَّةُ قَوَاصِفَ وَزَعَازِعَ هَائِلَةٍ. فَقَدْ هَلَكَ بِهِيَاجِ إِحْدَاهَا فِي بِلَادِ الْأَنْتِيلْسِ عَامَ ١٧٨٠ عِشْرُونَ أَلْفًا. إِذْ طَغَى الْأُوقِيَانُوسُ وَدَمَّرَ مُدُنًا بِرُمَّتِهَا وَقَذَفَ بِجُذُوعِ الْأَشْجَارِ وَعَادِيَّاتٍ أُخَرَ إِلَى الْهَوَاءِ وَسَبَّبَ نَوَازِلَ جَمَّةً. وَلِذٰلِكَ تُسَمَّى هٰذَا التَّيَّارُ بِمَلِكِ الْعَوَاصِفِ. وَقَدْ دَقَّقَ عُلَمَاءُ الطَّبِيعَةِ وَلَاسِيَّمَا الْأَمِيرِكِيُّونَ فِي الْبَحْثِ فِي مُلْتَقَى هٰذَيْنِ الْبَحْرَيْنِ أَيِ الْحَارِّ وَالْبَارِدِ فَاسْتَطَاعُوا الْإِنْبَاءَ عَنِ الزَّعَازِعِ قَبْلَ هِيَاجِهَا وَاتِّقَاءَ أَخْطَارِهَا وَنَصَبُوا سَوَارِيَ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهَا

(١) مهركير (٢) راجعين من البرد

حرارة البحر

انَّ للبحر درجات متفاوتة في الحرارة حسب الموقع والاقليم فحرارة جهات بريطانيا الغربية تبلغ ٤٦° فارنهيت وفي بعض الاوقيانوس الاتلانتيك الشمالي

٤٤° و٤٥° . وفي البحر المذكور عند خط الاستواء بين ٨٠° و٨٢° . ومعدل حرارة الباسيفيك الشمالي ٧٠° والجنوبي ٦٧°٧ . ولا تزيد في الابحر القطبية عن درجة الجمد . وتبلغ قرب خط الاستواء على سطح الاجزاء المعرضة لحرّ الشمس المحصورة بالبرّ درجة ماء الاستحمام الحارّ . فهي في البحر قرب عدن ٩٤° وتختلف في الاوقيانوس الهندي بين ٨٨° الى ٩١° ف ومعدّل حرارة البحر فوق درجة الاربعين طولاً ٦١° س

اما حرارة اعماق البحر فتنقص غالبًا بازدياد العمق حتى تهبط في بعض الاعماق الى ٤٢°٤ بل الى درجة الجليد اي ٣٢° وفي غيرها الى ٣١° و٣٦°٥ . غير ان معدّل حرارة البحر على عمق خمس مئة قامة واحدة في كل الاطوال . ولا تأثير لحركات البحر الشديدة على عمق ١٢ او ١٣ قامة . فلا غروَ ان ذلك حكمة الهيَّة تحمل الحيوانات على الارتفاع والهبوط حسب حرارة البحر وحركته حتى تبلغ وسطًا معتدلاً يلائم بنيتها

الابحر القطبيَّة والجزائر والجبال الجمديَّة

انا نقرأ عن هذه الابحر ولكن ما ادرانا ما الابحر القطبية . هنالك القرّ (١) القارس البالغ خمسين درجة تحت الصفر والزمهرير والضباب والثلوج الدائمة ومشهد النوازل المفجعة التي المّت بفحول ابطال البحر المغامرين في اكتشاف المنطقتين المتجمّدتين والبحر السائل وراء القطبة الشمالية . مثل الربّانين باري وكوك وسميث ودانيس وفرنكلين والسرجون روسّ والدكتور كين وغيرهم .

وموطن امة الاسكيمو سكان البيوت الثلجية واللابلنديين القصار القامة. والحيتان المائلة والجزائر والجبال الثلجية العائمة على سطح البحر التي تدفعها الرياح والامواج من الشمال الى الجنوب ويبلغ علوّ بعضها ٥٠٠ قدم وسمكها ٤٠٠٠. وهنالك ترى البحر ميدان ثلج بلوري يبهج مرآة الناظرين لكنهٔ يضحك ضحكًا يفصل الارواح عن الاجساد. فاذا ذاب بعض الثلج صيفًا وانفصل عن ركامهِ راع الناظر منظرهُ وهالتهُ اخطارهُ. فانهُ يعاين حينئذٍ قِطَع جَمَدٍ كبيرة عائمة تصدم السفن فتهشمها هشمًا. واذا دنوتَ منها خلتها اطوادًا راسية او جزائر كبيرة يهتزُّك مرآها تتلألأ حين وقوع اشعة الشمس عليها بالوان خضراء وزرقاء وبيضاء كأنها مرصَّعة بجواهر كريمة. هنالك يدوم الليل شهورًا متوالية (والنهار كذلك) يتألق في خلالها الشفق الشمالي بالوان قوس قزح فتبهر صورتهُ الناظرين. فكأن المولى ابدع هذه الانوار كي تضيء لسكان تلك الاصقاع الباردة في ظلامهم الدامس الطويل وتعوّض لهم عن تحجُّب نور الغزالة. فتبصرها معلَّقة فوق رأسك تتراقص وتتماوج في الافق المكفهرّ فتسبي باصرتك بلمعانها الغريب. تلك انوارٌ يستطيع الاهلون السير والشغل على ضوئها ولولاها كانوا في ظلام دامس

فاذا رمنا وصف تلك الابحر والاتيان على تاريخ اولئك المكتشفين العظام واعمالهم لاقتضى لذلك مجلَّد كامل. لكنَّا نقول ان الباعث الحامل هؤلاء الافاضل على المغامرة لم يكن سوى الوقوف على حقيقة المجاز الشمالي الغربي ومعرفة السبيل الاقصر للسفر والتجارة بين الاوقيانوس الاتلانتيكي والاوقيانوس الباسيفيكي. فانهم كانوا اذا شاءوا الانتقال من احدهما الى الآخر اضطرّوا الى الطواف حول اميركا الجنوبية من رأس هورن (اي القرن) او حول افريقية من رأس الرجاء الصالح. فذهب البعض الى امكانية السفر على سواحل اميركا الشمالية القصوى ومنها الى الاوقيانوس الباسيفيكي. وسمّوا هذه الطريق بالمجاز الشمالي الغربي وقالوا انهُ يتحقَّق لهم حينئذٍ تقصير المسافة مئات اميال. فاخذوا يغامرون

ويقحمون الاهوال بغية نوال هذا المطلب. فعثروا على مضايق وبواغيز وخلجان عديدة تسمت باسماء مكتشفيها. منها جون بافين وخليج هدسن وبوغاز دافيس الخ. وكان هولاء البسلاء يصادمون عدوًّا صنديدًا يدفعهم الى الوراء ويجرّعهم احيانًا غصص المتون اعني به صبارّة[٢] البرد وقد اوغلوا في المنطقة المتجمّدة وكافحوا رياحها الباردة وصرفوا اشهرًا بل اعوامًا في تلك الابحر وقاسوا مع ملاّحيهم اهوالاً يعسر تصديقها من قرس البرد ونفاد المؤونة وانسداد المسالك عليهم بالجمد. وذهب اكثرهم فريسة هذا العدوّ الجبّار. ولكن لم تثنِ هذه الطوارق عزمهم عن الاكتشاف حتى فازوا بالارب وكشفوا المجاز الشمالي الغربي غير ان الجمد والثلج يحولان دون سلوكه

(١) البرد (٢) شدّة

البحر السائل وراء القطبة الشماليّة

اكتُشف هذا البحر حديثًا بطريقة عجيبة نذكر تمهيدًا لذلك امرًا غريبًا ادّى الى هذا الاكتشاف. وهو ان من عادة صيّادي الحيتان ان ينقشوا على الحراب اسم السفينة وتاريخ رميهـا حتى اذا نجا حوت من سفينة وصادته اخرى عرف الصيادون زمن طعنه الاول. فحدث ان قومًا صادوا حوتًا في جون بافين الواقع في اقصى شمالي اميركا فوجدوه قد طُعن بحربة في بوغاز بيرين على ما انبأتهم الكتابة التي عليها. فقالوا كيف امكن لهذا الحوت اجتياز تلك المسافة العظيمة مطعونًا وجريحًا ولا طريق له الاّ رأس هورن او رأس الرجاء الصالح. فضلاً عن ان عوائد حوت الشمال تباين حوت الجنوب فلا يأتي الابحر الحارّة ولو استطاع. وعلى ذلك لا بدّ ان يكون قد جاء من طريق آخر يجاور القطبة

الشمالية وذلك لا يمكن الاّ ان يكون قد سبح في بحر سائل. فكانوا في ذلك بين تصديق وتكذيب حتى جاءتهم الرسل من هناك بالنبإ اليقين . وكانت تلك الرسل من ذوات الجناح . فانها كانت تطير شمالاً لا جنوبًا فرارًا من برد الشتاء . فقالوا ما كانت تلك الطيور لتطير الى بلاد الثلج والجمد

فاستفزّت الحميَّة احد الشبان الاذكياء اعني بهِ الدكتور كين الاميركي . فدرس الموضوع واستوعبهُ وبثَّ النخوة في صدور جمٍّ غفير من ابناء وطنهِ فاسعفوهُ على هذا المأرب . وهيأوا لهُ سفينتين ركب احداهما ومخر اليمّ . غير ان مشروعهُ هذا حبط المرّة الاولى فلم يقنط بل شرع برحلة ثانية امدَّهُ الانكليز بها بالزاد والذخائر لرغبتهم في نجاحهِ والوقوف على انباء السر فرنكلين (المغامر قبلهُ في تلك البحار) وكان الموماأ اليهِ حينئذٍ مناهزًا الثلاثين . فما كاد يوغل في المنطقة الشمالية حتى ادركهُ الشتاء واخذ يكافحهُ ببردهِ وجمدهِ وبهمةٍ ستة اشهر ضمن سدودهِ . فصرف الشتاء هنالك يتحرّى ويستقصي . غير ان القرّ جرّع بحّارتهُ كأس الحِمام ولم يبقَ منهم سوى ثمانية انفار ثاروا عليهِ وقسروهُ على الاياب . فاخذ يملّقهم ويعدهم بوشك اكتشاف البحر المجهول . ولكن ابن ذلك الغمر . فتقضّى عليهِ الشتاء الثالث . وأُرغم على الاستغاثة بالاسكيمو لامدادهِ بالقوت . فبينما كان في هذه الحال الحرجة خرج رجالهُ الباقون يومًا واوغلوا في تلك الجهات مغامرين بحياتهم من شدة القنوط . واذا بالبحر السائل يعجّ ويموج لديهم وتلتطم امواجهُ بالصخور . فرأوا الهواء هنالك معتدلاً والجوّ صافيًا والطيور تسبح على سطحهِ . وكانت هجرت برد الشتاء ولجأت الى هذا الاقليم الرخيم الهواء . فهزّتهم اريحيَّة العجب والابتهاج لان اكتشاف ذلك البحر كان قد استهدفهم وكثيرين غيرهم لغمرات المنون. ولا تسل عن سرور الدكتور كين حين استطلاعهِ حقيقة الامر ووقوع بصرهِ على تلك المياه الزاخرة . لكن واأسفاه قد ابتاع هذا الاكتشاف بحياتهِ . لان قوّتهُ كانت قد هبطت كل الهبوط بسبب ما كابدهُ من المشاق والارزاء الفادحة فتقضى

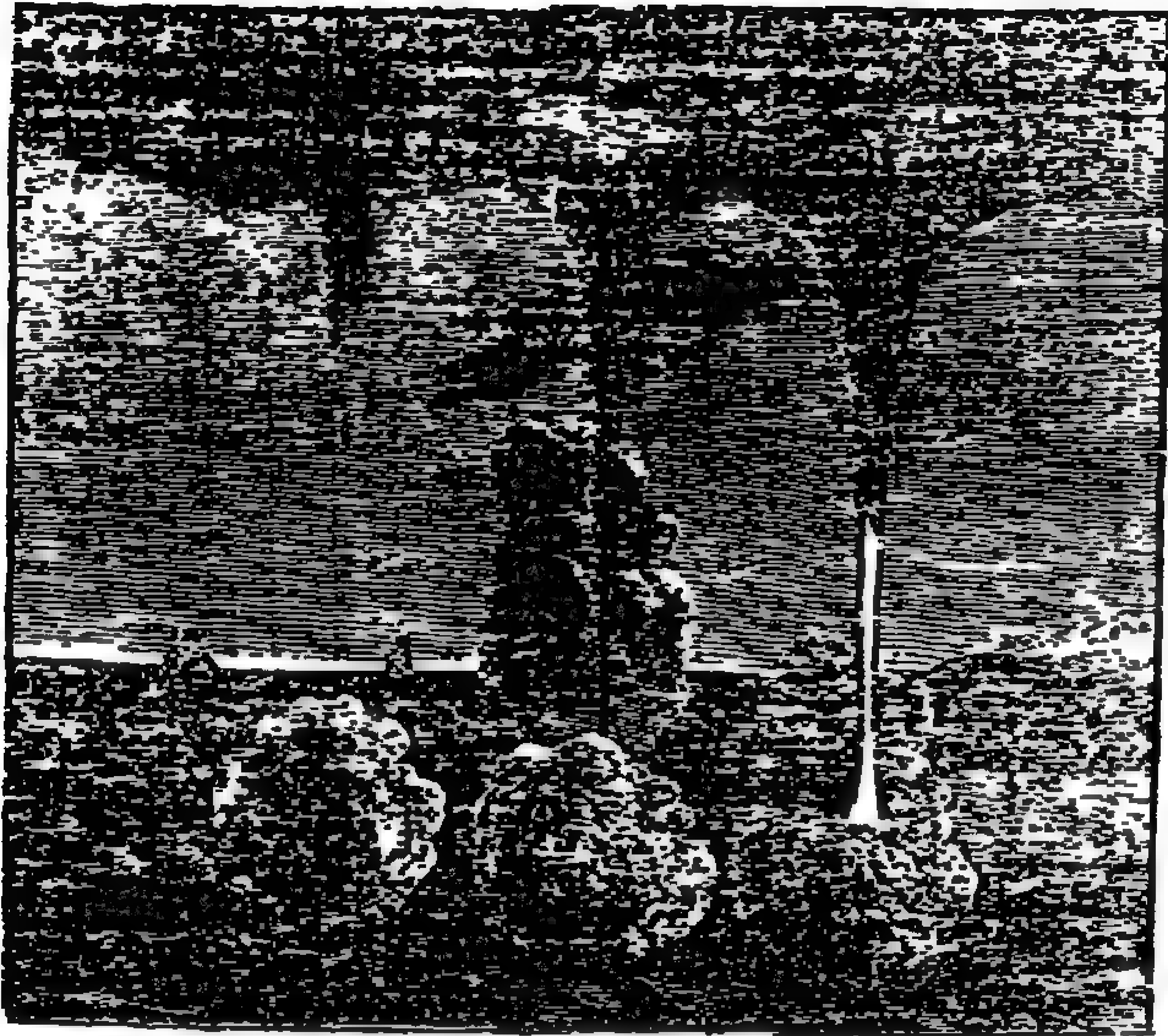
بحية مأسوفًا عليهِ من سائر رجال العلم ولاخلاف في ان الموماأ اليهِ دنا من القطبة اكثر من كل الذين تقدموهُ وكشف الاقطار المعتدلة وراها انما قضت العناية بأن يكون هنالك رمسهُ الابدي

الاعاصير المائية

تُوجَدُ فِي ٱلْبَحْرِ أَعَاصِيرُ(1) مَائِيَّةٌ هَائِلَةٌ كَوُجُودِ أَعَاصِيرَ رِيحِيَّةٍ تَجْذِبُ ٱلْمَاءَ عَمُودِيًّا وَتَمْتَصُّهُ كَأَنَّهَا قُمْعُ قَارُورَةٍ. فَلَا تُدَانِيهَا سَفِينَةٌ حَتَّى تَجْذِبَهَا إِلَى جَوْفِهَا وَتَضْبُطَهَا قَسْرًا فَيَتَعَذَّرُ عَلَيْهَا ٱلنُّكُوصُ. فَكَأَنَّهَا أَمْسَتْ عَلَى فُوهَةِ بُرْكَانٍ عَظِيمَةٍ. فَتَنْسَدِلُ عَلَيْهَا حُجُبُ ٱلظَّلَامِ ٱلدَّامِسِ. وَتَأْخُذُ ٱللُّجَجُ بِٱلْعَجِيجِ وَٱللَّجَبِ وَٱلْجَيَشَانِ وَٱلرِّيَاحُ بِٱلْعَصْفِ وَٱلزَّمْزَمَةِ كَٱلرُّعُودِ. فَتَرْتَفِعُ ٱلسَّفِينَةُ عَلَى غَارِبِ(2) ٱللُّجَجِ كَأَنَّهَا مُعَلَّقَةٌ فِي ٱلْهَوَاءِ. وَتَتَمَزَّقُ ٱلْأَشْرِعَةُ قِطَعًا وَتَكَادُ ٱلْأَصْوَاتُ تَرْمِي ٱلرُّكَّابَ وَٱلْمَلَّاحِينَ بِٱلصَّمَمِ.

أَمَّا ٱلْأَعَاصِيرُ ٱلْمَائِيَّةُ فَأَشَدُّ هَوْلًا مِنْ هٰذِهِ. فَإِنَّكَ تَرَى عِنْدَ قُدُومِهَا ضَبَابًا كَثِيفًا مَخْرُوطِيَّ ٱلشَّكْلِ مُنْسَدِلَ ٱلذُّيُولِ. ثُمَّ يَشْتَدُّ ٱلظَّلَامُ ٱكْفِهْرَارًا وَتَأْخُذُ ٱلرِّيَاحُ بِٱلْهَزِيمِ وَٱلصَّفِيرِ.

وَيُومِضُ ٱلْبَرْقُ وَيُزَمْزِمُ ٱلرَّعْدُ. وَتَنْبَجِسُ أُنْبُوبَةُ ٱلْمِيَاهِ وَيَرْتَفِعُ مَخْرُوطٌ مَائِيٌّ مُلَاقِيًا مَخْرُوطَ ٱلْهَوَاءِ. فَيَبْيَضُّ ٱلْبَحْرُ مِنَ ٱلزَّبَدِ وَتَتَلَاطَمُ ٱلْأَمْوَاجُ بِضَجِيجٍ لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ. فَإِذَا سَاقَ نَكَدُ ٱلتَّقَادِيرِ



سَفِينَةً إِلَى هٰذَا ٱلْمَشْهَدِ ٱلْهَائِلِ جَذَبَتْهَا ٱلْمِيَاهُ إِلَى جَوْفِهَا وَكَسَرَتْهَا. لٰكِنَّهَا قَدْ تَنْجُو بِإِطْلَاقِ ٱلنَّارِ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْعَمُودِ ٱلْمَائِيِّ فَتَخْرُقُ لَهَا فِيهِ سَبِيلًا

هٰذَا وَلَا شَيْءَ يُرِيعُ ٱلْمَلَّاحِينَ كَٱلْعَوَاصِفِ. لٰكِنَّهُمْ نَصَبُوا فِي هٰذِهِ ٱلْأَيَّامِ سَوَارِيَ وَأَعْلَامًا تَدُلُّ عَلَى ٱلْعَاصِفَةِ قَبْلَ هُبُوبِهَا

فَتَرَى مِنْهَا كَثِيرًا حَوْلَ سَوَاحِلِ بَرِيطَانِيَا وَأَمِيرِكَا وَغَيْرِهِمَا.
يُشَاهِدُهَا ٱلرَّبَابِينُ فَيَتَرَبَّصُونَ عَنِ ٱلْإِقْلَاعِ رَيْثَمَا تَسْكُنُ.
أَمَّا فِي قَلْبِ ٱلْبِحَارِ فَلَيْسَ مِنْ عَلَامَةٍ مِثْلَ ذٰلِكَ. غَيْرَ
أَنَّ ٱلْبَحَّارَةَ يَسْتَطْلِعُونَ مِنْ مَهَبِّ ٱلْأَهْوِيَةِ وَشْكَ قُدُومِهَا
فَيَبْذِلُونَ قُصَارَى ٱلْجُهْدِ فِي أَخْذِ ٱلِٱحْتِيَاطَاتِ ٱللَّازِمَةِ. وَإِذَا
بِتِلْكَ ٱلزَّعَازِعِ أَقْبَلَتْ تَلْتَفُّ حَلَقَاتٍ وَاسِعَةَ ٱلْأَطْرَافِ تَكْنِسُ
وَتَجْرُفُ مَا تُصَادِفُهُ فِي سَبِيلِهَا. فَٱلْوَيْلُ لِلسَّفِينَةِ ٱلْمَاخِرَةِ فِي
تِلْكَ ٱلْأَصْقَاعِ

---

(١) الرياح العمودية (٢) اعلى الموج

البحار الساكنة

لمن المعلوم ان اعظم آفة يخافها الملاّحون في البحار العواصف وزعازع الرياح التي تذهب بالسفن وركّابها فريسة اللجج. الاّ انهٔ توجد بعكس ذلك بحار هادئة تُدعى منطقة السكون واقعة تجاه خط الاستواء. وهي اشدّ خطرًا واهول عاقبةً من البحور ذات العواصف. فانهُ لا حركة هنالك ولا عجيج ولا اهواء ولا نسيم بل جمود وسكون لازم كسكون الضريح يخشاهُ الملاّحون ويجانبونهُ. فانهم لا يمخرون في هذا البحر حتى تتشام الغيوم وتكفّ الرياح عن الهبوب

ويتكاثف البخار في الهواء ويصبح سطح البحر ساكناً كالرصاص . فيثقل التنفس حتى يكاد البحارة يصابون بالاختناق . ثم تتكاثف الابخرة مالئة فسيحة الارجاء وتهطل الامطار سيولاً لا تنقطع على مدار السنة تقريباً . وقد تسحّ مدرارًا حتى يغترف ركاب السفينة ماء عذباً عن سطح البحر المالح

ويوجد خلا هذا بحر عديم الحركة كالبحر الميت . اذا قربت منهُ سفينة رأى ركابها الطيور اسراباً عظيمة ترفّ فوقها وتستقرّ على الاشرعة فيلهون بحركاتها والوانها . ولكنها لا تعاين ذلك البحر الساكن حتى تهجرهُ وتطير وتتوارى عن العيان . ثم لا تشعر السفينة الاّ وقد انتقلت الى بلاد السكون والموت حيث لا نسيم ولا حركة ولا تغريد طائر ولا عجيج امواج

اما موقع هذا البحر ففي الاوقيانوس الجنوبي بين تيّارين عظيمين يجري كلٌّ منها الى جهة تعاكس الاخرى . يأتي احدهما من المنطقة الجنوبية المتجمّدة فيجرف ببردهِ المياه الحارّة ويدفعها الى الامام بدون ان يمتزج معها . وهذا التيار علّة برد القطبة الجنوبية القارس حيث يستحيل على الانسان والحيوان السكن . اما التيّار الآخر الحارّ فيأتي من الخطوط الاستوائية ليلاقي التيّار البارد . فتتكوّن بين هذين التيّارين زاوية منفرجة في الاوقيانوس يحتلّها البحر الساكن

حياة البحر الحيوانية

النقاعيّات

يليق بنا بعد الكلام على احوال البحر المادّيّة ان ننتقل الى الكلام على عالم الحياة البحرية ونبدأ بأدقّها جسماً كالنقاعيّات المدلول عليها بالاصطلاح الاوربي بكلمة زوفايتس . وهي يونانية الاصل مركّبة من كلمتين (زو) حيوان و (فوتون)

نبات . وقد دُعيت هذه الجُسيمات كذلك لانها ممتزجة من هاتين المملكتين الطبيعيتين . ومن امثلتها الحيوانات المرجانيّة . فهل لهذه الحيوانات احساس او سليقــة . هذه مسئلة لا يعلم جوابها الاّ الخالق عزّ وجلّ . فانها ليست الاّ مجرّد ذرّات حيّة حجمها نحو $\frac{1}{٣٠٠}$ من العقدة . جهل وجودها القدماء قبل اكتشاف المجهر ولم تبرز من حجب الغموض قبل القرن السابع عشر . وهي تظهر كنبات تتغير صورتها مرارًا باقلّ من لمح البصر حتى انها تبدو بنحو مئة مظهر في دقيقة واحدة . ومن انواعها

البروتوزا

وَهِيَ أَبسطُ ٱلأَجْسَامِ ٱلحَيَّةِ وَأَدقُّهَا حَجْمًا حَتَّى أَنَّكَ تَجِدُ مِنهَا فِي قَطْرَةِ مَاءٍ أُلوفًا لا تُرَى بِٱلْعَينِ ٱلمُجَرَّدَةِ . وَهِيَ كُرَيَّاتٌ دَقِيقَةٌ كَالَّتِي تُرَى فِي ٱلنَّبَاتِ مُرَكَّبَةٌ مِنْ جِسْمٍ هُلَامِيٍّ ذِي أَلْيَافٍ مُرْتَعِشَةٍ هِيَ أَعضَاءُ ٱلحَرَكَةِ . مُغطًّى بَعْضُهَا بِغِلَافٍ لِيفِيٍّ أَوْ طبَاشِيرِيٍّ . فَتَتَقَلَّصُ هٰذِهِ ٱلأَلْيَافُ أَحيَانًا وَتَنقَبِضُ فِي وَسَطِ ٱلجِسْمِ وَتَغِيبُ عَنِ ٱلبَصَرِ حَتَّى تَخَالَهَا ٱمْتُصَّتْ وَٱفْتَرَسَتْ نَفسَهَا . وَمِنْهَا طَائِفَةٌ تُسَمَّى ٱلأَمِبِي لَيسَ لَهَا أَعضَاءٌ ظَاهِرَةٌ بَلْ تَبْدُو لِلْعِيَانِ أَحيَانًا بِصُورَةِ جِسْمٍ صَغِيرٍ مُستَدِيرٍ كَقَطْرَةِ مَاءٍ لٰكِنَّهَا كَثِيرَةُ ٱلتَّغَيُّرِ حَتَّى يَتَعَذَّرَ أَخْذُ رَسْمِهَا تَحْتَ ٱلمِجْهَرِ .

أَمَّا كَيْفِيَّةُ تَغَذِّيهَا فَمِمَّا لَمْ يَصِلُوا إِلَى حَقِيقَتِهِ لِأَنَّ لَيْسَ لِهٰذَا ٱلْحَيَوَانِ أَوْعِيَةُ هَضْمٍ لٰكِنْ يُظَنُّ أَنَّهُ يَتَغَذَّى بِٱلِٱمْتِصَاصِ فَقَطْ. وَكَذٰلِكَ أَمْرُ تَوَالُدِهَا فَقَدْ ذَهَبَ ٱلْبَعْضُ إِلَى أَنَّ فُصُوصًا تَنْفَصِلُ مِنْهَا وَتَنْشَأُ حَيَوَانَاتٍ جَدِيدَةً مُسْتَقِلَّةً وَمِنْهَا

الفورامنفيرا

وَهِيَ دُوَيْبَاتٌ دَقِيقَةٌ صَدَفِيَّةٌ لَا تُرَى بِٱلْعَيْنِ ٱلْمُجَرَّدَةِ لَا يَزِيدُ حَجْمُهَا عَنْ ١/١٠٠ مِنَ ٱلْعُقْدَةِ. فَإِذَا فَحَصْنَا حَبَّةَ رَمْلٍ بِٱلْمِجْهَرِ رَأَيْنَا نِصْفَهَا بَقَايَا أَصْدَافٍ ذَاتِ صُوَرٍ هَنْدَسِيَّةٍ بَدِيعَةٍ مَثْقُوبَةٍ ثُقُوبًا كَثِيرَةً. فَهٰذِهِ ٱلْحُيَيْوِينَاتُ كَانَتْ وَلَمْ تَزَلْ مِنْ مُعْجِزَاتِ ٱلطَّبِيعَةِ ٱلْجِيُولُوجِيَّةِ. فَإِنَّ طَبَقَاتٍ كَثِيرَةً مِنْ قِشْرَةِ ٱلْأَرْضِ مُتَرَكِّبَةٌ مِنْهَا. وَلَا بُدَّ أَنَّهَا كَانَتْ فِي ٱلْأَدْوَارِ ٱلْمُتَوَغِّلَةِ فِي ٱلْقِدَمِ عَائِشَةً دُبًى لَا تُحْصَى فِي أَبْحُرِ ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ. ثُمَّ دَفَنَتْ نَفْسَهَا وَٱرْتَكَمَتْ فِي قَرَارِ ٱلْأَبْحُرِ حَتَّى تَتَأَلَّفَ مِنْهَا تِلَالٌ وَجِبَالٌ سَمِيكَةٌ فَسِيحَةُ ٱلْأَرْجَاءِ. وَقَدْ لَا يُصَدِّقُ ٱلْقَارِئُ أَنَّ ٱلْقِسْمَ ٱلْأَعْظَمَ مِنْ أَهْرَامِ مِصْرَ جُزْءٌ صَغِيرٌ مِنْ هٰذِهِ

ٱلدُّوَيْبَّاتِ . وَكَذٰلِكَ قِسْمٌ كَبِيرٌ مِنْ جِبَالِ إِيطَالِيَا وَٱلنَّمسَا وَفَرَنْسَا وَتِلَالِهَا . وَقَدْ وَفُرَتْ جِدًّا فِي بَارِيسَ وَأَرْبَاضِهَا (٢) حَتَّى صَحَّ ٱلْقَوْلُ أَنَّ بَارِيسَ كُلَّهَا وَٱلْقُرَى ٱلْمُجَاوِرَةَ مَبْنِيَّةٌ مِنْهَا . وَحِجَارُ بَيْرُوتَ أَيْضًا قَدْ تَرَكَّبَ أَكْثَرُهَا مِنْ هٰذِهِ ٱلْحُيَيْوِينَاتِ . قِيلَ إِنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي قِطْعَةِ طَبَاشِيرَ لَا تَزِيدُ عَنْ عُقْدَةٍ مُرَبَّعَةٍ ٥٨ أَلْفًا مِنْ هٰذِهِ ٱلْجُسَيْمَاتِ . وَذٰلِكَ يَسْتَلْزِمُ وُجُودَ ثَلٰثَةِ آلَافِ مِلْيُونٍ فِي مِتْرٍ مُرَبَّعٍ . وَوَجَدَ غَيْرُهُمْ ٢٤٠ أَلْفًا فِي ثَلٰثَةِ غَرَامَاتِ رَمْلٍ . فَمِنْ هٰذِهِ ٱلْحُيَيْوِينَاتِ تَرْتَفِعُ ٱلْأَرْيَافُ وَٱلضِّفَافُ وَسُدُودٌ تَعْتَرِضُ ٱلسُّفُنَ فِي سَيْرِهَا بِٱلْخُلْجَانِ وَٱلْبَوَاغِيزِ وَتَمْلَأُ ٱلْمَوَانِيَ كَمَا فِي مِينَاءِ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ . وَهِيَ تُعَدُّ مَعَ ٱلدُّوَيْبَّاتِ ٱلْمَرْجَانِيَّةِ ٱلْفَاعِلَ ٱلْأَعْظَمَ فِي إِنْشَاءِ ٱلْجَزَائِرِ وَتَمْلَأُ ٱلْأَبْحُرَ وَتَعْمَلُ فِي ٱلطَّبِيعَةِ أَعْمَالًا يَعْسُرُ تَصْدِيقُهَا

وَمِنْهَا طَائِفَةٌ تُرَى بِٱلْعَيْنِ ٱلْمُجَرَّدَةِ (بُنِيَتْ مِنْهَا أَهْرَامُ مِصْرَ) وَهِيَ ذَاتُ أَجْسَامٍ مُتَرَكِّبَةٍ مِنْ مَادَّةٍ هُلَامِيَّةٍ مُسْتَدِيرَةٍ مَقْسُومَةٍ فَلَقَاتٍ مُلْتَفَّةٍ عَلَى بَعْضِهَا كَٱلْوَلَبِ . وَمُغَلَّفَةٍ بِغِلَافٍ يَتِيهَا تَتَدَلَّى مِنْهُ أَلْيَافٌ أَوْ خُيُوطٌ شَفَّافَةٌ تَنْتَشِرُ كَأَغْصَانِ شَجَرَةٍ . وَتَتَمَدَّدُ وَتَتَقَلَّصُ وَتَقُومُ مَقَامَ ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَرْجُلِ وَتَحْوِي مَادَّةً

سامة تصيد بها فريستها . وهذه الحيوينات على دقتها وصغرها نهمة تأكل اللحوم . ومن غرائب أمرها أنها إذا تسلقت على إناء أوجدت لنفسها رجلا وثنية تهدمها وتقضي بها الحاجة ثم تعود فتمتصها . فكأن الضرورة تحملها على إبراز عضو جديد على أن الإنسان لا يستطيع إبراز شعرة

ويأتي تحت هذا النوع ستة صنوف تحتها ٦٠ طائفة و ١٦٠٠ فصيلة ونيف . وهي تزداد عددا ونوعا وحجما في الأقاليم الحارة عما هي في الباردة . ومن أصنافها الحيوينات العصفورية الهسماة نوكتلوليكا التي سبق ذكرها في الكلام عن ألوان البحر . أما حجمها فلا يزيد عن ١/١٠٠ من العقدة يحوي جوفها حبيبات أو بزورا وأعضاء براقة تغيب وتظهر بسرعة غريبة . وقد كثرت في البحر المتوسط والخليج الإنكليزي حتى عد بعضهم ٢٥ ألفا منها في قدم مكعبة

(١) أصغر الجراد أو قبل أن يطير والنمل (٢) نواحي (٣) مرق السكباج المبرّد المصفّى من الدهن

الانفوسوريا

هذه رتبة نقاعيات[1] اخرى تجد منها ملايين في قطرة ماء مالح او عذب بارد او حار. حتى ان نهر الكنك وحده يحمل منها في سنة واحدة اجساماً تزيد ست او ثماني مرات عن اهرام مصر . وهي تكثر في سلاسل الجبال الشاهقة كثرتها في قاع الابحر . ويتلوّن البحر منها في خط الاستواء وفي القطبين بالوان حمراء بهيّة . وقد تركّب من عاديّاتها[2] على مرّ القرون حجار يستعملهـا عملة المعادن ويسمّونها حجر طرابلس . ومن غرائبها انها تنفصل قطعاً (كالهيدرا) ينشأ من كلٍّ منها حيوان جديد. ثم تنفصل من تلك القِطَع قِطَعٌ اخرى تتكوّن منها حيوانات جديدة وهكذا الى ما شاء الله . فيلد الاب في شهر واحد مليون دويبّات نظيرهُ او يزيد . وهي تقتات باصغرها وتستخدمهُ لما مرعًى لسوم[3] عليهِ ونسيجاً تنسج منهُ غلافها

ولا يخفى ان لهذه الحيوينات اشكالاً وصوراً غريبة وجميلة تفوق الاحصاء. بعضها كالنجوم وغيرها كالاصداف او كُرَيّات او انابيب او اهلّة او مخروطيّات او اجراس او حيّات او ازهار الى غير ذلك . اما الصدفيّة فمنقسمة الى عدّة صُفَق[4] متصلة بعضها ببعض ومثقوبة ثقوباً تخرج منهـا الياف سامّة تخدّر فريستها فتبتلعها . قيل ان لبعضها اربع مِعَد بل اربع مئة. وقد امتحن احد العلماء ذلك بأن وضع قطرة ماء ملوّن على زجاجة وقطرة ماء صافية تجاهها وطرّق بينهما بطرف ابرة مجرًى . فرأى بالمجهر الحيوينات تجتاز من قطرة الى اخرى . فاحصاها من جوانبها الشفّافة وعاين اهدابها المتدلّية تتحرّك بسرعة عظيمة ثم تنجذب الى فيها وتُبتلَع . وهي تسبح كالاسماك او تنساب كالحيّات او تلتفّ بالاهداب . فاذا رأت الفريسة طاردتها وعلقت بها بمصّاتها وسحبتها معاً . ثم

دفنت الصائدة نفسها في جسم الفريسة وتكاثرت بسرعة مدهشة حتى بلغت الخمسين وكلها تقتات من جسم الطريدة

ولهذه الحيوينات قوة على فصل نفسها قطعًا او اعلام ذاتها . فاذا حرّكنا الماء بريشة مغموسة بالكحول وقفت حالاً ورأيت في جسمها ثقبًا يتسع تدريجًا الى ان يتلاشى الحيوان . ولكن ضع نقطة ماء عذب قبل التلاشاة تر الحيوان توقّف عن اعلام نفسهِ واخذ الجزء الباقي من جسدهِ بالسباحة كأن لم يطرأ عليهِ شيء فيا للعجب العجاب . وهذه الدويبة الدقيقة المحجوبة عن الابصار تبني الجبال الشاهقة والجزائر الكبيرة وشواطئ الابحر وضفاف الانهر وتعمّر المدن والاهرام وتركّب جزءًا من التراب الذي تدوسهُ باقدامنا ويخصب مزروعاتنا

(١) يُطلَق اصطلاحًا على حيوانات صغيرة متنوعة في الماء (٢) اشغالها الكبيرة (٣) ترعى (٤) جمع صِفاق وهو الجلد الاسفل او جلد البطن

—————

الاسفنج

والآن ننتقل من عالم الخفاء الى عالم الظهور اي من الحيوينات الدقيقة التي لا تُرَى بالعين المجرّدة الى الحيوانات المنظورة ونبدأ بادناها وهو الاسفنج فنقول . انهُ صنع ثناعيات خفيّة تصنعهُ وتكمن فيهِ . فقد تردّد العلماء زمانًا مديدًا في هل يحسبونهُ نباتًا او حيوانًا ولم يعرفوا حقيقتهُ الا منذ بضعة اعوام . فان ليس لثناعياتهِ شعور ولا حركة انما لها حياة حيوانية . ولهذا عدّهُ الطبيعيون بين ادنى مراتب الحيوان

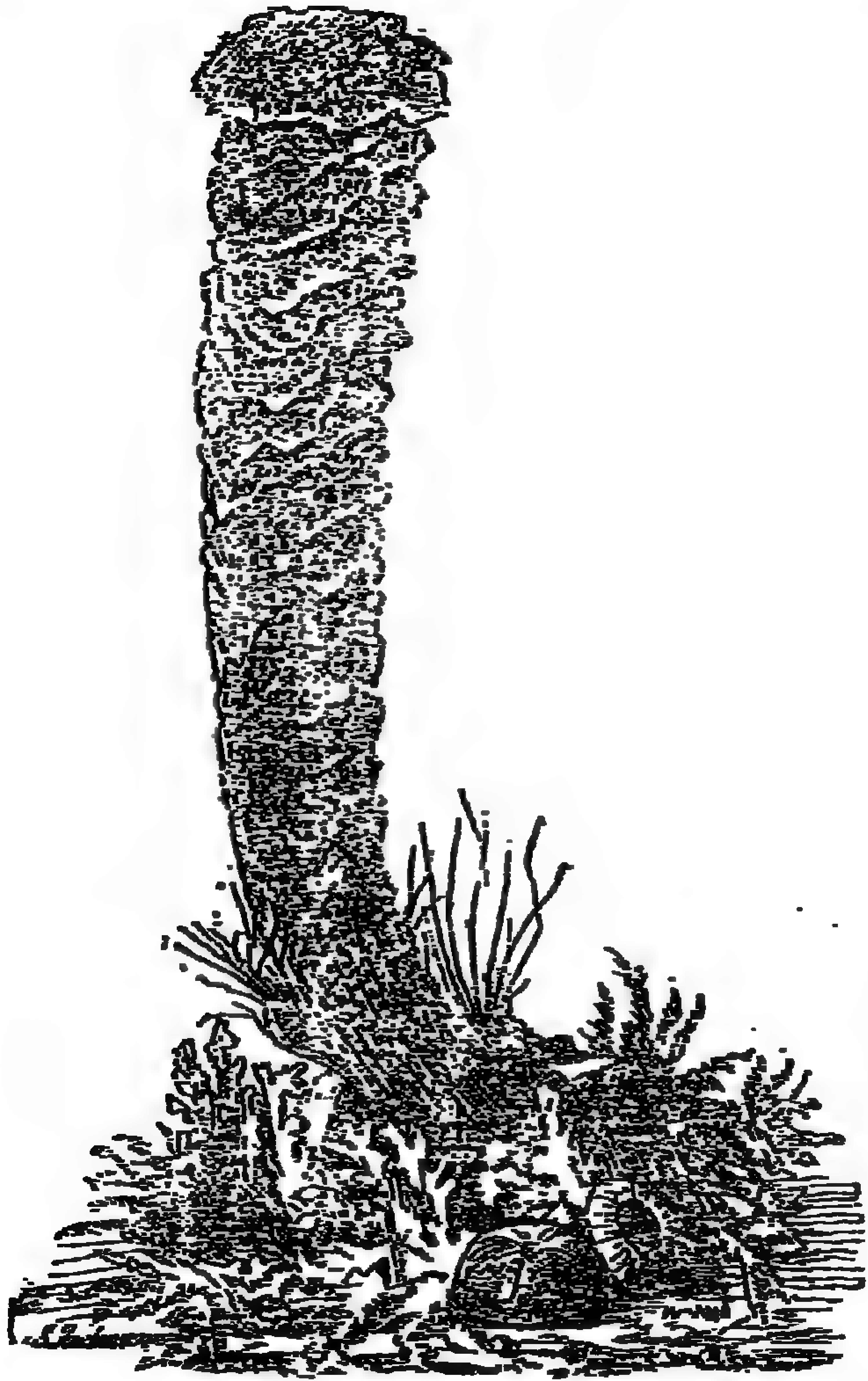
والجسم الاسفنج نسيج قرنيّ او حجري يشبه الشبكة كثير المحاريب[1] ومغطى بمادّة لزجة هي الثناعيّات الحية . وهذه الحيوينات لا تتحرك البتة بل تمتصّ الماء من

خلال الخاريب وتغتذي بالذرّات المحلولة فيهِ. وللاسفنج اطراف صغيرة متفرّعة من جوانبهِ كالبراعم ينمو منها الاسفنج الجديد. فمتى كبر نبتت لهُ اهداب وانفصل



عن الاسفنجة الاصلية . ثم اخذ بالحركة بضعة ايام بواسطة تلك الاهداب الى ان يبلغ صخرًا يتعلق بهِ فتزداد حركة اهدابهِ ثم يكفّ عن الحركة ويلازم مكانهُ

اما فقاعيّاته فتكون اولاً قطرة هلاميّة صغيرة ولكنها لا تلبث حتى تتغير وتتحوّل الى الياف مركّبة من الصوّان ومادة قرنيّة تمتصها الامذاب من البحر.



وتظلّ تفعل كذلك حتى تصبح الالياف شبكةً او نسيجاً. وهذه الفقاعيات تكبر ايضاً مع نموّ الالياف وتملأ الثقوب وتحيط بها. غير انهُ يتعذّر مسّها لانها اذا

مسّت تحوّلت الى مادة زيتيّة وجفّت

والاسفنج صنوف كثيرة مختلفة الاشكال والالوان تزهو بها حدائق المياه وخمائلها(٢) . فمنهُ ما يحاكي الكأس او البوق او الكرة او الاعشاب او اغصان الاشجار ومنهُ ما يتدلى في نقر الصخور كالنجوم. واذا استخرجوا الاسفنج سقط جسم نقاعيّاته الهلاميّ وجفّ . ولا حاجة لتعداد صنوفهِ وكيفية استخراجهِ لان ذلك معلوم عند كثيرين. ولا خفاء في انهُ يقتضي لنزعهِ من الصخور عناء جزيل وعليهِ يتوقف رزق كثيرين في الجزائر اليونانية والبحر الاحمر والاوقيانوس الهندي والبحر المتوسط ولاسيما خليج المكسيك وجارتنا طرابلس ومحالّ أُخرى

(١) ثقوب (٢) حدائق

البوليبس او الهيدرا

أَلْهِيدْرَا حَيَوَانٌ عَجِيبٌ وَغَايَةٌ فِي بَسَاطَةِ ٱلتَّرْكِيبِ. فَإِنَّ جِسْمَهُ لَيْسَ إِلَّا كِيساً مَثْقُوباً مِنْ طَرَفِهِ. وَفِي رَأْسِهِ سِتَّةُ خُيُوطٍ دَقِيقَةٍ . فَٱلثَّقْبُ يُمَثِّلُ ٱلْفَمَ وَٱلْخُيُوطُ ٱلْأَذْرُعَ وَٱلْكِيسُ ٱلْمِعِدَةَ . وَلِهٰذَا ٱلْحَيَوَانِ نَهَمٌ غَرِيبٌ فَإِنَّهُ يَسْتَرِطُ(١) دُودَةً أَكْبَرَ مِنْهُ وَيَضْبِطُهَا فِي مِعِدَتِهِ بِإِحْدَى تِلْكَ ٱلْأَذْرُعِ . وَلَوْلَا ذٰلِكَ لَأُفْلِتَتْ وَخَرَجَتْ . ثُمَّ يَهْضِمُهَا عَلَى ٱلْفَوْرِ وَلَا يُصِيبُ ذِرَاعَهُ ضَرَرٌ ٱلْبَتَّةَ . وَأَغْرَبُ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا قُطِعَ نِصْفَيْنِ وَسَقَطَ

ٱلطَّعَامُ مِنَ ٱلشِّقِّ ٱلْوَاحِدِ إِلَى ٱلْمَاءِ ظَلَّ يَزْدَرِدُ ٱلطَّعَامَ بِشَرَاهَةٍ وَلَا يُبَالِي كَأَنْ لَمْ تُلِمَّ بِهِ أَذِيَّةٌ. حَتَّى أَنَّكَ إِذَا قَطَّعْتَهُ قِطَعًا عَدِيدَةً لَا يَمُوتُ بَلْ تَتَكَوَّنُ كُلُّ قِطْعَةٍ حَيَوَانًا جَدِيدًا كَٱلْحَيَوَانِ ٱلْأَصْلِيِّ وَلَوْ كَانَتْ خَيْطًا وَاحِدًا مِنْ خُيُوطِهِ. وَإِذَا قَلَبْتَ جَوْفَهُ حَتَّى أَصْبَحَ ٱلدَّاخِلُ خَارِجًا وَبِٱلْعَكْسِ دَامَ حَيًّا كَٱلْأَوَّلِ

وَهٰذِهِ ٱلْحُيَيْوِينَاتُ تَنْمُو بِسُرْعَةٍ عَجِيبَةٍ كَحُبَيْبَاتٍ عَلَى جِسْمِ ٱلْأُمِّ. وَلَا تَكَادُ تَكْبُرُ حَتَّى تُوَلِّدَ نَسْلًا جَدِيدًا وَهٰذَا يُوَلِّدُ غَيْرَهُ وَهٰكَذَا إِلَى مَا شَاءَ ٱللهُ. فَتَرَى مِنْ أُمٍّ وَاحِدَةٍ جِيلًا كَامِلًا وَذُرِّيَّةً لَا تُحْصَى. وَمَتَى بَلَغَتِ ٱلْحُبَيْبَةُ ٱلنُّمُوَّ ٱلْكَامِلَ تَنْفَصِلُ عَنِ ٱلْأُمِّ وَتَسْتَقِلُّ. وَمَعَ أَنَّ لَيْسَ لِجِسْمِ هٰذَا ٱلْحَيَوَانِ سِوَى فَمٍ وَكِيسٍ وَخُيُوطٍ وَهُوَ بِدُونِ قَلْبٍ وَرِئَةٍ وَرَأْسٍ وَأَطْرَافٍ يَسْتَطِيعُ ٱلْعِنَايَةَ بِنَفْسِهِ وَٱزْدِرَادَ(٢) فَرِيسَتِهِ وَقَدْ خَصَّهُ ٱلْخَالِقُ سُبْحَانَهُ بِسَلِيقَةٍ تُلَائِمُهُ كَسَائِرِ ٱلْحَيَوَانَاتِ

وَبَعْضُ هٰذِهِ ٱلْحُيَيْوِينَاتِ تَعِيشُ مَعًا أَسْرَابًا وَتَعْمَلُ لِنَفْسِهَا أَصْدَافًا مَرْجَانِيَّةً. فَتَرَاهَا أَوَّلًا قِطْعَةَ هُلَامٍ ٱنْفَصَلَتْ عَنِ ٱلْأُمِّ. فَتَأْخُذُ تَتَعَلَّقُ بِٱلصَّخْرِ أَوْ بِقِطْعَةٍ مَرْجَانِيَّةٍ وَتُحَرِّكُ أَهْدَابَهَا

وتنتفخ وترفع نفسها كأنبوبة. فيعلق بها جنان[٣] هو بداءة بيتها الجديد. ثم تبرز عقدة منتفخة في وسط الهلاء مركبة من أجزاء تتحول إلى فم وأطراف. فتشرع تلك القوائم في العمل فتتمدد وتلتهم الطعام بقرم[٤] شديد. وتبني منه جدار البيت وتصنعه من طباشير وفصفور تمتصهما مع الطعام. فتبصرها أبدا جائعة لا تكف عن الاستراط والبناء حتى يكبر البيت تدريجا ويمسي مسكنا حيا تلتصق به بأوعية دقيقة

وكلما بنت أقساما جديدة على تلك الانبوبة ارتفعت إلى أعلى فأعلى وبقي القديم أسفل فمات وتحجر. وهكذا على التوالي والتعاقب تركم هذه الدويبات بيوتها وتنضدها بناء واحدا مرصوصا أسفله ميت ومتحجر وأعلاه حي ومتحرك. وهذا هو سر الجزائر المرجانية وسواحلها. فإذا راقبت تلك الشواطئ شاهدت ملايين من تلك الاذرع أو الخيوط تشتغل بهمة لا تعرف الكلال ونهمة لا تدري الشبع. تبدو بصور وألوان شتى منها الوردي والبنفسجي والازرق الخ. وهي تلتقم كل ما تصادفه في طريقها حيا كان أو ميتا

وقد ملأت هذه الحيوينات الاوقيانوس وفاقت أنواعها

وَأَشْكَالُهَا وَأَقْدَارُهَا كُلَّ عَدَدٍ وَحِسَابٍ . وَلَهَا فِي ٱلطَّبِيعَةِ نَفْعٌ عَظِيمٌ فَإِنَّ كُلَّ قَطْرَةِ مَاءٍ لَا تَخْلُو مِنْ ذَرَّاتٍ فَاسِدَةٍ وَتَفْتَقِرُ إِلَى ٱلتَّصْفِيَةِ وَٱلتَّنْظِيفِ . فَقَدْ سَخَّرَهَا ٱلْمَوْلَى لِامْتِصَاصِ تِلْكَ ٱلْمَوَادِّ ٱلْفَاسِدَةِ بِأَفْوَاهِهَا ٱلدَّائِمَةِ ٱلِانْفِتَاحِ . فَكَأَنَّهَا كَنَّاسَةُ ٱلْأُوقِيَانُوسِ وَخَادِمَةُ نَظَافَتِهِ . وَلٰكِنَّهَا لَا تَخْلُو مِنَ ٱلْأَعْدَاءِ وَإِنْ تَحَصَّنَتْ فِي بُيُوتِهَا ٱلْحَجَرِيَّةِ . فَقَدْ تَسَلَّطَتْ عَلَيْهَا بَعْضُ ٱلْأَسْمَاكِ ٱلْبَهِيَّةِ ٱلْأَلْوَانِ فَتَصْعَدُ عَلَى ٱلسَّاحِلِ ٱلْمَرْجَانِيِّ مَعَ ٱلْأَمْوَاجِ وَتَرْعَاهَا رَعْيَ ٱلْمَوَاشِي ٱلْكَلَأَ

(١) يبتلع ابتلاعًا (٢) ابتلاع (٣) حرف الشيء او ما استدار به (٤) شدَّة شهوة الطعام

الجزائر المرجانيَّة

اذا رأيتَ البوليبس منفردًا في البحر خلتهُ[١] خليقةً ضعيفةً جدًّا وهو كذلك. لكن متى تآزر معًا في العمل يقوى على بناء جزيرة كاملة بل مجموع جزائر. وموقع الجزائر المرجانية في الاوقيانوس الباسيفيكي الممتدّ الى مدى خمسة آلاف ميل وعرض خمس مئة. وهذا الاوقيانوس مرصَّع بجزائر بهيَّة تُدعى جزائر البحر الجنوبي او بولينيسيا وهي من بناء تلك الحيوينات. تمخر حولها السفن وتتلاطم على

سواحلها الامواج فتزبد وتتلألأ بانوار الغزالة

وما من سور وان بُني من اصلد الصخور يستطيع مقاومة الامواج على هذا المنوال . لانهُ يتفتّت ويُجرَف على مرّ الايام والسنين . غير ان هذه السلاسل المرجانية باقية لم يصبها ضرر البتة. فهي سدٌّ حيٌّ اشتغل ويشتغل بهِ الوف والوف الالوف من البنّائين والمهندسين. ولا جرم فان هذه الحيوينات لا تفتأُ تدأب (١) وتُصلح خللهُ وتسدُّ ثُغرهُ. فكأنها قد غلبت الطبيعة وقهرت اللجّ. اما المياه الواقعة بين هذه السلاسل المرجانية فساكنة كمياه بحيرة وملائمة لرسو السفن . حيث تأمن في مكثها وان ثارت العواصف خارجًا . وهي تدخل هذا المرفأ الامين من زقاق كوَّنتهُ هذه الدويبات نفسها. ولولاهُ لما استطاعت الدنوّ من تلك الجزائر. بل كانت تحطَّم قِطَعًا على السلاسل المرجانية

فلماذا تركت تلك الحيوينات هذا المجاز مفتوحًا. لا ريب في ان السليقة (٢) حملتها على ذلك . لانها لو اوصدت الباب لما صلح الماء لان تعيش فيهِ . فترى مجاري الماء العذب تدخلهُ من الجزيرة وتنزع ملوحتهُ . ولولا ذلك لما استطاع البوليبس المواظب على الشغل امتصاص موادّ الغذاء من البحر . ومن غرائب الامور ان تلك المداخل واقعةٌ تلقاء مصابّ الانهر وتعاينت على جانبي هذه السلاسل جزيرة صغيرة مكسوّة باشجار جوز الهند يشاهدها البحّارة عن بعد تموج مع النسيم فيهتدون الى تلك البقعة

ولا تضارع هذه الجزائر المرجانية بعضها. فان منها ما يحاكي حلقةً او هلالاً. فاذا انحسر (٤) المدُّ رأيتها صخرةً صمّاء لان الحيوانات تكنّ حينئذٍ في بيوتها. ولكن متى عاد المدّ تشاهد ملايين البوليبس تمدّ اذرعها وتنتشر على السلاسل لالتقاط طعامها . فقد ذهب القوم قديمًا الى ان البوليبس يرتفع من اعماق البحر وقالوا انهُ سيبني على كرور الايام جزائر لا تُحصى . بل قد يفعم (٥) الباسيفيك بالجزائر ويكوّن قارّة برمّتها . ولكنهم اخطأُوا بهذا الزعم. فان البوليبس تتعذر عليهِ الحياة في الاعماق العظيمة ولا يحب مجاري المياه الباردة بل يصبو الى الارتقاء الى النور

فعلى ماذا يؤسس جزيرة اذاً . على صخر مرتفع من قرار مجهول. فيأخذ بالبناء على هذا الصخر الذي ربما كان من اصل بركانيّ. وتنقضي عليهِ قرون كثيرة في العمل تنقرض في خلالها اجيال لا تحصى حتى يرتفع البناء الى سطح البحر. ومتى بلغ السطح توقّف عن العمل لانهُ لا يستطيع العيش فوق الماء

فترى الجزيرة اولاً سطحاً افقيًّا ممهَّدًا ومغطى بقِطَع المرجان . وكلّما اتى المدّ والجزر ترك عليها اصدافاً فارتكمت الارض تدريجاً طبقات ترتفع على التمادي وتُسَدّ النُقَر والحُفَر والشقوق والتخاريب بالرمال وغيرها . وتسقط على الارض البزور المحمولة مع الهواء ومع الطيور فتتأصّل . ثم تأخذ الاعشاب بالنموّ على مرّ الايام وتنبت الاشجار والانجم . وتأتي الحجّلات فتسجع وتغرّد. ثم يقدم الانسان في الختام ويستولي على هذه المملكة الجديدة . أَلاَ يُعَدّ هذا من معجزات العناية. فقد ذهب القوم الى ان بناء الاهرام معجزة انسانيّة أَلاَ يرون بناء الحيوينات جزائر من آيات الله في خلقهِ أَوَلاَ نرى المعجزات الخارقة تجري على الدوام في اليمّ العظيم

---

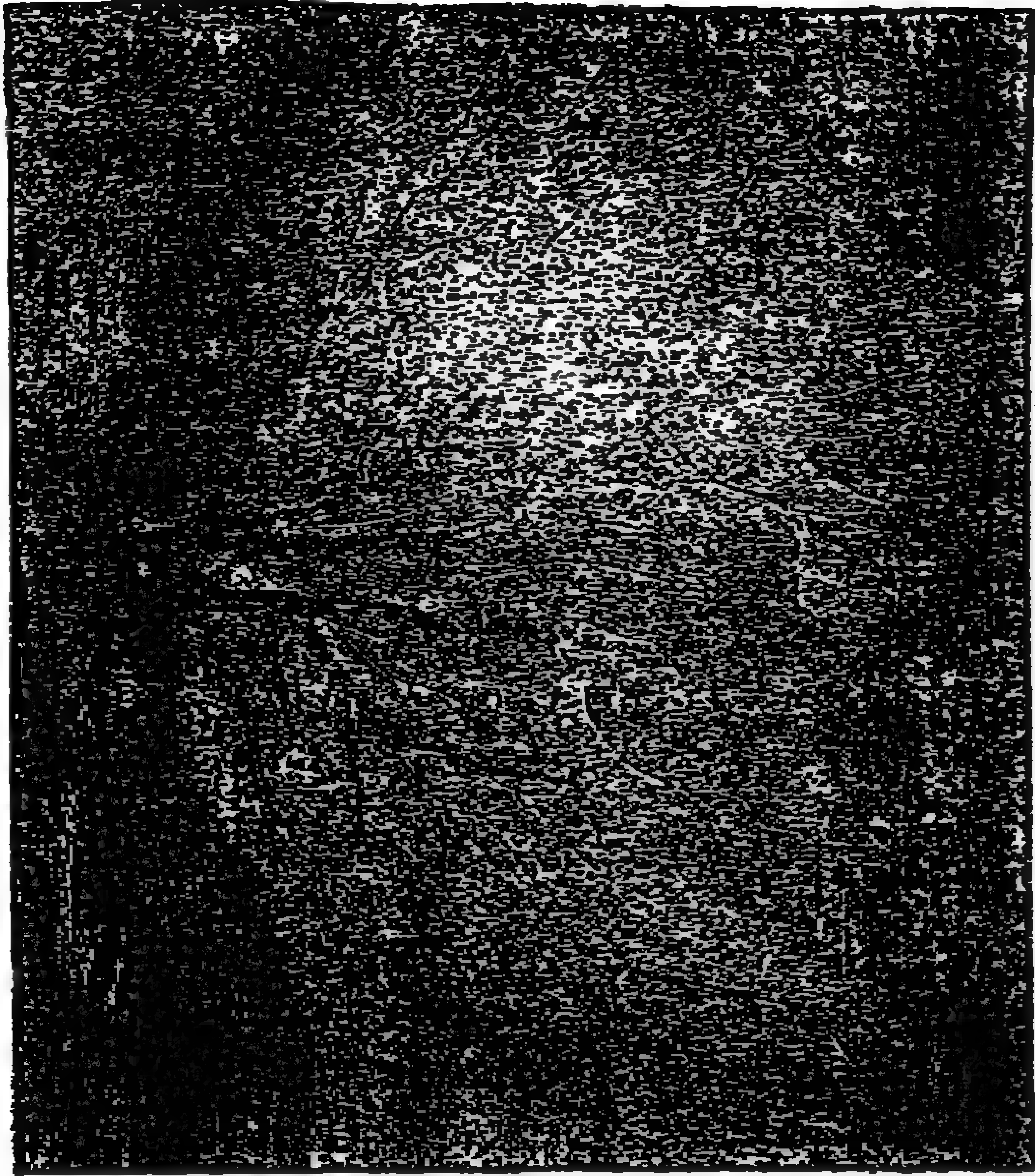
(١) ظلمتهُ (٢) تمجّد وتعجب (٣) الطبيعة ٤ انكشف

(٥) يملأ

مروحة البحر

ان البوليبس المرجاني ضروب تذهل الالباب . فمنهُ ما يشاكل مروحة بديعة يقطنها الوف من هذه الحيوينات تهتزّ مع النسيم كورقة جميلة . ترى على وجهها رؤوس البوليبس تلمع كالنجوم . فاذا كانت المروحة حيّة تراها مكسوّة بهلام صفيق[١] يسكن البوليبس في خلاياهِ[٢] . واذا اخرجتها من الماء رأيتها كقطعة اسفنج او عشب بحريّ لا جمال لها ولا لون . ولكن ضعها في وعاء ماء

ترَ رؤوس البوليبس تتلألأ (٢) واضاءت كنجوم بهيَّة او ازهار بديعة كلٌّ منها حيوان مستقلٌّ . واذا مسستَ هذه الرؤوس ذُعِرَت وتقلَّصت وتوارت عن



العيان . ثم اذا ملكت روعها عادت فأبرزت رؤوسها وامتصَّت من الماء مقدارًا يزيد عن ضعف جسمها فارتخت وضارعت (٤) الاسفنج

---

(١) ضد سخيف وفي الدارج سميك (٢) الاجزاء الفارغة ٣ انتفخت وارتفعت ٤ شابهت

سفر البحر

(للغزّي)

لمّا رَكبنا البحرَ. وحَلَلْنا منهُ بينَ السَّحرِ والنَّحرِ. شاهدنا من أهوالهِ. وتنافي أحوالهِ. ما لا يُعبَّرُ عنهُ. ولا يبلغُ لهُ كُنهُ

البحرُ صعبُ المرامِ جدًّا ... لا جُعِلَتْ حاجتي إليهِ

أليسَ ماءٌ ونحنُ طينٌ ... فما عسى صبرُنا عليهِ

فكم استقبلتنا أمواجهُ بوجوهٍ بواسرَ. وطارت إلينا من شراعهِ عقبانٌ كواسرُ. قد أزعجتها أكفُّ الريحِ من وكرِها. لمّا نبهتِ البحرَ من سكرِها. فلم تبقِ شيئًا من قوّتِها ومكرِها. فسمعنا للجبالِ صفيرًا. وللرياحِ دويًّا عظيمًا وزفيرًا. وتيقّنّا أنّا لا نجدُ من ذلكَ إلّا فضلَ اللهِ مجيرًا وخفيرًا. وإذا مسّكمُ الضرُّ في البحرِ ضلَّ من تدعونَ إلّا إيّاهُ. وأيسنا من الحياةِ لصوتِ تلكَ العواصفِ والمياهِ. فلا حيّا اللهُ ذلكَ الهولَ المزعجَ ولا بيّاهُ. والموجُ يصفّقُ لسماعِ أصواتِ الرياحِ فيطربُ بل ويضطربُ. فكأنّهُ من كأسِ الجنونِ يشربُ أو شربَ. فيبتعدُ ويقتربُ وفرقةٌ تلتطمُ وتصطفقُ. وتختلفُ ولا تكادُ تتّفقُ. فتخالُ الجوَّ يأخذُ بنواصيها وتجذبُها

أَيْدِيهِ مِنْ قَوَاصِيهَا . حَتَّى كَادَ سَطْحُ ٱلْأَرْضِ يَكْشِفُ مِنْ
خِلَالِهَا . وَعَنَانُ ٱلسُّحُبِ يَخْطَفُ فِي ٱسْتِقْلَالِهَا . وَقَدْ أَشْرَفَتِ
ٱلنُّفُوسُ عَلَى ٱلتَّلَفِ مِنْ خَوْفِهَا وَٱعْتِلَالِهَا . وَآذَنَتِ ٱلْأَحْوَالُ
بَعْدَ ٱنْتِظَامِهَا بِٱخْتِلَالِهَا . وَسَاءَتِ ٱلظُّنُونُ . وَتَرَاءَتْ فِي
صُوَرِهَا ٱلْمَنُونُ . وَٱلشِّرَاعُ فِي قِرَاعٍ مَعَ جُيُوشِ ٱلْأَمْوَاجِ .
ٱلَّتِي أُمِدَّتْ مِنْهَا ٱلْأَفْوَاجُ بِٱلْأَفْوَاجِ . وَنَحْنُ قُعُودٌ . كَدُودٍ
عَلَى عُودٍ . مَا بَيْنَ فُرَادَى وَأَزْوَاجٍ . وَقَدْ نَبَتْ بِنَا مِنَ ٱلْقَلَقِ
أَمْكِنَتُنَا . وَخَرِسَتْ مِنَ ٱلْفَرَقِ أَلْسِنَتُنَا . وَتَوَهَّمْنَا أَنَّهُ لَيْسَ فِي
ٱلْوُجُودِ أَغْوَارٌ وَلَا نُجُودٌ . إِلَّا ٱلسَّمَاءُ وَٱلْمَاءُ وَذٰلِكَ ٱلسَّفِينُ .
وَمَنْ فِي قَبْرِ جَوْفِهِ دَفِينٌ . مَعَ تَرَقُّبِ هُجُومِ ٱلْعَدُوِّ . فِي ٱلرَّوَاحِ
وَٱلْغُدُوِّ . فَزَادَنَا ذٰلِكَ ٱلْحَذَرُ . ٱلَّذِي لَمْ يُبْقِ وَلَمْ يَذَرْ . عَلَى مَا
وَصَفْنَاهُ مِنْ هَوْلِ ٱلْبَحْرِ قَلَقًا . وَأَجْرَيْنَا إِذْ ذَاكَ فِي مَيْدَانِ
ٱلْإِلْقَاءِ بِٱلْيَدِ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ طَلَقًا . وَتَشَتَّتَتْ أَفْكَارُنَا فِرَقًا . وَذُبْنَا
أَسًى وَنَدَمًا وَفَرَقًا . إِلَى أَنْ قَضَى ٱللّٰهُ بِٱلنَّجَاةِ وَكُلُّ مَا أَرَادَ فَهُوَ
ٱلْكَائِنُ . وَإِنْ نَهَى عَنْهُ وَأَخْطَأَ ٱلْهَائِنُ . فَرَأَيْنَا ٱلْبَرَّ وَكُنَّا
قَبْلُ لَمْ نَرَهُ . وَشُفِيَتْ بِهِ أَعْيُنُنَا مِنَ ٱلْمَرَهِ . وَحَصَلَ بَعْدَ
ٱلشِّدَّةِ ٱلْفَرَجُ . وَشَمِمْنَا مِنَ ٱلسَّلَامَةِ أَطْيَبَ ٱلْأَرَجِ .

ريش البحر

ان ريش البحر لأعجب من ريش الطيور وأبهى . وهو ريشٌ حيٌّ ملآن بالبوليبس . والاغرب من ذلك ان ما ياكلهُ حيوان يقتات بهِ الآخر . على ان كلاًّ كاملٌ مستقلٌّ عن الآخر . فقد ذهب البعض اولاً الى ان ذلك الريش البحري عائم على الماء لكنهم عرفوا بعدئذٍ ان جذعهُ مدفون تحت الصلصال في اعماق البحر . فاذا وضعتَ ريشةً منهُ في اناء ماء رأيتها ساكنة لا تتحرَّك . ولكنها تحتوي على مادة فصفوريَّة تخرجها فتتلألأ باللون الازرق . وهي تفعل ذلك حين يفاجئها عدوٌّ لتخويفهِ والدفاع عن نفسهِ

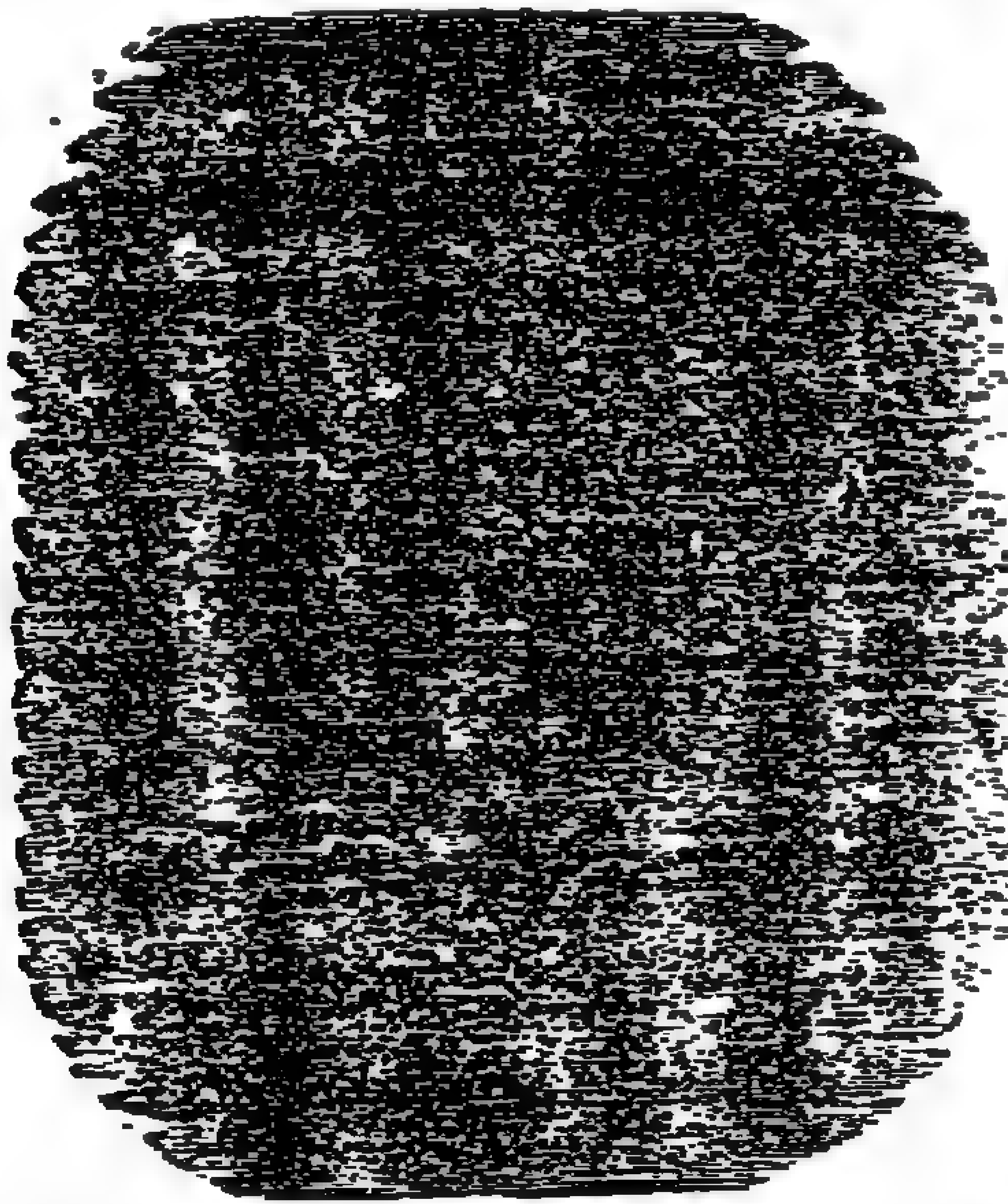
حجر النخاع

هو نوع آخر من البوليبس . وقد سُمّي بهذا الاسم لمحاكاتهِ النخاع البشري . وكثيرًا ما تصطدم بهِ السفن الماخرة حول الجزائر الاستوائية فترتطم . وهو من صنع هذه الحيوانات العجيبة . فتصنع قاعدةً او ساقًا كساق شجرة او كرأس انسان تعلوها غُجَر ونتوات وخطوط كالتي في النخاع الانساني . وهذا الرأس مكسوٌّ بلحم يضارع الهلام يقطنهُ البوليبس . وموطن هذه الحيوانات في الابحر الاستوائية حيث تدأب وتجدُّ بسرعةٍ مدهشة وتكوّن حجارًا تستهدف المراكب للاخطار . اما بناء بيوتها فمن مادة كلسيَّة تلقيها صفائح كصفائح الورق وتسنها على شكل شعاع لا يُرَى حتى يرتفع البناء الى سطح البحر . وحينئذٍ تبرز الرؤوس كاشعة طباشيريَّة اذ تعاين الصخرة او الشجرة تزهو بالرؤوس الحمراء المتموّجة تموّج الازهار مع النسيم . ولا نهاية لاشكال بيوت هذه الحيوانات فتشبه آونةً الاشجار

وطوراً حزم السنابل او اوراق النبات او الازهار او رؤوس البشر. ومتى مرّت بها السفن دُهش ركّابها من بدائع تركيبها حين يرونها مثلاً وتزهو بجمال الجمال تحت المياه

المرجان الاحمر

المرجان جزء من غاب اثيث(١) نابت تحت المياه من صنع البوليبس ايضاً. خالهُ الناس قديماً نباتاً وسمّاهُ اليونان بابنة البحر. حتى اخذ العلماء منذ نحو قرن بالتحرّي والامتحان فعرفوا انهُ من بدائع البوليبس. وموطنهُ في الغالب



البحر المتوسط والبحر الاسود وغيرهما. والمرجان اغصان مغطّاة بخلايا الحيوان. غير ان اذرعهُ لا تشبه الخيوط بل الاشعّة او النجوم والمرجان محجوب تحت القشرة او الجذع(٢). ولهذا النوع مغاصات يستخرجهُ منها الغوّاصون ويستعملونهُ صنفاً من صنوف التجارة. ويأخذونهُ في حالهِ الاصلية الى المعامل للصقل والجلي.

وقد أُقيم لذلك في كولكوهورون من اعمال ايطاليا معامل لقطعهِ وصقلهِ ويصنعون منهُ ادوات كثيرة للالعاب والزينة . اما الذي يلوّن المرجان الاحمر فمادة



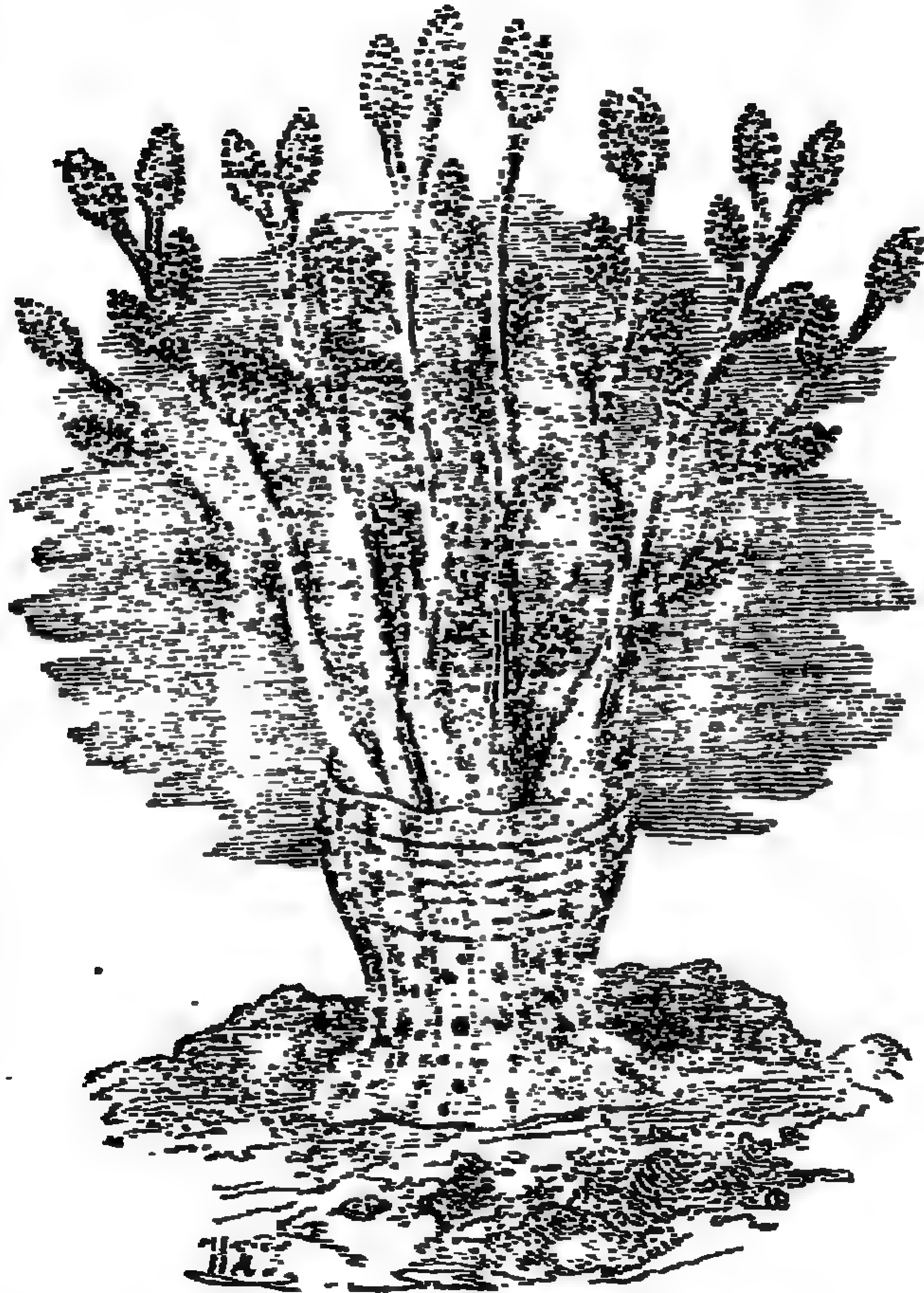
يرشحها الحيوان تمتزج مع كلس خلاياهُ او طباشيرها وتلوّنها باللون الاحمر. وبعضهُ احمر قانٍ يُدعى مرجان الدم

(١) كثير عظيم (٢) ساق النخلة

ازهار البحر

فِي ٱلْبَحْرِ أَزْهَارٌ رُبَّمَا فَاقَتْ أَزْهَارَ ٱلْبَرِّ جَمَالًا. وَمِنَ ٱلْغَرِيبِ أَنَّ تِلْكَ ٱلْأَزْهَارَ حَيَوَانَاتٌ يَسْبِيكَ مَنْظَرُهَا تُبَارِي ٱلْوُرُودَ وَٱلْأَقَاحِيَ وَٱلزَّنَابِقَ. فَتَرَى أَعْشَابَ ٱلْبَحْرِ تَلْتَفُّ عَلَى ٱلْمَرْجَانِ. وَتُكَلِّلُهَا بِٱلذَّهَبِ وَٱلْأُرْجُوَانِ. وَتَسْبَحُ بَيْنَهَا ٱلْأَسْمَاكُ ٱلْهُلَامِيَّةُ بِأَلْوَانِهَا ٱلْبَنَفْسَجِيَّةِ وَٱلْوَرْدِيَّةِ بِأَشْكَالِ شُرُطٍ(١) وَأَهْدَابٍ وَلَوَالِبَ وَأَجْرَاسٍ. فَتَخَالُهَا مَشْهَدَ جَانٍّ أَوْ أَرْوَاحًا سِحْرِيَّةً. فَلَا يُرْخِي ٱللَّيْلُ سُدُولَهُ(٢) حَتَّى تَتَجَلَّى لَدَيْكَ حَدَائِقُ وَخَمَائِلُ(٣) بَدِيعَةٌ تَبْهَرُ ٱلْأَبْصَارَ. تَتَأَلَّقُ فِيهِ مَلَايِينُ نُجُومٍ وَمَصَابِيحُ كَمَشَاعِلِ نَارٍ مُتَأَجِّجَةٍ تَزْهُو بِأَلْوَانِ ٱلْعَقِيقِ وَٱلزُّمُرُّدِ وَٱلْبَهْرَمَانِ. فَلَا بِدْعَ إِذَا حَسِبَ ٱلْقُدَمَاءُ هٰذِهِ ٱلْمَشَاهِدَ إِلَاهَاتٍ وَعَرَائِسَ وَأَرْوَاحًا تَجَلَّتْ بِحِبَرِ(٤) ٱلْحُسْنِ وَٱلْبَهَاءِ. عَلَى أَنَّ تِلْكَ ٱلْحَدَائِقَ لَيْسَتْ بِأَزْهَارٍ حَقِيقِيَّةٍ بَلْ حَيَوَانَاتٍ سُمِّيَتْ أَزْهَارًا لِمُشَابَهَتِهَا ٱلنَّبَاتَ وَٱسْمُهَا زُوفَايِتْس. وَهِيَ مِنْ رُتْبَةِ ٱلْبُولِيبِسِ ٱلْبَانِيَةِ ٱلْجَزَائِرَ ٱلَّتِي مَرَّ ٱلْكَلَامُ عَلَيْهَا. وَمِنْهَا نَوْعٌ يُسَمَّى شَقَائِقَ ٱلْبَحْرِ نَذْكُرُ بَعْضَ صِفَاتِهِ بِٱلِٱخْتِصَارِ

إِنَّ جِسمَ هٰذَا ٱلْحَيَوَانِ مُرَكَّبٌ مِنْ سِتَّةِ أَجْزَاءٍ . أَوَّلُهَا ٱلْجِذْعُ أَوِ ٱلْعَمُودُ ٱلنَّامِي كَجِذْعِ نَبَاتٍ أَوْ سَاقِ شَجَرَةٍ تَعْلُوهُ أَهْدَابٌ كَثِيفَةٌ وَعَلَى سَطْحِهِ غُجَرٌ أَوْ خُطُوطٌ أَوْ أَثْلَامٌ مُجَعَّدَةٌ . وَقَدْ



يَكُونُ هٰذَا ٱلْجِذْعُ جِلْدِيًّا أَوْ هُلَامِيًّا أَوْ لَحْمِيًّا مُتَنَوِّعَ ٱلْأَشْكَالِ مُغَطًّى بِنُتُوَاتٍ تَلْتَصِقُ بِكُلِّ مَادَّةٍ تَخْتَارُهَا . أَمَّا ٱلْجِلْدُ فَهُلَامِيٌّ

بمسامٍ دقيقةٍ . وللجذعِ قاعدةٌ عريضةٌ مسطّحةٌ يتشبّثُ بها الحيوانُ بالصخورِ . وله أيضًا في أعلاهُ قرصٌ مستديرٌ ذو أهدابٍ مجوّفةٍ حولَ حافتهِ . وليسَ لشقائقِ البحرِ هذهِ أعينٌ ولا آذانٌ بل لها أفواهٌ وشفاهٌ . أما الفمُ ففي وسطِ القرصِ والشفاهُ حولهُ . ويتدلّى من الفمِ تجويفٌ أو كيسٌ ملتفٌّ طبقاتٍ يُدعى معدةً تشغلُ تجويفَ العمودِ مقسومةً صفقاتٍ[١] كثيرةً . فتكونُ إذًا بنيةُ هذا الحيوانِ مركّبةً من قاعدةٍ وساقٍ وقرصٍ وفمٍ وشفةٍ ومعدةٍ وأهدابٍ

وهو يحبُّ السكنَ بينَ نقرِ الصخورِ والشقوقِ والثقوبِ حيثُ ينشرُ أهدابهُ كمداقٍّ[١] ويموّجها في الماءِ فتبدو بألوانٍ برتقانيةٍ وحمراءَ وبيضاءَ وبنفسجيةٍ برّاقةٍ إذا لمستَها تقلّصتْ واحتجبَ لونها وتحوّلتْ إلى عجرةٍ أو هلامٍ . وإذا أفلتَّها عاشتْ وانتفخَ العمودُ وبسطَ القرصُ أهدابهُ وزهتْ بحُللِ الجمالِ وأخذتْ تفتّشُ عن طعامها

ولمّا لم يكنْ لها أعينٌ تحرّكُ الأهدابَ فيعلقُ بها دودٌ وحشراتٌ أخرى ترشحُ عليها سمًّا[٢] فتخدرُ وتقفُ عن الحركةِ فتسترطُها بفيها الكبيرِ المفتوحِ . فإذا فحصتَ الدودةَ

بِالْمِجْهَرِ رَأَيْتَ عَلَيْهَا سِهَامًا قَصِيرَةً كَالْإِبَرِ انْتَشَرَتْ مِنْ ثُقُوبِ الْحَيَوَانِ وَفِيهِ كَخُيُوطٍ أَوْ جِرَابٍ مُشْتَبِكَةٍ تُحَاكِي حُزْمَةَ قُطْنٍ. وَإِذَا خَرَجَ الْخَيْطُ مِنَ الثُّقْبِ رَأَيْتَهُ يُشْبِهُ الْعُرْوَةَ. فَمَتَى هَاجَ الْحَيَوَانُ أُفْلِتَ طَرَفُ الْعُرْوَةِ. ثُمَّ عَادَ بَعْدَ حِينٍ فَدَخَلَ فِي الثُّقْبِ الَّذِي أُفْلِتَ مِنْهُ

وَهٰذِهِ الْحَيَوَانَاتُ وَإِنْ دَقَّتْ وَصَغُرَتْ فَأَقَلُّ خَطَرٍ يُثِيرُ أَخْلَاقَهَا فَتُفْرِزُ سُمًّا لِلدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهَا. وَقَدْ تَنْشَبُ مَخَالِبُهَا بِأَجْسَامِ الْبَشَرِ فَتَلْدَغُهُمْ لَدْغًا مُؤْلِمًا حِينَ يَسْبَحُونَ فِي الْبَحْرِ. قِيلَ إِنَّ أَحَدَ الطَّبِيعِيِّينَ وَضَعَ تِلْكَ الْأَهْدَابَ عَلَى لِسَانِهِ فَنَشِبَتْ بِهِ حَتَّى اضْطُرَّ إِلَى نَزْعِهَا عُنْفًا فَجُرِحَ وَتَأَلَّمَ جِدًّا. وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ بَعْدُ مَكَانَ ذٰلِكَ السُّمِّ وَلَا كَيْفَ يَرْشَحُهُ الْحَيَوَانُ

---

(١) جمع شريط (٣) استارة (٢) جمع خميلة وهي المواضع الكثيرة الشجر (٤) اثواب مزينة (٥) جمع صفاق وهو جلد البطن (٦) جمع مدق وهو آلة يُدَقّ بها (٧) المرّ الغليظ الذي لا يُطاق شربه (٨) منظر يكبّر الاجسام

المدوسا او عروس البحر

سُمّي هذا الحيوان في اساطير(1) جاهلية اليونان بعروس البحر وخالوهُ امرأة لُفّت حول رأسها حيّات بدلاً من الشعر. وفي خرافاتهم ان من نظر اليها



تحوّل الى حجر. والمدوسا اشكال والوان شتّى. وقد تبدو شفّافة كالماء. ولاكثرها

قوّة على الاضاءة ليلاً وهي من الحيوانات التي يتلوّن بها البحر . فاذا القيتها على الشاطئ رأيتها جسماً هلامياً يذوب في حرارة الشمس . ويسمونها احياناً قرّاص البحر لان لها اهداباً شائكة تلسع لامسها. ومتى ذابت بحرارة الشمس رأيت بقيّتها مادّة قليلة تشاكل نسج العنكبوت ذات ثقوب كثيرة لها قرص كمظلّة يتدلّى منه ساق متفرّع فروعاً كجذور النبات . وللقرص ايضاً اهداب تعوم في الماء تحاكي الحيّات وفم يؤدي الى معدة يلتهم كل ما يصادفه في طريقه

وينطوي تحت هذه الرتبة انواع شتّى مختلفة التركيب والحجم واللون . وقد فحص احد العلماء الفرنسيين جسم هذا الحيوان بأن صبَّ في فيه قدراً من اللبن فانتشر في ثقوبه واوعيته فتمكّن من النظر اليها. وعلم انه حيوان حقيقي له قوّة الحركة وصيد الفريسة فتقرّر الامر. وكان العلماء قبل ذلك يذهبون الى انه قطعة هلام حيّة . ولما كان القسم الاكبر من جسم هذا الحيوان ماء فيذوب بعد الموت بحرارة الشمس

ومنه نوع يشبه الجرس وهو اثقل من الماء . لكنه يعوم باستخدام قرصه المضارع المظلّة . فيتقلّص(٢) هذا القرص ويتمدّد كرئة الانسان ويضرب به الامواج فيعوم واذا ثار البحر غاص الى العمق ووجد لنفسه محلاً لا يصله الموج

ومنه طائفة تُدعى منطقة الزهرة تشبه الشريط لها اهداب تستعملها كمجاذيف فتعينها على السباحة . وهي ذات الوان متلألئة جميلة جداً تضيء في الماء كمصابيح

ومنه نوع آخر مستدير يشاكل البطيخ وصافٍ كالبلّور . ينقسم جسمه الى ثماني طبقات متماثلة ملتفّة على بعضها ذات اهداب مسطّحة كمجاذيف بعضها فوق بعض يعوم بواسطتها . وله فضلاً عن ذلك قرنان بارزان كرابتين يتقلّصان ويتمددان حين الارادة وعليها خيوط كشبكة يصيد بها الطريدة

---

(١) احاديث مكتتبة كذباً (٢) ينضمّ وينزوي

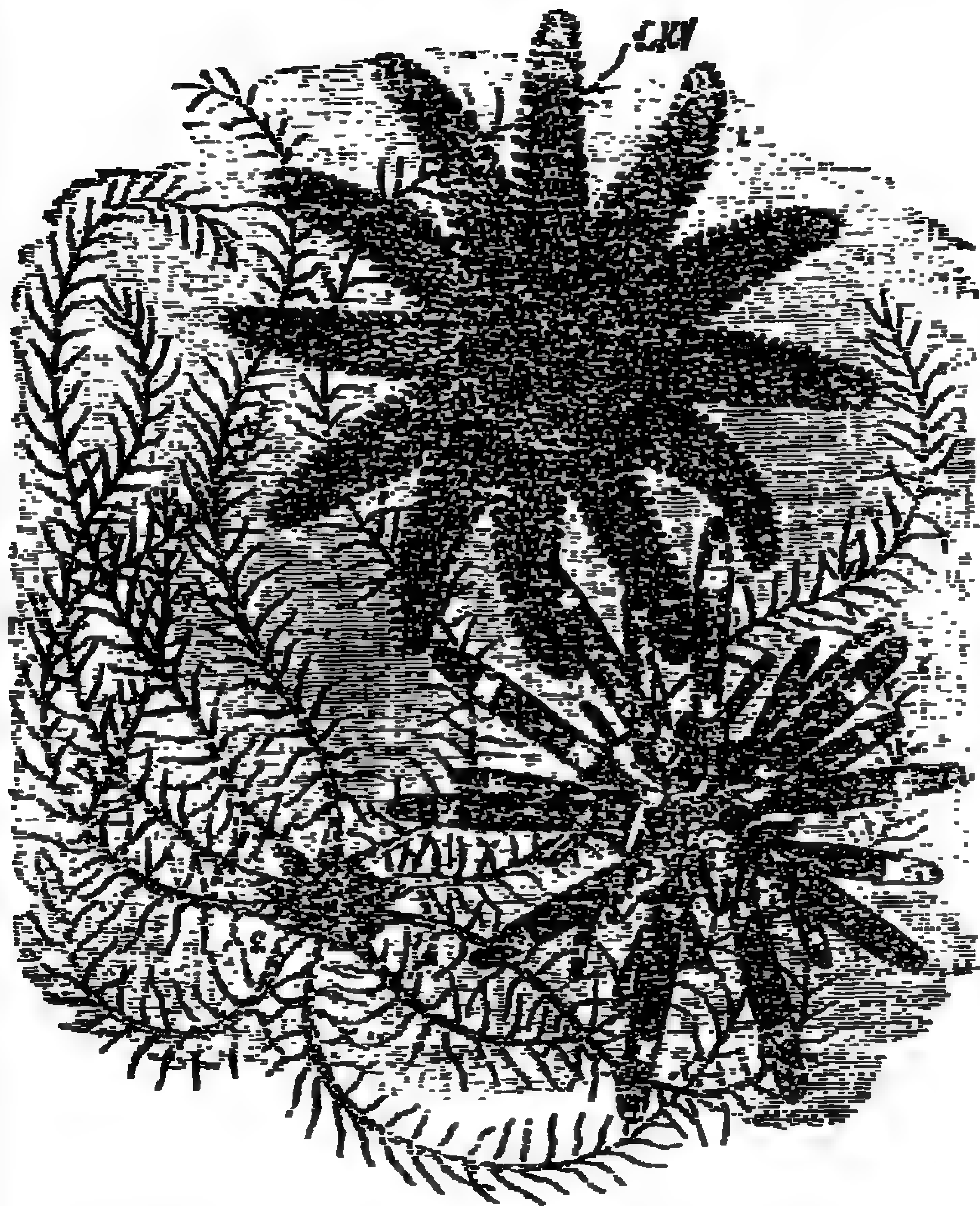
زنابق النجم

هي من رتبة تُدعَى ايشينودرماتا وبعضها يشبه النجوم. وهذه الحيوانات تفرز مادة حجرية ضمن جسمها بدلاً من خارجهِ خلافاً للحيوينات المرجانية. اما نسيج هذا الحيوان فمركَّبٌ من قِطَعٍ صلبة تشبه الحجار مرتبطة معاً بمادة غضروفيَّة ولبعضها اجسامٌ مستطيلة لا تشبه النجوم بل الحيَّات او الدود. والاوقيانوس ملآن من هذه الحيوانات التي تفوق سائر حيوانات البحر المنظورة عددًا. حتى يصحّ ان يُقال ان غورهُ مبلّط بها. وهي شديدة النهم قاطعة السلاح فتختشاها سائر الحيوينات. ولا تقتصر على نوعٍ واحد من الطعام بل تزدرد كل ما تصادفهُ. وقد وفرت في ابحر الادوار الاولى وقربها الآن. غير ان انواعها الاولى انقرضت ولم يبقَ الاَّ عاديَّاتها المتحجرة. وكانت اشعتها او اذرعها طويلة لينة الملمس تشبه الريش وتحاكي زهرة الزنبق مرتبطة بساق ينحني الى كل الجهات. وكان لونها ورديًّا جميلاً جدًّا. ويوجد من عاديَّاتها الآن في سواحل نروج حتى البحر المتوسط لكنها اصغر من سالفاتها جدًّا. واذا ماتت هذه الحيوانات وجفَّ لحمها تكسّرت قِطَعًا تشبه الخرز يستعملونهُ الآن في بعض البلدان للزينة

سمك النجوم

مِنَ ٱلنَّوعِ ٱلمتقدِمِ ذِكرُهُ فَصِيلَةٌ تُدعَى سَمَكَ ٱلنُّجومِ ٱلقصِمِ [1]. فَإِذا نَزَعتَ زَهرَةَ ٱلنَّجمِ عَنْ جِذْعِهَا رَأَيْتَ حَيَوانًا

ذا جسمٍ صغيرٍ مستديرٍ تتشعب منهُ أذرعٌ كثيرةٌ دقيقةٌ كالأشعةِ مركبةٌ من قطعٍ حجريةٍ أيضاً . وتُعاين في وسطِ



الجسمِ تقبباً يمثل فم الحيوانِ . ثم تبصر تلك الأشعة الطويلة نابتةً من الجسمِ كلٌّ منها منفصلٌ عن الآخرِ . وقد تكثر هذهِ الأذرعُ في بعض انواعهِ فيتفرع منها فروعٌ وفروعُ فروعٍ

يزحف الحيوان بواسطتها إلى قرار البحر ويلتف بأعشابه. ومتى سبح مدها. وإذا دنت منه فرائس صادها بتلك الشبكة ودفعها إلى فيه. أما أذرعه فتشاكل أذناب الحيات تنعطف إلى كل الجهات فيستعملها كأرجل للزحف وكزعانف[١] للموازنة في الماء.

وجسم هذا الحيوان مؤلف من قطع كثيرة ملتحمة معاً بصنعة دقيقة. وفمه محاط بأقلام مثقوبة تدخل فيها ممصات قائمة على أنبوبة مجوفة تحتها كيس ملآن عصيراً. فمتى استعمل الحيوان الممصات عصر تلك المادة السائلة في الأنابيب فانتفخت ودفعت الممصات إلى الخارج فأمسكت بالفريسة وابتلعتها. وإذا فرغ الحيوان من الطعام جذب العصير إلى الكيس وأفرغت الأنابيب فتقلصت وتوارت في الثقوب. فيفترس على هذا المنوال حيوانات جمة حتى أن السرطان الكبير لا يسلم من نهمه بل يثقب غلافه ويمصه. ويظن أنه يصب قدراً من العصير في الصدفة فيخدر الحيوان ضمنها ويتسنى له أكله. وقد وجد أحد الطبيعيين سرطاناً كبيراً في وسط أشعة هذا الحيوان على وشك الامتصاص.

وَلِهٰذَا ٱلْحَيَوَانِ خَمْسَةُ أَكْيَاسٍ حَوْلَ عُنُقِهِ حَجْمُ بَعْضِهَا قَدْرُ ٱلْجَوْزَةِ قَائِمَةٌ عَلَى سَاقٍ صَغِيرَةٍ. وَفِي أَعْلَاهَا ثُقْبٌ مُسْتَدِيرٌ يُرِيقُ ٱلْعَصِيرَ فِي ٱلْأَصْدَافِ. فَإِذَا مَسَسْتَ هٰذَا ٱلْحَيَوَانَ تَقَلَّصَتِ ٱلْأَكْيَاسُ وَتَوَارَتْ عَنِ ٱلْعِيَانِ. وَلِهٰذِهِ ٱلْمَمَصَّاتِ قُوَّةٌ عَلَى ضَبْطِ ٱلْفَرِيسَةِ وَحِفْظِ طَعَامِ ٱلْحَيَوَانِ إِلَى أَنْ يُهْضَمَ

وَلَوْنُ زَنَابِقِ ٱلنُّجُومِ غَايَةٌ فِي ٱلْبَهَاءِ وَٱلْجَمَالِ. وَإِذَا مَسَسْتَهَا أَوْ دَنَوْتَ مِنْهَا تَخْلَعُ عَنْهَا ذِرَاعًا ثُمَّ أُخْرَى حَتَّى لَا يَبْقَى شَيْءٌ. وَكَثِيرًا مَا يَصِيدُونَ عَدَدًا وَافِرًا مِنْهَا فِي شِبَاكِهِمْ فَتَلْتَفُّ عَلَى نَفْسِهَا أَشْكَالًا غَرِيبَةً وَتَطْرَحُ أَذْرُعَهَا وَتُفَكِّكُ جِسْمَهَا قِطْعَةً فَقِطْعَةً حَتَّى يَعَافَ ٱلصَّيَّادُ مَنْظَرَهَا وَيَقْذِفَ بِهَا إِلَى ٱلْبَحْرِ. غَيْرَ أَنَّ ٱلْعَالِمَ ٱلطَّبِيعِيَّ يَوَدُّ تَحَرِّيَ أَمْرِهَا. فَيَضَعُهَا بِسُرْعَةٍ فِي ٱلْمَاءِ ٱلْبَارِدِ ٱلْعَذْبِ فَتَمُوتُ عَلَى ٱلْفَوْرِ قَبْلَ أَنْ يَتَيَسَّرَ لَهَا تَفْكِيكُ جِسْمِهَا. وَإِلَّا حَلَّلَتْ نَفْسَهَا إِرْبًا إِرْبًا فَفَاتَتْهُ ٱلْفُرْصَةُ

وَإِذَا ٱلْتَقَى سَمَكُ ٱلنُّجُومِ بِٱلْفَرِيسَةِ حَنَى أَشِعَّتَهُ وَجَمَعَهَا كَكَأْسٍ وَصَادَ بِهَا كَمَا بِشَبَكَةٍ. ثُمَّ تَنْتَأُ ٱلْمَمَصَّاتُ ٱلْوَبَرِيَّةُ مِنْ ثُقُوبِ ٱلْأَشِعَّةِ ٱلْمَذْكُورَةِ آنِفًا. وَتَضْبُطُ ٱلْفَرِيسَةَ حَتَّى يَتَعَذَّرَ عَلَيْهَا ٱلْإِفْلَاتُ. وَهٰذِهِ ٱلْمَمَصَّاتُ تَحْتَ سُلْطَتِهِ فَيُخْرِجُهَا

مَتَى شَاءَ وَهِيَ مِنْ أَغْرَبِ ٱلْأَعْضَاءِ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ . وَإِذَا وَضَعْتَ هٰذَا ٱلْحَيَوَانَ فِي وِعَاءِ مَاءٍ عَذْبٍ تَجَمَّعَ عَلَى بَعْضِهِ وَتَقَلَّصَتْ أَشِعَّتُهُ وَسَكَنَ حَتَّى تَخَالَهُ مَائِتًا . وَلٰكِنَّهُ لَا يَعْتَمُّ أَنْ يَعِيشَ فَتَتَمَدَّدُ ٱلْأَشِعَّةُ وَتَبْرُزُ مِئَاتُ ٱلْمَمَصَّاتِ مِنَ ٱلثُّقُوبِ وَتَتَشَبَّثُ بِجَوَانِبِ ٱلْوِعَاءِ . فَيَا لَغَرَابَةِ هٰذَا ٱلْحَيَوَانِ ٱلدَّنِيءِ ٱلْبَسِيطِ وَيَا لَحِكْمَةِ خَالِقِهِ ٱلْقَدِيرِ

(١) سريع الانكسار . (٢) اجنحة السمك (٣) فحص وامعان النظر

دود البحر

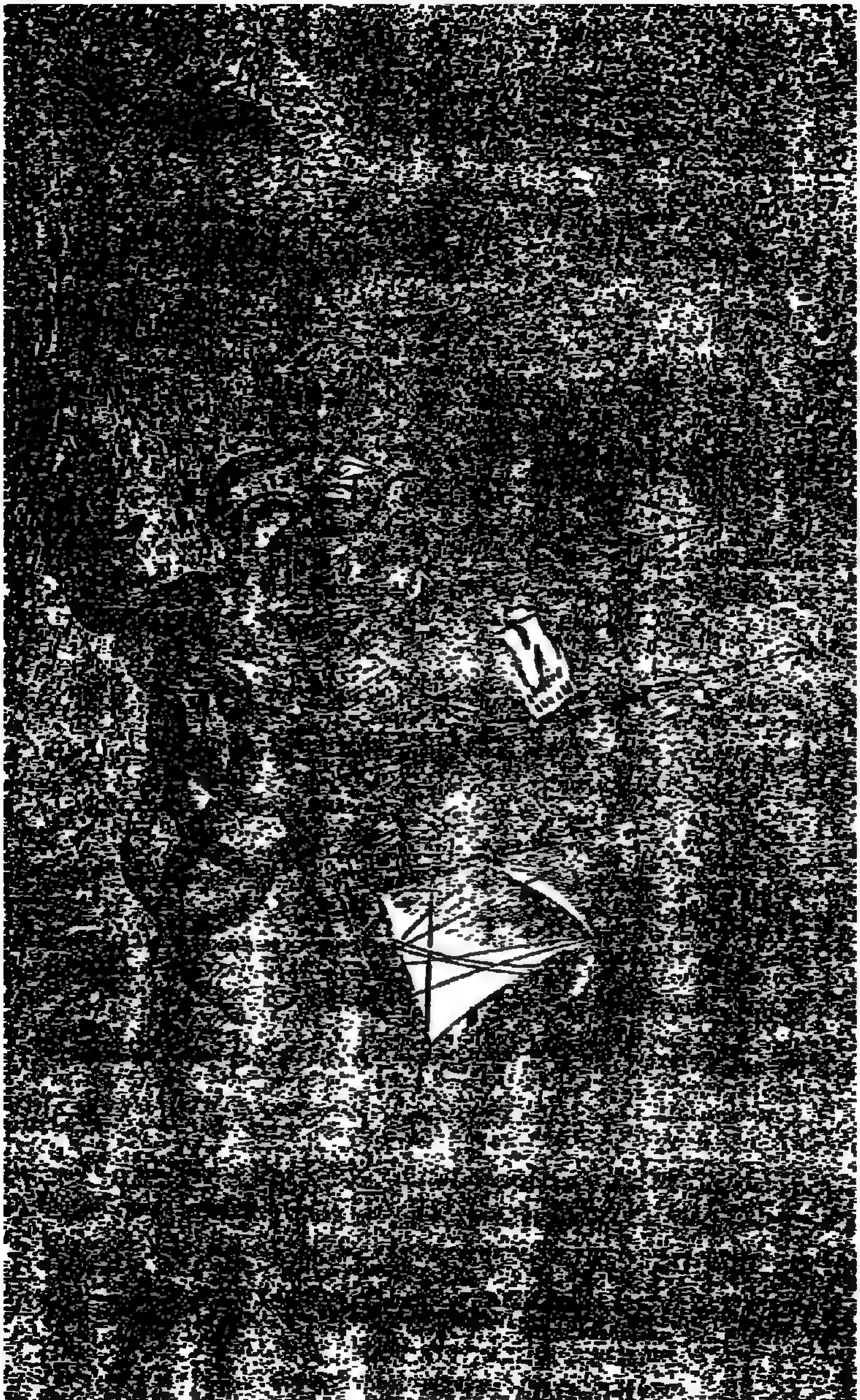
يوجد في البحر دود كما في البرّ وهو من حيوانات الرتبة المسماة انيلايدس ومن اوصافها انها ذات منظر جميل جدًّا وتزهو بالوان قوس قُزَح . تتدلى منها اهداب تشبه الشعر تتنفّس بها . ولما رأس كرأس الحيّة طول بعضها نحو اربعين قدمًا . وهي تعيش في نقر الصخور وتقتات بالاصداف الصغيرة . ومنها ما يبني اوجرةً تشبه الانابيب الحجرية تصرف حياتها في بنائها . فاذا اتى المدّ اخرجت الحيّات الكثيرة رؤوسها من هذه الانابيب لالتهام فرائسها فحاكت ازهار الحدائق البديعة

الخبّاط او الاخطبوط

ان رتبة الحيوانات الملاميّة كثيرة الانواع والطوائف ويدخل تحتها اشكال وحجوم تكاد تفوق الاحصاء ومن اشرسها وابشعها الخبّاط. وهو من رتبة تُدعى سيفالوبودا ومعناها رأس واقدام وهي كذلك لان الاقدام او الاذرع نابتة من الرأس والحيوان يسبح بها الى القعر ويلتقط فريسته

ويكبر الخبّاط في بعض البلدان كبرًا فاحشًا. وله في كل ذراع ممصّات تسعفهُ على التشبّث بفريسته حتى انهُ لا يفلتها ولو قطعت ذراعهُ. والممص نسيجٌ من غشاء عضليّ يضارع الكأس يعلوهُ طرف لحميّ صفيق. فاذا قبض الحيوان شيئًا تدلّت الاطراف كلها والتصقت بكعوب الكؤوس. ولبعض اصنافهِ ذراعان اطول من البقية يتدلى من وسط كل ممص شبه كلّابة قوية تقبض على الفريسة وتدفعها الى فم الحيوان. فاذا كانت حيوانًا صدفيًا سحقهُ الخبّاط بمنقار قرنيٍّ صلب يحاكي منقار الببغاء. غير انهُ اقصر وليس لهُ تغرة عظمية في فكّهِ بل يقوم بدلها غضروف قوي. وفكّ هذا الحيوان مغلّف بعضلات تنفخ وتنطبق بقوة عظيمة. فمتى جُذبت الفريسة الى فيهِ امال ابتلعها على الفور

اما لسان الخبّاط فيسعفهُ على ذوق الطعام وإزدرادهِ. فان لهُ كلاليب قرنيّة حادّة نابتة من جانبيهِ تنحني الى الوراء وتعين على جذب الطعام الى البلعوم. ولهُ عينان قبيحتا المنظر مركزهما في بعض انواعهِ على جذوع العضلات تتحرّكان وتنظران الى كل الجهات. واما عظامهُ فمادة غضروفية لا تشاكل عظام الحيوانات الفقارية يفرزها الحيوان مثل البوليبس وسمك النجوم فتصلب وتنتظم طبقة فطبقة على ظاهرهِ كغلف الحيوانات الصدفية. وتحاكي في بعض طوائفهِ الحراب وهي بارزة من ظهرهِ. فاذا تفرّست فيها خلتها ضخمة وثقيلة وتعيق



الحيوان عن السباحة . لكنها بالحقيقة خفيفة جدًّا مركّبة من صفحات رقيقة منفصلة بعضها عن بعض باوتاد عديدة صغيرة فتعين الحيوان على السباحة بدلاً عن ان تعيقهُ . ومنها عظم جميل جدًّا يضاهي الريشة يلمع كعرق اللؤلؤ . ومسحوق هذه العظام يُستعمل لتبييض الاسنان

وهذا الحيوان يتنفس كالسمك من منفساتهِ المتوارية في تجويف ضمن جسمهِ وهي تتمدد وتتقلَّص كرئة الانسان وتنفخ نحو الماء بواسطة صامين[١] احدهما يُدخِل الماء والآخر يُخرِجهُ . وقد يدفع هذا الحيوان الماء بقوة من الانبوبة حتى انهُ ينشب في الهواء كالسمك الطيَّار . فقد طار منهُ مرَّةً عدد وافر على احدى السفن فسقط بعضهُ على سطحها والآخر حلَّق الى الجانب الثاني

والخبَّاط يقر[٢] في اكثر الابحر وفرة سمك النجوم . ومنهُ صنف قبيح المنظر يعيش منفردًا في بعض السواحل الصخرية خلافًا لسائر طوائفهِ التي تحب المعيشة إجمالاً . ومن صفاتهِ شدَّة النهم حتى انهُ كثيرًا ما يبيد الاسماك كلها بقرب بعض الشواطئ حتى لا يغادر للصيادين رزقًا . فهو حاكى بنهمهِ وشراستهِ نمر البرّ الذي يقتل الفرائس لمجرَّد محبة القتل والتسلية . قيل انهم وضعوا خُبَّاطة في بركة مع اسماك كثيرة فقتلت الجميع ولم تاكل سمكة واحدة . ومع ان الخبَّاط متقلّد بسلاحٍ قاطع وطبيعة شرسة كثيرًا ما يسقط فريسة لاعداء تقلّل عددهُ . منها الانسان والحيتان وطيور البحر . ويكثر الخبَّاط في البحر المتوسط ويفتش عنهُ الصيادون في نُقَر الصخور ويطعنونهُ بالحراب فيقتلونهُ

وللخبَّاط كيسٌ في جسمهِ ملآن بسائل اسود يشبه الحبر فاذا هالهُ شيء دفع منهُ كمية فاسودَّ الماء واحتجب تحتهُ لكي لا يهتدي احد اليهِ فيفرّ من قانصيهِ . وهذا الحبر يُسمَّى سيبيا ويستعملهُ المصورون بعد جفافهِ في نقوشهم ويدوم زمنًا مديدًا لا يعروهُ فساد

وهذا الحيوان يتوالد بكثرة تفوق التصديق . فترى صُغُرهُ[٣] متلاصقًا كعنقود عنب مرتبط بعشب البحر . فاذا بعد عن البرّ رأيتَ هذه العناقيد

عائمة على سطح المياه وتنقف من حرارة الشمس . ثم تسير اسراباً للتفتيش عن طعامها وقد تكبر هذه الحيوانات كبراً هائلاً . قال ربّان سفينةٍ انهُ رأى حيواناً من نوعهِ كبيراً جداً يتقلَّب في البحر تحاكي اذرعهُ الثعابين العظيمة طول كلٍّ منها ٧ اقدام

ومنهُ نوع يُسمَّى ارغونو يقطن صدفةً غايةً في الجمال يتعلق بها بعضلتين . وقلَّما يُنظَر هذا الصنف سابحاً بل يدبّ باذرعهِ التي يستخدمها كاقدام ويغوص الى قاع البحر . واذا سبح دفع الماء من انبوبة الهواء كالخبّاط . وقد يتملص احياناً من الصدفة ويعوم على الامواج . ولكن حالما يخيفهُ شيء لا يعود الى الصدفة ويختبئُ فيها . ولذلك يعسر النظر اليهِ ويصعب صيدهُ ايضاً

ولهذا الحيوان ذراعان كبيرتان كشراعين يبسطها على الصدفة فيغطيهـــا كأنهُ ليحجبها عن الابصار . فهاتان الذراعان تنسجان الصدفة وتصلحانها اذا الم بها ضرر لانهما تفرزان مادة ترابية تتركب منها الصدفة تدريجاً . وامتحنت ذلك احدى السيدات بأن ربّت صغار هذا الحيوان بعد خروجها من البيضة وراقبت بمزيد التحرّي والدقة فرأت افراز تلك المادة وتراكمها التدريجي . ولما كملت الصدفة كسرتها ثم تركتها في الماء لتشاهد ماذا يحدث . ثم اتت في الغد ورأت تلك المادة المشاكلة نسيج العنكبوت منتشرة على القطع المكسورة . وفي اليوم نفسهِ خثرت وزادت الحافات متانةً . وما فتئت تراقب العمل يوماً فيوماً والمادة تجمد وتصلب حتى التحمت الاطراف وأُصلحت الصدفة وعادت الى حالها السابقة فقرَّرت هذه السيدة ان الذراعين هما اللتان اشتغلتا الصدفة

---

(١) سلادين (٢) يكثر (٣) صغار السمك



ارغونن

الحيوانات المدرّعة

هٰذه الحيوانات من رتبة اسمها كروستاسيا من اصل لاتيني معناه متصلّب . منها السرطان البحري

ولا يخفى ان درع هذا الحيوان او غلافه منسوج من مادة تشبه الغراء يفرزها جلده فتمتزج مع الكلس . وذنبه حلقات متراكبة منوطة بعضها ببعض بغشاء صفيق مرن . وأرجله مغلّفة كظهره بدرع متين ومرتبطة بمفاصل تسهل له الحركة . فقد علم الخالق الاخطار المستهدف لها هذا الحيوان اللين

ٱلْجِسْمِ فَجُهِّزَ لَهُ دِرْعًا يَتَّقِي بِهِ ٱلْخَطَرَ

وَلِهٰذَا ٱلْحَيَوَانِ ثَلَاثَةُ أَطْرَافٍ عِنْدَ فَمِهِ يَقْبِضُ بِهَا عَلَى ٱلْفَرِيسَةِ وَيُكَسِّرُهَا. وَلَهُ أَيْضًا عَشْرُ أَقْدَامٍ عِنْدَ صَدْرِهِ يَمْشِي عَلَيْهَا. وَأَطْرَافٌ أُخْرَى عِنْدَ ذَنَبِهِ يَسْتَعْمِلُهَا لِلسِّبَاحَةِ تَحْمِلُ بِهَا ٱلْأُمُّ صِغَارَهَا ثُمَّ تَطْمِرُهَا فِي ٱلرَّمْلِ كَيْ تَتَفَقَّسَ. وَلَهُ فِي مُنْتَهَى أَطْرَافِهِ ٱلْعُلْيَا مَخَالِبُ أَحَدُهَا كَٱلْمِنْشَارِ يَصِيدُ بِهِ ٱلْفَرِيسَةَ. وَٱلْآخَرُ يَتَشَبَّثُ بِهِ بِأَعْشَابِ ٱلْبَحْرِ لِيَقِيَ نَفْسَهُ مِنْ صَدَمَاتِ ٱلْأَمْوَاجِ. فَإِذَا جُرِحَتْ هٰذِهِ ٱلْمَخَالِبُ كَسَرَهَا وَوَقَفَ جَرْيُ ٱلدَّمِ وَلَوْلَا ذٰلِكَ لَانْتَزَفَ دَمُهُ وَمَاتَ لِلِينِ جِسْمِهِ. فَيَنْبُتُ لَهُ مِخْلَبٌ آخَرُ يَقُومُ مَقَامَ ٱلْأَوَّلِ

وَحِينَ يَأْخُذُ هٰذَا ٱلْحَيَوَانُ بِٱلنُّمُوِّ يَضِيقُ عَلَيْهِ ٱلدِّرْعُ وَيُؤْلِمُهُ. فَيَكُفُّ عَنِ ٱلْأَكْلِ وَيَخْتَبِئُ فِي وِجَارٍ أَوْ فِي زَاوِيَةٍ فَيَتَقَلَّصُ جِسْمُهُ وَيَضْمُرُ وَيَأْخُذُ بِٱلِٱخْتِبَاطِ وَٱلتَّلَوِّي حَتَّى يَنْكَسِرَ ٱلْغِلَافُ وَيَنْثَقِبَ. فَتَخْرُجُ مَخَالِبُهُ مِنْ غِلَافِهَا خُرُوجَ ٱلرِّجْلِ مِنَ ٱلنَّعْلِ. ثُمَّ يَخْلَعُ ٱلْخُوذَةَ وَيَخْرُجُ مِنَ ٱلْغِلَافِ. فَتَظْهَرُ ٱلصَّدَفَةُ بَعْدَ خُرُوجِهِ كَامِلَةً كَأَنَّ ٱلْحَيَوَانَ لَمْ يَزَلْ ضِمْنَهَا. أَمَّا ٱلسَّرَطَانُ فَيَمْشِي ضَعِيفًا لَوْ رَآهُ ٱلسَّرَاطِينُ رِفَاقُهُ

لأَكْلُوهُ. فَيَخْتَبِئُ فِي زَاوِيَةٍ مُتْعَباً مَنْهُوكاً فَتَمُدُّهُ ٱلطَّبِيعَةُ حَالاً بِدِرْعٍ جَدِيدٍ وَيَأْخُذُ جِسْمُهُ بِإِفْرَازِ مَادَّةٍ لَزِجَةٍ وَهُوَ فِي خِلَالِ ذٰلِكَ يَمْتَصُّ مَاءَ ٱلْبَحْرِ. فَيَمْتَزِجُ مَعَ تِلْكَ ٱلْمَادَّةِ ٱلْغَرَوِيَّةِ وَيَرْشَحُ كِلْساً. فَتَخْتَلِطُ ٱلْمَادَّتَانِ مَعاً وَتَكُونَانِ ٱلدِّرْعَ ٱلصُّلْبَ ٱلْجَدِيدَ عَلَى ٱلتَّمَادِي. فَيَعُودُ كَمَا كَانَ وَتَرْجِعُ لَهُ شَهْوَةُ ٱلطَّعَامِ كَٱلْأَوَّلِ. وَلَوْنُ ٱلسَّرَطَانِ ٱلْأَصْلِيِّ أَسْوَدُ وَلٰكِنَّهُ إِذَا أُغْلِيَ عَلَى ٱلنَّارِ صَارَ أَحْمَرَ

وَٱلسَّرَطَانُ أَنْوَاعٌ عَدِيدَةٌ تَعِيشُ فِي ٱلْأَبْحُرِ وَٱلْأَنْهُرِ وَٱلْبِرَكِ بَلْ عَلَى ٱلْيَابِسَةِ أَيْضاً. وَمِنْهُ نَوْعٌ يَحْمِلُ تَحْتَ مُتَنَفَّسَاتِهِ كِيسٌ يَمْلَأُهُ مَاءً. فَإِذَا سَارَ عَلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجَافَّةِ قَطَرَ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْكِيسِ عَلَى مُتَنَفَّسَاتِهِ قَطَرَاتٌ تُبَرِّدُ حَرَارَتَهُ. وَمِنْهُ طَائِفَةٌ لَهَا مِخْلَبٌ قَدْرَ جِسْمِهَا. فَإِذَا دَخَلَ أَحَدُهَا وَجَاراً سَدَّ بِهِ ٱلْبَابَ وَأَمِنَ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ ٱلْأَعْدَاءِ. وَمِنْهُ نَوْعٌ آخَرُ يَتَسَلَّقُ ٱلْأَشْجَارَ وَيَقْتَاتُ بِجَوْزِ ٱلْهِنْدِ. وَذٰلِكَ بِأَنْ يَنْزِعَ أَوَّلاً ٱلْأَلْيَافَ بِمَخَالِبِهِ خَيْطاً فَخَيْطاً ثُمَّ يَكْسِرُهَا بِكُلْبَتَيْنِ فِي طَرَفِ ٱلْمَخَالِبِ وَيَأْخُذُ بِٱمْتِصَاصِهَا. وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَذِيذُ ٱلطَّعْمِ كَثِيرُ ٱلدُّهْنِ حَدِيدُ ٱلْمَخَالِبِ يَثْقُبُ بِهَا أَحْيَاناً ٱلْقَصْدِيرَ. حَتَّى إِنَّ رُبَّاناً لَقَطَ يَوْماً

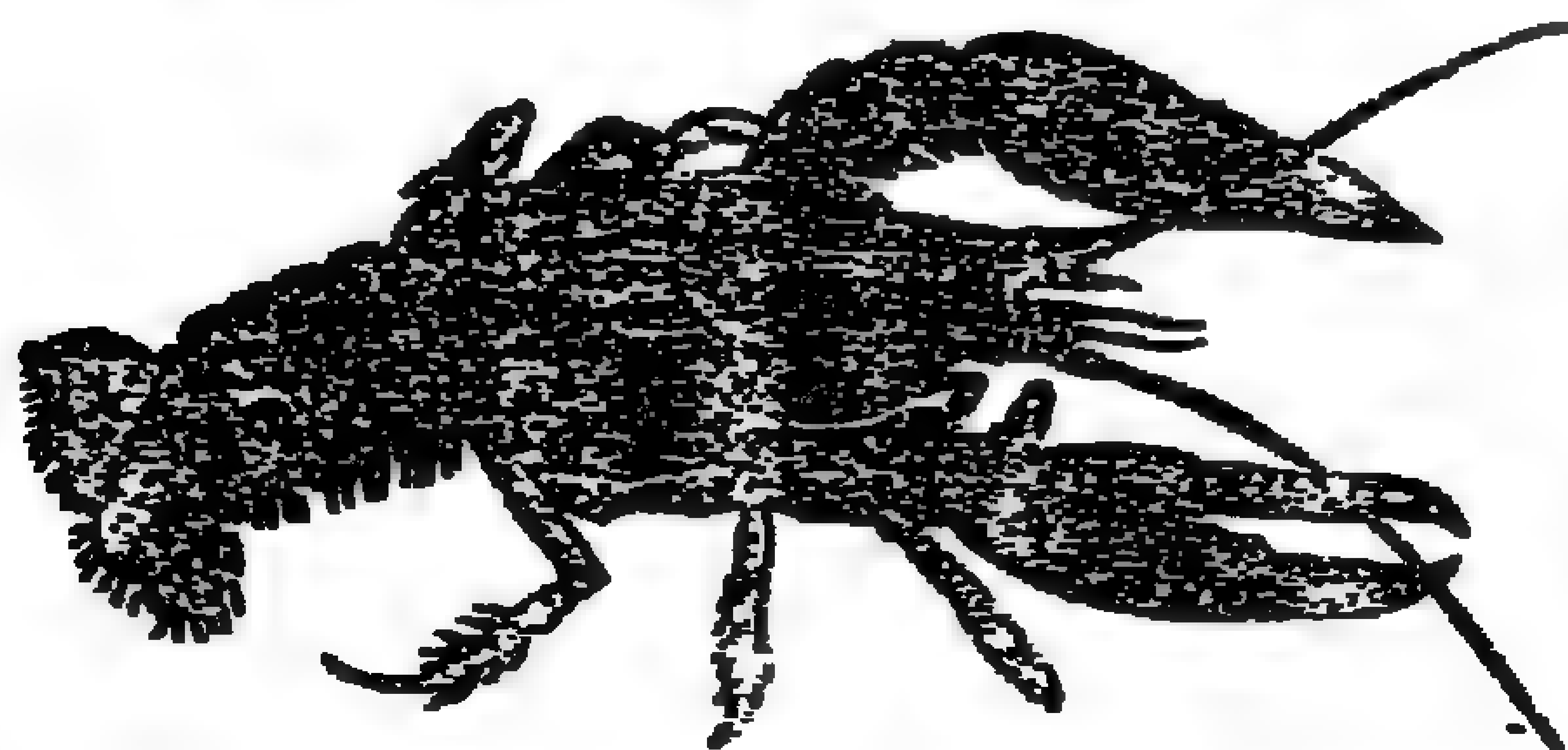
هٰذَا ٱلسَّرَطَانَ وَوَضَعَهُ فِي صِوَانٍ(٢) مِنْ قَصْدِيرٍ وَرَبَطَ غِطَاءَهُ بِشَرِيطٍ . فَمَا لَبِثَ ٱلسَّرَطَانُ حَتَّى قَرَضَ بِكَلْبَتَيْهِ حَافَةَ ٱلصُّنْدُوقِ فَثَقَبَهُ وَخَرَجَ مِنْهُ . وَٱلسَّرَاطِينُ شَكِسَةُ(٣) ٱلأَخْلَاقِ شَدِيدَةُ ٱلْخِصَامِ لَا تَفْتَأُ تُقَاتِلُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَيَفْتَرِسُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا

وَمِنْهَا نَوْعٌ لَا غِلَافَ لَهُ فَيَسْرِقُ غِلَافَ غَيْرِهِ . وَذٰلِكَ أَنَّهُ يَرَى صَدَفَةً مُلْقَاةً عَلَى ٱلشَّاطِئِ فَيُدْخِلُ فِيهَا ذَنَبَهُ غَيْرَ مُبَالٍ هَلْ هِيَ مَسْكُونَةٌ . فَإِنْ كَانَ فِيهَا حَيَوَانٌ يَنْشِبُ مَخَالِبَهُ فِيهِ ثُمَّ يَلْبَسُ ٱلْغِلَافَ وَيَمْشِي بِهِ . وَإِذَا كَبُرَ وَضَاقَ عَلَيْهِ ٱلْغِلَافُ خَلَعَهُ وَفَتَّشَ عَنْ غَيْرِهِ . وَٱسْمُ هٰذَا ٱلصِّنْفِ ٱلسَّرَطَانُ ٱلنَّاسِكُ وَكَانَ ٱلأَوْلَى أَنْ يُسَمَّى ٱلسَّرَطَانَ ٱلسَّارِقَ . وَمِنْ غَرَائِبِهِ أَنَّهُ يَحْمِلُ عَلَى ظَهْرِهِ أَحْيَانًا حَيَوَانًا آخَرَ نَبَاتِيًّا مِنْ نَوْعِ ٱلزُّوفَايِتِسِ ضِدًّا لِإِرَادَتِهِ . لِأَنَّ ذٰلِكَ ٱلْحَيَوَانَ يَتَشَبَّثُ بِظَهْرِهِ وَلَا يُفْلِتُهُ فَيَبْذُلُ ٱلْمِسْكِينُ قُصَارَى جُهْدِهِ فِي ٱلنَّجَاةِ مِنْهُ وَلَا يَسْتَطِيعُ

(١) ثقب البيضة (٢) وعاء الثوب الذي يُصان به (٣) صعبة الاخلاق

سرطان جزائر الهند الغربيَّة

ومن الامور العجيبة ان في جزائر الهند الغربية عددًا لا يُحصى من السراطين المسمَّاة بسراطين البنفسج . وهي تختبئ في نقر الصخور او تجاويف الاشجار فتتوارى عن العيان . ومتى هطلت الامطار تزحف اسرابًا اسرابًا على نظام غريب . لانها تؤمّ (١) شواطئ الابحر حيث تضع صغارها فتنتظم سطورًا يبلغ طول احدها ثلاثة اميال . وتملأ الطرق والغابات والحدائق حتى تغطّي وجه الارض . فتسمع لصوتها جلجلة وطقطقة على امد شاسع . وهي تسافر ليلًا اتقاء الاخطار . فيزحف اقواها في الطليعة لتجسس الطريق ثم تليها الاناث ثم الاضعف ثم الشيوخ . ولا يوقفها شيء عن السير فتهبط الحُفَر وتتسلّق السياجات وتاكل ما تصادف في سبيلها . فاذا التقى بها انسان جلجلت بمخالبها كأنّها تريد ان تخيفهُ . واذا فُتح باب دخلتهُ . غير ان السليقة علَّمتها معرفة الطريق الاقصر



الى البحر فتسير على خط قويم لا تعرّج يمنةً او يسرةً . واذا حلَّت بسرطان نازلة او سقط في الطريق بادرت رفاقهُ العتاة واكلتهُ . ومتى بلغت الشاطئ اخذت اولًا بالاستحمام ثم وضعت الاناث صُغرَها واعتزلت بعدئذٍ الى نقر الصخور لتخلع غلافها . فتصبح حينئذٍ واهنة القوى ثم تمكث هناك امدًا حتى تنسج دروعًا جديدة وتنقلب راجعةً لكنها تكون مُتعَبة مسترخية فيصيد الناس اكثرها ولا

يسلم منها الاّ القليل . اما الاجنّة فتخرج بعد حين من الاصداف حيوينات غريبة الاشكال لا تضارع الوالدات بل تحاكي رؤوسها خوذةً في اعلاها شوكة ذات ظهر طويل وعينين كبيرتين. ثم تأخذ بالسباحة في الماء ويطرأ عليها اطوار وتغيّرات شتى حتى تتحوّل الى صورة الامّ . واذ ذاك تعاف[2] السباحة وتشرع بالسفر الى الجبال فترى تلك السراطين الصغيرة غطّت الطرقات وحثّت السير تقودها السليقة العجيبة. فتصادف في سبيلها اخطارًا جمّة . لان الحيوانات والجوارح تنقضّ عليها وتفترسها . غير انها تظلّ سائرةً حتى تبلغ بغيتها الجبال وتلتقي بوالديها وتعيش معها

(١) تقصد (٢) تكره

القريدس

هو من طوائف السرطان . وله ذنبٌ كجناح يُطوى ويُنشَر . وقرنان طويلان في رأسِهِ قدر جسمِهِ . وجناح كمروحة على جانبيهِ ريش صغير شفّاف يساعدهُ على الحركة في الماء . وللقريدس اذرع وارجل كثيرة لا ينقص عددها عن ٣٢ . ومن صفاتهِ انهُ يقلّص ذنبَهُ ويثب في الماء . ومنهُ طائفة تحمل انثاهُ صغارها في كيس لحميّ يتدلى من جسمها كردن يحاكي ردن ابوسوم البرّ

قنفذة البحر

هي من رتبة سمك النجوم ولكنها لا تشبهها. فاذا فحصتَ غطاءها رأيتهُ مركّبًا من قِطَعٍ حجرية عديدة ذات اقدار مختلفة ملتحمة بعضها ببعض كل الالتحام .

والصدفة ملآنة بماء البحر والحيوان معلَّق ضمنها وفي اعلاها ثقب يمثّل فم الحيوان. فاذا كبرت القنفذة وضاقت عليها الصدفة تغطَّت بغشاء رقيق او جلد يهبط بين تموات قِطَعها . ثم يأخذ ذلك الغشاء بايداع مادة ترابيَّة حول حافَّة كل قطعة. فتتضخَّم وتتجسَّم بدون ان يطرأ على شكل الصدفة تغيُّر حتى تبلغ الحجم اللازم . ثم تنتأُ من تلك القِطَع اشواك تنفع الحيوان في دفن نفسهِ في الرمال . وللقنفذة ممصَّات كثيرة كسمك النجوم تعينها على الحركة

واشواك القنفذة نابتة على عجرة ومرتبطة بها بمفصل يسهّل حركتها وهي تنشأُ من مادة يفرزها الحيوان كما يفعل البوليبس . وقد فحص احد الطبيعيين شوكةً بالمجهر فرآها مؤلَّفة من طبقات متناسقة بغاية الدقَّة والضبط وعلم انها من عمل ذلك الغشاء نفسهِ الذي ابدع الصدفة . وهي تستطيع اخراج فمها من الصدفة للالتهام . فترى فيهِ خمسة اسنان حادَّة تطحن اقسى الاصداف . وهذه الاسنان تتجدَّد وتُصقَل على مرّ الايام ولولا ذلك لعراها الكلال ووهنت قوّتها

ولهذا الحيوان خمسة فكوك في كلٍّ منها واحدة . وهي ملتحمة بعضها ببعض بغضاريف حتى تبدو كهرم يتصل اعلاهُ بالفم . وقد سُمّي هذا الهرم مصباح ارسطوطاليس فانهُ هو الذي دعاهُ بهذا الاسم . وقد تدفن هذه القنافذ نفسها في نُقَر الصخور والشقوق وتعلّق عليهـا بالممصَّات حتى يتعذَّر اخراجها . وهي تحفر تلك النُقَر لنفسها بطرق مجهولة . والبعض يستعملون هذه القنافذ طعامًا ولاسيما في بلاد البحر المتوسط

الحيوانات الصَّدَفيَّة

إِنَّ هٰذِهِ الحَيَوَانَاتِ تُولَدُ مُغَطَّاةً بِجِلْدَتَيْنِ فَوْقَ بَشَرَتِهَا

ٱلرَّقِيقَةِ. ٱلأُولَى رَخْوَةٌ وَمَرِنَةٌ تُشْبِهُ ٱلرِّدَاءَ وَتُسمَّى اصطلاحًا بِٱلْبُرْنُسِ وَهُوَ مُسْتَوْدَعُ ٱلْمَوَادِّ ٱلصَّانِعَةِ ٱلصَّدَفَةَ. وَهٰذِهِ ٱلْمَوَادُّ كِلْسٌ وَغِرَاءٌ وَٱلْبِيُومِينُ[1] تَدْخُلُ جِسْمَ ٱلْحَيَوَانِ مِنْ طَعَامِهِ وَتَمُرُّ سَائِلَةً فِي ذٰلِكَ ٱلْبُرْنُسِ فَتَدَّخِرُ ٱلْمَوَادَّ ٱلْمُكَوِّنَةَ ٱلصَّدَفَةَ. ثُمَّ يَرْشَحُ ذٰلِكَ ٱلسَّائِلُ ٱللَّزِجُ مِنْ كُلِّ أَجْزَائِهِ أَوْ أَطْرَافِهِ فَيَتَحَجَّرُ. وَإِذَا تَرَكَّبَتِ ٱلصَّدَفَةُ مِنْ قِطْعَةٍ وَاحِدَةٍ دُعِيَتْ ذَاتَ

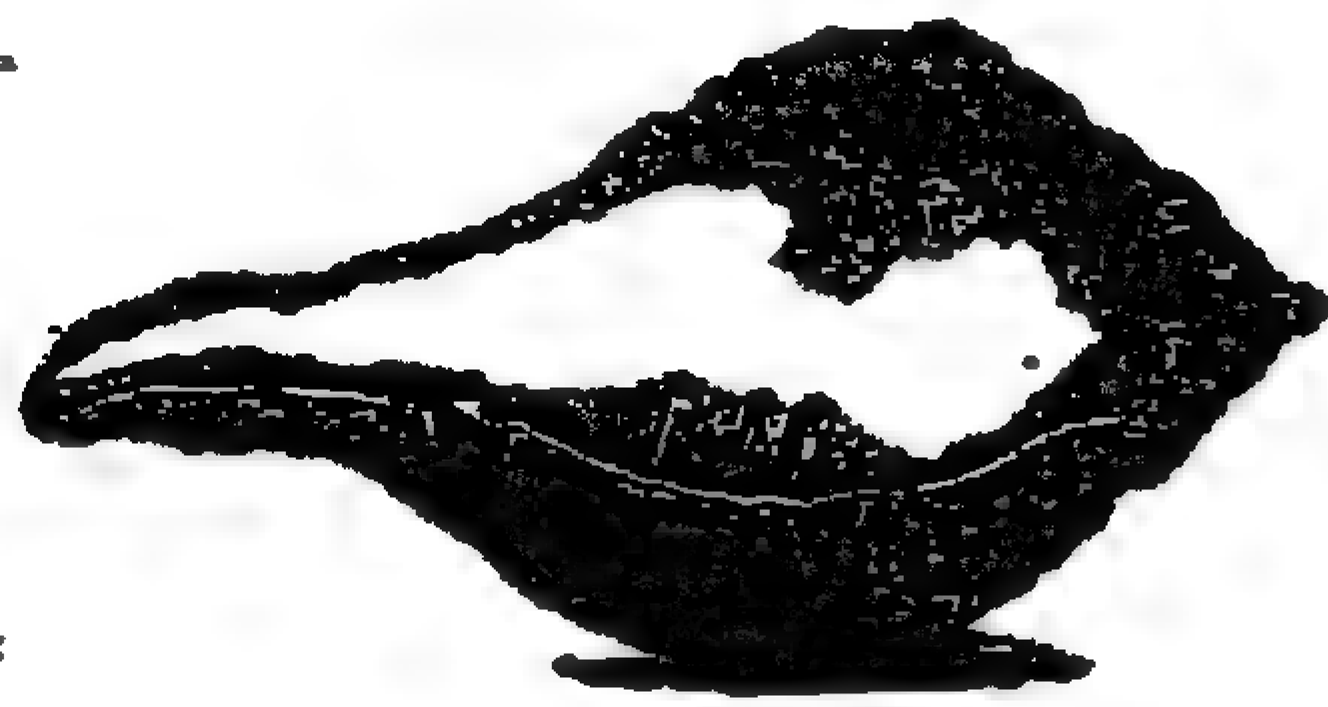


ٱلْمِصْرَاعِ ٱلْوَاحِدِ أَوْ مِنْ قِطْعَتَيْنِ فَذَاتُ ٱلْمِصْرَاعَيْنِ

فَإِذَا تَفَحَّصْتَ طَوَاقَ ذٰلِكَ ٱلْبُرْنُسِ رَأَيْتَهُ مُخَطَّطًا بِأَلْوَانٍ بَهِيَّةٍ نَاشِئَةٍ مِنْ مَادَّةٍ بَحْرِيَّةٍ يَسْتَعْمِلُهَا ٱلْحَيَوَانُ لِنَقْشِ بَيْتِهِ. فَمَتَى رَكَمَ بِوَاسِطَةِ ٱلْبُرْنُسِ طَبَقَةً فَطَبَقَةً مِنْ رِدَاغٍ[2] وَٱلْيَافٍ

ٱزدادتِ ٱلألوانُ وُضوحًا بِنموِّ ٱلصفائحِ . وإذا راقبَ ٱلإنسانُ بناءَ ٱلصدفةِ ٱستطاعَ معرفةَ ٱللونِ ٱلآتي بعدَ ٱللونِ ٱلأوَّلِ . فإنَّهُ يعاينُ ٱلخطوطَ ٱلحمراءَ فالزرقاءَ فالأرجوانيَّةَ

ولِبعضِ ٱلأصدافِ أضلاعٌ تنشأُ مِن دفعِ ٱلحيوانِ برنسهُ إلى ٱلخارجِ حتَّى يلتفَّ كأنبوبةٍ . وهوَ يفعلُ ذٰلكَ كي يمتصَّ ٱلماءَ إلى فيهِ . فيخرجُ ٱلسيَّالُ ٱلصدفيُّ مِنَ ٱلبرنسِ ويملأُ



أطرافَ ٱلأنبوبةِ فتتشكَّلُ بشكلِ ضلعٍ ناتئٍ . وهٰذا عملٌ يتكرَّرُ مرارًا حتَّى تكثرَ ٱلأضلاعُ في ٱلصدفةِ . ويصدقُ هٰذا ٱلتولُّدُ على كلِّ ٱلأصدافِ مِن أصغرِها ممَّا لا يُرى إلَّا بٱلمجهرِ إلى أكبرِها ممَّا تُستعمَلُ مغاسلَ أو أجرانًا يوضعُ فيها ٱلماءُ ٱلمقدَّسُ في ٱلكنائسِ ٱلكاثوليكيَّةِ . وقد تعدَّدت أنواعُ ٱلأصدافِ وتفاوتت قيمتُها حتَّى يباعَ بعضُها بنحوِ ثقلِها ذهبًا . قيلَ إنَّ جمهوريَّةَ فينيسيا أهدتِ ٱلملكَ فرنسيسَ صدفةً

كَبِيرَةٌ ٱسْتُعْمِلَتْ جُرْنًا لِلْمَاءِ ٱلْمُقَدَّسِ فِي بِيعَةِ ٱلْقِدِّيسِ سُولْبِيسَ فِي بَارِيسَ. وَلَا يَخْفَى أَنَّ مَادَّةَ صِبَاغِ ٱلْأُرْجُوَانِ ٱلصُّورِيِّ ٱلَّذِي كَانَتْ تَتَفَاخَرُ بِهِ ٱلْمُلُوكُ وَٱلْأُمَرَاءُ مِنْ صُنْعِ هٰذِهِ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلصَّدَفِيَّةِ.

إِنَّ صَدَفَتَيِ ٱلْحَيَوَانِ ٱلثُّنَائِيِّ مُرْتَبِطَتَانِ إِحْدَاهُمَا بِٱلْأُخْرَى بِمَفْصِلٍ مِنْهَا ٱلْحَلَزُونُ أَوِ ٱلتَّرَاقُ وَٱلْمَوْصِلُ. فَإِذَا شَاءَ ٱلْحَيَوَانُ فَتْحَ صَدَفَتَيْهِ فَتَحَهُمَا بِإِرْخَاءِ ٱلْمَفْصِلِ ثُمَّ عَادَ فَأَغْلَقَهُمَا بِشِدَّةٍ. وَإِذَا تَعَذَّرَ إِغْلَاقُهُمَا كَانَ ذٰلِكَ دَلِيلًا عَلَى مَوْتِ ٱلْحَيَوَانِ ضِمْنَهُمَا

أَمَّا عِلَّةُ ٱخْتِبَاءِ هٰذِهِ ٱلْحَيَوَانَاتِ ضِمْنَ ٱلْأَصْدَافِ فَهِيَ لِأَنْ لَيْسَ لَهَا رُؤُوسٌ وَلَا أَذْرُعٌ فَلَا تَسْتَطِيعُ ٱلْجَوَلَانَ لِلتَّفْتِيشِ عَنْ طَعَامِهَا. فَإِذَا لَمْ يَأْتِهَا ٱلطَّعَامُ هَلَكَتْ. وَلِذٰلِكَ أَمَدَّتْهَا ٱلطَّبِيعَةُ بِآلَاتٍ تَسْتَخْدِمُهَا لِلتَّشَبُّثِ بِٱلصُّخُورِ وَٱلْأَمْنِ مِنَ ٱلْعَوَاصِفِ. فَتَنْسِجُ بِقَوَائِمِهَا خُيُوطًا مِنْ مَادَّةٍ قَرْنِيَّةٍ تُفْرِزُهَا مِنْ غُدَّةٍ مَرْكَزُهَا تَجْوِيفٌ فِي أَسْفَلِ ٱلرِّجْلِ ثُمَّ تَرْبِطُ طَرَفَ ٱلْخَيْطِ بِٱلصَّخْرِ وَتَجْذِبُ قَوَائِمَهَا إِلَى ٱلدَّاخِلِ. فَيَمْتَدُّ ٱلْخَيْطُ بِقَدْرِ مَا تَشَاءُ. ثُمَّ تَمْتَحِنُهُ لِتَعْلَمَ إِذَا كَانَ مَتِينًا وَتَتَقَدَّمُ لِنَسْجِ غَيْرِهِ.

وَتَظَلُّ آخِذَةً بِالحِيَاكَةِ إِلَى أَنْ تَصْنَعَ مِئَةً وَخَمْسِينَ خَيْطًا فَتَكْمُلُ مِرْسَاتُهَا وَتَتَعَلَّقُ بِهَا عَلَى الصَّخْرِ آمِنَةً مِنَ اللُّجَجِ .

قِيلَ شَرَعَ الْبَعْضُ فِي إِحْدَى الْمُدُنِ بِبِنَاءِ جِسْرٍ عَلَى قَنَاطِرَ كَثِيرَةٍ . فَكَابَدُوا فِي بِنَائِهِ عَنَاءً شَدِيدًا . لِأَنَّ الْأَمْوَاجَ كَانَتْ تُلَاطِمُهُ وَتَهْدِمُهُ حَتَّى كَلَّ الْعَمَلَةُ وَيَئِسُوا مِنَ النَّجَاحِ . فَخَطَرَ لَهُمْ أَنْ يَسْتَغِيثُوا بِالْحَيَوَانَاتِ الصَّدَفِيَّةِ . فَمَلَأُوا قَوَارِبَ مِنْ تِلْكَ الْأَصْدَافِ وَطَرَحُوهَا عِنْدَ قَوَاعِدِ الْجِسْرِ . فَعَمَدَتْ تِلْكَ الْحَيَوَانَاتُ الْمُجِدَّةُ إِلَى الدَّأْبِ وَالْعَمَلِ وَثَابَرَتْ عَلَى رَبْطِ خُيُوطِهَا بِقَوَاعِدِ الْجِسْرِ . فَتَأَلَّفَتْ مِنْ تِلْكَ الْخُيُوطِ حِبَالٌ وَثِيقَةٌ دَعَمَتْ تِلْكَ الْقَوَاعِدَ وَثَبَّتَتْهَا . فَمَتُنَ الْجِسْرُ وَاسْتَطَاعَ اتِّقَاءَ خَطَرِ الْأَمْوَاجِ . وَمَا فَتِئَ فِي مَكَانِهِ إِلَى الْيَوْمِ .

وَمِنْ طَوَائِفِ هٰذَا الْحَيَوَانِ صَدَفَةٌ تُدْعَى السِّكِّينَ إِذَا فَاجَأَهَا صَيَّادٌ (لِأَنَّ كَثِيرِينَ يَسْتَطِيبُونَ لَحْمَهَا) غَاصَتْ فِي الرَّمْلِ وَتَوَارَتْ . فَيَحْفِرُ بِقَضِيبٍ حَدِيدٍ مُهْتَدِيًا إِلَيْهَا بِقَطَرَاتِ مَاءٍ تُلْقِيهَا عِنْدَ فِرَارِهَا . وَإِذَا لَمْ يَعْثُرْ عَلَيْهَا كَفَّ عَنِ التَّفْتِيشِ لِعِلْمِهِ أَنَّهَا تَعَمَّقَتْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى لَا يَسْتَطِيعَ الْقَضِيبُ الْبُلُوغَ إِلَيْهَا

وَمِنْهَا صَدَفٌ يَتَوَاثَبُ وَيَتَلَاعَبُ ٱسْمُهُ ٱلْكَوْكَلُ. لَهُ رِجْلٌ كَبِيرَةٌ كَلِسَانٍ. فَإِذَا شَاءَ ٱلْوُثُوبَ ثَبَتَ قَائِمَةً فِي ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعَانَ بِٱلْعَضَلَةِ عَلَى ٱلْوُثُوبِ فِي ٱلْهَوَاءِ. فَيَطِيرُ إِلَى عُلُوٍّ مَعْلُومٍ ثُمَّ يَهْبِطُ ثُمَّ يَثِبُ مَرَّةً أُخْرَى. فَيَحُثُّ ٱلسَّيْرَ عَلَى هٰذَا ٱلْمِنْوَالِ كَأَنَّهُ طَائِرٌ فِي ٱلْهَوَاءِ

وَمِنْهَا طَائِفَةٌ ٱسْمُهَا فُولَاسُ تَثْقُبُ ٱلْحِجَارَ. وَذٰلِكَ لِأَنَّ صَدَفَتَهَا رَقِيقَةٌ جِدًّا فَلَا تَقِيهَا مِنَ ٱلْخَطَرِ. فَتَحْفِرُ لِنَفْسِهَا قَبْرًا تَدْفِنُ ذَاتَهَا فِيهِ مَدَى ٱلْحَيَاةِ. وَلَيْسَ هٰذَا ٱلْجَدَثُ بِأَكْبَرَ مِنْ جِسْمِهَا لِذٰلِكَ لَا تَتَحَرَّكُ ضِمْنَهُ إِلَّا حَرَكَةً يَسِيرَةً. وَتَسْتَخْدِمُ قَائِمَتَهَا أُنْبُوبَةً تَتَشَبَّثُ بِهَا بِجُدْرَانِ صَدَفَتِهَا وَتُفْرِزُ مِنْ جِسْمِهَا عَصِيرًا يُذِيبُ ٱلْحَجَرَ. فَهٰذِهِ ٱلْحَيَوَانَاتُ عَلَى صِغَرِهَا تَضُرُّ بِٱلْمَرَافِئِ ٱلصِّنَاعِيَّةِ ضَرَرًا جَسِيمًا لِأَنَّهَا تَثْقُبُهَا ثُقُوبًا كَثِيرَةً حَتَّى تَتَدَاعَى إِلَى ٱلسُّقُوطِ. وَلَمَّا كَانَ هٰذَا ٱلْحَيَوَانُ يَقْضِي زَمَانَهُ مَدْفُونًا يَأْتِيهِ غِذَاؤُهُ مَحْمُولًا مَعَ مَجَارِي ٱلْمِيَاهِ مُكْتَفِيًا بِٱلنَّزْرِ ٱلْمَحْمُولِ إِلَيْهِ مَعَ ٱلْمَاءِ. وَلَهُ أَعْدَاءٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا ٱلطُّيُورُ وَسَمَكُ ٱلنُّجُومِ وَٱلْإِنْسَانُ

(١) مادة تحاكي بياض البيض (٢) طين رقيق (٣) القليل

الحلزون البحري او التراق

الحلزون البحري ملك الاصداف لانهُ الذّها طعماً . وهو ايضاً ملتوف بغلاف كسائر طوائفهِ . غير ان غلافهُ مشقوق من الامام . حتى اذا فتحتَ الصدفة رأيت جسم الحيوان كلهُ . اما برنسهُ فصفيق الاطراف محاط باهداب او قرون . وهو نظير سائر الاصداف يبني صدفتهُ بواسطة ذلك البرنس واضعاً طبقة فوق طبقة حتى ترتكم فوق بعضها كقِطَع قرميد . وليس للتراق رأس ولا قوائم بل فم واسنان تتدلى حولها الاهداب

ومتنفَّسات الحلزون مركَّبة من اربع صفائح رقيقة تعوم على الماء الاَّ من طرف واحد حيث هي منوطة بالجسم . فاذا تفحَّصت هذه الصفائح بالمجهر رأيت عليها شعورًا لا عدد لها تفتح مجاري صغيرة وتسوق الطعام الى فم الحيوان . وهذا الزاد نقاعيات ونباتات دقيقة مجهرية . اما مركز قلبهِ ففي وعاء يحاكي القلنسوة عند موصل متنفَّساتهِ يحفظ بهِ مجاري الماء ويدفع عنهُ ذرَّات الطعام التي لا تلائمهُ

ويشتغل التراق كل الصيف بوضع صُغُرهِ حتى تبلغ عددًا يفوق التصديق. قيل ان الواحدة تضع مليونين في فصل واحد . وتحفظ الصغار مُخبَّأة في برنسها ومتى كبرت قليلاً تأخذ بالسباحة بواسطة حزمة خيوط حول جسمها . ولكنها لا تبتعد اولاً عن الامّ كثيرًا . واذا فاجأَها خطر اختبأَت في صدفة والدتها . ثم تعلق بعد برهة بجسم صلب وتشرع ببناء صدفتها . فتواظب على العمل ثلاث سنين حتى تبلغ النمو الكامل

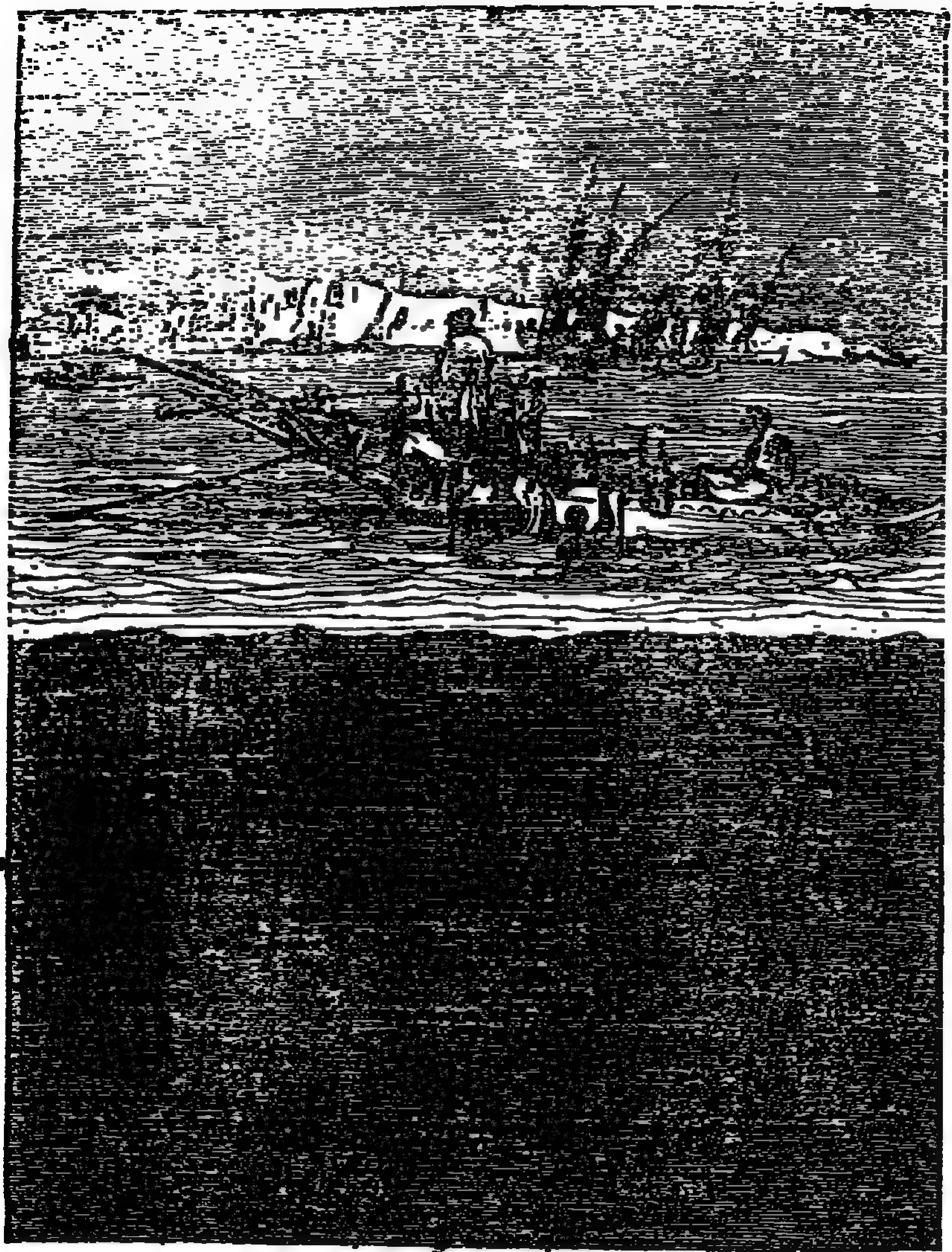
ولا يخفى ان الانكليز وغيرهم يربُّون التراق في حياض وصهاريج فيكبر ويسمن ويستعملونهُ صنفاً من صنوف التجارة

اصداف اللوءلوء

في حيوانات عجيبة الصنع والتركيب . تعوم في اوّل نشأتها على وجه الماء وتتغذي. ثم تهبط الى الاعماق وتسكن فيها وتحمل اليها الامجة المواد والغذاء . ويتكوَّن عليها الصدف كثيرها من المواد الكلسية للوقاية من الاخطار . ولهذه الحيوانات خطوم او متنفَّسات مؤلَّفة من صفائح رقيقة كثيرة الاوعية تحاكي نسيج الثياب . فتكون لها كمصافٍ ترسل الى جوفها الماء والهواء وتمنع الرمال وما شاكلها من الضارَّات من الدخول . وتلك الانوف واسطة للشمّ والتنفُّس والتغذية . وخيوط نسيجها مغشَّاة باهداب تتحرَّك ما دامت حيَّة ولا تسكن ابدًا فتجذب ما فوق تلك الانوف من الهواء والماء وما فيهما من النقاعيات في قناة واحدة الى المعدة . وتحت انوفها افواه لكلٍّ منها اربع شفاه تجذب الملائم من تلك المواد وتدفع غيرهُ . ومِعَدها تشبه الاكياس وهي منوطة بالافواه . واذا قُطِعت المعدة نُظِر فيها اوعية كبيرة متعددة تأتي اليها المُرَّة او الصفراء من مفرزات الكبد . وكبدها كبيرة خضراء او سوداء تحيط بكل المعدة مؤلَّفة من حُبَيبات متساوية الاقطار . وفي وسط الاحشاء القلب ويُقسَم الى قسمين الأُذَين والبُطَين . وللأُذَين جدران لطيفة جدًّا مؤلَّفة من الياف عضليَّة دقيقة تحمل الدم من اعضاء التنفس ولكل هذه الاعضاء غلاف سطحهُ شديد الحسّ حسن الوضع والترتيب

وقد اجمع الجمهور اليوم على ان اللؤلؤ ينشأُ من تجمُّع رمل او حُيَيوينات ضارَّة تدخل الصدفة قسراً . فيفرز حيوانها مادَّة لزجة يغطّيهـا بها ثم يجمد ويتحجَّر . فيضارع بذلك النحل في تغطيتها الزنابير التي تدخل خليتها بالشمع فتهلكها

اما مغاصات اللؤلؤ وكيفية استخراجهِ فمعلومة عند كثيرين فلا حاجة لايضاحها



لغز في درّة

أيُّ شيءٍ مِنَ ٱلجمادات يُلفى وتراهُ مِن بعدِ ذا حيوانا
وترى ذلك ٱلجماد عزيزا غاليًا مِنهُ رصّعوا تيجانا
وترى ٱلرّوحَ مِنهُ في حيوانٍ ذي جناحٍ ويألفُ ٱلطّيرانا
وإذا ما شدا على ٱلعودِ يومًا فوقَ دُفٍّ يحرّكُ ٱلأغصانا
أو بدا في مقفصٍ فٱبنُ بردٍ عِندَ أشجاعِهِ يصيرُ مُهانا
كلّهُ طائرٌ وفي ثلثيهِ لكَ ذو أربعٍ معَ ٱلعكسِ بانا
كلّهُ عاطلٌ بِهِ تتحلّى كلُّ خودٍ وتستقلُّ ٱلجمانا
وتراهُ عِندَ ٱلملوكِ عظيمًا وبتصحيفِهِ حقيرًا مهانا
عكسُهُ في تصحيفِهِ زِدْ بنقصٍ فٱلمعمّى هنا فكُنْ يقظانا
وإذا لم تدرِ ٱلتّصاحيفَ درّةٌ لِلّذي فيهِ فهوَ يدري ٱلبيانا
وبتحريفِهِ تؤدّبُ مَنْ شئْـتَ إذا كانَ يجهلُ ٱلعرفانا
ثلثاهُ درٌّ نفيسٌ وفي فيــهِ إذا جاءَ يصحبُ ٱلمرجانا
لكنِ ٱلثّلثُ عِندهُ نصفُ وحشٍ ذبَّ عنّا تصحيفُهُ ما ٱعترانا
وهوَ في ٱلبرِّ نافرٌ وإذا ما حضروهُ قد يألفُ ٱلإنسانا
فٱفترسهُ بِٱلحلِّ إن كُنتَ ليثًا فهوَ لغزٌ عن فضلِهِ قد أبانا

(صاحب دواوين الانشاء بدمشق المحروسة)

الاسماك التي تمشي على اليابسة

لا يَخفَى أَنَّ ٱلأَسماكَ تَتَنفَسُ مِن خَياشِيمِها . فَهِيَ لَها بِمَنزِلَةِ ٱلرِّئَةِ . وَٱلماءُ يَدخُلُها مِن أَفواهِها بِواسِطَةِ عُضوٍ كَٱلشَّبكَةِ فَينطَبِقُ عَلَيهِ غِطاءَانِ فِي ٱلخَياشِيمِ وَيَصُدَّانِهِ عَنِ ٱلخُرُوجِ . ثُمَّ يَبُلُّ ٱلماءُ ٱلأَغشِيَةَ ٱلمَوضُوعَةَ فِي جَوفِ ٱلخَياشِيمِ وَهٰذِهِ ٱلأَغشِيَةُ مُغَطَّاةٌ بِأَوعِيَةِ دَمٍ رَقِيقَةٍ . فَيَستَمِدُّ ٱلدَّمُ قَدرًا كَافِيًا مِنَ ٱلأُكسِجِينِ . وَهٰذَا عَمَلٌ يَتَكَرَّرُ عَلَى ٱلتَّعاقُبِ بِٱنفِتاحِ ٱلصِّمامَينِ وَٱنطِباقِهِما كَرِئَةِ ٱلإِنسانِ . فَإِذا خَرَجَ ٱلسَّمَكُ مِنَ ٱلماءِ ماتَ لِأَنَّهُ لا يَقدِرُ عَلَى تَناوُلِ ٱلأُكسِجِينِ مِنَ ٱلهَواءِ . وَحِينَئِذٍ تَنطَبِقُ ٱلخَياشِيمُ وَتَجِفُّ فَيَبطُلُ ٱلتَّنَفُّسُ

غَيرَ أَنَّ خَياشِيمَ بَعضِ ٱلأَسماكِ ضَيِّقَةٌ جِدًّا وَلا تَجِفُّ بِسُرعَةٍ . وَلَها تَجوِيفٌ صَغِيرٌ يَحمِلُ ٱلماءَ مُدَّةً طَوِيلَةً وَيُوصِلُهُ إِلَى ٱلخَياشِيمِ وَيَبُلُّها عِندَ ٱلحاجَةِ . وَلِذٰلِكَ تَستَطِيعُ ٱلمَعِيشَةَ عَلَى ٱليابِسَةِ أَيّامًا بِواسِطَةِ ذٰلِكَ ٱلكِيسِ ٱلمائِيِّ . فَتَتَسَلَّقُ ٱلأَشجارَ وَتُفَتِّشُ عَنِ ٱلحَشَراتِ فَتَقتاتُ بِها . وَقَد سُمِّيَتِ

الطَّبِيعةُ هٰذهِ ٱلأَسْمَاكَ بِحَبْلِ صَغِيرٍ وَشِصٍّ[١]. أَمَّا ٱلحبلُ فَقَرْنٌ نَاتِئٌ فِي رَأْسِهَا تَصِيدُ بِهِ ٱلفَرِيسَةَ. وَلَهُ مَفْصِلٌ يُيَسِّرُ لَهُ ٱلحَرَكَةَ. وَفِي طَرَفِهِ غِشَاءٌ صَغِيرٌ لَامِعٌ تَستعمِلُهُ (كَالطُّعْمِ). وَلَا تَستَطِيعُ هٰذهِ ٱلأَسْمَاكُ ٱلسِّبَاحَةَ جَيِّدًا وَلَا ٱلنَّشبَ عَلَى فَرَائِسِهَا وَمُطَارَدَتِهَا. عَلَى أَنَّ شَهوَتَهَا مَفْتُوحَةٌ وَلَا تُحِبُّ ٱلِانقِطَاعَ عَنِ ٱلأَكْلِ فَتَلجَأُ إِلَى ٱلمَكْرِ وَٱلحِيلَةِ. وَذٰلِكَ بِأَنْ تَختَبِئَ فِي ٱلوَحْلِ أَوِ ٱلرَّمْلِ ثُمَّ تُحَرِّكَهُ حَولَهَا حَتَّى يَثُورَ مِنْهُ غُبَارٌ كَالغَيمِ. ثُمَّ تَنصِبُ ٱلشَّرَكَ أَي (ٱلطُّعْمَ) بِأَنْ تُبرِزَ ذٰلِكَ ٱلغِشَاءَ ٱلبَرَّاقَ وَتُحَرِّكَهُ إِلَى كُلِّ ٱلجِهَاتِ. فَتَرَاهُ ٱلأَسْمَاكُ ٱلصَّغِيرَةُ وَتَخَالُهُ حَيَوِينًا يَصلُحُ لِلطَّعَامِ لِأَنَّهَا تَكُونُ جَائِعَةً كَعَدُوَّتِهَا فَتَأْخُذُ بِنَهشِهِ فَتَجذِبُ بِذٰلِكَ (ٱلطُّعْمِ) وَتَنفَتِحُ الصَّائِدَةُ فَاهَا ٱلكَبِيرَ وَتَبتَلِعُهَا. ثُمَّ تَعُودُ لِنَصْبِ ٱلشِّصِّ وَٱلكُمُونِ لِأُخرَى. وَتَحمِلُهَا شَرَاهَتُهَا عَلَى ٱستِرَاطِ كُلِّ مَا يَأْتِي فِي سَبِيلِهَا

---

(١) مَشْيٌ صِيَامٌ وهو السداد (٢) كُلَّابَة عقفاء لصيد السمك

(٣) ابتلاع

الاسماك البانية الاوجرة

معلومٌ ان ليس للاسماك دمٌ حارٌ كدمنا ولا تعتني بصغارها بل تضع صُغُرَها في الماء وتغادرها حتى تنتقف من ذاتها. هذه هي صفات الاسماك العامَّة. غير ان هذه القاعدة لا تخلو من الشذوذ فان لنوع من اسماك بحيرات اميركا وانهرها (واسمهُ هاسّار) كيساً نجلة تحت خياشيمها فتسير على اليابسة وتحتمل حرارة الشمس وتبني اوجرةً لصغارها. فتشرع بالعمل في فصل الربيع وتتمّ الوجار على شكل كرة مجوَّفة مسطَّح الرأس فتدخلهُ وتخرج منهُ بواسطة ثقب كالباب. اما مواد البناء فالياف البحر واعشابهُ. وقد علم البشر هناك مكامن هذه الاسماك فيأتيها الصيَّادون بالسلال والقضبان ويضعون السلَّة عند الثقب وينكشون الوجار بالقضيب. فتختنق السمكة وتنشر زعانفها وتقفز فتسقط في السلّ وتُصاد

ومنها نوع يُسمَّى الظهر الشائك تبني وجارها بنسيج اعشاب البحر وتغرّيها بمادة لزجة تفرزها من جسمها فتصبح كخيوط شبكة تضارع الإجّاصة لها من جانبيها بابان. وهذه السمكة تعتني ببناء وجارها فترمّهُ وتصلحهُ مرارًا حتى يمسي ملائقًا لسكنها. واذا وضعت صُغُرَها حرستها بمزيد الاهتمام حتى اذا فاجأها عدوٌّ ورام افتراس صغارها وثبت عليهِ ودفعتهُ ودافعت عنها ببسالة. والعلماء الطبيعيون يصبون جدًّا الى مراقبة هذه الاسماك لانها تذكّرهم بالدجاجة وفراخها. واذا ابتعد احد صغارها عن الوجار سبحت اليهِ وحملتهُ بفيها وانت بهِ الى الوكن

السمك الطيَّار

للسمك الطيَّار زعانف كأجنحة الطير ومثانة[1] هواء كبيرة . فمتى طار لا ينشر زعانفهُ فقط بل ذنَبهُ ايضاً . ويرتفع بعضهُ الى علوّ عشرين قدماً في الجوّ ويقطع في كل طيرة مسافة ستين او سبعين ذراعاً ثم ينحدر الى الماء ليبلَّ



متنفساتهِ ويستأنف الطيران فراراً من اعدائهِ . اما اكثر وجودهِ ففي البحور

الاستوائية حيث ترى عصابات من السمك الطيار تطير معاً وتلمع بألوانها الزرقاء وزعانفها الفضيَّة في نور الشمس فتبدو لناظرها مشهدًا جميلاً . غير ان طيرانها لا يقيها من الاعداء فان طيور البحر تنقضُّ عليها وتفترسها . وكذلك الدلفين يطاردها ويصيدها . وبحَّارة السفن ايضاً وركَّابها يراقبونها ويلهون بقنصها . وذلك بأن يضرموا نارًا او مصباحًا على سطح السفينة فيحوم حوله السمك الطيَّار فيتمكنون من صيدهِ ويقولون انهُ لذيذ الطعم . فلا راحة لهذه الاسماك ولا سلامة سواءٌ كانت في الماء او في الهواء

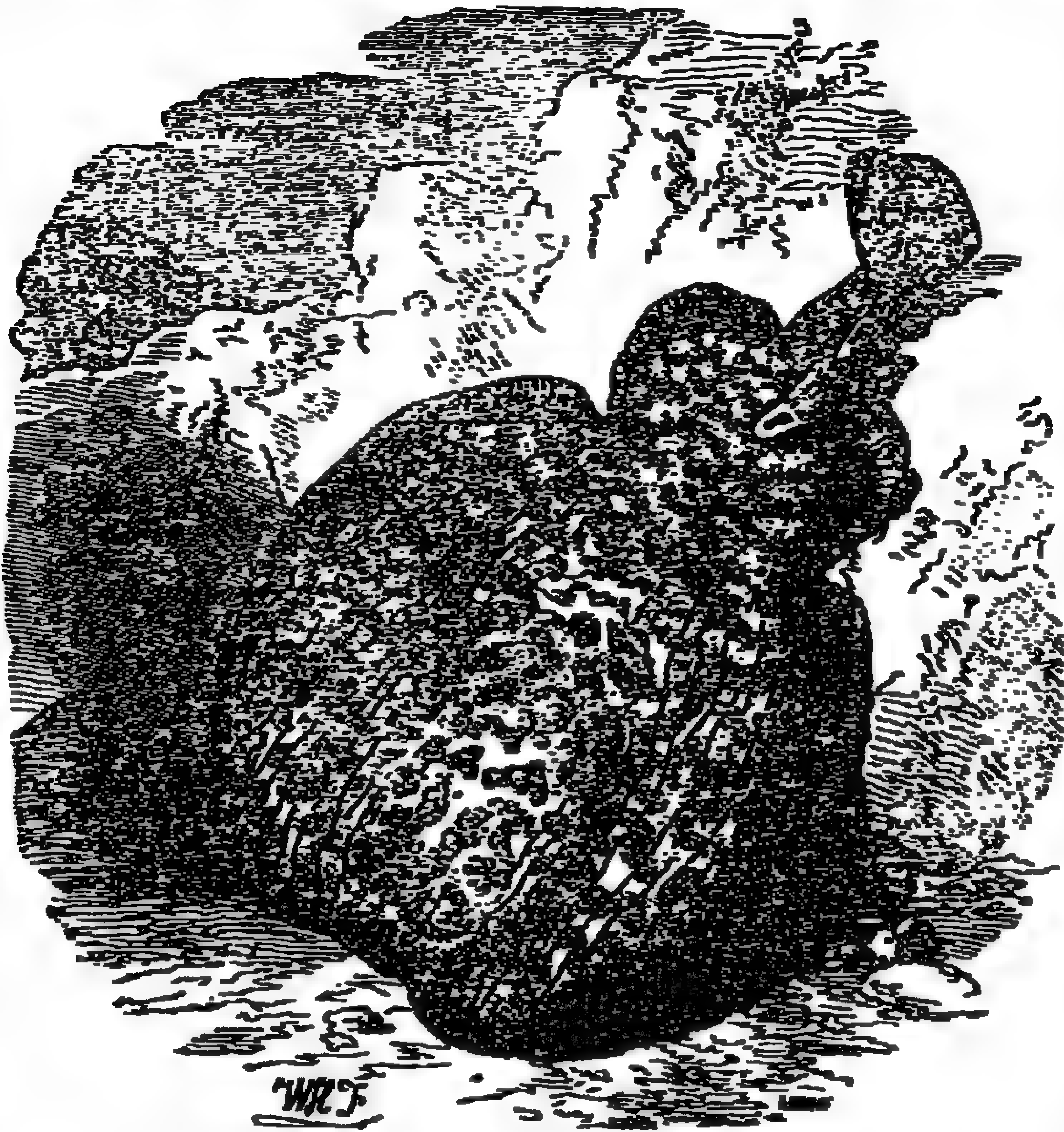
(١) شبه كيس جلديّ

السمك الرعَّاد

ان موطن هذا السمك البحر المتوسّط . وهو سمك كهربائيّ اذا امسكهُ الانسان بيديهِ خدرتا وارتعد . وهو ضخم الجسم يحاكي شكله الرباب وله على بدنهِ ثقوب تشبه قرص الشهد تفرز مادَّة مخاطيَّة لزجة . والسمك الرعَّاد تخافه سائر الاسماك لقوَّتهِ الكهربائيَّة فانهُ يصعق اعداءهُ ويفترسها . وفي الابحر الاستوائية اسماك كبيرة من هذا النوع اذا مسستَ احدها عرتك رعدة كأنك مسكت بدولاب البرق . وهو حيوان بطيء الحركة يحب ان يدفن نفسهُ في الرمال . فاذا امسك بهِ انسان على سبيل الصدفة ثار عليهِ وارتعدهُ وخدَّر اعضاءهُ

وقد عثر الناس في هذه الايام على منافع الكهربائية واستخدم منها الاطباء آلات لعلاج الامراض العصبيَّة . غير ان في الزمان القديم في عهد انطونيوس

وكليوبترا كانوا يستعملون السمك الرعّاد لهذه الغاية ايضاً . وذهبوا الى ان هزّتهُ تبرئ الصداع وآلاماً أُخرى. وفي الازمان الحديثة ايضاً كانوا ينصحون للمصابين



بمرض النقرس او داء الملوك بوضع ارجلهم على السمك الرعّاد حتى تخدر

سَمَكُ الكرةِ الشائك

لِبَعْضِ ٱلْأَسْمَاكِ صُوَرٌ وَأَشْكَالٌ غَرِيبَةٌ . مِنْهَا سَمَكُ ٱلْكُرَةِ . فَكَأَنَّهُ رَأْسُ سَمَكَةٍ كَبِيرَةٍ بِدُونِ بَدَنٍ . وَهُوَ صُنُوفٌ

شتى كبيرةٌ وصغيرةٌ وكلُّهُ مسلّحٌ بحرابٍ أو سهامٍ كالقنفذِ. فإذا فاجأ إحداها خطرٌ نفختْ ذاتها وانتصبَ شوكُها. ومِنْ صنوفِهِ طائفةٌ لها حوصلةٌ كحوصلةِ الدجاجةِ فإذا دهمَ إحداها الرُّعبُ نفختْ تلكَ الحوصلةَ كمنطادٍ وقلبتها وعامتْ على ظهرِها ونصبتْ حِرابَها. وإذْ ذاكَ تفقدُ قوّةَ قيادةِ نفسِها فتجرفُ مع الأمواجِ. وإذا ملكتْ روعَها فرغتِ الهواءَ تدريجًا مِنْ فمِها وخياشيمِها فيُسمعُ لهُ أزيزٌ وصفيرٌ. وقدْ تنفخُ هذهِ الأسماكُ نفسَها حتى تخالَها صندوقًا عائمًا. وهي لا تسبحُ بزعانفِها كسائرِ الأسماكِ بلْ تستخدمُها لتوازنَ نفسَها بها موازنةَ القاربِ في البحرِ. وأشواكُ هذهِ السمكةِ ولحمُها سامّةٌ تميتُ آكلَها

صفة اسطول

إعجبْ لأسطولِ الإمامِ محمّدِ
وبحسنِهِ وزمانِهِ المستغربِ
لبستْ بهِ الأمواجُ أحسنَ منظرٍ
يبدو لعينِ الناظرِ المستعجبِ

مِنْ كُلِّ مُشْرِفَةٍ عَلَى مَا قَابَلَتْ
إِشْرَافَ صَدْرِ ٱلْأَجْدَلِ ٱلْمُتَنَصِّبِ
دَهْمَاءَ قَدْ لَبِسَتْ ثِيَابَ تَصَنُّعٍ
تَسْبِي ٱلْعُقُولَ عَلَى ثِيَابِ تَرَهُّبِ
مِنْ كُلِّ أَبْيَضَ فِي ٱلْهَوَاءِ مُنَشَّرٍ
مِنْهَا وَأَسْحَمَ فِي ٱلْخَلِيجِ مُغَيَّبِ
كَمِرَاءَةٍ فِي ٱلْبَرِّ يَقْطَعُ سَيْرُهَا
فِي ٱلْبَحْرِ أَنْفَاسَ ٱلرِّيَاحِ ٱلشُّذَّبِ
مَحْفُوفَةٍ بِمَجَادِفٍ مَصْفُوفَةٍ
فِي ٱلْجَانِبَيْنِ دُوَيْنَ صُلْبٍ صُلَّبِ
كَقَوَادِمِ ٱلنَّسْرِ ٱلْمُرَفْرِفِ عُرِّيَتْ
مِنْ كَاسِيَاتِ رِيَاشِهِ ٱلْمُتَهَدِّبِ
وَتَحُثُّهَا أَيْدِي ٱلرِّجَالِ إِذَا وَنَتْ
بِمُصَعَّدٍ مِنْهُ بَعِيدٍ مُصَوَّبِ
خَرْقَاءَ تَذْهَبُ إِنْ يَدٌ لَمْ تَهْدِهَا
فِي كُلِّ أَوْبٍ لِلرِّيَاحِ وَمَذْهَبِ

جَوْفَاءُ تَحْمِلُ كَوْكَبًا فِي جَوْفِهَا
يَوْمَ ٱلرِّهَانِ وَتَسْتَقِلُّ بِمَرْكَبِ
وَلَهَا جَنَاحٌ يُسْتَعَارُ بِطَيْرِهَا
طَوْعُ ٱلرِّيَاحِ وَرَاحَةُ ٱلْمُتَطَرِّبِ
يَعْلُو بِهَا حَدَبَ ٱلْعُبَابِ مُطَارَةً
فِي كُلِّ لُجٍّ زَاخِرٍ مُغْلَوْلِبِ
تَنْصَاعُ مِنْ كَثَبٍ كَمَا نَفَرَ ٱلْقَطَا
طَوْرًا وَتَجْتَمِعُ ٱجْتِمَاعَ ٱلرَّبْرَبِ
وَلَوَاحِقٍ مِثْلُ ٱلْأَهِلَّةِ جُنَّحٍ
لُحُقِ ٱلْمَطَالِبِ فَائِتَاتِ ٱلْمَهْرَبِ
يَذْهَبْنَ فِيمَا بَيْنَهُنَّ لِطَافَةً
وَيَجِئْنَ فِعْلَ ٱلطَّائِرِ ٱلْمُتَغَلِّبِ
وَعَلَى كَوَاكِبِهَا أُسُودُ خِلَافَةٍ
تَخْتَالُ فِي عُدَدِ ٱلسِّلَاحِ ٱلْمُرْهَبِ
فَكَأَنَّمَا ٱلْبَحْرُ ٱسْتَعَارَ بِزِيِّهِمْ
ثَوْبَ ٱلْجَمَالِ مِنَ ٱلرَّبِيعِ ٱلْمُذْهَبِ

سمك الانابيب

هٰذَا ٱلسَّمَكُ طَوِيلٌ دَقِيقٌ مُنْدَمِجٌ يُشْبِهُ ٱلْأُنْبُوبَةَ . وَلَهُ فَكَّانِ مُلْتَصِقَانِ بِبَعْضِهِمَا . وَهُوَ يَلْتَفُّ عَلَى نَفْسِهِ بِصُوَرٍ وَأَشْكَالٍ غَرِيبَةٍ وَيَمْتَصُّ فَرِيسَتَهُ ٱمْتِصَاصَ ٱلطُّلُمْبَةِ ٱلْمَاءَ . وَمِنْ سَجِيَّتِهِ أَنَّهُ مُولَعٌ بِصِغَارِهِ وَيَحْمِلُهَا (ٱلذَّكَرُ لَا ٱلْأُنْثَى) فِي كِيسٍ يُحَاكِي ٱلرُّدْنَ (١) مَنُوطٍ بِجِسْمِهِ . وَإِذَا أَلَمَّ بِهَا خَطَرٌ رَكَضَتْ إِلَى أَبِيهَا وَٱخْتَبَأَتْ فِي رُدْنِهِ

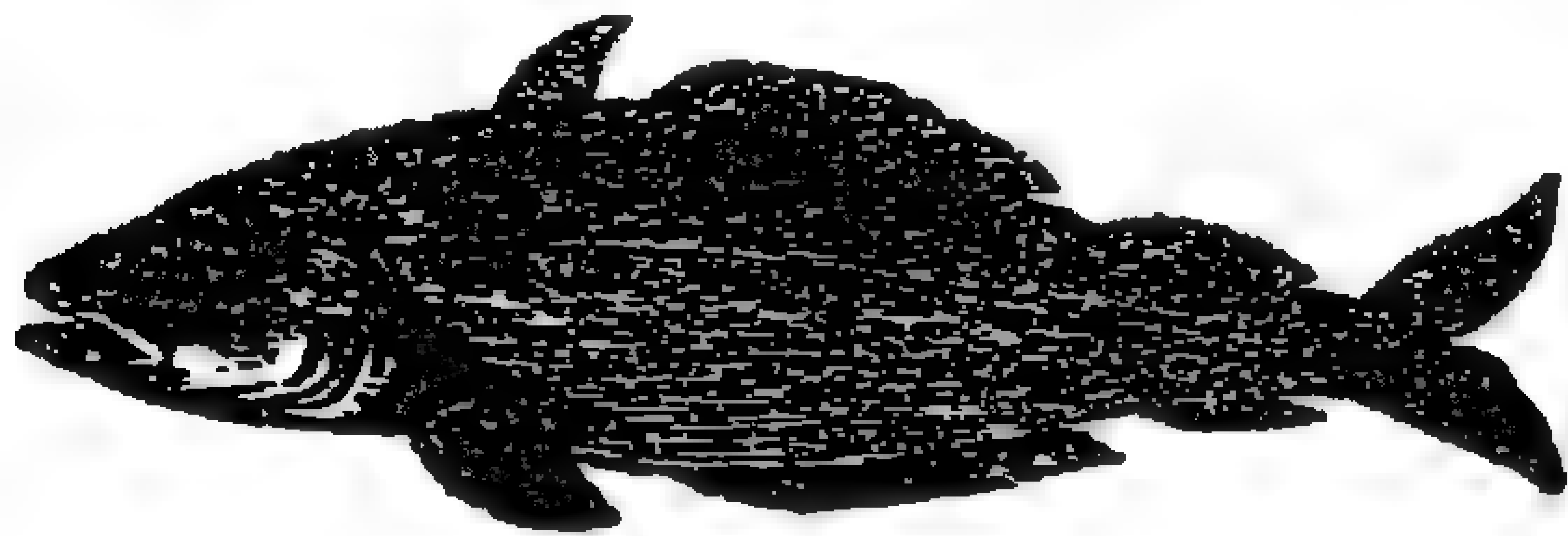
وَلِبَعْضِ هٰذِهِ ٱلْأَسْمَاكِ أَذْنَابٌ طَوِيلَةٌ تَتَشَبَّثُ بِٱلْأَعْشَابِ وَتَلْتَفُّ عَلَيْهَا حَتَّى تَتَقَطَّعَ . وَإِذَا مَاتَتِ ٱلسَّمَكَةُ تَقَلَّصَ جِسْمُهَا وَٱلْتَفَّ وَضَارَعَ عُنُقُهَا وَرَأْسُهَا عُنُقَ ٱلْحِصَانِ وَرَأْسَهُ . وَقَدْ حَفِظَ ٱلْبَعْضُ هٰذِهِ ٱلْحَيَوَانَاتِ فِي ٱلْمَتَاحِفِ لِلزِّينَةِ وَسَمَّوْهَا فَرَسَ ٱلْبَحْرِ . وَكَثِيرًا مَا تَرَى بَعْضَهَا مَلْفُوفًا فِي صَدَفَةِ حَلَزُونٍ

---

(١) اصل الكُمّ كانت العرب تضع فيه الدراهم والدنانير

سمك القُدّ

لا يخفى أنَّ البحرَ مستودعُ قوتٍ للإنسانِ لا يفرغُ . وهو خزانةُ زادٍ ومؤونةٍ لا قرارَ ولا نفادَ لها . ومن صنوفِ هذا الزادِ سمكُ الحوتِ أو القدِّ وهو حيوانٌ نهمٌ لا يعرفُ الشبعَ . فيلتهمُ كلّما يصادفهُ بأيسرِ مرامٍ حتى أنهُ يلتقمُ السرطانَ بصدفتهِ بغايةِ السهولةِ . ومن غرائبِ هذا الحيوانِ أنَّ أنثاهُ



تضعُ صغيرًا يفوقُ عددهُ التصديقَ . فقد تولّدَ من سمكةٍ واحدةٍ ثلاثةُ ملايينِ بيضةٍ . وعلى ذلكَ لا خوفَ من انقراضهِ . وقد أكثرهُ المولى في البحرِ لوفرةِ فوائدهِ ومنافعهِ . فإنَّ كلَّ جزءٍ من أجزائهِ ينفعُ الإنسانَ . من ذلكَ لحمهُ المكتنزُ الأبيضُ اللذيذُ الطعمِ . ولسانهُ الذي يملّحُ ويقددُ ويعدُّ من إناقةِ (١) الموائدِ . ويستعملُ الصيادونَ خياشيمهُ (طعمًا) للأسماكِ . وزيتهُ المسمّى بزيتِ السمكِ

نافعٌ للتقويةِ وإصلاحِ الدمِ وأمراضِ الصدرِ. ومثانتهُ تستعملُ للغراءِ. والصيادونَ يطبخونَ رأسهُ ويستعملونهُ طعامًا. وأهلُ نروجَ يعلفونَ بهِ أبقارهم ممزوجًا مع أعشابِ البحرِ فتسمنُ ويغزرُ لبنها. وفي إيسلاندا يعلفونَ مواشيهم بعظامهِ. وفي كمشتكا يقوتونَ بهِ الكلابَ. وأهلُ ساحلِ البحرِ المتجمدِ يستعملونَ عظامهُ وقودًا

أمّا أشهرُ مصايدهِ ففي نيوفندلند. حيثُ يصيدُ الصيادُ نحوَ أربعِ مئةِ سمكةٍ في اليومِ. وقدِ اخترعَ الانكليزُ حديثًا نوعًا منَ الآبارِ يضعونها في سفنِ الصيدِ ويجلبونَ بها سمكَ القدِّ⁽²⁾ حيًّا إلى بريطانيا. وقد حفروا لصيدهِ في هذهِ الأيامِ حياضًا وصهاريجَ⁽³⁾ كالتي توجدُ في هبريدس وإيقوسيا يأتيها السمكُ فيأخذُ الصيادُ بالعنايةِ بها ويطعمها فتألفهُ. حتى إذا رأتهُ آتيًا نحوها بسلّةِ الطعامِ سبحت إليهِ وفتحت أفواهها للأكلِ بل قد تأكلُ من يدهِ. ولهذا السمكِ مصادٌ عظيمٌ في سواحلِ نروجَ يصيدُ فيهِ القومُ منذُ ألفِ سنةٍ ونيّفٍ

(١) الحسن العجيب (٢) سمك بحري هو سمك الحوت (٣) جمع صهريج وهو حوض يجتمع فيه الماء

ذئب البحر

ان عالم الاوقيانوس ميدان قتال دائم . فترى حيواناته تقضي اكثر اوقاتها بالحرب والكفاح او بالفرار . لان قويّها يهاجم ضعيفها وكبيرها يفترس صغيرها . فلا تعرف الشبع ولا الرحمة . ومنها ذئب البحر المائل . ولهذا الحيوان في كل فكٍّ ستة صفوف اسنان يطحن بها السرطان طحن الدقيق ويلتهمهُ . وقد يعضُّ المرساة الحديدية الغليظة ويترك فيها اثرًا من اسنانهِ . قيل انهُ عضَّ يومًا بندقيةَ صيّادٍ صوّبت نحوهُ فكسّرها قِطَعًا كما لو كانت قطعة زجاج . ولذلك يخشاهُ الملاّحون جدًّا خشية القوم من ذئب البرّ . اما طولهُ فيبلغ سبع اقدام او يزيد

سمك السيف

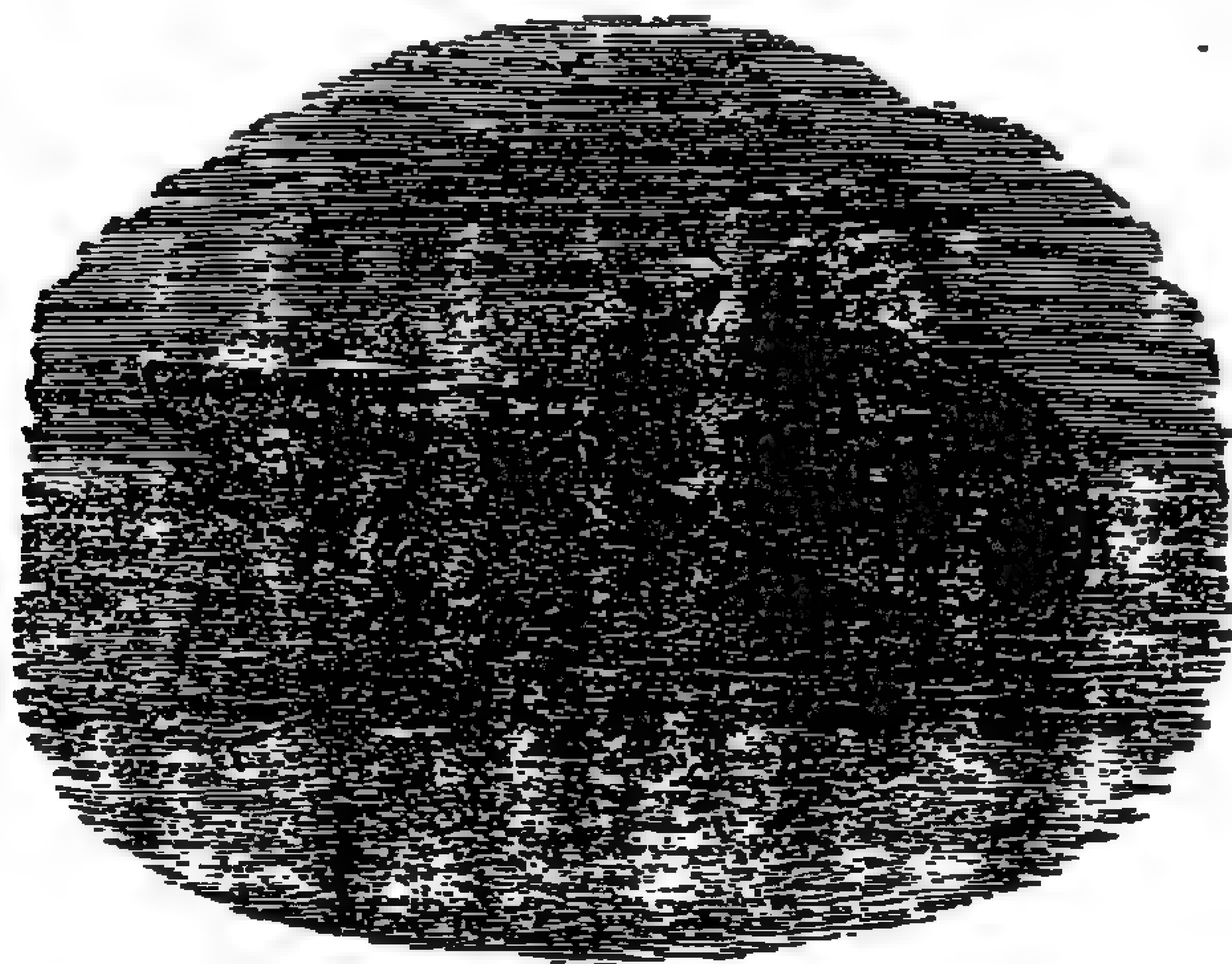
ومن حيتان البحر الهائلة السيف . وهو حيوان طولهُ من عشر اقدام الى خمس عشرة . ويمتدّ من اعلى خطمهِ عضو كالسيف يبلغ ثلاثة اعشار طولهِ . وهو سريع السباحة جسور شديد البأس ومن الدّ اعداء البال . فانهُ يهاجمهُ بسيفهِ المرهَف ويجرحهُ ويصبغ اللجّة بدمهِ . اما البال فليس لهُ من سلاح سوى ذنبهِ العظيم فاذا ضربهُ بهِ السيف قتلهُ . غير ان السيف يحاول الابتعاد عن ذنَب البال . فاذا التقيا انتشب بينهما صدامٌ عنيف سمعت لهُ صلصلة وجلجلة من امدٍ شاسع . ولا تكفّ المعركة الّا بقتل احدهما . واحيانًا ينشب هذا الحيوان عضبة(١) بقاعدة السفينة فيتعذّر عليهِ جذبهُ . فقد شاهد احد الطبيعيين هذا الحوت منتشبًا سيفهُ في قعر سفينة يختبط اختباطًا عنيفًا حتى تملّص وبقي السيف منتشبًا

بالسفينة . ولكنهُ ما لبث حتى مات وعام على اللجة . اما موطنهُ فالبحر المتوسط والاتلانتيك

(١) السيف القاطع

كلب البحر

من اشرس الحيوانات المائيَّة واشدّها فتكاً وضرراً كلب البحر . فان لهُ ستة صفوف اسنان مثلَّثة الزوايا عرض كلٍّ منها قيراطان . وهي حادَّة كالمنشار واقطع من السيف . فاذا كانت فارغة من العمل رأيتها مسطّحة منبسطة واذا



دنت منهُ فريسة انتصبت واستعدَّت للطحن . وهذا الكلب يتبع السفن رجاء ان يبتلع ما يُطرَح منها . وهو خفيف الحركة يلحق اسرع السفن دون ادنى تكلف واذا سقط احد من السفينة اسرع اليهِ وافترسهُ

وانثى هذا الحيوان تضع بيضتين فقط مغطّاتين بمادة قرنيَّة ينتأ منها شيءٌ

كالاظفور[1] يشتبك باعشاب البحر ويضبط البيضة في مكانها والجنين[2] ملتف ضمنها . ثم يخرج الجنين ويفعل على شاكلة والديه ويقضي حياته بالافتراس



والازدراد . فاذا ثارت العواصف واكفهر[3] الظلام رأى الملاحون نورًا يتلألأ على اللجج فيعروهم الرعب ويشيرون الى بعضهم . لانهم يعلمون ان ذلك

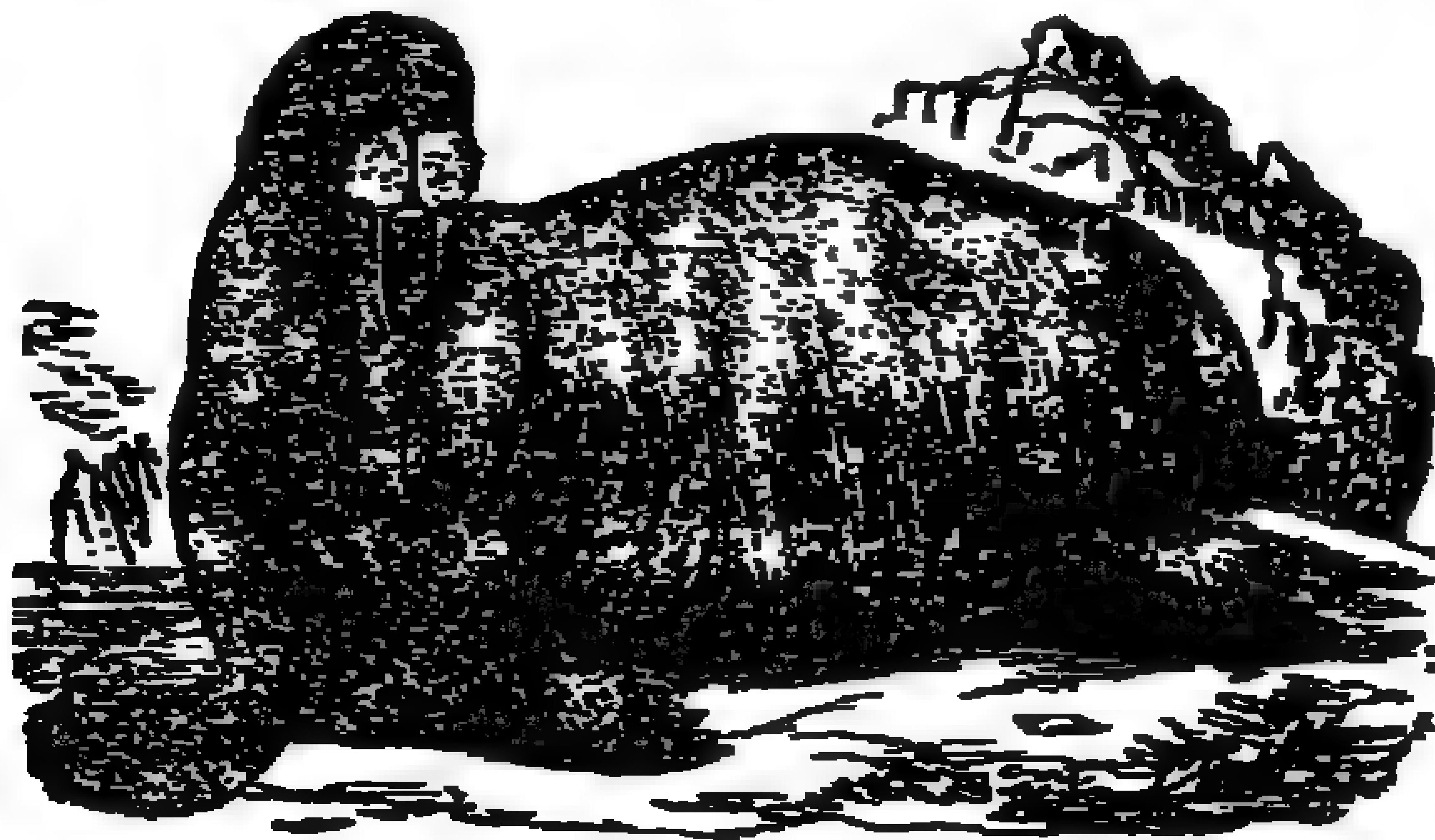
النور او من حراشف كلب البحر فيهما أُون لقتالوا او الفرار منهُ

وكلب البحر انواع منهُ صنفٌ اخضر اللون يضرب الى الزرقة وهو جميل المنظر طولهُ ثماني اقدام ليس دون غيرهِ شراسةً وضروًّا. ومنها صنف آخر ابيض اللون طولهُ ثلاثون قدمًا. ومنها ما يشبه رأسهُ رأس الثعلب يضرب بذنبهِ الامواج فتربد الى أمد اميال. ومنها ما لهُ عضو طويل يضارع المنشار محدَّد الطرفين يهاجم بهِ البال والسفن كحوت السيف. فقد ينشب منشارهُ المُرهَف(٤) بالسفن ويخرقها. فالويل لمن التقتهُ المقادير في افواه هذه الحيتان الهائلة

(١) مادة قرنية تنبت على اطراف الاصابع والدقيق الذي يلتوي على قضيب الكرم (٢) الولد ما دام في الرحم (٣) اشتدَّ ظلامهُ (٤) محدَّد قاطع

عجل البحر

يَسكُنُ هذَا ٱلحَيوَانُ غالِبًا ٱلأَبحُرَ ٱلمُتَجَمِّدَةَ. وَهُوَ نَافِعٌ لِسُكَّانِ تِلكَ ٱلبِلَادِ ٱلبَارِدَةِ. فَإِنَّهُم يَغتَذُونَ بِلَحمِهِ وَيَستَضِيئُونَ



بِزَيتِهِ وَيَكتَسُونَ بِجِلدِهِ. وَمِن هؤُلَاء أُمَّةُ ٱلأَسكِيمُو

وَٱلْكِرِينْلَنْدِيُّونَ. وَجِسْمُهُ ضَخْمٌ جِدًّا وَافِرُ ٱلزَّيْتِ فَيَمُدُّ أُولٰئِكَ ٱلْقَوْمَ بِطَعَامٍ جَزِيلٍ وَوَقُودٍ كَثِيرٍ. وَهُوَ يَعِيشُ بَرًّا وَبَحْرًا لٰكِنَّهُ بَطِيءُ ٱلْحَرَكَةِ جِدًّا عَلَى ٱلْيَابِسَةِ وَلِذٰلِكَ يُؤْثِرُ ٱلسَّكَنَ فِي ٱلْبَحْرِ. وَلِهٰذَا ٱلْحَيَوَانِ أَرْبَعُ أَقْدَامٍ ٱثْنَتَانِ فِي مُقَدَّمِ جِسْمِهِ وَٱثْنَتَانِ فِي طَرَفِهِ. وَعَلَى قَدَمَيْهِ ٱلْخَلْفِيَّتَيْنِ غِلَافٌ مِنْ جِلْدٍ. وَهُمَا مُلْتَصِقَتَانِ إِحْدَاهُمَا بِٱلْأُخْرَى وَبِٱلذَّنَبِ فَتَقُومَانِ مَقَامَ زَعَانِفَ مَتِينَةٍ. وَلِمُخَلَّبَيْهِ ٱلْمُقَدَّمَيْنِ أَيْضًا غِلَافُ جِلْدٍ وَعَلَيْهِمَا أَصَابِعُ وَأَظْفَارٌ. وَلِذٰلِكَ لَا تَتَيَسَّرُ لَهُ ٱلْحَرَكَةُ بِتِلْكَ ٱلْأَقْدَامِ ٱلْمُشَاكِلَةِ ٱلزَّعَانِفَ. لٰكِنَّهُ خَفِيفُ ٱلْحَرَكَةِ فِي ٱلسِّبَاحَةِ. إِنَّمَا لَا يَسْتَطِيعُ ٱلِٱسْتِغْنَاءَ عَنِ ٱلتَّنَفُّسِ فِي ٱلْهَوَاءِ فَيَثْقُبُ فِي ٱلثَّلْجِ ثُقُوبًا يَتَنَفَّسُ بِوَاسِطَتِهَا

وَٱلصَّيَّادُونَ يَعْلَمُونَ ذٰلِكَ فَيَكْمُنُونَ لَهُ صَامِتِينَ حَتَّى إِذَا رَأَوْهُ بَدَا مِنَ ٱلثَّقْبِ طَعَنُوهُ بِٱلْحِرَابِ فَقَتَلُوهُ. وَمَتَى فَازَ أَحَدُهُمْ بِهٰذِهِ ٱلْغَنِيمَةِ سُرَّ وَعَائِلَتُهُ كُلَّ ٱلسُّرُورِ لِأَنَّ مَعِيشَتَهُمْ تَتَوَقَّفُ بِٱلْأَكْثَرِ عَلَى لَحْمِهِ وَزَيْتِهِ وَجِلْدِهِ. فَقَدْ فَاقَ نَفْعُهُ عِنْدَهُمْ نَفْعَ ٱلْغَنَمِ وَٱلْبَقَرِ فِي ٱلْبِلَادِ ٱلْمُعْتَدِلَةِ. وَلِعِجْلِ ٱلْبَحْرِ عَدُوٌّ آخَرُ هُوَ ٱلدُّبُّ ٱلْقُطْبِيُّ فَإِنَّهُ يُرَاقِبُهُ عِنْدَ حُفَرِهِ ٱلثَّلْجِ

مُرَاقَبَةَ ٱلصَّيَّادِ أَوْ يُفَاجِئُهُ إِذْ يَكُونُ مُضْجِعًا فَيَغْتَالُهُ

وَمِنْ عِجْلِ ٱلْبَحْرِ صِنْفٌ يَعِيشُ فِي ٱلْأَبْحُرِ ٱلِٱسْتِوَائِيَّةِ طُولُهُ عِشْرُونَ قَدَمًا وَنَيِّفٌ لَذِيذُ ٱللَّحْمِ كَثِيرُ ٱلزَّيْتِ تَحْمِلُ أُنْثَاهُ وَلَدَهَا فِي صَدْرِهَا . وَرَأْسُهَا أَشْبَهُ بِرَأْسِ ٱمْرَأَةٍ . فَقَدْ ظَنَّ



ٱلْبَحَّارَةُ ٱلْقُدَمَاءُ هٰذَا ٱلصِّنْفَ مُرَكَّبًا مِنْ رَاسِ ٱمْرَأَةٍ وَجِسْمِ سَمَكَةٍ وَيُحْسَبُ حَلْقَةً بَيْنَ عِجْلِ ٱلْبَحْرِ وَٱلْبَالِ

وَمِنْهُ صِنْفٌ آخَرُ يُدْعَى ٱلْفِيلَ مَوْطِنُهُ ٱلْقُطْبُ ٱلْجَنُوبِيُّ . تَقْصِدُهُ ٱلسُّفُنُ طَمَعًا بِزَيْتِهِ وَجِلْدِهِ . وَهُوَ لَطِيفُ ٱلْخُلْقِ قَلِيل

الضرر . حتى أنه يسمح للصيادين بطعنه بدون أن يدافع عن نفسه أو تبدو منه شراسة إلا للذود عن صغاره إذا هاجمها عدو خفاتي من وراء الصياد وبعضه بأسنانه الحادة حتى يكاد يقتله . وهذا الحيوان سمين جدًا جزيل الشحم يصعب عليه المشي على اليابسة . وإذا فعل اضطر إلى أخذ الراحة كل بضع دقائق . ولذلك لا يجرأ على الخروج من البحر إلا نادرًا . وإذا حمي عليه الهجير في البر طمر نفسه في الرمل . وجلد هذا الحيوان يستعمل للسروج وزيته فاخر جدًا لا تنبعث من وقوده رائحة كريهة كغيره . ويصنعون من جلوده أردية وعباءات وجببًا

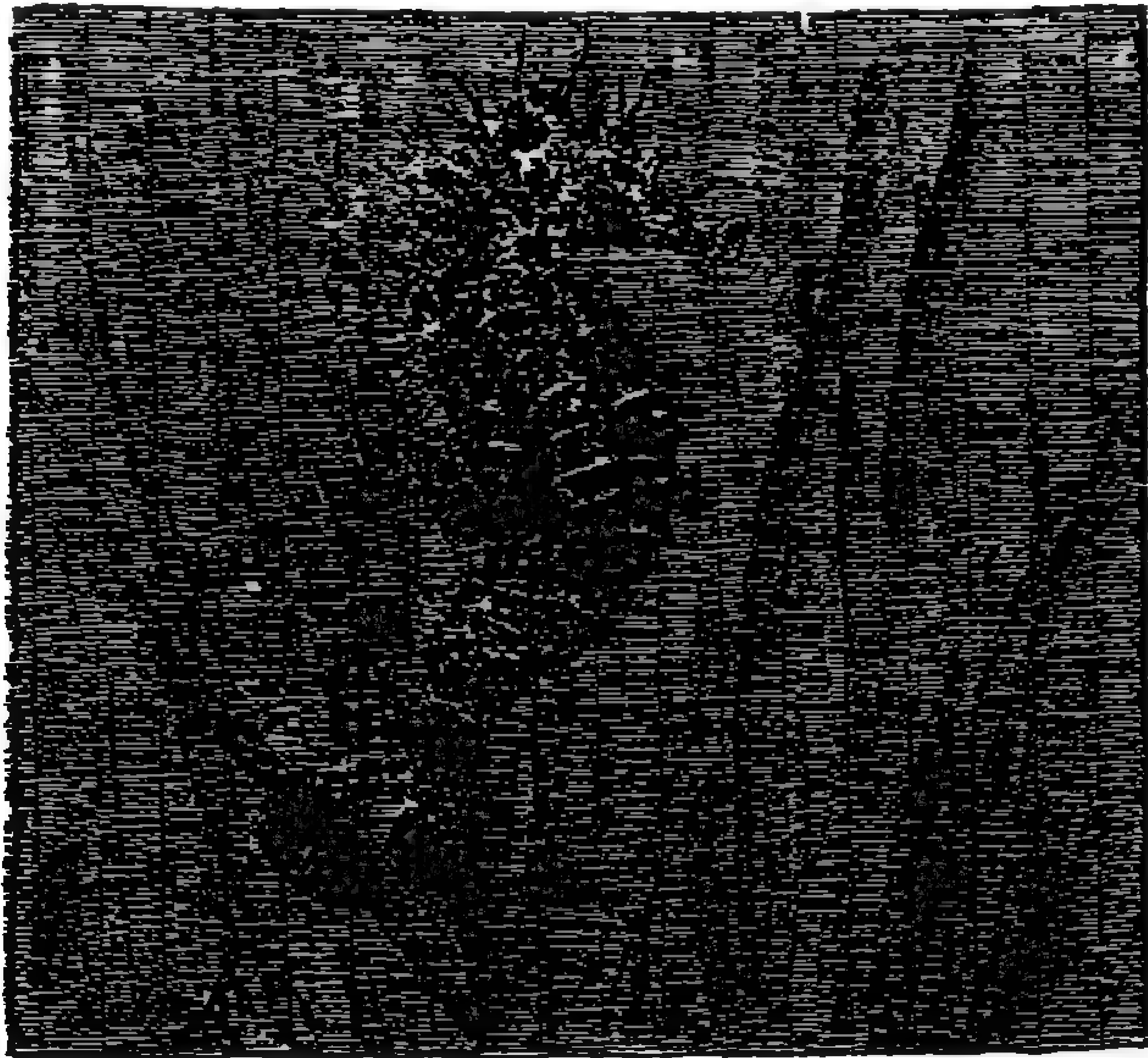
ومن عجل البحر نوع له فرو نفيس يقطن جزائر شيتلند الجنوبية . له فوق الفرو شعر طويل أشهب اللون ينزعونه عنه فيبدو تحته فرو كثيف لين أسمر يضرب إلى الصفرة . وهذا الصنف مطمح أبصار الصيادين أبدًا فيقصدونه طمعًا بفروه الثمين . واسمه الحقيقي أوتاري

ومن هذه الرتبة صنف يدعى أسد البحر له شعر طويل كثيف منسدل على عنقه كعرف يوجد في الأبحر الشمالية

وَٱلْجَنُوبِيَّةِ وَيَعِيشُ بَعْضُهُ مَعَ بَعْضٍ قِطْعَانًا . وَهُوَ قَوِيُّ ٱلْبِنْيَةِ ضَخْمُ ٱلْجِسْمِ قَلِيلُ ٱلضَّرَرِ كَسَائِرِ عُجُولِ ٱلْبَحْرِ

حصان البحر

هو نوع آخر من حيتان البحر من رتبة تُسمّى امفيبيا تعيش في البرّ والبحر معًا. وهو مكسوٌّ بشعر قصير يضرب الى الصفرة . وكبير الجسم يبلغ طوله عشرين قدمًا



ثقيل الحركة شليها . وله انياب عاجيّة يستعملها للحفر على الحيوانات الصدفيّة ونباتات البحر ولجرّ جسمه الثقيل على الصخور والجمد ولمحاربة الدبّ القطبيّ

الضاري اذ تنشب بينهما حرب عوان . غير ان الدبّ كثيرًا ما يفوز بالنصرة فيقتل الحصان ويفترسهُ .

واذا طُرِحَت جثة حصان بحر على الشاطئ حدث هرج ومرج بين الطيور والحيوانات فتنصب الطيور نصب السرور وتشمّ الثعالب الرائحة من بعيد ولا تجترئُ على الدنوّ الى ان تشبع الدبية. فتقف وتضبح(١) وقد عيل صبرها حتى يوافيها الدور . واذا حضر الوليمة انسان تنازع عليها مع الحيوانات . لان سكان تلك البلاد القطبية يحسبون لحم حصان البحر لذيذًا جدًّا . ويصنعون من جلدهِ حبالًا . وعاجهُ ثمين جدًّا في الصناعة

ومع ان حصان البحر كبير الجسم حادّ الانياب يمكن ترويضهُ فيدجن ويألف صاحبهُ ويحبهُ . فقد ربّت سيّدة روسيّة حصان بحر صغير ودلّلته فكان يتبعها من مكان الى آخر ويبدي ارتياحًا وسرورًا بالتقاء رأسهِ على حضنها

(١) الضُّباح صوت الثعلب

خنزير البحر

هو حوت مفترس طولهُ نحو ست اقدام غليظ المقدَّم دقيق المؤخَّر اسود الظهر يضرب الى الزرقة ابيض البطن . وهو مشهور بمهارتهِ في الصيد والافتراس شديد البطش والفتك والاحتيال . يكمن للصيد ويسوقهُ من جون الى آخر وينقض عليهِ وهو كثير متفرّق في كل بحر .

كركدن البحر

هو حوت يشبه السيف في القرن الممتد كالرمح من فكّهِ الاعلى وطولهُ من عشر اقدام الى عشرين . وهو من الحيتان المائتة سريع الحركة شديد السطوة يطعن خصمهُ برمحهِ القتّال فيوردهُ موارد الهلاك وينطح الاقران ولا يهاب اعظم حيوان في البحر. فيهجم على البال ويطعنهُ بقرنهِ الحادّ ويمصّ دمهُ . وعاجهُ النفيس ثمين عند الصيّادين

البال

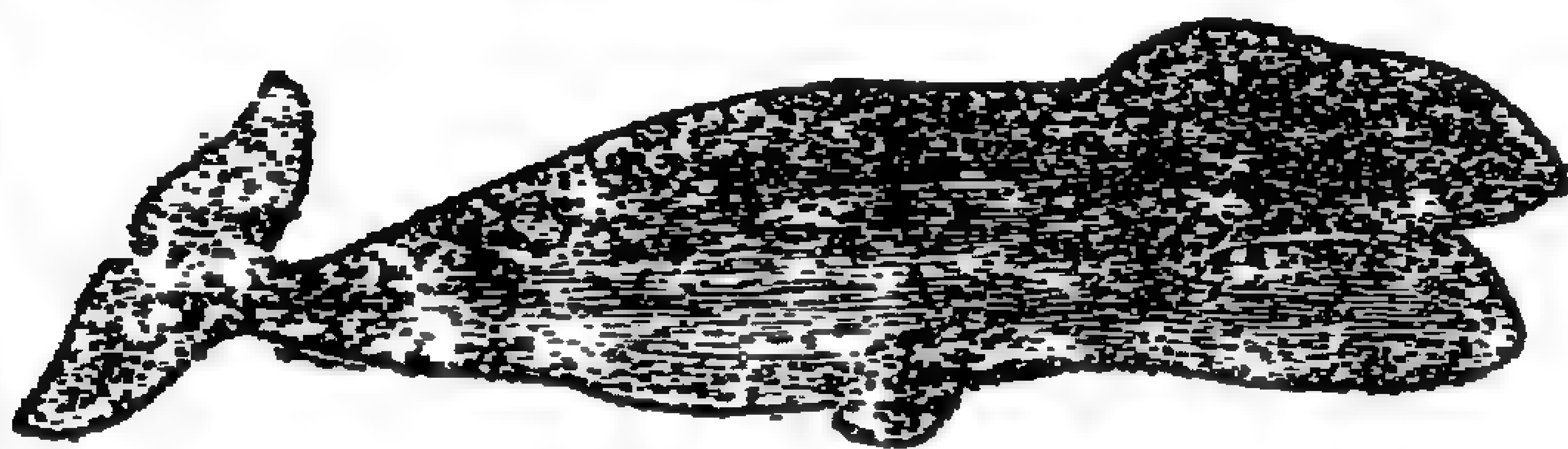
هو حوت عظيم قيل انهُ اكبر مخلوق في ارضنا من الحيوانات المعروفة طولهُ من خمسين الى سبعين قدماً وقد يبلغ مئةً ومحيطهُ من ثلاثين قدماً الى اربعين اما انواعهُ فكثيرة تعيش في الابحر الجنوبية والشمالية . منهُ الحوت الكرينلاندي نزيل المنطقة المتجمدة . ولهُ دم حارّ كدم الانسان وانثاهُ ترضع صغارها وتحبها حبّاً شديداً. ويتنفّس في الهواء ولذلك يُعدّ من رتبة الوحوش. على انهُ يستطيع المكث تحت الماء ساعة او ساعتين لكنهُ لا يفعل ذلك الاّ عند الضرورة. فانهُ يصعد كل عشر دقائق او ربع ساعة للتنفّس وامتصاص الاكسجين

اما استطاعتهُ على البقاء تحت الماء هذه البرهة فلأن لهُ حوضاً من الدم ممتزج بالاكسجين مهيأً للاستعمال عند الحاجة . وينتشر في صدرهِ واضلاعهِ وسلسلتهِ الفقارية النائئة من الجمجمة . فاذا غاص البال في الماء وتعذّر عليهِ امتصاص الاكسجين من الهواء استعان بهذه المؤونة الدموية . فيدور الدم في اعضائهِ زماناً ولا يعروهُ العياء . ولكنهُ يقصر اخيراً على العوم لتجديدها. فيصعد

الدم نصيباً من الاكسجين يذهب قسمٌ منهُ الى الجسم وآخر الى الحوض المذكور. فيُذخَر للاستعمال حين الحاجة

اما قصبة رئة الحوت فليست بمفتوحة نحو الفم كرئة الانسان بل نحو قمة الرأس. ولها في طرفها مصراع يُوصَد ويدفع الماء ويحتمل الضغط. فمتى تنفس الحوت قبل بلوغ سطح الماء انبجس الماء كانبوبة. واذا طُعِن بحربة اسرع وغاص الى قعر البحر جازعاً جزعاً شديداً. وربما ضرب الارض بدماغهِ فكسرهُ

ولا يخفى ان الحوت يعيش بين جمد المنطقة الباردة فكيف يستطيع



٤



٥

المحافظة على حرارة جسمهِ. ذلك لان جلدهُ شحميٌّ صفيق يقيهِ من قرس البرد. وليس البال بالحقيقة سوى صفيحة دهن كثيفة يسميها الصيادون شحم الحوت. وهو كثير الالياف كجلد الانسان وملآن (زيتاً). ومثار (الزيت) كثّر البال الحامل البشر على صيدهِ. وينفع البال من وجهين. اولاً ليحفظ حرارة جسمهِ. ثانياً يقدرهُ على السباحة لانهُ اخفّ من الماء

ومع ان البال كبير الجسم لا يقتات بالحيوانات الكبيرة لضيق بلعومهِ. فيتغذى بالسمك الهلاميّ والحيوينات فيفتح فاهُ الكبير ويبلعها. ولكن هل يبلع

الماء معها . كلاّ . فانهُ لو فعل ذلك لامتلأَت معدتهُ ماء بدلاً من الطعام ولأعوزهُ القوت. فلاتقاء ذلك امدَّتهُ العناية بصفائح في فكهِ الاعلى ذات مادة قرنيَّة متناسقة تتدلى منها اهداب شعريَّة اكبرها الصفيحة الوسطى. ثم تستدقّ على الجانبين الى ان تتلاشى في الطرف . اما فكهُ الادنى فليس فيهِ صفائح بل يحاكي في شكلهِ الملعقة الكبيرة . فاذا اطبق فاهُ التحمت عليها الصفائح فيرجع الماء . غير ان الاهداب تضبط الحيوينات الصالحة لغذائهِ فتكون هذه الصفائح كمصافٍ تدفع الضارَّ وتأْخذ النافع . وهي عظام البال الحقيقيَّة او عاجهُ وهي ثمينة ونافعة كثيرًا

وللبال على كبرهِ وضخامة جسمهِ اعداء كثيرون في البرّ والبحر . منها كلب البحر الذي يضربهُ الحوت احيانًا بذنبهِ الطويل فتسمع لذلك هزيمًا كصوت مدفع . ومنها سمك السيف الذي يطعنهُ بحسامهِ بدون رأْفة . فقد رأى ربّان كلاب بحرٍ وسمك السيف تقاتل البال معًا واللجة مصبوغة بدمهِ الى أمد فسيح . وعلى ذلك كانت ضخامة جسمهِ لا تقيهِ من الاخطار . فليس لهُ من وسيلة يتقي بها الاسواء سوى الغوص الى قعر اليمّ حيث لا تستطيع اعداؤهُ مطاردتهُ

غير ان ارهب اعدائهِ الانسان . فاذا جرح الصيَّادون هذا الحوت الهائل غاص الى عمق ميل والحربة في بدنهِ منوطة بالحبل بسرعةٍ يقطع بها عشرة اميال في الساعة . ويبقى تحت الماء نحو نصف ساعة . ثم يرمي بالماء وقد أعيا من كثرة الحركة وما انترف من دمهِ فيسرع . الصيَّادون ويرمونهُ بالحراب فيغوص ثانيةً بضع دقائق ويعوم . فيطعنونهُ طعنات كثيرة ويثخنونهُ بالجراح . فيصبغ اللجة بدمهِ ويسيل (الزيت) من جراحهِ ويهيج كل المياه . وقد ينسف القوارب بذنبهِ . وكثيرًا ما كسرها في مثل هذه الحال . ثم يموت عائمًا على جنبهِ او ظهرهِ . فيأْتون بجثتهِ الى قرب السفينة ويدوس عليها الرجال بنعال محدَّدة (ذات شوكات حديد حذرًا من التزلج) خوف الزلق ثم يأْخذون بتقطيع شحمهِ شرائح طويلة يأْتون بها الى السفينة . ويقطعونها بِضَعًا صغيرة ويضعونها في

براميل . ثم ينزعون العاج من فيهِ ويتركون جثتهُ في الماء فتصبح وليمة للجوارح وكلاب البحر . ويوجد نوع آخر غير الانف الذكر يزيد طولهُ على مئة قدم يعيش في بحر كرينلاندا قلَّما يتعرَّض لهُ الصيَّادون لسرعة جريهِ وشراسة اخلاقهِ وليس لهُ شحمٌ او عاجٌ كذاك واسمهُ الروركل

قيل ان من هذه الحيتان ما يبلغ وزنهُ الف قنطار وشحمهُ نحو تسعين قنطارًا وطول فيهِ ١٦ قدمًا ويعمَّر الف سنة . فاذا حسبنا معدَّل وزن الرجل البالغ ٢٣ رطلاً كان ثقل البال الواحد ثقل ثلاثة آلاف رجل او يزيد . واذا كان طول احد متدبات بيروت العلية اربعين قدمًا كان البال الواحد اطول منها بنحو مرَّتين ونصف

ولمَّا كان البال يحب صغارهُ كثيرًا يبذل الصيَّادون قصارى الجهد في صيد احدها فتسرع الامُّ لانقاذهِ والدفع عنهُ فتحوم معهُ وتحملهُ على زعنفتها وهم يطعنونها بالرماح والحراب وهي لا تبالي ما دام فيها رمق . وقد وجد جماعةٌ من الصيادين بالاً ميتًا في البحر سنة ١٨٢٧ طولهُ ٩٧ قدمًا وعلوهُ ١٨ قدمًا ووزنهُ نحو الف قنطار استخرجوا من دهنهِ اربعين قنطارًا (زيتًا). ونظر بعض العلماء في امرهِ فحكموا ان عمرهُ نحو الف سنة . ولا عجب اذا غامر الصيادون بصيد الحيتان فان ربحهم من ذلك لا ينقص عن نحو مئة الف ليرة انكليزية

ومن انواع البال القرش وهو حوت هائل تخشاهُ كل حيوانات الماء يكثر في البحرين المتجمدين ويقتات بعجول البحر والاسماك الكبيرة . حُكي ان الصيَّادين صادوا واحدًا منهُ قرب انكلترا بعد عناء جزيل بلغ طولهُ ٦٢ قدمًا وكان سمينًا جدًّا استخرجوا منهُ ٣٦ قنطارًا زيتًا

خاتمة

وقد تركتُ كثيرًا من حيوينات البحر واسماكهِ وحيتانهِ وجوارحهِ وهوامهِ وزحافاتهِ ودبّاباتهِ ونباتاتهِ فانها مما لا تدخل تحت عدٍ او حساب . ويقتضي للشرح عنها مجلّدات برمتها . ولم اذكر الاَّ قليلاً من كثيرٍ على سبيل المثال . كيف لا والموضوع كاسمهِ بحرٌ زاخر وسيع . وفرت فيهِ الابحاث والمطالب والمواضيع . ومما اهملتُ ذكرهُ السلحفاة واكثر الاسماك والحيّات والحشرات واعشاب البحر العجيبة . من ذلك نباتات تصلح للصبغ القرمزي وغيرها للطعام او للعلاج او للصناعة . مثل الصودا المستعملة في صنع الزجاج وتنظيف الامتعة التي يجمعون منها في بريطانيا وحدها ٢٠ الف وسق انكليزي قيمة كل وسق من عشر ليرات انكليزية الى عشرين. ومن ذلك اليودين النافع في تضخم الغُدَد الدَرَقيَّة وعلل أُخرى وينفع مصوّري الشمس ايضاً في صناعتهم. فضلاً عن ان البحر سكَّة عظيمة للامم والمتاجر وعمَّا يعطيهِ من الهواءِ الصافي الرقيق الحامل الصحة للسقيم والقوة للضعيف . ومن الامطار والثلوج علّة الينابيع والانهر والجداول. وما هذه الاَّ حياة الانسان والحيوان واليابسة واصل الحدائق والخمائل والرياض والغياض والحقول وخزانة القوت ومشهد السرور والجمال فسبحان المبدع الحكيم



خلاصة رحلة ستانلي الافريقيَّة الحديثة

للتفتيش عن امين باشا

١

بلغ ستانلي زنجبار في شباط عام ١٨٨٧ حيث عقد محالفة مع تيبوتيب امير العرب بالنيابة عن ملك البلجيك. مؤدَّاها ان يرفع الامير المومأ اليهِ راية ولاية الكونغو الموضوعة تحت حماية الملك المشار اليهِ فوق شلاَّلات ستانلي. ويمنع قبائل البدو الضاربة في تلك الانحاء من التعدي على ستانلي وجماعتهِ. وان يقدّم لهُ الرجال والامدادات اللازمة لهذه الخدمة على مبلغ معلوم اتفقا عليهِ

ثم اقلع هذا الرحَّالة الشهير واعوانهُ حول رأس الرجاء الصالح ووصلوا الى موقع بانانا في ١٨ آذار من ذلك العام. فركبت هذه التجريدة باسرها في بواخر قدَّمتها شركة ولاية الكونغو (غربي افريقية) ومخرت بها في النهر المذكور ثم اضطرّت ان تسير على الضفاف عند شلاَّلات ماداتي الى ليوبولدفيل (يُقصَد الشروع بانشاء سكَّة حديديَّة بين هذين المكانين اللذين تخللها بقعة فسيحة حسنة التربة والهواء)

ثم رحل ستانلي من ليوبولدفيل في نيسان وركب مع جماعتهِ اربع بواخر وثلاثة زوارق مصفَّحة وبلغ نهر اروبمي في حزيران حيث شاد محلة حصينة واحاطها بوشيع[1] وغادر قسمًا من الذخائر والكراع ونحو ٢٥٠ نفرًا من رجالهِ تحت رئاسة الماجور بارتلوت ضابط التجريدة الاول يسعفهُ اربعة قواد انكليز آخرون. ثم واصل السير الى كاڤالي بصحبة طبيب ونظَّار اوربيون ونحو ٤٠٠

رجل حمّال زنجباريين وسوماليين وسودان . وكانت انباء الرحلة تصل الى
ضفة اروبي بضعة ايام بعد سفر ستانلي ثم انقطعت كل الانقطاع . فتقضت
الاشهر الطوال واخبار التجريدة في طيّ الخفاء والكتمان تُذاع بدلها الاكاذيب
والاراجيف عن هلاك ستانلي وامين باشا وجماعتهما عن آخرهم

ثم تتبع هذا الرحّالة في ٢٨ حزيران سنة ١٨٨٧ ضفّة اروبي تاركًا موخّرة
جيشهِ متحصنة في يامبويا واخذ منذ هذا الحين يغامر ويقتحم اخطارًا واهوالاً
ترتعد لها الفرائص، لانهُ حالما كان يدنو بسريتهِ(٢) الى قرى تلك الاقطار
الهمجيّة وتسمع القبائل دردبة طبل الخفير كانوا يحرقون خصاصهم واخاشهم
ويوغلون في مكامن الادغال يرقبون قدوم هولاء الغرباء . فكان الدنوّ من
هذه الضياع في وادي هذا النهر مثالاً رائعًا يُعجب منهُ عن دهاء هذا الجيل في
الحروب الوحشية . فانهم كانوا يحفرون على مدى المسالك حُفرًا تضارع
الشباك يملأونها بشظايا حادّة الرؤوس تشبه السفافيد ويغطّونها باوراق
الاشجار والاغصان بحيث لا يهتدي لرؤيتها سواهم . وكان سكان هذا الغاب
العجيب يتظّفون منذ مئات من السنين طرُق هذه القرى فتلوح سكّة قويّة
حسنة تخدع سالكها . اما الطريق الحقيقية المدانية الضياع فكانت ضيّقة متعرّجة
تتيه واطئها . وكان اهلوها القزم(٣) يقفون للسيّاح بالمرصاد ويوجّهون نحوهم
السهام السامّة يرمونهم بها حين كانوا يطأون تلك الحُفر المغطّاة وتطعن الحراب
اقدامهم فتثخنهم بالجراح وتوقعهم في الارتباك والتشويش . فليتصوّر القارئ تأثير
هذه المكيدة في كتيبة كهذه مؤلّفة من رجال زنجباريين حفاة الاقدام حاملين
الاحمال الثقيلة . وليتأمل في ما كابدهُ قائدها ستانلي من العناء في جمع شراذم
رجالهِ المشتتين واعادة نظامهم مرارًا لا تُحصى لاستئناف الكفاح مع اعدائهِ
المستترين عن الابصار على جانبي ذلك الدغل المشتبك الاشجار

ثم ظلّت هذه التجريدة تسير على ضفّة الاروبي من ٥ تموز الى اواسط
تشرين الاول . وكان لهذا النهر منظر بديع يختلف عرضهُ من ٥٠٠ يرد الى ٩٠٠

تتخللهُ جزيرات مكسوَّة بدوح وغياض غيباء ناضرة . مرتكم بعضها باصداف كبيرة جدًّا لا يقلّ طول بعض ركامها عن ٢٠ قدمًا وعرضها عند قاعدتها ١٢ قدمًا وعلوُّها اربع اقدام

وما فتئت هذه السرية تواصل السير رغمًا عمَّا الم بها من جراح السنافيد[٤] وطعن الحراب بدون خسارة تُذكر الى اليوم الاول من شهر آب اذ حدثت بهِ الوفاة الاولى . ثم اخذوا يشعرون خلال التسعة الايام التالية بالحاجة الى الزاد وأُصيب كثيرون بالسعار[٥] فهلك عدد وفير من انفار التجريدة . ومن هذا الحين اخذ الخطب يتفاقم . وفي ١٢ آب قُتِل خمسة انفار بالسهام المسمومة وجُرح اللازم ستيرس . ثم ضلّت بعد يومين فرقة كاملة تحت رئاسة المستر جيفسن . فعرا سائر رجال الرحلة مزيد القلق والاضطراب . ولكنها عادت فالتقت برفاقها بعد تيه ستة ايام . وفي ٢٥ آب حلّ ستانلي بجماعتهِ حذاء نهر نيبوكي المضارع اروبمي عرضًا حيث يندفق جدلًا (شلالًا) شاهقًا بديعًا ويصبُّ في النهر المذكور . وبعد ستة ايام صادف قافلة عبيد تحت رئاسة اوغاروا . فعرفهُ ستانلي انهُ كان غلامًا خادمًا عند القبطان سبيك رفيق القبطان برتن مكتشف بحيرة تانكانيكا مع المستر غرانت (هولاء الثلاثة كانوا قد بلغوا ضفاف فيكتوريا نيانزا وشاهدوا النيل الابيض خارجًا من طرفها الشمالي الاقصى)

اما ستانلي فتشاءم كل التشاؤم من هذا اللقاء مع تاجر الرقيق المذكور وظن ان ذلك سيكون بدء النوازل . لانهُ لم يختر طريق الكونغو البعيدة ويؤْثرها على طريق ماسيلاند في بلاد انياموبزي او الاسكوبا الاَّ فرارًا من شرّ هولاء اللصوص وهربًا من غاراتهم ومغازيهم بل من مخازيهم وموبقاتهم[٦] . ولم يكن خوفهُ في غير محلهِ اذ فرَّ من رجالهِ باغواء هذا التاجر ٢٦ نفرًا ولحقوا بالزعيم المذكور . ثم توالت عليهِ الخطوب وتراكمت وكانت النازلة تعقّب الاخرى مما يضيق ابسل الابطال ذرعًا[٧] عن احتمالها . من ذلك وفي[٨] رجالهِ وكلالهم من خرق طريق لهم في ذلك الايك[٩] المشتبك بعد ان فتكت بهم اسنة

الفُزم وحرابهم والمعاغب[١٠] العديدة. فاضطرَّ ستانلي ضدًّا لارادته الى ان يودع ٥٦ نفرًا سوماليين وسودان تحت عناية اوغاروا ويضرب مع الشرذمة الباقية من رجاله في ذلك الدوح الواسع الاثيث المظلم الذي لم يخرقهُ نور الشمس قط والكامنة في جوانبه واقاصيه ابالسة الحميّات الفتّاكة وجان جيل الحنادل[١١] الذين كانوا لا ينفأون يرشقونهم بالحراب ويسدّون عليهم الطريق بكل وسيلة همجية . وكلما ضلَّ احدهم عن الطريق اختلوهُ غيلةً واكلوهُ

ومن العجب العجاب ان ستانلي واتباعهُ داموا يخرقون طريقهم بالفؤوس والمعاول مشاةً مئة وستين يومًا من اواخر حزيران الى اواسط تشرين الثاني وسط غاب واحد يتشكل به الموت الزؤام[١٢] اشكالاً تروع السامع فكيف بن سلكهُ وعارك بنفسهِ اهوالهُ . فقد كتب هذا الرحّالة الى صديقهِ المستر بروس بما يأتي

"تصوّر غابًا اثيثًا[١٣] يقطر ماء متلبدًا بالانجم والرتم[١٤] والعوسج تحت ظل اشجار انواعها تفوق الاحصاء لا يخرقها نور الشمس علوّها من مئة قدم الى مئة وثمانين . وقد تكاثفت في ارضها الاشواك كالعلّيق والقتاد . والهُوى والوهاد متعرّجة في ارجائها تجري فيها احيانًا انهرٌ كبيرة . وارسم على لوح فكرك هذه الأجمة الوسيعة الشجراء[١٥] المتعاقبة عليها كل اطوار الحياة النباتية بين درجتي الاضمحلال والنمو وبين الفسيل[١٦] والدوحة[١٧] فترى هنا شجرة قديمة معلّقة فوق رأسك كأنها بشعرة تتداعى للسقوط وتكاد تهبط عليك فتحطّك . وهنالك اخرى ساقطة في خطّ عرضيّ تسدّ عليك السبيل . والنمل والهوامّ والحشرات من كل الاجناس والانواع والاقدار تطن[١٨] وتخ وتكش وتحفّ وتصرّ حولك . والقرود والشمبانزي فوق رأسك تضحك وتتواثب والطيور تغرّ[١٩] وتصرصر وتصفر وتهدر وتقعقع وتسجع باصواتها الغريبة . والحيوانات تزأر[٢٠] وتعوي وتهرّ وتموء وتضغب وتجلجل . وترى حراجل الافيال تهرول وتعدو على الجانبين . وجيل الحنازقرات[٢١] الاقوياء الابدان الحمر الالوان كامنين وراء سوق الاشجار الضخمة في الزوايا

المظلمة كاصنام جامدة او كجذوع يابسة بايديهم الحراب المسمومة موجَّهة نحوك ليرموك بها على غرّة[٣] . والامطار تندفق شآبيب[٣] ويباليل رذاذًا وودقًا ووابلاً اكثر ايام السنة . والهواء حامل جراثيم الحميات الوبيلة والقتام منتشر نهارًا والظلام مدلهمّ ليلاً . ثم تصوّر غابة كهذه ممتدّة من يلمبوث الى يترهيد (اي من اوّل انكلترا الى آخرها) فاذا استطعت ان ترسم في فكرك صورة كهذه امكنك معرفة بعض ما كابدناه في هذه الرحلة الهائلة"

اما الشهر الاخير الذي صرفته هذه التجريدة في خرق طريقها بين تلك المجاهل الشاسعة فكان زمانًا يكلّ اللسان واليراع عن وصف شؤمهِ ودواهيهِ . لان البدو كانوا اخلوا هذه الممالك والاقاليم من الاقوات والبشر فلم يجد ستانلي وقومهُ للزاد اثرًا . فخارت قواهم ووهنت عزائمهم وفتك بهم السعار فتكًا دونهُ مصارع البنادق النارية في معامع الحروب . ففقد من رجال الرحلة بين محلّة اوغاروا وبين مهجر كيلينكا لونكا (اسم وكيل تاجر عبيد زنجباري) خمسة وخمسون نفرًا جوعًا او فرارًا . وكان طعام القافلة الاول الفُطْر وثمرًا آخر بريًّا يشبه الخرنوب وهذا الزاد اضطرّوا الى التفتيش عنهُ وجمع قدر عظيم منهُ لاشباع قرم[٣٤] هولاء القوم الجياع . ثم لمّا بلغوا كيلينكا لونكا تعذّر على ستانلي نفسهِ منع اتباعهِ من بيع لباسهم وذخائرهم حتى سلاحهم ايضًا الذي هو واسطة دفاعهم ووقايتهم الوحيدة في تلك الادغال الملأى بالاخطار لشراء اخسّ الطعام واحقرهِ . مع ان قائدهم المومأ اليهِ بذل قصارى جهدهِ ونفوذهِ وسطوتهِ في حملهم على العدول عن ذلك . ولما رحلت التجريدة عن هذا المهجر كان رجالها الافريقيون في حال يكاد يرقّ لها الجماد وتتمزّق لاجلها القلوب صفر الوجوه عراة الابدان حفاة الاقدام ضئيلون[٣٥] كأنهم شخاذو بني ساسان او اشباح خارجة من قبور

فترك ستانلي في هذا المهجر القبطان نلسن احد قوّادهِ تحت عناية جرّاح التجريدة الماهر الدكتور بارك . لان فرط السقم والعياء كانا قد اضنيا المومأ

اليه وارغماه على التربُّص هناك للراحة . ووضع تحت عناية هذين الرجلين سبعين حملاً من المُؤونة والبضائع لعجز حامليهـا عن حملها بعدُ . واودع هناك ايضاً سفينة كبيرة كانوا فككوها وحمل الحمَّالون اجزاءها على ظهورهم وكانت هذه السفينة مُعدَّة للسير على بحيرة البرت نيانزا. وكذلك غادروا في هذا المحلّ تحت قيادة الموما اليها ثمانية وثلاثين نفرًا زنجباريًّا ممن كان قد انهكهم الوني والسغَب . ففتك بهولاء بعد رحيل التجريدة المرض والجوع وشظَف العيش حتى لم يبقَ منهم سوى احد عشر نفرًا انضمُّوا بعدئذٍ الى رجال القافلة . اما الذين لبثوا في محلّة اوغاروا وعددهم ستة وخمسون فهلكوا ايضاً ولم يسلم منهم الاَّ ستة عشر نفرًا

ثم بلغ ستانلي وسريته بعد اثني عشر يوماً اقليم ابيوري وهو طرف الدغل الشرقي الاقصى . فما وقعت ابصار السَّفر على فلوات السهول الفسيحة الخضراء حتى كادوا يطيرون فرحًا وحبورًا وهتفوا باصوات الابتهاج والجزَل . قال ستانلي ان هذا الغاب تبلغ مساحته خمسة اضعاف مساحة انكلترا برمَّتها وتعدل ٢٥٠٠٠٠ ميل مربع . فتصوَّر سرور الرجال في رؤيتهم الحقول الناضرة بعد ان اضنام الايغال في هذه الاجمة الماثلة وابادَ اكثرهم بالحمّيات والدوسنطاريا وسهام القزَم . وبعد ان غشيتهم الغموم وكآبة القلب من ظلام هذه الغيضة وتلبُّد غيومها . اما الآن فانقضت بوصولهم الى هذه السهول النوائب والنوازل اقلّه الى حين

وكتب المستر ستانلي الى السير وليم ماكنن ما يأتي

"كنا ورجالنا عجافًا كهياكل عظام . وانحطَّ عددنا من ٣٨٩ الى ١٧٤ وقد يئس اكثرنا من الحياة . لان الارزاء الفادحة والدواهي الهائلة كانت قد توالت علينا وتعاقبت حتى ظننَّا ان لا نهاية لهذا الدوح الشاسع . ولم يصدّق رجالنا الافريقيون انَّا سوف نرى سهولاً ومواشي ونصل الى بحيرة نيانزا ونرى الرجل الابيض (امين باشا) بل كانوا لا يعبأُون بالحجج والبيّنات ولا يكترثون

بكلامنا اللطيف. فان الجوع والآلام المبرّحة كانت قد ذهبت بصبرهم وبدّدت آمالهم ادراج الرياح. ففسدت اخلاقهم وانحطّت آدابهم فباعوا اسلحتهم وثيابهم بقبضة سنابل حنطة او ببضعة حبوب ذرة وفرّوا بصناديق الامتعة الخ. فلبثنا في ايبويري ثلاثة عشر يوماً نشبع اجوافنا بالتهام الدجاج والماعز والموز وخبز الحنطة والبطاطا الخ . . . وكنا لا نزال بعيدين عن البحيرة ١٢٦ ميلاً. ولكن لما كانت قد تجددت قوانا بما تناولناهُ من الزاد لم نعبأ بهذه المسافة الباقية ... وبعد ان سدل علينا الظلام بجوف الكآبة ١٦٠ يوماً شاهدنا في الختام انوار الغزالة تتألق على تلك الحقول النضرة والطبيعة متوشحة بطارف الجمال حتى كدنا لا نصدّق ما نراهُ بعيوننا. ولم يدُرْ في خلدنا اننا سنظفر برؤية اقاليم خضراء كهذه. فتواثب الرجال سروراً ودوت تلك الاقطار باصوات الهتاف والتهليل . ووقفت(٢٦) الاوفاض(٢٧) تعدو باحمالها على تلك البقاع كأنها استأنفت ما كان لها من النشاط والجزل في يوم رحلتها الاول"

ثم دخلت التجريدة في اليوم التاسع من كانون الاول بلاد زعيم يُدعى مازامبوني. وكان هذا القطر آهلاً بالسكان والضياع تكاد تتصل بعضها ببعض حتى كأن السكة كلها شارع واحد مديد . فلما رأى مازامبوني هذا الجيش الغريب الطارق بلادهُ ساءهُ الامر وعوّل على طردهِ. فدردبوا طبول الحرب ونفخوا بالابواق واندفع القوم يعدون من سائر الجهات. وانتشروا على تلك الروابي والآكام يزعقون زعقات دوت لها الاودية واجابها رجع الصدى على غوارب الهضاب. واخذت كتائب الهمج وكراديسها العراة تنحدر على تلك السرية الى السفوح انحدار السيل . فنظم ستانلي عسكرهُ وجعل لهُ جناحين على الميمنة والميسرة وتقدّم بالقلب الى الامام. فدحر جيوش الهمج وردّها ناكصة على الاعقاب تستعيذ بآلهتها من شياطين البنادق النارية بعد ان استبشرت صباحها بالحصول على غنيمة باردة . غير ان الكفاح لم يكن قد انقضى بل استأنف الهمج الكرّة في اليوم التابع وهاجموا التجريدة اربع مرّات . وفي اليوم

الثالث كان القتال مستمرًا . فلم يكفّ هولاء البرابرة عن الاندفاق من قوامم فوق الروابي على ساقة عسكر ستانلي اندفاق السيول . قال المومأ اليهِ "ولم نستطع ان نحملهم على السكينة والتأني كي نعقد معهم صلحًا بل اضطررنا الى منازلتهم ببنادق رامنتن ورميهم بالنار ضاربين في السير الى الامام حتى بلغنا بلاد نيانزا حيث ظفرنا بالراحة والفرج"

ثم بعد ان نزل الركب في ١٢ كانون الاول سنة ١٨٨٧ الساعة واحدة بعد الظهر زمنًا قصيرًا للراحة ومناولة الطعام اوغل في سيره الى الامام شرقًا . قال ستانلي ما ترجمة ملخصهِ

فهتفت بعد ربع ساعة قائلاً هيّئوا انفسكم لمشاهدة نيانزا. فتأفف الرجال وارتابوا وقالوا بعضهم لبعض تُرَى لماذا يتكلم معنا القائد هكذا . أحذه هي نيانزا أمَا نرى سهلاً فسيحًا والجبال تبعد عنهُ مسافة اربعة ايام على الاقل . ولكن لم تأتِ الساعة واحدة ونصف بعد الظهر حتى ظهرت نيانزا تترقرق مياهها الصافية امامنا . فسألت الجماعة ماذا ترون هناك ؟ واذا بكثيرين اقبلوا يقبّلون يديَّ معترفين بخطائهم ومعتذرين عنهُ . فما استطعت ان افوه بكلمة وحسبت ذلك جزاء يبعث على السرور والعزاء. وكانت كافالي تلقاءنا على مسافة ستة اميال. وهي حدّ التجريدة البرّي الاقصى ووراءها مياه البرت نيانزا الزاخرة الزرقاء

اما نهر الاروبمي الذي مشى ستانلي في واديهِ اميالاً عديدة واشتغل في قطعهِ اياماً لا تنتأ حوادثهُ الخطيرة تُذكَر كلما قُرِيَ تاريخ هذا الاكتشاف العظيم فمخرجهُ من نحو شمال غربي البحيرة . ويبعد عن صعيد يامبويا نحو مئة ميل ثم يُبدَل اسمهُ بصومالي . ولكن متى دنوت من ملتقى نيبوكو يتغيّر اسمهُ الى نهوا . ثم متى قطعت هذه الحياض يتحوّل اسمهُ الى نوويل . وعلى بعد ٣٠٠ ميل من اتصالهِ مع الكونغو يُدعَى ايتوري وهو نفس الاسم الذي يُسمَّى بهِ عند منبعهِ . وكان الاقليم الذي اجتازوهُ على ضفة النهر متحدّرًا قليلاً من صعيد نيانزا الى وادي الكونغو الاعلى . اما هذا الميل فيبلغ اربعة آلاف قدم. ولم تكن في الشمال

ارض اعظم ارتفاعًا من خمسة آلاف الى ستة آلاف قدم. اما في الجنوب فترى على مسافة خمسين ميلاً جبال رويتروري الشاهقة (منابع النيل) وكان يتكلم القوم بين يامبويا ونياتزا بخمس لغات متميزة . والقرى وفيرة العدد ولا قوات كثيرة الّا في المحال التي عاث فيهـا عرب البادية فجعلوها اطلالاً دارسة .
قال ستانلي "منذ وطئنا الحقول النضرة على امد ٥٠ ميلاً عن نياتزا لم نرَ محيّا يبسم ولا عواطف وافكار تشفّ عن اللطف والرقّة ولا مبادئ واخلاقًا ادبية بل همجًا برابرة في اقصى التوحّش دأبهم الغدر والخيانة . اما القزم من قبائل اليامبوني فاسوأ خلقًا وخُلقًا من هولاء"
ثم بلغ ستانلي البحيرة ولكنهُ لم يسمع شيئًا عن امين باشا وقومهِ . ولما اعيتهُ الوسائل في الوقوف على انبائهِ عزم ان يقفل راجعًا بين قبائل الباريغا العدوانية . ولما وصل الى ايبويري بنى صرحًا سمّاهُ "فورت بودو" .وبعث من هناك الى كيلينكا لونكا البعيدة ١٩٠ ميلاً بثة رجل تحت قيادة الملازم ستيرس ليأتي بالسفينة والذخائر والامتعة والقبطان نلسن والطبيب پارك. ثم آب عند رجوعهم المرّة الثانية الى البحيرة تاركًا في فورت بودو انفارًا من رجالهِ تحت قيادة ضبّاطهِ الاوربيين. حيث مكثوا شهورًا زرعوا في خلالها وحصدوا واستغلّوا وتزوّدوا . اما ستانلي فعاد برجالهِ في الثاني من نيسان عام ١٨٨٨ . وكانت هذه الرحلة الثالثة بين القبائل الهمجيّة والبلاد النضرة . فحاول استعطاف خواطر الاهالي واسترضاءهم بالملاطفات والهدايا وعقد مع زعمائهم صلحًا خُطَّ بالدم حسب العوائد الجارية . وكان الزعيم مازامبوني اوّل من ابرم معهُ هذه المحالفة
ثم ارسل ستانلي المستر جيفسن في السفينة الى موقف مصوًّا الواقع في اقصى تخوم مخصر امين باشا الجنوبية . بناء على رقيم ورد لهُ من الموما اليهِ في غيابهِ. اذ كان قد بلغهُ قدوم رجل ابيض الى طرف البحيرة الجنوبي . فحلّ هذا الرحّالة في نفس المحلّ الذي كان قد بلغهُ في كانون الاول الغابر

وفي التاسع والعشرين من نيسان سنة ١٨٨٨ الساعة الخامسة بعد الظهر تراءت له السفينة المسماة بالخديوي تسير على مياه البحيرة . ولم تنقضِ ساعتان من ذلك الحين حتى اتى الحلّة امين باشا نفسه والسنيور كاساتي والمستر جيفسن ولا تسَل عن عواطف الحبور والابهاج التي سادت حينئذٍ على هذين الرجلين الجليلين الفاضلين في هذا اللقاء الغريب بعد مغامرات واخطار ترتعد لهولها فرائص الابطال الصناديد. فتعزّى ستانلي بهذا الاجتماع عمّا المّ به من النوازل والنوائب كل العزاء وتبادل مع خليله الجديد صهباء الاحاديث والمسامرات وبثّ احدهما للآخر اسرار الحوادث والماجريات وما طرأ عليهما من السرّاء والضرّاء. وكانت حينئذٍ ابصار اوربا قاطبةً والعالَم العلمي باسره متجهة الى هذه الاصقاع لاستطلاع انباء هذين الرجلين الخطيرين

---

(١) ما جُعِل حول الحديقة من الشجر والشوك (٢) الجماعة من الناس من خمسة انفس الى ثلاث مئة او اربع مئة (٣) الصغار الجثة (٤) جمع سفُّود وهي حديدة يُشوى عليها (٥) شدّة الجوع (٦) مهالك (٧) قدرة او بسط اليد (٨) تعب (٩) الشجر الكثير الملتف (١٠) جماعات (١١) قصار القامة (١٢) الموت الكريه (١٣) كثير ملتفّ (١٤) نبات دقيق (١٥) كثيرة الشجر (١٦) الشجرة الصغيرة (١٧) الشجرة العظيمة (١٨) هذه الكلمة وما بعدها حكاية بعض اصوات الطيور (٢٠) هذه الكلمة وما بعدها حكاية بعض اصوات الوحوش (٢١) جمع حَزَنْقَر وهو القصير الدميم (٢٢) غفلة (٢٣) درجات هطل الامطار في القلة والكثرة (٢٤) شدّة الجوع (٢٥) نحيلون (٢٦) اسرعت (٢٧) فِرَق من الناس او الجماعات

خلاصة رحلة ستانلي الافريقيّة الحديثة للتفتيش عن امين باشا

٣

ثُمَّ بعد بضعةِ أيام من هذا اللقاءِ نقل ستانلي محلّته إلى مكانٍ أوفر ملاءمةً حيثُ مكث إلى ٢٥ أيار . أمّا أمينُ باشا فأبى الرجوعَ ومغادرةَ رجالِهِ والإقليمِ الخصيبِ الذي كان سائِدًا عليهِ . وصرف ستانلي الشهر كلّهُ في محاجتِهِ وإقناعِهِ على العودِ لكنْ على غيرِ طائلٍ حتى كاد ينفدُ[1] صبرُهُ ويأسُ وتذهبُ النفقاتُ والمشقاتُ التي كابدها لأجلِهِ أدراجَ الرياحِ . ولو رُمنا بسطَ المحاوراتِ والأحاديثِ التي دارتْ بينهما بهذا الصددِ لشغلَ ذلكَ صفحاتٍ كثيرةً . فأضربنا عن ذلكَ خشيةَ التطويلِ والخروجِ عنِ الموضوعِ

ولمّا رأى ستانلي تردّدَ أمينِ باشا وضياعَ الزمانِ عبثًا خطرَ على بالِهِ الماجورُ بارتلوتُ وسائرُ رجالِ التجريدةِ

ٱلَّذِينَ كَانَ قَدْ تَرَكَهُمْ فِي يَامبويَا وَلَمْ يَسْمَعْ عَنْهُمْ شَيْئاً مُنْذُ فَارَقَهُمْ فِي بَدْءِ ٱلرِّحْلَةِ. فَعَزَمَ عَلَى ٱلْإِيَابِ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُ يُلَاقِيهِمْ قَادِمِينَ فِي ٱلطَّرِيقِ نَفْسِهَا. وَمِنْ ثَمَّ وَدَّعَ أَمِينَ بَاشَا تَارِكاً مَعَهُ ٱلْمِسْتِرَ جِيفْسُنَ وَتَعَاهَدَا عَلَى أَنَّ ٱلْبَاشَا يَبْنِي قَوْمَهُ بِمَقَاصِدِ سْتَانْلِي وَمَرَاحِلِهِ. ثُمَّ يَزُورُ صَرْحَ (١) فُورْتْ بُودُو وَيَأْتِي بِقُوَّادِ ٱلرِّحْلَةِ وَرِجَالِهَا ٱلْبَاقِينَ هُنَاكَ بَعْدَ إِخْلَاءِ ٱلصَّرْحِ وَهَدْمِهِ. ثُمَّ سَارَ سْتَانْلِي بِرِجَالِهِ ٱلزِّنْجِبَارِيِّينَ وَلَمْ يَأْخُذْ مَعَهُ إِلَّا كَمِّيَّةً قَلِيلَةً مِنَ ٱلزَّادِ وَٱلْأَمْتِعَةِ وَٱلْكُرَاعِ (٢) بُغْيَةَ ٱلتَّخْفِيفِ عَنْهُمْ وَلِزِيَادَةِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلسَّيْرِ. فَبَلَغَ فُورْتْ بُودُو فِي ٨ حَزِيرَانَ سَنَةَ ١٨٨٨ وَرَآهُ فِي حَالٍ زَاهِرَةٍ. لِأَنَّ أَعْوَانَهُ كَانُوا قَدْ زَرَعُوا خِلَالَ هٰذِهِ ٱلْمُدَّةِ ٱلْحِنْطَةَ وَٱلْفُولَ وَٱلْمَوْزَ وَٱسْتَغَلُّوا ٱلْغِلَالَ وَبَنَوْا بُيُوتاً حَسَنَةً وَبَيَّضُوهَا بِٱلْكِلْسِ وَٱلْجِصِّ وَكَانَتْ صِحَّةُ ٱلْجَمِيعِ فِي خَيْرِ حَالٍ

فَأَعْطَى سْتَانْلِي ٱلْأَوَامِرَ ٱللَّازِمَةَ لِقُوَّادِهِ ٱلْمُلَازِمِ سْتِيرِس وَٱلْقُبْطَانِ نِلْسُنَ وَٱلدُّكْتُورِ بَارْكَ. وَأَخَذَ يَضْرِبُ مَعَ أَنْصَارِهِ ٱلْبَالِغِ عَدَدُهُمْ ٢١٢ فِي ذٰلِكَ ٱلدَّغَلِ ٱلْهَائِلِ إِلَى أَنْ وَصَلَ بَعْدَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ إِلَى كِيلِينْكَا لُونْكَا. وَبَعْدَ شَهْرٍ بَلَغَ

أوغاروا. فوجد تاجر الرقيق المذكور قد سلب العاج كله من سكان تلك البلاد ورحل بقومه إلى مكلأة(٤) جديدة. فاستتب لستانلي الحصول على قوارب ركبها وجذف بها في النهر إلى أن لحق بالتاجر أوغاروا بعد ثلاثة أسابيع في ١٠ آب واجتمع ببقية رجاله. ويطول بنا الوقت إن رمنا الإفصاح عما ألم بهاتين الشرذمتين الموذوعتين في المكانين المار ذكرهما. غير أن ذلك كله لم يكن شيئاً بالنسبة للنازلة الفادحة(٥) التي حلت بالمأجور بارتلوت ورجاله في يامبويا. فإن المومأ إليه بعد أن بنى لنفسه هناك حصناً مكث اثني عشر شهراً ينتظر إمداد تيبوتيب إياه بالحمالين ولم يفز بالمرغوب. فقد تصور المذكور عقيب إيغال(٦) ستانلي في تلك الغياض وانقطاع أخباره شهوراً أنه هلك مع رجاله وأمسى صك المعاهدة ملغى. وخال أيضاً أن للمشار إليه مآرب أخرى في تلك القارة فضلاً عن التفتيش عن أمين باشا غايتها الطموح إلى الملك والسيادة. فأخذ يؤجل إيفاء الوعد ويماطل متعللاً بأنه لم يتسن له وجود حمالين إلى أن عيل صبر بارتلوت وعراه اليأس

وَالْقنوطُ. فرحل مع المستر جيمسن للاجتماع بتيبو تيب وقيام الحجة عليه شخصيًا. فانجلت النتيجة عن إذعان هذا الأمير لمطالب بارتلوت حسب الظاهر وإمداده بالرجال مضمرًا الايقاع به وأخذه غيلة. فأمر أعوانه سرًا بقتل الماجور متى أساء معاملتهم

وكان بارتلوت قد فقد أثناء ذلك قائدين من قواد الحملة وهما المستر روزنروب والمستر وارد. فإن الأول أصيب بالحمى ورحل إلى إنكلترا والثاني سافر إلى السواحل لمكاتبة لجنة الإعانة في بريطانيا. فانتهز أولئك الرعاع البغاة الفرصة وفتكوا بالماجور بارتلوت في ١٩ تموز عام ١٨٨٨ فأسرع القائدان الباقيان وهما المستر جيمسن والمستر بوني بعد مقتل بارتلوت إلى بنغالا لاستخدام حمالين آخرين. غير أن الأول أصيب بالحمى وقضى بعد زمن وجيز. فبقي المستر بوني الضابط الأصغر وحده قائدًا لسائر رجال التجريدة الباقين. وهو وحده لاقى ستانلي في بونالايا على مسافة بضع مراحل عن يامبويا. فلا تسل عما عرا هذا الرحالة من الغموم والأحزان عند رؤيته ما حل

بِفُؤادِهِ وَرِجالِهِ مِنَ ٱلنَّوازِلِ وَٱلْخُطوبِ. بَعْدَ أَنْ سارَ ثَلاثَةَ شُهورٍ يَنْشُدُهُمْ مُعانِيًا في مَراحِلِهِ أَشَقَّ ٱلْمَخاطِرِ وَٱلْأَتْعابِ ٱلَّتي يَكِلُّ ٱللِّسانُ عَنْ وَصْفِ بَعْضِها. فَإِنَّهُ لَمْ يُصادِفْ مِنْ قُوّادِهِ ٱلْخَمْسَةِ ٱلْأُلى عَهِدَ إِلَيْهِمْ رِئاسَةَ مُؤَخَّرَةِ ٱلْجَيْشِ سِوى رَجُلٍ واحِدٍ. وَمِنْ سَرِيَّتِهِ ٱلْبالِغَةِ ٢٧٥ نَفَرًا غَيْرَ ٧١ وَمِنَ ٱلذَّخائِرِ وَٱلْأَمْتِعَةِ وَٱلْمُؤَنِ وَٱلْمَلابِسِ وَٱلْأَدْوِيَةِ ٱلَّتي تَرَكَها إِلّا قَدْرًا زَهِيدًا لا يُعْتَدُّ بِهِ. غَيْرَ أَنَّ ذٰلِكَ كُلَّهُ ما كانَ لِيَخْمِدَ عَزْمَ هٰذا ٱلصِّنْديدِ ٱلْباسِلِ أَوْ يُضْعِفُ هِمَّتَهُ. فَكَتَبَ فِي ٱلْحالِ إِلى تِيبُوتِيبَ وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُدْرِكَهُ بِٱلرِّجالِ وَٱلْمَدَدِ فِي ٢٧ آبَ إِذا أَمْكَنَ. وَأَوْغَلَ في ذٰلِكَ ٱلدَّوْحِ[١] ٱلْمَرَّةَ ٱلثّالِثَةَ. فَٱحْتَجَبَ بَيْنَ أَيْكِهِ[٢] ٱلْمُشْتَبِكِ عَنْ أَبْصارِ ٱلْمَلَا. وَما عَتَمَ حَتّى أَمْسى هَدَفًا لِحِرابِ ٱلْقَبائِلِ ٱلْهَمَجِيَّةِ وَفَتْكِ طَوائِفِ ٱلْقَزَمِ وَأَنْيابِ ٱلْوُحوشِ وَحُماتِ ٱلْحَشَراتِ

غَيْرَ أَنَّ ٱلْعِنايَةَ أَسْعَفَتْهُ بِٱلنَّجاةِ فَبَلَغَ مَحَلًّا يَبْعُدُ قَليلًا عَنْ مَحَلَّةٍ أُوغارُوا ٱلسّابِقَةِ. ثُمَّ حاوَلَ ٱلسَّيْرَ عَلى ضِفَّةِ ٱلْأَرُوِيمي ٱلْيُمْنى ٱلْمُسَمّى هُنا نُوِيلَ أَوْ إِيتُورِي. فَتَتَبَّعَ مَجْراهُ شَمالًا لِلتَّفْتيشِ عَنْ مَكانٍ يَتَيَسَّرُ بِهِ قَطْعُهُ. فَعَثَرَ عَلى فَرْعٍ يَتَشَعَّبُ

إليهِ النهرُ حيثُ جازَ برجالهِ إلى الضفةِ الأخرى . وقبضَ على بضعةِ قزمٍ أنبأوهُ أنَّ اسمَ هذا الجدولِ دُوِي . أمَّا هذا الإقليمُ فلمْ تطأهُ بعدُ أرجلُ السيَّاحِ وتجارُ الأرقّاءِ وهو مزدحمٌ بقبائلِ اليامبوني الحنادلِ (*) . وهو أيكٌ قصيٌّ لا يُدركُ لهُ المسافرُ حدًّا

فحلَّتْ بستانلي وتجريدتهِ بينَ فرعَي هذا النهرِ نازلةٌ كادَتْ تدمّرهم تدميرًا . وهي جوعٌ شديدٌ أصابهم بسببِ نفادِ الزادِ حتى أشرفوا على الموتِ . قالَ ستانلي لم أُصَبْ في سائرِ أيامِ أسفاري الأفريقيةِ بمثلِ هذا السغبِ . فأرسلتُ ١٥٠ رجلًا يفتشونَ عمَّا يؤكلُ في تلكَ الأرجاءِ وعيَّنتُ خلالَ تسعةِ أيامٍ للمئةِ والثلاثينَ نفرًا الباقينَ معي مرقًا مركّبًا من مزودِ زبدةٍ ومزودِ لبنٍ خاثرٍ وكأسِ دقيقٍ وماءٍ وعللتُ بهذا القدرِ القليلِ هؤلاءِ القومَ الجياعَ الوافري العددِ . إلى أنِ انكفأ رفاقهم يحملونَ الزادَ . ولكن بعدَ أنْ فتكَ السعارُ بواحدٍ وعشرينَ نفرًا فقضوا فريسةَ الجوعِ في هذهِ المسغبةِ (*)

ثمَّ قطعوا في ١٨ كانونِ الأولِ سنةَ ١٨٨٨ نهرَ تورو وبعدَ يومينِ بلغوا صرحَ بودو . فوجدَ ستانلي رجالهُ ماكثينَ

هنالك خلافاً لعهده مع أمين باشا ولم يسمع عن المومإ إليه نبأ ولا عن المستر جيفسن وسائر الرجال البيض في البرت نيانزا. وكان قد تقضى عليه منذ فارقهما سبعة شهور. على أن البحيرة لم تكن تبعد عن الحصن أكثر من خمس عشرة مرحلة. وهذا يدل على عسر الاتصال في قلب هذه القارة الملأى بالغرائب

ولما كانت أفكار ستانلي مضطربة على أمين باشا والمستر جيفسن رحل بعد ثلاثة أيام إلى البحيرة وجاز سهول إبيويري وبطاح البارينا المرة الخامسة. وكانت عشائر هذه السهول وزعماؤها الآن في وداد ومصافاة مع هذا الرحالة فأمدوه بالأقوات وأمدهم بالهدايا حتى كاد يبلغ البحيرة ولم يسمع نبأ عن أمين باشا. ثم لما أوشك البلوغ إليها أتاه رقيم كان قد خطه المستر جيفسن ورسالتان كان بعث بهما أمين باشا يخبرانه أنهما في أسر العساكر العصاة وأن المهديين يعثون في ذلك الإقليم وقد استولوا على لادو. فأمسى هذا الخطب الجديد ستانلي نازلة يامبويا. وأمسى غرضاً لعوامل القلق والحيرة. ولكن لما كان

ٱلْمَهْدِيُّونَ قَدِ ٱسْتَظْهَرُوا عَلَى ضُبَّاطِ أَمِينِ بَاشَا ٱلْعُصَاةِ رَأَى هٰؤُلَاءِ ٱلْقُوَّادُ أَنْفُسَهُمْ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَهَارَةِ ٱلْبَاشَا ٱلْعَسْكَرِيَّةِ فَأَطْلَقُوهُ مِنَ ٱلْأَسْرِ. غَيْرَ أَنَّ سُلْطَتَهُ كَانَ قَدْ تَقَلَّصَ ظِلُّهَا فَٱعْتَزَلَ مَعَ ٱلْمِسْتِرِ جِيفْسُنَ وَٱلسِّنْيُورِ كَاسَاتِي إِلَى وَادِلَايِ. ثُمَّ لَمْ تَعْتَمِ ٱلْأَحْوَالُ حَتَّى عَادَتْ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ. فَإِنَّ ٱلْمَهْدِيِّينَ ظَلُّوا يَتَقَدَّمُونَ جَنُوبًا ظَافِرِينَ. فَفَرَّ أَمِينُ بَاشَا وَرُفَقَاهُ إِلَى تُورِنْجُو ٱلْبَعِيدَةِ عَنْ مَحَلَّةِ سْتَانْلِي نَحْوَ مَرْحَلَتَيْنِ. وَهٰذَا جَرَى حِينَ كَانَ سْتَانْلِي فِي غَيْضَةِ أُرُوِيمِي وَلَمْ يَبْلُغْ أَمِينَ بَاشَا خَبَرُ قُدُومِهِ حَتَّى بَعْدَ هٰذِهِ ٱلْحَوَادِثِ بِشَهْرَيْنِ. فَبَعَثَ سْتَانْلِي فِي ٱلْحَالِ يَطْلُبُ مِنَ ٱلْمِسْتِرِ جِيفْسُنَ ٱلْمَجِيَّ إِلَيْهِ فَأَتَى بَعْدَ مُغَامَرَاتٍ يَطُولُ شَرْحُهَا. لِأَنَّ زَعِيمَ تُونْجُورُو قَاوَمَ سَفَرَهُ أَشَدَّ ٱلْمُقَاوَمَةِ وَقَبِيلَةَ ٱلْبِلَنْدُوا عَدُوَّةَ أَمِينِ بَاشَا ٱللَّدُودَةَ تَرَصَّدَتْ لِلْفَتْكِ بِهِ عِنْدَ مُرُورِهِ فِي أَرْضِهَا. وَكَذٰلِكَ سَائِرُ ٱلْأَعْدَاءِ عَلَى ضِفَافِ ٱلْبُحَيْرَةِ. فَضْلًا عَنِ ٱلْأَخْطَارِ ٱلَّتِي كَابَدَهَا عَلَى ٱلْمِيَاهِ بِهِيَاجِ ٱلْأَنْوَاءِ وَٱلْعَوَاصِفِ. ثُمَّ بَلَغَ مَحَلَّةَ سْتَانْلِي عَلَى صَعِيدِ كَاڤَالِي فِي ٦ شُبَاطِ سَنَةَ ١٨٨٥ وَحِينَئِذٍ قَصَّ عَلَى سْتَانْلِي أَنْبَاءَ تَمَرُّدِ ٱلضُّبَّاطِ وَٱلْجُنُودِ

عَلَى أَمِينِ بَاشَا . وَأَنَّ ٱلْمومأ إِلَيْهِ مَا بَرِحَ وَاجِماً مُتَرَدِّداً عَنِ ٱلْخُرُوجِ مِنْ إِقْلِيمِ ٱلْبُحَيْرَةِ مُتَعَلِّلاً بِمَا مُؤَدَّاهُ إِذَا رَضِيَ قَوْمِي ٱلذَّهَابَ ذَهَبْتُ مَعَهُمْ وَإِذَا لَبِثُوا لَبِثْتُ . أَمَّا كَاسَاتِي فَلَمْ يَنْفَكَّ عَنِ ٱلْقَوْلِ " إِذَا ٱنْطَلَقَ أَمِينُ بَاشَا ٱنْطَلَقْتُ وَإِذَا مَكَثَ مَكَثْتُ " . فَعِيلَ صَبْرُ سَتَانْلِي وَكَتَبَ إِلَى أَمِينِ بَاشَا يَحْثُهُ عَلَيْهِ بِٱلْجَزْمِ فِي ٱلْأَمْرِ إِيجَاباً أَوْ سَلْباً لِأَنَّ ٱلتَّطْوِيلَ عَاقِبَتُهُ مَشْؤُومَةٌ وَخِيمَةٌ . وَإِذَا بِرَقِيمٍ وَارِدٍ عَلَى سَتَانْلِي يُنَبِّئُهُ أَنَّ ٱلْبَاشَا رَاسٍ بِسَفِينَةٍ عِنْدَ ٱلسَّاحِلِ

فَٱلْتَقَى هٰذَانِ ٱلرَّجُلَانِ ٱلْمَرَّةَ ٱلثَّانِيَةَ وَدَارَتْ بَيْنَهُمَا مُحَاوَرَاتٌ وَأَبْحَاثٌ مُسْهَبَةٌ لَيْسَتْ مِنْ مَطَالِبِ هٰذِهِ ٱلْخُلَاصَةِ . وَبَعْدَ مُؤَامَرَاتٍ وَدَسَائِسَ وَمَكَايِدَ (مِنْ قِبَلِ ٱلْعَسَاكِرِ ٱلْمِصْرِيَّةِ وَقُوَّادِهِمْ) وَتَأَهُّبَاتٍ يَطُولُ شَرْحُهَا عَزَمَ سَتَانْلِي وَأَمِينُ بَاشَا وَجَمَاعَتُهُمَا ٱلْمُتَّحِدَةُ عَلَى ٱلْإِيَابِ . فَرَحَلُوا مِنْ كَافَالِي فِي ١٠ نِيسَانِ سَنَةَ ١٨٨٩ وَكَانَ عَدَدُ ٱللَّفِيفِ ٱلرَّاحِلِ مَعَهُمَا ١٥٠٠ نَفْسٍ بَيْنَهُمُ ٱلنِّسَاءُ وَٱلشُّيُوخُ وَٱلْأَوْلَادُ . ثُمَّ حَلُّوا بَعْدَ يَوْمَيْنِ فِي مَازَمْبُونِي حَيْثُ أَصَابَتْ سَتَانْلِي حُمَّى شَدِيدَةٌ أَشْرَفَ بِهَا عَلَى ٱلْمَوْتِ . فَتَوَلَّى ٱلدُّكْتُورُ پَارْك عِلَاجَهُ وَتَمْرِيضَهُ نَحْوَ شَهْرٍ

ثُمَّ استأنفت القافلة السير وبلغت نير سمليكي ينبوع النيل الأبيض وظلت تمشي في خط جنوبي قويم. وكان عثورهم على هذا النهر الكبير من الاكتشافات الخطيرة. لأن الجغرافيين كانوا يذهبون حتى الآن إلى أن فيكتوريا نيانزا أصل النيل ومخرجه الأول. أما هذا النهر فيضارع عرضه ثلثي بحيرة فيكتوريا ومعدل عمقه تسع أقدام.

ثم أخذ الركب يضرب في وادي سمليكي وهو من ثغور قبائل الأوامبا. وإذا بجبال رويتزوري الشاهقة المكسوة قممها بالثلوج الدائمة تلوح للأبصار. فأدرك ستانلي أن هذا الطود (١) هو جبال القمر نفسها الملمع إليها في جغرافية العرب منذ أربع مئة سنة وهي عندهم منابع النيل. أما هذا الخشام (٢) فيقطع خط الاستواء على مساحة شمالية وتنبع منه أنهر كبيرة تلتقي في البحيرة العظيمة التي منها مخارج النيل. وهو من أبدع أنهر المسكونة وأطولها وأعظمها. وقد كتب ستانلي إلى الجمعية الجغرافية الملكية في بريطانيا بما يأتي "إن فرع النيل الأعلى الغربي يخرج من هذا الجبل الملتحف بالثلوج ومنه تنبع أنهر وافرة

ٱلعَدَدِ تلتقي بِنَهرِ سَملِيكِي وَتَصُبُّ فِي بُحَيرَةِ ٱلبِرْتْ نيانزا ٱلعَظِيمَةِ. وَيَصُبُّ فِي هٰذِهِ ٱلبُحَيرَةِ أَيضًا فَرعُ ٱلنِّيلِ ٱلشَّرقِيِّ ٱلأَعلَى وَمِنهَا يَخرُجُ ٱلنِّيلُ ٱلحَقِيقِيُّ أَشهَرُ أَنهُرِ ٱلبَسِيطَةِ»

فَرَقِيَ ٱلمُلَازِمُ ستيرس هٰذَا ٱلجَبَلَ إِلَى ٱرْتِفَاعِ ١١٠٠٠ قَدَمٍ يَصْحَبُهُ ٤٠ نَفَرًا زنجباريُّونَ حَتَّى أَمسَى عَلَى مَسَافَةِ نَحوِ مِيلَيْنِ عَنْ ذُرْوَتِهِ ٱلثَّلجِيَّةِ. وَلٰكِنْ لَمَّا رَأَى ٱلأَخَادِيدَ(١) وَٱلْهُوَى تَعتَرِضُهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ مِنَ ٱللِّبَاسِ وَٱلزَّادِ مَا يَقُومُ بِحَاجَتِهِ وَحَاجَةِ رِجَالِهِ ٱنْكَفَأَ(٢) هَابِطًا. فَشَاهَدَ فِي سُفُوحِ هٰذَا ٱلجَبَلِ أَنهُرًا وَجَدَاوِلَ تَجرِي إِلَى سَملِيكِي ثُمَّ تَصُبُّ فِي ٱلبِرْتْ نيانزا. أَمَّا هٰذَا ٱلجَبَلُ ٱلكَبِيرُ فَبُرْكَانِيٌّ وَفِي قِمَمِهِ ٱلعُليَا وَٱلدُّنيَا فُوهَاتٌ بُركَانِيَّةٌ ٱنطَفَأَتْ نَارُهَا وَخَمَدَ هِيَاجُهَا مَعَ كُرُورِ ٱلزَّمَانِ. وَلَمْ يُعَايِنِ ٱلمُومَأُ إِلَيهِ عَلَى شَوَامِخِهِ حَيَاةً نَبَاتِيَّةً وَلَا حَيَوَانِيَّةً إِلَّا بِضعَةَ طُيُورٍ رَمَادِيَّةٍ تَضرِبُ إِلَى ٱلسَّوَادِ. خِلَافًا لِسَائِرِ ٱلجِبَالِ فِي خَطِّ ٱلٱستِوَاءِ وَلَا سِيَّمَا فِي غِينِيَا ٱلجَدِيدَةِ حَيثُ وَفَرَتِ ٱلطُّيُورُ ٱلبَهِيَّةُ ٱلأَلوَانِ وَبَعضُ صُنُوفِ ٱلنَّبَاتِ وَٱلحَيَوَانِ

ثُمَّ بَعدَ ٱجتِيَازِهِمْ وَادِي سَملِيكِي بَلَغُوا سَهلًا مُعشِبًا

نَتخللهُ أشجارُ الطلحِ[١] وغيرُها. وكانت أرضُ ذلك الوادي ترتفعُ تدريجًا إلى أن بلغت بعد سيرِ ٧٥ ميلًا علوَّ ألفِ قدمٍ عن البحيرةِ. وعند هذه النقطةِ يتصلُ طرفُ رويترُوري الغربيُّ بوادي النهرِ. وقد نسبَ ستانلي كثرةَ الاضمحلالِ[٢] في ألبرت نيانزا إلى رواسبِ نهرِ سمليكي الوافرةِ. ثمَّ وصلتِ القافلةُ إلى إقليمِ الأوكونجو والأوسونكورا الكثيرِ العشبِ والكلأِ. ومنهُ إلى بحيرةِ موتا زيغي (ألبرت أدورد نيانزا) حيثُ تصبُّ كلُّ الأنهرِ الواقعةِ في طرفِ مجتمعِ النيلِ الجنوبيةِ الغربيةِ. أمَّا بحيرةُ فيكتوريا فتصبُّ فيها حياضُ مياهِ النيلِ الجنوبيةُ الشرقيةُ. ثمَّ يصبُّ الجميعُ على خطٍّ موازٍ في بحيرةِ ألبرت نيانزا

وقد عانى ستانلي أثناء سيرِهِ في وادي سمليكي أشدَّ العناءِ والمقاومةِ لاغتصابِ سكانِهِ مع كعبة ريغا ملكِ أنيوبورُو الجافي الطباعِ الشديدِ البأسِ. أمَّا بلادُ هذا الأميرِ فواقعةٌ إلى غربيِّ رويترُوري. ثمَّ لمَّا بلغَ ستانلي كاتِف وهي ثغرٌ كبيرٌ على ساحلِ موتا زيغي الشماليِّ الغربيِّ مشى في جهةٍ شماليةٍ شرقيةٍ إلى شماليِّ البحيرةِ. ثمَّ وجَّه خطاهُ

جنوبًا ودخل ثغور الانياموبا كا فصادف من ملكها خير لقاء وترحاب . وسار بعدئذ في خط قويم الى بلاد الانكوري فالكاراجوي فالاوهيرا فالاوزنجه . وهذه البلاد كلها ملأى بالمدن والامصار والقرى وبالزروع من سائر الانواع والغياض الغناء والاشجار الباسقة من كل الاجناس والاصناف والمياه وقد ذكرت في رحلة ستانلي الاولى في التفتيش عن ليفنستن . فقبل ملوك هذه الثغور الركب بأفضل الوفادة (٢) والمجاملة . غير ان هواء هذه الاقاليم لم يلائم صحة المسافرين . فإن مئة وخمسين نفرًا أصيبوا بالحمى في يوم واحد

ولما كان ستانلي في أوزنجه اكتشف اكتشافًا آخر جديرًا بالاعتبار . وهو فرع جديد جنوبي غربي لبحيرة فيكتوريا نيانزا . زادت به مساحة هذه البحيرة ستة آلاف ميل مربع . أما طرف هذا الفرع الجنوبي فواقع في ٢ و٤٨ من الطول الجنوبي ولذلك تدانت بحيرة فيكتوريا من بحيرة تانكانيكا ١٥٥ ميلًا . والظاهر ان تأخير هذا الاكتشاف حتى الآن نشأ من وفرة الجزائر المعترضة الفاصلة هذا

الجون الجنوبي الغربي العظيم عن البحيرة الأصلية ولا غرو من أن أهمية هذا الاكتشاف تقوم بتقريب هاتين البحيرتين العظيمتين إحداهما من الأخرى فيتسنى بعدئذ ركوب المياه الأفريقية الداخلية من مصب النيل إلى مصب الزامبيسي وهذا موضوع خرج الآن من حيز الوهم والخيال إلى عالم الوجود والحقيقة. ولا يخفى أن السياح ركبوا الزامبيسي وبلغوا عليه نهر شيره ثم ركبوا النهر المذكور وقطعوا إلى نياسا ومن هنالك إلى تانكانيكا. وكانت طريق ستيفنسن الصلة بينهما. أما الآن فلما عرفوا ان بحيرة فيكتوريا التي كانوا قد أتوها من الخرطوم في النهر مرارًا أقرب إلى تانكانيكا مما كانوا يظنون تشددت آمال محبي الاستعمار في أفريقية الراغبين في تمدين همج تلك الأصقاع والانتفاع بأقاليمها الخصيبة وهزتهم أريحية الحمية والتحمس والابتهاج. فإذا استولت مملكة متمدنة على تانكانيكا وحياضها الشرقية والشمالية وحفرت قناة لوصل البحيرتين تلاشت أعظم العوائق والمصاعب من أمام استعمار باطن أفريقية الفسيح برمته. لأن تلك المسالك

في المجاهل الشاسعة تغني الخيل والبغال وتجعلها عديمة الجدوى. أما الطرق المائية فمن خير وسائل الراحة والاتصال في الأسفار والمشروعات التجارية. وعلى ذلك جدد ستانلي في أفئدة الراغبين في خير هذه القارة رجاء الفلاح والعمران بتقريبه هاتين البحيرتين الواحدة من الأخرى تلك آمال كانت قد ذوت غصونها بسقوط هذه الأقاليم الاستوائية تحت جور الهمج المتوحشين

ثم وصل ستانلي وجماعته إلى أوسامبيرو في ٢٥ آب فوجد بيعة مسيحية لمرسلي الكنيسة الإنكليزية واقعة إلى جنوبي بحيرة فيكتوريا حيث كان المستر ماكي عاملاً منذ طرده من أوغاندا وكان هذا الموقف ختام مراحل القافلة في الأقطار المجهولة

قال المستر ستانلي في رسالة بعث بها إلى المستر مارتِسن "وصلنا أخيراً كنيسة دلنا صليب قبتها على أنا في مهجر مسيحي. فأيقنا بأننا أمسينا في ضواحي العالم المتمدن. ثم نزلنا ضيوفاً بالرحب والسعة على المستر ماكي. فأكرم وفادتنا ومكثنا عنده خمسة عشر يوماً تمتعنا في خلالها

بخيرٍ وراحةٍ وهناءٍ بعد عناء الأسفار الشاقة"

وسرّ ستانلي بأن رأى أحمال البضائع والطروس والرسائل تنتظره في هذا المكان منذ ثمانية عشر شهراً. ثم طرق هؤلاء السياح بلاد الأسكوما الجنوبية المتاخمة الأوكوكو ومن ثم إلى مباوامبوا وهي من الأقطار الداخلة تحت حماية ألمانيا. وهنا يجدر بنا أن نلخص بعض ما قاله هذا الرحالة الشهير بشأن هذه الاكتشافات الجديدة في التفتيش عن أمين باشا

إنه فضلاً عن وصولنا إلى الغاية المرغوب فيها وإتمام واجباتنا الأصلية الخطيرة (أي وجود أمين باشا) أسعدنا الحظ بأن فزنا باكتشافات جغرافية تذكر منها انجلاء حقيقة الأرويمي من منبعه إلى مصبه. واكتشاف غاب الكونغو العظيم الذي تعدل مساحته مملكتي فرنسا وإيطاليا معاً بأشجاره المتنوعة الأجناس والأنواع ونباته وحيوانه وقزمه الخ. ثم عرفنا موقع جبال القمر معرفة لاريب فيها. ورأينا روينزوري ملك الجبال المتطاول فوق الغيوم المتعمم بالثلوج الدائمة وتفحصنا بعض سلاسله وسفوحه. وعلمنا

أَنَّ قِمَّةَ ٱلْمُسَمَّاةِ "غُورْدُونْ. وَيِنْتْ. وَمَاكِنْ" لَيْسَتْ
سِوَى حُرَّاسٍ جَبَابِرَةٍ تَحْرُسُ مَدَاخِلَ سَيِّدِ ٱلْجِبَالِ وَنَحُومَةِ
ٱلْقُصْوَى. وَقَدْ قَطَعْنَا سَلَاسِلَ أَطْوَادٍ وَقِيرَةٍ تَفْصِلُهَا بِقَاعٌ
خَضْرَاءُ نَضِرَةٌ تَتَمَنَّى رُعَاةُ سَائِرِ ٱلْبِلَادِ لَوْ سُمِحَ لَهُمْ بِتَسْوِيمِ
مَوَاشِيهِمْ عَلَى أَدِيمِهَا. وَقَدْ تَلَذَّذْنَا تَحْتَ أَشِعَّةِ شَمْسِ خَطِّ
ٱلِٱسْتِوَاءِ بِأَكْلِ ٱلتُّوتِ وَٱلْمَوْزِ. وَأَطْفَأْنَا أُوَارَ ظَمَإِنَا بِمِيَاهٍ
بَارِدَةٍ تَتَرَقْرَقُ كَٱلْبِلَّوْرِ نَابِعَةٍ مِنْ مَنَاجِ ٱلْجِبَالِ. وَتَمَكَّنَّا مِنْ
مَعْرِفَةِ زِيَادَةِ سِتَّةِ آلَافِ مِيلٍ مُرَبَّعٍ مِنَ ٱلْمَاءِ إِلَى فِيكْتُورِيَا
نِيَانْزَا. وَلَا بُدَّ أَنْ يُفِيضَ عَالِمُنَا ٱلطَّبِيعِيُّ ٱلْكَلَامَ عَنْ أَنْوَاعِ
ٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلطُّيُورِ وَٱلنَّبَاتَاتِ ٱلْجَدِيدَةِ ٱلَّتِي كَشَفْنَا عَنْهَا ٱلْقِنَاعَ.
وَكَذٰلِكَ سَيُنْبِئُ طَبِيبُنَا عَنْ هَوَاءِ هٰذِهِ ٱلْبِلَادِ وَأَقَالِيمِهَا
وَتَرْكِيبِ تُرْبَتِهَا ٱلْجِيُولُوجِيِّ إِلَخْ. وَلَوْ رُمْنَا تَعْدَادَ مَا ظَفِرْنَا بِهِ
مِنْ كُنُوزِ ٱلْمَعَارِفِ ٱلْجَدِيدَةِ فِي حُقُولِ هٰذِهِ ٱلِٱكْتِشَافَاتِ
ٱلْغَيْرِ ٱلْمُنْتَظَرَةِ لَطَالَ بِنَا ٱلزَّمَانُ. وَلَا بُدَّ أَنْ يَرَى ٱلْقَادِمُونَ
إِلَى هٰذِهِ ٱلْأَصْقَاعِ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْمَرْكَزِيِّ بَيْنَ خَطِّ ٱلِٱسْتِوَاءِ
وَٱلْبُحَيْرَةِ غَرَائِبَ وَفَوَائِدَ أُخْرَى جَدِيرَةً بِٱلذِّكْرِ وَٱلِٱعْتِبَارِ.
وَلَا جَرَمَ أَنَّ هٰذِهِ ٱلرِّحْلَةَ كَانَتْ مِنْ أَعْجَبِ أَسْفَارِي فِي

أفريقية وأغربها"

ثم بلغت التجريدة مصوع في اليوم الأخير من تشرين الثاني. ووصلت في أول كانون الأول إلى مبيكي وهي قرية تبعد عن الساحل أربع مراحل فصادف ستانلي هنا وفداً بعث به صديقه القديم مدير "النيويورك هرالد" يحملون له المقوّيات ووسائل الراحة. وكذلك أمين باشا لقي ضابطاً ألمانياً يحمل له مثل تلك الهدايا. وقنصل إيطاليا في زنجبار أرسل مثل ذلك للقبطان كاساتي. وتواردت عليهم جميعاً رزم الرسائل والرقم. وما بلغت التجريدة زنجبار حتى أمست موكباً حافلاً عظيماً. وكانت التهاني البرقية تتوارد تباعاً يحملها السعاة والمكارون.

ثم في ٤ كانون الأول لاقى الماجور ويسمان المقيم حينئذ في باكامويو لحماية المصالح الألمانية المستر ستانلي ورفيقه أمين باشا على ضفاف نهر كيهاني. فامتطى هذان النبيلان في الصباح التالي جوادين مطهمين قدمهما لهما الماجور المومأ إليه وسار في معيتهما. ثم دخل الجميع معاً باكامويو وهي ميناء زنجبار. وكانت المدينة مزدانة بالأعلام

وَأَغْصَانِ ٱلنَّخْلِ وَأَقْوَاسِ ٱلظَّفَرِ. وَكَانَ ٱلْقَوْمُ يُحَيُّونَ سْتَانْلِي وَأَمِينَ بَاشَا تَحِيَّاتِ ٱلْهُتَافِ وَٱلتَّرْحَابِ. وَخَرَجَ لِمُلَاقَاتِهِمَا ٱلْقُوَّادُ وَٱلْكُبَرَاءُ وَٱلْأَعْيَانُ مِنْ قِبَلِ إِمْبَرَاطُورِ أَلْمَانِيَا وَمَلِكَةِ إِنْكِلْتِرَا وَمَلِكِ ٱلْبَلْجِيكِ وَٱلْمَجَامِعِ ٱلْعِلْمِيَّةِ. ثُمَّ أُطْلِقَتِ ٱلْمَدَافِعُ تَبْشِيرًا بِقُدُومِهِمَا. وَفِي ٱلْمَسَاءِ أَدَبَ ٱلْمَاجُورُ وِيسْمَانُ مَأْدُبَةً أَنِيقَةً لِضَيْفَيْهِ ٱلْجَلِيلَيْنِ سَقَطَ فِي خِلَالِهَا مِنْ شُؤْمِ ٱلطَّالِعِ أَمِينُ بَاشَا مِنْ طَاقَةِ ٱلرَّدْهَةِ[1] ٱلْعُلْيَا ٱلْمُرْتَفِعَةِ عَنِ ٱلْأَرْضِ نَحْوَ ٢٠ قَدَمًا فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ وَتَهَشَّمَ وَأُصِيبَ بِجِرَاحٍ خَطِرَةٍ أَشْرَفَ بِهَا عَلَى ٱلْمَوْتِ. لٰكِنَّهُ أَخَذَ يَتَعَافَى تَدْرِيجًا تَحْتَ عِنَايَةِ ٱلدُّكْتُورِ بَارْكَ وَٱلطَّبِيبِ ٱلْأَلْمَانِيِّ وَبَعْدَ عَشَرَةِ أَيَّامٍ حَكَمَ ٱلطَّبِيبَانِ بِزَوَالِ ٱلْخَطَرِ

وَكَانَتْ تَتَوَارَدُ عَلَى سْتَانْلِي وَأَمِينِ بَاشَا فِي خِلَالِ ذٰلِكَ رَسَائِلُ ٱلتَّهْنِئَةِ ٱلْبَرْقِيَّةِ مِنْ سَائِرِ ٱلْأَنْحَاءِ. وَأَقَرَّ ٱلْعَالَمُ ٱلْمُتَمَدِّنُ بِفَضْلِ ٱلرَّجُلِ ٱلْأَوَّلِ ٱلَّذِي قَامَ بِأَعْمَالٍ تَكَادُ تَفُوقُ طَاقَةَ ٱلْبَشَرِ. وَمُدَّتْ أَيْدِي ٱلِٱنْعِطَافِ وَٱلرِّقَّةِ نَحْوَ ٱلرَّجُلِ ٱلثَّانِي ٱلطَّرِيحِ عَلَى فِرَاشِ ٱلْأَسْقَامِ فِي حِينٍ كَانَ يَجِبُ أَنْ تَدُورَ بِهِ كُؤُوسُ ٱلْأَفْرَاحِ وَٱلْمَسَرَّاتِ. وَإِذَا رُمْنَا

إفاضة الكلام في ما جرى لستانلي في زنجبار ومصر وسائر العواصم الأوربية من التجلة والاحتفاء والكرامة اللائقة بملك جليل الشأن لشغل ذلك مجلداً كاملاً. لكنا نجتزي عن الإسهاب برسالة تهنئة برقية وردت له من جلالة ملكة إنكلترا وهي واحدة من ألوف الرسائل التي طارت إليه على أجنحة البرق من ملوك وأمراء وعلماء ونبلاء يشار إليهم بالبنان. أما مؤدى الرسالة المنوه عنها فكما يأتي

"إن أفكاري لا تفتأ معك ومع أتباعك البسلاء الذين قد انتهى زمان مشقاتهم وأخطارهم فأهنئ الجميع تهنئة قلبية. وأهنئ أيضاً الزنجبار بين الشجعان الباقين في قيد الحياة الذين أبدوا ولاء وجلادة كهذه في رحلتكم العجيبة"

---

(١) يفرغ (٢) القصر وكل بناء عال (٣) الخيل والبغال والحمير (٤) مكان كثير العشب (٥) ثقيلة باهظة (٦) بُعد (٧) مبالغة في القتال (٨) خديعة واغتيال (٩) مات (١٠) يطلبهم (١١) اشجار عظيمة (١٢) غيضة او شجر كثير ملتف (١٣) قصار القامة (١٤) مكان الجوع (١٥) يفسدون (١٦) انضمّ وانزوى (١٧) الجبل العظيم الطويل (١٨) جمع أخدود وهي حفرة مستطيلة

(١٩) رجع (٢٠) جبل (٢١) شجر عظام من شجر العضاة ترعاها الابل والطلع والموز (٢٢) الماء القليل على الارض لا عمق له (٢٣) قدوم وورود (٢٤) هشاشة او خصلة يرتاح بها للندى (٢٥) ذبلت (٢٦) جمع رقيم اي كتاب او مكتوب (٢٧) بارعين في الجمال (٢٨) البيت الواسع (٢٩) تكتفي

حالة سوريّة العلميّة

جنانُ العلمِ فردوسُ الكمالِ وقفرُ الجهلِ هاويةُ الضلالِ
وكثرُ العقلِ معرفةٌ تنادي هنيئاً للذي يبغي نوالي
وفخرُ المرءِ بالدنيا احتواهُ على حُسنِ المحامدِ والخصالِ
ومحورُ رفعةِ الاوطانِ علمٌ يدورُ بهِ هُدًى ونظامُ حالِ
وأفضلُ ما جنى فطِنٌ لبيبٌ ثمارُ حقائقٍ لا كسبُ مالِ
وغايةُ خلقِ بارينا لعبدٍ إذاعةُ مجدهِ السامي الجلالِ
فبالآداب تبتهجُ البرايا وتسفرُ عن محيّاً ذي جمالِ
فهبوا للمعارف مجتنيها ونهزأ بالمصاعب لا نبالي
ولا تأذن قوانا بالتراخي ولا تشكُ النفوسُ من الملالِ
ألم تكُ ارضُنا للعلم قُطباً وللآداب في الحِقَبِ الخوالي
ألم ترفعْ صروحُ العلمِ فيها لواءَ عزٍّ عن ابهى المثالِ
وكم فاقت مدارسُنا قديماً بجمعِ مكاتبٍ مثلِ الرمالِ

وكم تاهت منابرُنا وباهت   بارباب الفصاحةِ في المقالِ
وسوريّا رقت قدماً لمجدٍ   علا فلكَ الدراري في المثالِ
حبتها منّةُ الباري بقطرٍ   خصيبٍ ذي رخاء واعتدالِ
ولكنَّ الزمانَ بغى عليها   فبادرتِ المعارفُ لارتحالِ
وسارَ العلمُ يبغي قطرَ غربٍ   فقابلهُ بعزٍّ واحتفالِ
وحيّتهُ عشائرُهُ بجهدٍ   ترفّع عن فتورٍ او كلالِ
وقالت يا حياةَ العقلِ اقبِلْ   نجلّك بالكلامِ وبالفعالِ
ونقريك القلوبَ تحلُّ فيها   محلاً بالكرامةِ والدلالِ
نناضلُ عنك يا خلّاً وفيّاً   بمرهفِ عزمنا حقَّ النضالِ
مدارسنا لعزّك قد أُقيمت   مطابعُنا لنشرك باشتغالِ
واسرارُ الطبيعةِ قد تجلّت   عرائسُها تنادي للوصالِ
وكم طرحت مناجمُها اليهم   كنوزاً في الوهادِ وفي الجبالِ
وكم ولجت عقولٌ في اراضٍ   وعادت بالجواهرِ واللآلي
عناصرُها تجارت خادماتٍ   لتسبي العقلَ بالسحرِ الحلالِ
غدت سبلُ البحار له شهوداً   كذا طرقُ البراري والتلالِ
تطيرُ بها طيورٌ من بخارٍ   تجولُ لنشر اشغالِ الاهالي
تفيضُ بضاعةً من كل جنسٍ   تقومُ برفعِ اثقالٍ ثقالِ
وكم طرحت معاملهم اثاثاً   بأبخرةٍ والآتٍ عجالِ
وكم ربحت تناجُها نقوداً   تشيدُ مقامَ اوطانٍ غوالِ
وسلكُ البرقِ ضمَّ شتاتَ بعدٍ   فقرّب بيننا بُعدَ المجالِ
وبات النورُ يجري في قناةٍ   وحاكى المرءُ طيراً في الاعالي
فلاسفةٌ سمت بشهيرِ فضلٍ   جبابرةٌ حكت أُسدَ الدحالِ
فأينعت العلومُ رفاهَ حالٍ   غدا يطأُ الجهالةَ بالنعالِ
وها هي قد اتت تسعى الينا   تنادي في الحمى يا للرجالِ

تمتّعْ صاحِ بي وتولَّ منّي	غنًى لك لم يكنْ يخطر ببالِ
ودونكَ في ابتغائي فرطَ جهدٍ	تنالُ به وبي حسنَ المآلِ
ودعْ ما كنتَ تألفُ من خمولٍ	سقطتَ به وأخلاقٍ كسالِ
فقوموا يا بني الاوطانِ نلقى	صديقتَنا القديمةَ باقتبالِ
وننزلُها الغداةَ قلوبَ قومٍ	لفرقتِها تلظّت باشتعالِ
وجدّوا في العلوم تحرزوها	فما تبقي العلومُ على الوبالِ
ودونكمُ الصنائعَ انَّ فيها	نجاحًا للعبيدِ والموالي
بميدانِ الصنائعِ خيرُ نصرٍ	مبينٍ لا بميدانِ القتالِ
يفوقُ سلاحُها عملاً ونفعاً	سلاحَ المشرفيّاتِ العوالي
اذا حسنت صناعتُنا كُفينا	مشقّاتِ اغترابٍ وانتقالِ
وباتَ الفقرُ مقتولاً وحُلّت	سلاسلُ عسرنا خيرَ انحلالِ
أَما بالغربِ للشرقِ اقتداءٌ	أَما يجدونا الغرُّ الأُوالي
بعيشك هل رأيتَ ربوعَ قومٍ	تلذُّ بلا سباقٍ او نزالِ
فأزمنةُ الغباوةِ قد تقضّت	وعصرُ النورِ أقبلَ كالهلالِ
فقط يا قومُ يلزمنا ثباتٌ	وكدٌّ مع نجاحٍ واحتمالِ
وإحكامُ الصنائعِ باعتناءٍ	وإتقانُ الفنونِ على التوالي
فيصبحُ ذا الهلالُ ينيرُ بدرًا	يضيءُ بلا خسوفٍ او زوالِ
ونرجعُ ما خسرناهُ بجهلٍ	لأنَّ الدهرَ كالحربِ السجالِ
تبشّرنا المدارسُ قائلاتٍ	علاجي صحّةٌ بعد اعتلالِ
تبشّرنا الجرائدُ هاتفاتٍ	غذائي قوّةٌ بعد الهزالِ
مجلّاتُ العلومِ تذيعُ فيها ال	فوائدَ دونَ دعوى وانتحالِ
وترقيةُ الزراعةِ خيرُ امرٍ	نباشرُ درسهُ لجنى الغلالِ
وشركاتُ السراةِ بها فلاحٌ	تُضَمُّ بها القوى دونَ انحلالِ
بأعمالٍ يكلُّ الفردُ عنها	وتقصيرِ المسافاتِ الطوالِ

وترجمةٌ لتأليفٍ مفيدٍ يشدُّ لهُ النُّهى اقوى الرحالِ
خزائنة تعي أسمى المعاني مطالبهُ تفي كلَّ السؤالِ
فلا تقبل لموطننا مقامًا تراشقهُ الغباوةُ بالنبالِ
فما مرقاتنا للعزّ الاّ تآزُرُنا معًا في كلِّ حالِ
على طلبِ التقدُّمِ والترقّي بحبٍّ واتّحادٍ وامتثالِ
وشحذِ سِنانِ همّتنا كسيفٍ صقيلٍ قاطعٍ قطعَ النصالِ
وحثِّ مطيّنا بالجدّ حتى يوافينا النجاحُ بلا مطالِ
ونغنمُ من صناعتنا كنوزًا بظلِّ مليكنا مولى الموالي
مليكٌ في عدالتهِ اضاءت شموسُ العلمِ في فلكِ المعالي
وقد أحيا المعارفَ في حمانا فعاد الجهل في شرِّ النكالِ
فنسأل ربّنا يبقيه دومًا كمال الفخرِ بل فخر الكمالِ

فهرس

الجزء الثاني

من

قلادة النحر في غرائب البرّ والبحر

* للدلالة على انهُ مشكَّل + للدلالة على انهُ فيهِ رسوم